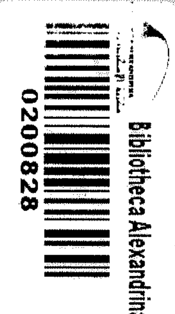
محمود عبيدات

أحمد مريود

١٨٨٦-١٩٢٦



قائد ثورة الجولان
نوب لبنان وشرق الأردن





RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

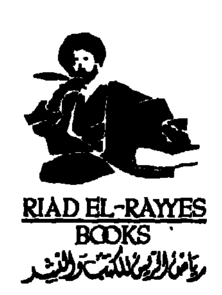


أحمد مريود
١٨٨٦-١٩٢٦

محمود عبيدات

أحمد مريود
١٨٨٦-١٩٢٦

قائد ثورة الجولان
وجنوب لبنان وشرق الأردن



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

AHMAD MRAYWED
(1886 - 1926)

LEADER OF GOHAN, SOUTH LEBANON AND TRANS-JORDAN REVOLUTION

BY

Mahmoud Oubaydat

First Published in 1997

LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 209 5

الغلاف: التصميم لمحمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٧

الإهداء

إلى المناضلين المجاهدين الشرفاء من الرعيل العربي الأول

إلى الذين سقوا بدمائهم تراب الوطن وعززوا في ذاكرتنا

شرف الانتماء القومي.

إلى الذين رفعوا شعار الثورة العربية الدائمة، وكانوا القدوة

في التضحية والفداء ونكران الذات.

إلى كل مناضل كان السباق في بذل روحه من أجل الأمة العربية

وأهدافها وحرية قرارها.

أهدي كتابي هذا.

«محمود عبيدات»

المحتويات

الفصل الثالث

النضال والكفاح في
مهد الاستقلال الوطني ١٩١٨ ـ ١٩٢٠

الفصل الرابع

النضال الوطني من الأردن ضد
الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ ـ ١٩٢٤

الفصل الخامس

العودة إلى سورية ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦

الفصل السادس

التعبئة الشعبية للثورة

الفصل السابع

مسارات ثورة جباثا الخشب

تقديم

الثائر الكبير والمجاهد البطل
أحمد مريود قائد الثورة

بقلم أديب الصفدي

صاحب جريدة «الناقد» الدمشقية الأسبوعية

فما أنت وهذا الجلال يقع ناظرك عليه فلا تجد في نفسك قدرة من بعد إلاّ أن تخشع وإلاّ أن تعلم أنك بين يدي رجل يطرق لصمته الرجال وكأن الله مازّ القائد أحمد مريود من بين رفاقه وأقرانه بتفكير ونضوج رأي وزاد بأن كان السيف المسلول والإرادة العاملة والقوة التي لا تلين.

لقد امتلك أحمد مريود كل مقومات الزعيم القائد والكلام في أحمد يعذب للنفوس التي عرفته وما عرفت فيه إلاّ الإخلاص العميق لقضايا الوطن؛ وهو طويل التفكير ناهض بالعمل لا يستقيم الأمر إلاّ إذا رعاه وكأن شأناً لن يصل إلى غايته إلاّ إذا عاناه بنفسه وقام عليه. وهو في الإجهاد للنفس وفي ذيّاك العمل المتواصل لا يفخر ولا يمن ولا يستكثر.

جريدة «الناقد» الدمشقية الأسبوعية

العدد ١٥ بتاريخ ١٦ أيار/مايو سنة ١٩٣٠

من أقوال أحمد مريود

قال أحمد مريود قائد الثورة مخاطباً جماهير المجاهدين الذين أوقفوا جميع أشكال الهيمنة العثمانية ثم حاربوا بقيادته الاستعمار الغربي الفرنسي البريطاني منذ عام ١٩١٩ وحتى يوم استشهاده في نهار يوم ٣١ أيار/ مايو سنة ١٩٢٦.

«بسم الله العلي القدير المنتقم الجبار

نعلنها عالية مدوّية كلمة الثورة:

لا للهيمنة العثمانية

لا للاستعمار الغربي الفرنسي البريطاني

لا للوصاية الأميركية ولكل أشكال الهيمنة الأجنبية

ونقولها صريحة مباركة كلمة الثورة:

نعم لوحدة بلاد الشام

نعم للوحدة بين سورية ومصر .. نعم للوحدة العربية الشاملة

تأتي تتويجاً لكفاحنا

بسم الله العلي القدير المنتقم الجبار

نعلن الثورة

و

نواصل جهادنا.. نواصل ثورتنا

حتى الشهادة وتحقيق النصر».

أحمد مريود

المقدمة

في مطلع هذا القرن، بدأت يقظة الأمة العربية، وأخذ الرواد والقادة والمجاهدون من أبنائها يعملون لتحقيق حريتها ووحدتها، فخاضوا سلسلة من المعارك المتصلة، وعاشوا حياة التشرّد والمنافي والمعتقلات، وأثناء مناجزتهم الأعداء سقط كثيرون منهم على أرض المعركة فغسلوا بدمائهم الزكية تراب الوطن المقدس دفاعاً عن حرية الإنسان العربي وشرف الانتماء القومي. وليس شهيدنا البطل الذي يسجل هذا الكتاب سيرة حياته النضالية والجهادية، سوى النموذج الحيّ لقوافل الأحرار الذين أبوْا الاستكانة للذل، فنفروا يطلبون الموت كي توهب لأمتهم الحياة بعزة وكبرياء.

لقد اخترت الشهيد أحمد مريود ليكون عنوان كتابي الثالث من سلسلة «مشاهير في التاريخ العربي» لأنه يمثل القدوة والرمز والعظاء في التاريخ العربي المعاصر، ولأن سيرته منذ النشأة حتى الاستشهاد، سيرة بطل بكل ما تملك هذه الكلمة من حقيقة، وحقيقة هذا القائد تكمله في أنه عمَّد بطولته بالدم ونار البارود وليس... بالكلام وحده.

عشتُ مع «أبي حسين» بالروح والرؤيا والخيال، فكنت أمام ظاهرة كفاحية لا تتجدد في الزمن إلاّ ما ندر.

وُلد أحمد مريود في (جباثا الخشب عام ١٨٨٦) زمن القهر العثماني للأمة العربية، فتربى في بيت آمَنَ بأن شجرة الحرية لا تسقى إلاّ بالدماء، وشب على عقيدة الكفاح والجهاد كما أراد له والده الشيخ موسى حيدر مريود، كما تربى على مبادىء الصدق ـ والوفاء كما أرادت له والدته الفاضلة. فكان الشاب المتزن بين أقرانه، المجتهد بين زملائه، القدوة في عشيرته وأهله ودائرته، الفارس العملاق في كل ساحات النضال.

لم يرث المجاهد الكبير أحمد مريود الثروة الفلاحية الكبيرة كتلك التي كانت لأجداده أمراء البلقاء فحسب بل ورث معها كل الجاه الاجتماعي كما ورث الجاه الوطني والكفاح القومي. وعن أبيه وأجداده ورث كراهية الأتراك، فالتاريخ يشهد أن آل مريود حاربوا الأتراك إلى جانب إبراهيم باشا، وحاربوا أحمد باشا الجزار دفاعاً عن حرية الإنسان العربي وكرامته. من هذا المنطلق أولع المجاهد أحمد مريود بقراءة التاريخ، وكان شديد الشغف بمطالعة تاريخ العرب في عصورهم الزاهرة، تراود نفسه الآمال في استعادة أمجادهم الضائعة، فكان همّه القومي أن يرى الأمة العربية وقد استعادت هيبتها ومجدها لذلك كان يقول دائماً: «العرب أمة واحدة لزم توحيدها ولو وقفت قوى الأرض دوننا».

في زمن الحكم العثماني لم يحمل السلاح فحسب بل حمل القلم، وكتب به الكلمة الصادقة على صفحات جريدة «الجولان» الأسبوعية التي يصدرها ويشرف على تحريرها من بعد والده المناضل موسى مريود... كان صوته، يمثل صرخة الظلم والقهر، وكانت معاناته لإنهاء معاناة الجائعين والمحرومين، وكانت سعادته في رؤية النضال من أجل المبادىء والقيم والثوابت العربية.. لم ترهبه مشانق جمال السفاح، ولم توقف حركته عصابات المباحث والمخابرات العثمانية، ولم تُغرِه أيضاً ترغيبات الوالي التركي بالألقاب والمناصب والجاه الرسمي، رفض ـ كما رفض والده ـ ألقاب: الأفندي، والباشا، والأمير، رغم أنه كان الأفندي والباشا والأمير في نظر الشعب والجماهير والأمة. وبالوراثة رفض رحلات الضيافة والاستجمام، وراحة البال، إلى القسطنطينية، فاستبدلها برحلات

الحرمان والمعاناة، في ظلمة الليل ومشياً على الأقدام، من جباثا الخشب إلى درعا إلى كفرسوم، إلى الزرقاء، إلى الموقر، إلى الجوف ومعه في رحلة العذاب هذه، رجال كانت مشانق السفاح بانتظار رقابهم، فأنقذهم من الموت، ليعود من رحلته إلى سجن عاليه في لبنان، حيث قضى فيه فترة الحرب العالمية الأولى، عندما أفرج عنه قبل انتهائها بقليل.. ولكن إلى أين؟؟ إلى الساحة النضالية نفسها ـ رغم تشعبها ووعورة طرقها ـ لكن هذه المرة بسلاح جديد، وضد مستعمر أكثر لؤماً وحقداً وأطماعاً، إنه الغرب الذي استحق قولة المثل العربي، «إتقِ شرَّ من أحسنت إليه»، إنه المستعمر البريطاني ـ الفرنسي المشترك بالحقد واللؤم والخديعة ضد الوطن العربي، وأحلامه بالحرية والاستقلال..

كان أبو حسين شخصية وطنية قيادية في العهد الوطني ـ الفيصلي وعضواً بارزاً في المؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سوريا الطبيعية. وعندما ترامت أنباء تقسيم الغنائم بين الحلفاء، ترك الزعيم الوطني دمشق، وقرر أن يهب الجولان بقيادته إلى المقاومة، حيث كان يتمتع بنفوذ كبير، لتنظيم وسائل الدفاع في تلك المنطقة، فأعلن ثورته في ١٩١٩ ضد الطامع الفرنسي، وامتدت ثورته في العرقوب وجبل عامل ومنعت الإفرنسيين عن الجنوب اللبناني. وصّد جيوش الاستعمار الافرنسي عن الجنوب والجولان ودمشق.

كان الزعيم الوطني أحمد مريود، يعتقد بقناعة المجاهد، أن البطولة هي العمل المتفوق، غير العادي، والبطل الوطني، هو الذي يؤمن بالجرأة الخارقة، ويغلب عليه طابع التضحية والفداء، وهو الإنسان الذي يرتفع عن غيره بالبذل والعطاء ونكران الذات، كأن يجود بنفسه من أجل وطنه وكبرياء أمته.. هكذا كان يعتقد مريود، وبالفعل هكذا كان.

وعندما ظهر الخطر الفرنسي على سوريا الداخلية بعد قدوم الجنرال غورو، تولى من جديد قيادة الثورة والتنظيمات الجهادية لمناوأة الفرنسيين، فأدرج اسمه في قائمة المحكوم عليهم بالإعدام، بعد معركة ميسلون واحتلال دمشق.

نزح إلى الأردن، واتخذ من بلدة «كفرسوم» قاعدة مركزية لكفاحه وجهاده، ومنها وبدعم من أهلها، بدأتْ مرحلة جديدة من النضال والكفاح المسلح ضد المحتل الفرنسي، فخاض المجاهدون باسم الثورة الدائمة التي رفع شعارها أحمد مريود، مئات المعارك والمواقع البطولية، وكانت معركة مهاجمة موكب غورو ومحاولة اغتيال غورو حدثاً عظيماً. وفي الوثائق الفرنسية. يقول الجنرال كاترو:

«ليس هناك من شك في أن الذي دبّر الاعتداء هو أحمد مريود، الوطني السوري المتطرف الذي لجأ إلى إربد. وأقام على الحدود نفسها. وقد عرف من عملائه موعد زيارة غورو للقنيطرة، وقرر المحاولة.. وكان يعتقد أن الاغتيال سوف يعطي نتائج ممتازة بالنسبة إلى أهل الاستقلال».

ولمجموعة من الأسباب، أوردنا تفصيلاتها في الفصل الرابع، غادر الزعيم الوطني أحمد مريود الأردن إلى الحجاز سنة ١٩٢٤. وفي العام نفسه انتقل إلى العراق[1] وفي نهاية عام ١٩٢٥ عاد إلى أرض الوطن، مسقط الرأس في جباثا الخشب، ليجدد الثورة السورية (التي فجرّها عام ١٩١٩) ويعيد لها روحيتها الكفاحية النضالية من منطلق الثورة الشاملة، وعلى قاعدة الثورة الدائمة التي رفع شعارها سنة ١٩١٩، بعد أن حرّر بلدة «مرجعيون» من الجيش الفرنسي، ورفع فوق قلعتها ومبانيها العلم العربي..

ويعلن الزعيم الوطني أحمد مريود، ثورته الثانية، ويتمكن وبسرعة فائقة من أن يؤلف كتائب الزحف المقدس ـ من أهالي الغوطة الأبطال، ومن أهالي أحياء دمشق الثوار، ومن أهالي قرى الحرمون والجولان. وبهذه الكتائب الشعبية المجاهدة تمكن الزعيم أحمد مريود، أن يرفع لافتة الثورة الدائمة من جباثا الخشب، عاصمة ثورة مريود. وكتب على جدران

---

(١) لقد كان الأردن والعراق وسورية ولبنان ساحة متكاملة وكان المناضلون في سبيل حرية العرب واستقلالهم أعضاء في جمعية الفتاة العربية وحزب الاستقلال وكان طبيعياً أن يفيدوا من تلك الاقطار عندما تضيق بهم اقطار أخرى بسبب شراسة الاستعمار البريطاني والفرنسي.

الزمن، وصفحات التاريخ قسم الثورة، أن تبقى مستمرة حتى الاستقلال وجلاء المستعمر الفرنسي عن أرض الوطن. واستشهد الزعيم الوطني. وقدمت جباثا الخشب أغلى شبابها، وبقيتْ كما أراد قائد الثورة الشعلة المتوقدة تضيء درب الجهاد المقدس حتى تحررت سوريا من الاستعمار الفرنسي بعد نضال استمر حوالى ربع قرن من الزمن.

إن ميسلون ويوسف العظمة، وجباثا الخشب وأحمد مريود، علامات متشابهة ومميّزة في التاريخ العربي المعاصر بعامة، وتاريخ الثورة السورية بخاصة إلاّ في حالة واحدة، وهي، أن معركة ميسلون كانت بقرار سياسي رسمي، وبجيش نظامي، وبقيادة وزير الحربية، أما معركة جباثا الخشب، فكانت بقرار شعبي، وبمجاهدين شعبيين ثوريين، وبقيادة مجاهد اكتسب الزعامة الوطنية بأفعاله وأعماله وكفاحه حتى الموت من أجل الثورة. وهذه الحالة، هي التي شكّلت الأسباب التي جعلت أن تكون «ميسلون» أولاً في مسيرة النضال العربي السوري ضد الانتداب الفرنسي، والمفخرة على المستوى الرسمي والحكومي والشعبي حتى طغت أحداثها ـ رغم زمنها القصير ـ على أحداث كانت بحجمها. وهذه المشروعية في الانتشار تعود إلى سلطة وسائل الإعلام الرسمي، التي تولي الأحداث النضالية الرسمية نصيباً أكثر من الأحداث النضالية الشعبية، فمعركة ميسلون العظيمة يحتفل بذكراها سنوياً، أما معركة جباثا الخشب وغيرها من المعارك الشعبية الأخرى، فهي ـ وإن ذكرتْ ـ لا تذكر بقدر دورها وحجمها. أما أوجه الشبه بين الزعيمين الشهيدين، فهي كثيرة، فكلاهما ناضلاً ضد الحكم العثماني، وانتسبا إلى منظمة سياسية واحدة هي «العربية الفتاة». وهما أيضاً من أركان الحكم العربي، فيوسف العظمة كان وزيراً للحربية، وأحمد مريود، كان عضواً في المؤتمر السوري وعضواً بارزاً في قيادة حزب الاستقلال. وخلال الأزمات السياسية بين الحكومة الفرنسية والحكومة العربية، كانت مواقفهما موحدة، وطالبا فيصل أن يكون عند مستوى التضحية العربية خلال الحرب، وأن يبقى مصراً على وحدة بلاد الشام، والحفاظ على استقلالها. وتجلى موقفهما الوطني برفضهما المساعدات الغربية المشروطة، من منطلق أنها ترهن البلاد

للمستعمرين. وفي الاجتماع المشترك لأعضاء الحكومة العربية، والمؤتمر السوري، والمجلس العسكري، الذي عقد لمناقشة الإنذار الفرنسي والمعروف بإنذار غورو، كان العظمة ومريود في طليعة الذين رفضوا الإنذار الفرنسي، وابتزاز غورو، وطالبا بالتعبئة الشعبية العامة والاستعداد العسكري لمواجهة قوات الغزو الفرنسي القادمة من لبنان بغرض احتلال دمشق وبقية مدن سوريا الداخلية. ورفض كلاهما حلّ الجيش وسحب حامية مجدل عنجر ذلك الأمر الذي أدى الى انهيار الحكم الوطني بعد إلغاء الدفاعات الأساسية وقبول إنذار غورو المجحف والوقح. وإذا كان قدر البطل يوسف العظمة أن يستشهد في ميسلون، فإن قدر الزعيم الوطني أحمد مريود قد تأجل بضع سنوات لينتقم ويثأر للعظمة كما فعل في مهاجمة موكب الجنرال غورو ومحاولة اغتياله.

وليس صدفة أن معركة ميسلون لم تدم أكثر من ست ساعات، كان يوسف العظمة، من أوائل الشهداء فيها، وعن عمر لم يتجاوز الأربعين عاماً. وكذلك كانت معركة جباثا الخشب، فلم تدم أكثر من ست ساعات. وكان البطل أحمد مريود، من أوائل الشهداء، وعن عمر لم يتجاوز الأربعين عاماً، بل هكذا كان عمره (١٨٨٦ ـ ١٩٢٦).

إن مسيرة أحمد مريود الكفاحية أصبحت «مادة» للتأريخ والفكر والبحث. ليس عند المؤرخين العرب فحسب، بل عند المؤرخين الأجانب، وبعضهم عايش الزعيم أحمد مريود كخصم وعدو. وفي مقدمة هؤلاء، الجنرال «كاترو» الملقب «بملك دمشق» الذي وصفه بالمتمرد العربي، والزعيم العربي المتطرف في كتابه المعروف «مهمتان في الشرق الأوسط» الصادر في باريس ١٩٥٤. وفيه يتحدث عن الزعيم أحمد مريود أكثر من أي زعيم آخر عاصره في سوريا خلال وجوده في دمشق.

محمود عبيدات

الفصل الأول

شيء من السيرة

شهيدنا العظيم هذا من آل مريود الكرام، المنحدر من المهادوه الأسرة العريقة في السؤدد. من أنبل العوائل العربية ومن أمراء البلقاء (مقاطعة في شرقي الأردن)، ذات الأصل الثابت. لقد كان هذا الشهم على ذكاء نادر، ونباهة خارقة، وقد تنبأ له معارفه بمستقبل مجيد، وبمناصب سامية، وكان يعمل على دراسة تاريخ أفذاذ العرب، فولع بذلك ولعاً شديداً ملك كل حواسه واستأثر بجميع مشاعره، وأقامت في نفسه فكرة تجديد العصر الذهبي للعرب، وأوقدت في فؤاده شعلة الشعور القومي فسرت مع الدم في عروقه، فانبرى للسياسة يعمل فيها، وللوطنية يبحث قضاياها.

محيي الدين السفرجلاني

«تاريخ الثورة السورية»

١

عائلته ونسبه

هو أحمد بن موسى بن حيدر مريود، ولد ونشأ في قرية جباثا الخشب عام ١٨٨٦، واستشهد فيها عام ١٩٢٦.

تربى في كنف والديه مع خمسة من إخوانه الذكور، وسبع من أخواته الإناث، بالإضافة إلى خاليه أحمد ومحمد الخطيب، وهما من قرية شبعا التابعة إلى العرقوب في لبنان، وذلك بعد وفاة والدهما الشيخ علي أفندي الخطيب زعيم قرية شبعا. وقد تربوا جميعاً على المحبة والخير، وعفة النفس وعزتها، وكانوا المثال والقدوة لأبناء جيلهم في جباثا الخشب وقرى جبل الشيخ.

ينتمي أحمد مريود إلى قبيلة المهادوه أي (المهيدات) التي كانت تقبض على إمارة وزعامة البلقاء في الأردن. وقد حدث في أوائل القرن التاسع عشر، أن المهداوي أمير هذه القبيلة، كان شديد المراس، تجبّر في حكمه وتسلط بقوته وقوة عائلته العربية على جميع القبائل العربية التي كانت تعيش في البلقاء ومحيطها، فبمجرد ذكر اسمه كان الخوف يتسرب بخاصة إلى زعماء البلقاء الذين يحسبون لسطوته ألف حساب، وهذه الصفات غير

الديموقراطية، كانت سائدة في المجتمعات القبلية العشائرية، فلولا قوة الشخصية عند قائد القبيلة لفقدت القبيلة هيبتها أمام القبائل الأخرى المتربصة. كان الأمير جودت المهداوي قوي الإرادة والتجبر.. وكانت هذه الصفات أيضاً هي التي ساعدت الأمير مهداوي على جمع الشمل ووحدة الكلمة يوم جاءت جيوش إبراهيم باشا إلى بلاد الشام لتحريرها من الحكم العثماني، فتطوعت قبيلته في هذا الجيش وكان لها دورها الفعّال والقوي في نصرة جيوش إبراهيم باشا عام ١٢٤٨هـ ١٨٣٢م[١].

وتعود الجذور التاريخية لنسب المهداوي أو المهيدات إلى قبيلة عربية أصيلة النسب، هي «السلالمة» أو بني سلام، من «أبي الليل» من سليم بن منصور، من نسل «العدنانية». نزلت في القطر المصري في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، وأقامت في المناطق الشرقية والغربية من الديار المصرية[٢].

وعشيرة «المهيدات» لها علاقة بقبيلة «الهنادي» التي هي من قبيلة «عمّار»، من قبيلة «السعادي» التي كانت تقيم في الصحراء الغربية. ويذكر «بيك» في مؤلفه أن عشيرة العوازم التي تقيم بجوار «ماعين» جنوبي مدينة مأدبا بطن من عرب الهنادي[٣].

وقد انتهت زعامة المهيدات على البلقاء، إثر حادثة مشهورة ومؤامرة معروفة لدى الشعب قتل فيها الأمير جودت زعيم عشيرة

---

(١) روكس بن زائد العزيزي، **معلمة التراث الأردني**، الجزء الرابع، ص ٩٨، أنظر: **صور من البطولة**، سليمان الموسى، ص ١٠٨.

(٢) روكس العزيزي، المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٣) بيك، **تاريخ شرق الأردن وقبائلها**، وبيك هذا كان القائد العسكري الأول في الأردن، وحاول اعتقال أحمد مريود بعد محاولة غورو وفي عام ١٩٢١ ألّف كتابه عن العشائر الأردنية.

المهيدات، ومعظم أركان العشيرة من الوجهاء والزعماء، على أيدي رجال عشيرة العدوان في بلدة الفحيص وجاءت على الشكل التالي.

كان الأمير جودت، قد رغب الزواج من ابنة خوري الفحيص التي كانت تبادله المودة. وقد استدعى والدها الخوري وأعلمه برغبته الأكيدة في الزواج من ابنته. ولما كانت العادات لا تشجع في أن يزوج المسيحي ابنته للمسلم - وبخاصة إذا كان والدها الزعيم الروحي للطائفة المسيحية - العربية والتي أصرّت أن تظل الكنيسة عربية التبعية وليس إغريقية وهذا فخر كبير.

ضاقت الدنيا في وجه الخوري، ورأى صعوبة دينية ومعنوية في هذا الزواج إذا قدّر له أن يتم، فلجأ الخوري إلى زعيم عشيرة العدوان الذي أجاره واستعد أن ينقذه من هذه «الورطة» كما أنه وجد الفرصة المناسبة لإنهاء زعامة المهيدات والأمير جودت على المنطقة، فأعلمه أن يتظاهر بالقبول والفرح وطلب من الخوري أن يبلغ الأمير جودت الرغبة في إقامة احتفال في غابة الفحيص، وأن يحضر الخطوبة كل أمراء عشيرة المهيدات، حسب العادات العشائرية المتبعة. وتمّ الاتفاق بين الخوري وزعماء العدوان على قتل الأمير جودت ومن معه من الأمراء خلال تناول الطعام. وبهذه الطريقة يتخلص الخوري من مأزق أقلقه وبالتالي حتى ولو كان على حساب عواطف ابنته التي رغبت الزواج من الأمير جودت، ويتخلّص زعيم العدوان من الخصم اللدود والوحيد، وتعود الزعامة إلى عشيرته. وتحدد يوم الخطوبة والغداء. وبنيت بيوت الشعر في وسط الغابة الكثيفة بالأشجار، وحدد مكان جلوس الأمير جودت بدقة، بجانب شجرة كبيرة تغطي أغصانها الجزء الأكبر من مكان

جلوس الضيوف، وما زالت أرومة هذه الشجرة الكبيرة قائمة حتى الآن.

قدّم الطعام بالمناسف ـ على الطريقة العربية ـ أمام الضيوف، وأثناء تناولهم الطعام، خرجت مجموعات مسلحة من جميع الجهات كانت مختبئة في الغابة، وهاجمت الأمير جودت وكبار قومه، فقضوا عليهم جميعهم، فانتهى اللقاء بمذبحة لا يزال الناس في الأردن يتحدثون عن بشاعتها. وبقيت الشجرة لأعوام طويلة تسمى بشجرة الأمير جودت أو بشجرة المهيدات[٤]. وعلى أثر هذه المذبحة التي نفذتها بالحيلة عشيرة العدوان، تفرق شمل عشيرة المهيدات، فمنهم من بقي في الأردن ويعرفون الآن بعشيرة المهيدات، ويقيمون في بلدتي «كفر أسد». ويروي بيك باشا في كتابه «تاريخ شرق الأردن وقبائلها» أن قبيلة المهيدات وبعد انتهاء حكمها وزعامتها للبلقاء لم تتوجه الى الجولان عبر حوران مباشرة ولكنها توجهتْ الى الأغوار وردّت قبيلة العدوان التي لاحقتها الى هناك، على أعقابها.
أقامت قبيلة المهيدات في الأغوار الى جانب قبيلة البلاونة ردحاً طويلاً من الزمن وشاركت بنسب متفاوتة في الحكم. ويقال إن شجرة النسب مستودعة في منطقة الأغوار هذه.

ثم انتقلت قبيلة المهيدات إلى عجلون وهناك حكمت. وكثُرَ الجدل واللفظ حول نوعية هذا الحكم واستمر. وأخيراً وبعد لقاء صاخب في مسجد عجلون انسحبت القبيلة وتوجهتْ إلى الجولان عبر الحولة صوب موقع الشجرات العشر ثم صعدت إلى

(٤) قُمتُ بزيارة بلدة الفحيص وتمعنتُ بالمكان الذي وقع فيه الحادث ولا يزال يعرف المكان بالحادثة.

الهضبة هضبة الجولان تداعبها آمال لَمّ الشمل وتحقيق أسباب النصر وربما العودة إلى البلقاء مجدداً وصدور منهم من جاء إلى سوريا وأقاموا في المحافظات التابعة إلى الجزيرة السورية(٥)، أما الفرع الأساس من هذه العشيرة، فقد سكنوا وأقاموا حتى الآن في الجولان وفي قرية جباثا الخشب ويعرفون بآل مريود الذين ينسب إليهم الزعيم الوطني أحمد مريود. ويبدو أن مريود نفسه الذي جاء إلى جباثا الخشب وبقي في ذاكرته أن يعيد لقبيلته المهيدات المجد والجاه والزعامة، أقام وعشيرته في موقع قريب جغرافياً من الأردن.

وقيل في حينه:

«لقد قصدوا بنزوحهم إلى الجولان عبر حوران، حيث كان يراودهم الأمل بالعودة إلى الديار (البلقاء) للأخذ بالثأر. فالجولان بعيد عن أعين الأعداء، والاستعداد للمعركة في ربوعه أيسر من غيره، كما أن قربه (الجولان) من البلقاء أيضاً قد يُسهل على الطالبين بالثأر في حال شن غارات خاطفة على مضارب العدوان، أن يحسموا المعركة لصالحهم وبسرعة... لذا أخذوا يتجولون في ربوع الجولان، فنزلوا في قرية «دربل» ثم بقرية «حضر» ومنها إلى مواقع «سحيتا» وغيرها من القرى المجاورة، وأخيراً استقروا في موقع «جباثا الخشب» حيث شيّدوا وأقاموا قريتهم التي تعرف الآن بـ«جباثا الخشب»، كونها تقع على مرتفع منيع ومحصن بالغابات والأشجار الكثيفة، وبالقرب من نبع «عين البيضة» الذي كان

(٥) الفرع الأول أقام في الجزيرة السورية يعرف باسم قبيلة ابن «مهيد»، ومن أمرائه محجم والنوري وتامر كما أن آل أبو شقرا فرع لبنان أقاموا في بلدة «عماطور» بمنطقة الشوف ولهم إسهام وطني هام ومنهم زعامات فكرية وروحية واجتماعية مرموقة.

غزيراً ويروي الأراضي التابعة لمزرعة «أوفانه» التي كانت من ضمن المزارع الست التي وضعوا أيديهم عليها، وهي: جباثا الخشب، أوفانه، خربة السوس، صيرة البغال، الخريبة، جباع، حتى الأراضي المحيطة بخان أرنبة، والتي لا تقل عن مساحة المزارع المذكورة.. وكان الدافع الأساسي لاستملاك تلك المساحات الواسعة والقرى والمزارع الكثيرة، هو استقطاب المواطنين وتجميعهم في قرى ستُملّك لهم. وليكونوا فيما بعد السند والعون، في محاربتهم للذين أخرجوهم من ديارهم، وهم العدوان الذين أستلموا الزمام بعد مقتل الأمير جودت المهيدات، ولينخرطوا في عداد الجيش الشعبي الذي شكلّه الزعيم أحمد مريود والذي خاضّ معارك طاحنة وردّ قوات الجيش الفرنسي منهزمة.

لكن هذه الخطط توقفت بسبب مجموعة من العوامل والظروف والمتغيرات السياسية والاجتماعية، ولكن النتائج الإيجابية كانت كثيرة وكبيرة، ويكفي أنهم تمكنوا من إقامة تجمع سكاني متجانس بالعادات والتقاليد والقيم النضالية والتي ورثها وقاتل واستشهد من أجلها الزعيم الوطني أحمد مريود، وهي قيم التحرير والوحدة لدنيا العرب كلها. وحادثة مقتل الأمير جودت التي أدت إلى تشتيت شمل المهاوده، لم تكن الأولى في تاريخ العلاقات العشائرية مع قبائل العدوان، فهناك أكثر من حادثة. وقبل أن نتحدث عن أهم حادثة، وهي شبيهة بالحادثة التي تحدثنا عنها، سنتعرف على «العدوان» الجذور والنسب، وكيف كانوا عندما نزحوا إلى الأردن، في حماية أمير وزعيم المهيدات، وكيف ضمّهم إليه، ثم انقلبوا عليه في المرة الأولى.

في كتاب «تاريخ شرقي الأردن وقبائلها» لمؤلفه الضابط البريطاني

السابق «بيك» ذكر «أن البدو ينسبون العدوان إلى الصويت من عرب الضّفير[6].

بيد أن العدوان أنفسهم ليسوا متفقين في الانتساب إلى هذا الأصل، وبعضهم يرجح أن العدوان عدنانيون من قيس، عاشوا في وقت ما مع الضّفير[7].

وعن كبار العدوان، نقل إلينا المؤرخ والأديب الأردني، روكس بن زائد العزيزي، أن العدوان «من الضفير»، وأن إقامة الضفير كانت في جنوبي الأردن، وأن قتالاً عنيفاً جرى بينهم، وبين بني صخر، وأن بني صخر تبعوهم إلى مكان يدعى «شجيرات المحيلان» غربي الأزرق فقتلوا زعيم الضفير المسمى سلطان، وما يزال قبره يدعى بـ قبر السلطان وبقربه غدير يسمى «غدير السلطان» نسبة إلى هذا الزعيم وتخليداً لتلك الواقعة»[8].

فانقسم الضفير بعد هزيمتهم إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ العدوان: وقد سكنوا البلقاء، وانضموا إلى ابن مهدي، أو ابن مهيّد، وهو زعيم المهداوية في البلقاء.

ب ـ وهم الذين تركوا الديار الأردنية بعد هزيمتهم من قبل بني صخر، إلى العراق فأقاموا في «المنتفق» أو «المنتفك» على الطريقة العراقية.

ج ـ القسم الثالث، وهم الذين انضموا إلى السردية، ويعرفون باسم عشيرة «العون» إحدى عشائر جبل العرب في

---

(٦) فريدريك بيك. المصدر نفسه، ص ١٦٦
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٨
(٨) روكس العزيزي، المصدر نفسه، ص ١٢١

السويدا، وهم غير العون الذين ينسبون إلى «ابني سعيد»[٩].

وأما حادثة العدوان الأولى، فكان بطلها «الحارث بن عمرو بن قيس بن عيلان» والملقب (بالعدوان)، وولديه «صويط» و«صبح». وهذا «العدوان» بعد أن ضمّه وجماعته أمير المهاودة إلى قبيلته، تزوج ابنة لشيخ من شيوخ العشيرة (المهداوية) وقد أنجبت له ولدين، هما صويط وصبح، وقد شارك صويط وعشيرته في الغزوات التي كان يقوم بها أخواله قبائل المهداوية. وفي إحدى تلك الغزوات غنم صويط ناقة ضبطاء، والضبطاء هي المتورمة الأبطين ويسمون هذا الورم ألضبْطْ بقلب الهمزة ضاداً، وهي لهجة معروفة عند الحويطات.. وعند بعض القبائل. ويقال إن المهداوي الخال لم يعط صويط سوى تلك الناقة المتورمة الأبطين، وكان ذلك من حسن حظه، لأنه عندما نزع رحلها، وجد في الرحل أموال الأمير المغلوب، فأثرى، وكان ذلك المال دعماً لزعامته[١٠]. ولما تزعّم صويط بعد التغلب على المهداوية صار يعرف بـ صويط بن عدوان راعي الضبطاء وهي نخوة العدوان الخاصة[١١]. ولكن هذه الزعامة لم تدم إلى صويط في المنطقة (البلقاء) طويلاً فقامت قبائل المهداوية بعد شهور قليلة وأبعدت العدوان حتى أطراف البلقاء. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت العلاقة بين العدوان وأخوالهم المهداوية بين أخذ ورد حتى يوم المؤامرة الكبرى على أمراء المهاودة في موقع الفحيص.

انتهت زعامة قبيلة المهاودة على أكبر وأوسع منطقة في الأردن

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٤.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢١.
(١١) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(البلقاء) بعد تكالب عدة قبائل عليها شكّلت حلفاً واحداً مع العدوان، ومن هذه القبائل التي ساعدتْ العدوان هي[١٢]:

١ ـ عشيرة ألاقْرِضة

٢ ـ عشيرة الثّوابيِّة

٣ ـ عشيرة المراهنة

٤ ـ عشيرة المشالخة

كل عشيرة من هذه العشائر لها فروعها، وهي كثيرة، وهذه الفروع هي الآن المعروفة في الأردن، أكثر من الأصل، باستثناء العدوان، ففروعها لم تطغ عليها. وجاء في معلمة للتراث الأردني، أن العشائر بفروعها التي شكلت حلفاً لمحاربة قبيلة المهاودة يبلغ عددها حوالى الـ(٣٠) عشيرة وفرعاً وهي مبينة في الكتاب المذكور.

(١٢) تنظر عشيرة المهاودة «المهيدات» بكل فروعها وتجمعاتها في سوريا والأردن ولبنان والجزيرة العربية إلى الحدث المشؤوم الذي وقع في الفحيص بمبادرة «العدوان» نظرة تستلهم العِبَر وتفتح بالوقت نفسه الآفاق، فسيحة رحبة، من أجل أن يظل ذلك الحدث أسير طرفه وزمانه دون تداعيات تطال الحاضر أو المستقبل.

٢

نشأته وشبابه

عندما وُلد أحمد مريود سنة ١٨٨٦، كان السلطان العثماني الحاكم هو عبد الحميد الذي اعتلى العرش في ٣١ آب/ أغسطس سنة ١٨٧٦، وفي عهده خطت الحركة الفكرية خطوات حاسمة، وأصبحت بذرة الوعي القومي العربي التي نمت في بلاد الشام، تمتد إلى كل مدينة عربية وازدهرت بعد خلعه[1]. وصارت حركة واسعة الانتشار.

وقد ذكر الرحالة الفرنسي «جبرائيل شارم» في كتابه «رحلة إلى بلاد الشام» «انتشرت روح الاستقلال انتشاراً واسعاً، ومن أهم صفات هذا النشاط أنه بريء من وصمة التعصب الطائفي، فقد عمدت تلك الجمعيات إلى قبول النصارى وإشراكهم في العمل

---

(١) قال السلطان عبد الحميد في مذكراته، ص ٣١٧ عن أسباب خلعه:
«إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والمعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.. إن هؤلاء قد أصروا، وأصروا عليّ، بأن أصادق على إقامة وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، ورغم إصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً.. وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سالونيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير».

القومي. أما الأتراك فقد نُحّوا عن هذا الميدان»[٢].

كما كتب المؤرخ والرحالة الفرنسي «دينيس دي ريغوار»، في كتابه «العرب الأصليون وبلادهم»:

> «لقد وجدت في كل مكان شعوراً ثابتاً عاماً، هو بُغض الأتراك، وبدأت تتبلور بالتدريج فكرة القيام بعمل جماعي مدبر للتخلص من نيرهم الكريه، وتلوح عن بعد مظاهر حركة عربية النشأة»[٣].

في ظل تلك الظروف العامة، والمناخ السياسي الملتهب وحالة النهوض القومي، تنشأ وترعرع الفتى العربي أحمد مريود، في بيت يملك كل مقومات النهج القومي والوطني، والعقائدية العربية الملتزمة والدين الحنيف، والسلوكية الاجتماعية القائمة على مبدأ احترام التقاليد العربية الأصيلة، والبيئة التعليمية الثقافية التي كانت نادرة في مجتمع الريف والقرية بعامة، قبيل نهاية القرن التاسع عشر. كان الشيخ موسى حيدر مريود سيّد هذا البيت، وربّ أسرة آل مريود، مدرسة نموذجية، خرّج منها للحياة سبع بنات فاضلات وخمسة رجال عاهدوا الله وعاهدوه، أن يكونوا عند مستوى زعامة مريود، وأضاف إليهم أخوة زوجه، أحمد ومحمد الخطيب اللذين كان لهما شرف البقاء مع أحمد مريود، عِبْرَ مسيرته الكفاحية الطويلة. وتَميّز خاله محمد الخطيب بمواقف نادرة الشجاعة عالية الكرامة والشهامة واستمر بالعيش مع أسرة قائد الثورة في منفاها مخلصاً شديد التفاني.

من بين هذه الأسرة المتجانسة برز أحمد مريود، وقد ظهرت عليه

---

(٢) جبرائيل شارم، رحلة إلى بلاد الشام، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

(٣) ريغوار، العرب الأصليون في بلادهم، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

علامات الذكاء والفطنة وسرعة البديهة، ولا أبالغ إذا قلت إنه نال محبة وإعجاب أعمامه بقدر ما نالها من والده، حتى أن أحد أعمامه اكتشف فيه الزعيم المقبل لعشيرته ومنطقته، ورأى فيه الرجل القادر على تحمل مسؤولية العمل القيادي قبل والده، وقد بارك والده اختيار ومحبة وثقة أخيه في ابنه، وهذه دلالة جديدة على الروحية الأخوية والترابط الأسري عند آل مريود بعامة. وكان موسى مريود، كثير الحرص على تعليم أفراد أسرته من الذكور والإناث، فاستدعى إلى بيته أساتذة لتعليمهم أصول الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم، بالإضافة إلى عنايته الخاصة، والتي لم تقلّ قيمة عن تدريس من كان يستدعيهم من المربّين والمؤدبين، فغرس في ذاكرتهم حبّ العلم والتعلم ويذكرهم بأن الدين ليس عبادة فحسب، بل هو معاملة وأخلاق لا تعصب ولا جاهلية فيه، علّمهم روح العصامية والاعتماد على الذات، وبيّن لهم أن الحاجة لا تأتي إلاّ بمسعى صاحبها، فالحاجة المعطاة من الآخرين هي هدية إذلال لا تكريم.

هذه الدروس في أخلاق الحياة والمجتمع، والتي مارسها أحمد مريود على نفسه طبقها بحذافيرها على أولاده، فكان يقول لهم:

موتوا جوعاً ولا تمدوا أيديكم للناس

حققوا حاجاتكم بأنفسكم ومن عرق جبينكم

وتصرفّوا بكبرياء ... تعودوا العطاء

وكونوا قدوة أقرانكم.

لأنه هو نفسه كان قد بذل ثروة طائلة كان قد ورثها ثم نمّاها ثم بذلها في سبيل خدمة حرية وانعتاق أمة العرب من ربقة الهيمنة والاستعمار.

أحب أحمد مريود الدراسة فتلقى الدراسة الابتدائية والرشدية في مدارس القنيطرة وأتمّ مرحلة التعليم الإعدادي في دمشق. ثم أتمّ دراسته الثانوية في «مكتب عنبر في دمشق وتخرج منها»(٤). وكان أبوه واعياً مثقفاً، أراد لولده استكمال دراسته الأكاديمية في استانبول، ولكن شاءت الأقدار أن يتوفى والده، فحالت دون تحقيق هذه الأمنية. «وأثناء دراسته في دمشق وبيروت اتصل بعدد من الشبان العرب النابهين»(٥)، واستقطبهم لصالح النضال القومي ضد التسلط العثماني، ونسّبهم فيما بعد في التنظيم السري التابع لـ«جمعية العربية الفتاة»، تنظيمه السياسي منذ بدايات عمله الوطني، وبقي مع معظمهم حتى نهاية المشوار الكفاحي. لم يقبل الشاب أحمد مريود التقيّد بالوظيفة الحكومية، فاختار العمل الصحفي وأسس جريدة «الجولان» الأسبوعية التي تصدر من القنيطرة(٦)، فكانت صوت الحق العربي، يواجه الباطل العثماني، وكان يرأس تحريرها ويشرف على موادها، ويكتب زواياها التاريخية والسياسية، فأصبحت بحق مرآة المجتمع، ولسان حال الحركة الوطنية العربية، ولو قدّر لها استمرارية الصدور لأصبحت جريدة «الوطن» الأولى، إلاّ أنها توقفت بسبب ظروف صاحبها، وبخاصة ظروفه السياسية، وكثرة ترحاله عن أرض الوطن وظروفه العائلية بعد وفاة والده بحيث أصبح سيّد وربّ الأسرة من بعده..

وقد ذكرت معظم المصادر أن الشاب الوطني والسياسي الهوى أحمد مريود أولع بقراءة التاريخ، وسبب ذلك يعود إلى تأمل ما فيه

(٤) سليمان الموسى، صور من البطولة.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) ذكرت بعض المصادر أن والده موسى مريود هو الذي أسس الجريدة، لكن الحقيقة أن أحمد مريود هو الذي أسسها وربما بحياة والده ومساعدته.

من عبر وأحداث، تراود نفسه الآمال في استعادة أمجاد العرب الضائعة[7]، وقد أكّد هذه الميزة صديقه الشيخ تركي كايد العبيدات بقوله:

«أحمد مريود .. تحدث في التاريخ العربي وكأنه الطبري أو المقريزي، لا غرابة بذلك، فقد أولع بقراءة التاريخ العربي وتأمل ما فيه من عبر وأحداث»[8].

(٧) الموسى، المصدر نفسه.
(٨) أنظر كتابنا (سيرة الشهيد كايد المفلح العبيدات)، ص ٧٨.

٣

صفاته وشخصيته

كان الزعيم الوطني أحمد مريود، على ذكاء نادر، ونباهة خارقة، وقد تنبأ له معارفه وأقرانه بمستقبل مجيد، وبرزت فيه الفطنة والذكاء في سن مبكرة، وتوافرت عنده صفات الزعامة والقيادة وهو على مقاعد الدراسة. يذكر أصدقاؤه أنه كان يتمتع «بالذكاء الحاد والخارق، والنباهة وإشراقة البصيرة، وقوة الشخصية، وصفات الوداعة واللطف والشجاعة، والصدق والحنان».

سهّلت له شخصيته القوية والمحبوبة في بناء علاقات فاعلة وظّفها في خدمة النضال القومي، وجعل من أهل الجولان القدوة في التعايش والانسجام رغم الصعوبة في ذلك، كوْن أهله (الجولان) يتصفون بتنوع السلالات وتعدد المشارب، ولكن الزعيم أحمد مريود ومن قبله والده، خلق روح المحبة والتفاهم بين الزعامات العائلية والعشائرية، ونظم اللقاءات والاجتماعات لتلك الزعامات، حتى تبقى علاقات التفاهم سائدة في محيطهم المناطقي، وكان السبّاق لحل كل المشاكل، الحلّ العادل.

ويكفي هذا الزعيم وعائلته فخراً، ذلك الموقف الوطني الصادق،

البعيد عن التعصب والسلوكية العشائرية، والقبلية الضيّقة، عندما أشعل الاستعمار التركي نار الفتنة بين عوائل الشركس وعوائل الدروز قبل الحرب العالمية الأولى بقليل[1]، وقد حاولت عائلة مريود أن ترمي بَرْدَها وسلامها على نار الفتنة إلاّ أنها فشلت، وقد حاولت بعض الأطراف أن تزجّ عائلة مريود بأتون الفتنة إلاّ أن نباهة موسى مريود وولده أحمد، حالت دون ذلك، فأراد أبو أحمد أن يبعد المنطقة عن دسائس المستعمرين، ويحميهم من ظواهر التخلف والجاهلية الممثلة بالغارات والثارات والقتل على الهوية، فذهب وولده أحمد إلى وجهاء المنطقة مبيناً لهم مخاطر الفتنة وعواقب سفك الدماء البريئة. إلاّ أن أولئك الوجهاء، بدل الانصياع للعقل وقبول النصيحة طلبوا من عائلة مريود الاشتراك بالهجوم على مواقع وقرى الدروز معهم، وإذا هم تخلفوا فإن المعركة ستقع عليهم.

لقد فهم أحمد مريود أن هذا الموقف البعيد عن العقل والمسؤولية يقترب من التهديد، وقبل التحدي ليس من باب الانحياز لطرف دون الآخر، ولكن من باب الحرص على كل قطرة دم يمكن حفظها لساعة الصراع مع العدو المشترك، صاحب الذراع الطويلة في إيصال الفتنة إلى رؤوس الناس الكبار في المنطقة، وكذلك من مواقع المسؤولية التاريخية أن لا يقال إن عائلة مريود اشتركت بمعركة داخلية خطط لها العدو. قال الشاب أحمد مريود، بعد أن استأذن والده بالحديث:

«لو كانت بنادقكم مشرعة باتجاه العدو لرأيتم بنادقنا جاهزة قبل بنادقكم، ولو كان رجالكم ذاهبون لملاقاة العدو لوجدتم رجالنا

---

(١) أوراق خير الدين الزركلي.

يتسابقون على الموت من أجل الوطن وكرامته. والتاريخ يشهد أن آل مريود أهل نخوة في الحرب على العدو، وأهل نخوة للأهل، فأنتم أهلنا، وهم أهلنا. يا أهل الجولان كلنا من جلدة واحدة، وأبناء منطقة واحدة.. عودوا إلى عقولكم. فلا تكونوا السبب في الفرقة وسفك الدماء البريئة».

وعندما نشبت المعركة بين الطرفين، وحصدت عشرات الرجال من الطرفين ووقع الدم بين الأهل، تذكروا كل كلمة قالها الشاب أحمد مريود، وتذكروا نصائح موسى مريود لهم، فجاءوا يطلبون الوساطة، وطيّ صفحة الماضي. وبجهود لا يزال أهل المنطقة يذكرونها، تمكن الزعيم أحمد مريود من إعادة اللحمة بين أهل المنطقة، وبسط روح الألفة والمحبة بين الجميع، فاكتسب حبهم واحترامهم، وتعزز هذا الاحترام عندما دعاهم للثورة عام ١٩١٩، فكانوا جنودها المخلصين وثوارها الأشاوس، فسقوا بدمائهم الزكية تراب الجولان والعرقوب، وتذكروا ما قاله لهم أحمد مريود: «إن الوطن بحاجة إلى كل قطرة دم، وإلى كل حبة عرق».

وقد أكّدت الذاكرة الشعبية باستمرار على دور الجماهير التي لبّت نداء الزعيم الوطني أحمد مريود في ثورته المسلحة ضد الانتداب الفرنسي عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ بسوريا ثم عام ١٩٢٠ - ١٩٢٤ في الأردن وعام ١٩٢٦ في المرة الثانية، كما وذكّر قيادي مسؤول رافق الجماهير التي جاءت من جبل العرب وحوران والجولان والغوطة ودمشق والعرقوب وأحياء دمشق إلى جباثا الخشب للمشاركة في أربعين المجاهد حسين أحمد مريود[٢] عام ١٩٨٦،

---

(٢) المجاهد حسين مريود، هو الابن الأكبر للزعيم مريود، وكان من أصغر المجاهدين في معركة جباثا الخشب، وكان وقتها يدرس في مدينة القدس في مدرسة روضة المعارف. أبّنه المهندس أحمد قبلان عضو القيادة القطرية مؤسس مكتب الفلاحين =

بأن الجولان الذي التهب بالثورة العربية السورية بقيادة زعيمها ومجاهدها أحمد مريود، سيبقى قلعة للتحدي بوجه الأطماع الاستعمارية، واستذكر التاريخ النضالي الكفاحي لهذا القائد الوطني الذي أعلن ثورته سنة ١٩١٩ ضد الإفرنسيين في الوقت الذي كان فيه جبل العرب يشهد ثورة مظفرة بقيادة البطل سلطان باشا الأطرش. وقال القيادي المسؤول أيضاً:

«إننا في هذه المنطقة نقف على خط التماس الأول مع العدو. وكأن قدرها أن تبقى دائماً في مواجهة الأعداء. وكما كان جبل العرب طليعة المقاتلين في الثورة السورية التي أعلنها سلطان الأطرش من الجبل، فإن أهل الجولان وهم طليعة المقاتلين في الثورة التي قادها أحمد مريود من الجولان، سيبقون شعلة للنضال ضد العدو».

وقال فيه أديب الصفدي الكاتب والأديب والمجاهد الدمشقي:

«فما أنت وهذا الجلال يقع نظرك عليه (يقصد أحمد مريود) فلا تجد في نفسك مقدرة من بعد، إلاّ أن تخشع، وإلاّ أن تعلم أنك بين يدي رجل يطرق لصمته الرجال[٣].

وتراه بين إخوانه ورفقائه يبحثون أمراً عاماً، ويقلبون الرأي على وجوهه، حتى يقعوا على الرأي الصحيح، قد يكون رأيه أو اقتراحه، أو بتعديل منه فيه على ما يتلاءم مع ظروف الحادث. وقد يكون الأمر مغامرة تحتاج إلى الرجل الصلب يقوم على

وجار آل مريود من بلدة بيت جن في ريف دمشق والحرمون وأهله ورجال بلدته ممن اشتركوا بثورة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وثورة ١٩٢٠ - ١٩٢٤ وثورة ١٩٢٦ وأبلوا بلاءً حسناً استحق كل التقدير.

(٣) من مقالة للأستاذ أديب الصفدي، صاحب جريدة: الناقد الأسبوعية التي كانت تصدر من دمشق أيام الانتداب الفرنسي، وجاءت المقالة تحت عنوان «لأجل التاريخ.. أحمد مريود فكرة حية» في العدد: رقم (١٥) تاريخ ١٦ أيار/ مايو ١٩٣٠.

تطبيقها، وتتطلب القلوب الصحيحة الإيمان.. فما والله ليس لهذا الأمر إلاّ أحمد مريود، ينهض بأعبائه، وينصرف إلى أدائه كأن الله ماز أحمد من بين رفاقه بأن جمع إلى دماغه مثل ما جمع رفاقه في أدمغتهم من تفكير ونضوج ورأي مختمر وزاد عليهم بأن كان إلى فوق هذا سيفَهم المسلول وإرادتهم العاملة وقوتهم التي لا تلين»[(٤)]

لقد امتلك أحمد مريود كل مقومات الزعيم والقائد، لم يفكر يوماً أن يقدم للآخرين كشف حساب، ولم يرغب من الآخرين كلام الإطراء، ولم يسبق له أن منّن بسهر الليالي وجولات النهار، كما شهد بذلك أديب الصفدي الذي قال فيه:

«الكلام في أحمد مريود، إذا طال يحلو، ويُعذب النفوس التي عرفته... وما عرفت فيه إلاّ الإخلاص العميق لقضية الاستقلال... فهو دائم الاجتهاد، طويل التفكير، ناهض بالعمل، جليل، لا يستقيم الأمر إلاّ إذا رعاه، وكأن شأناً لن يصل إلى غايته إلاّ إذا عاناه بنفسه وقام عليه. وهو في الإجهاد للنفس وفي ذيّاك العمل المتواصل.. لا يفخر، ولا يمن، ولا يستكثر، يفكر بصمت، ويعمل بصمت، ويستريح إلى النتائج»[(٥)]. والنتيجة دائماً، كانت للوطن والإنسان العربي، وأغلب النتائج إن لم نقل كلها كانت بسبب العمل المتفوق غير العادي، الذي يتسم بالجرأة الخارقة ويغلب عليه طابع التضحية والفداء. والعمل المتفوق غير العادي، بحاجة إلى الإنسان الذي يرتفع عن غيره بنكران الذات، كأن يجود بنفسه من أجل وطنه وأحبائه أو يكرس حياته للقيام بمهمة سامية لا ينتفع منها هو نفسه بعشر معشار ما ينتفع بها المجتمع»[(٦)]

---

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) من شهادة المؤرخ الأردني سليمان الموسى في مجموعة من الرعيل الأول، وفي مقدمتهم أحمد مريود، وكايد عبيدات، ومولود مخلص، وظاهر العمر، وفؤاد سليم=

إن أعظم صفة كان يكتنزها الزعيم أحمد مريود في روحه وعقله وجسده، أنه «كان يمثل في حياته شعار الصمود في وجه المستعمرين حتى النفس الأخير... ولم يرضَ أن يحني رأسه للأمر الواقع.. سلك المسلك الوعر الذي سار فيه مصعب بن الزبير قبله عندما جاءته عروض عبد الملك بن مروان تغريه بترك القتال»[7]. والسبب... أنه كان قومي الهوى والنزعة شبّ على الإباء، والشمم والشهامة العربية، وسعى بكل ما أوتي من ذكاء ودهاء لإعادة أمجاد قومه[8]. وهو القائل:

«نحن طلاب استقلال وحرية، ولا نرضى سيادة أية دولة من الدول، لا فرق بين إنكلترا أو فرنسا أو تركيا».

لقد علّمنا التاريخ، وبخاصة التاريخ العربي، المليئة صفحاته بالأمجاد وسير البطولة. أن الزعماء الأبطال الأشداء في مصارعة العدو، تمتلكهم المشاعر الإنسانية تجاه بني قومهم، فالقوة والشدة تتحولان إلى حنان وعاطفة ومشاعر إنسانية تفوق الوصف.. فهل كان أحمد مريود يمتلك تلك المشاعر الإنسانية تجاه الآخرين من بني وطنه؟؟

لقد عرفنا وكما ذكرنا سابقاً أنه كان مع إخوانه وأخواله وأولاده، ومع كل عائلة مريود الرجل «الوديع واللطيف والحنون». وكان

وعودة أبو تايه، والشريف ناصر الحارثي. وقال وجهة نظره بهم: «هم في نظري النموذج الذي تحتاج إليه البلاد العربية، فبطولتهم ليس لها صفة الشمول في العمل أو في الأثر الذي ترتب عليه كبطولة، ولكنها بطولة المواطن الذي عمّد بطولته في الدم. وكانت شجاعتهم فائقة في وصفها، ونابعة من وعي وإدراك عميقين لضرورة الخدمة التي يؤدونها» (صور من البطولة، ص.١٢).

(٧) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٨) كلمات في تأبين أحمد مريود، أنظر «كتاب الأيام الحمراء»، سعيد العاص، وفي كتب عزّة دروزة وأسعد داغر.

يؤثرهم في كل شيء على نفسه، ولكن هل كان مع الآخرين كما هو مع أهله؟؟

لقد قرأت عشرات الكتب التي كتبت عن أحمد مريود ورفاقه من الرعيل الأول، وبخاصة كتب المذكرات التي دوّنت من قبل أصحابها، الشركاء في النضال والجهاد وتلك المرحلة، وهم خير شهود عيان، أمثال: خير الدين الزركلي، وصبحي العمري، وأسعد داغر، ومحمد عزة دروزة، وعلي خلقي، ومحمد علي العجلوني، وتيسير ظبيان، وأحمد قدري، وسعيد العاص، فأجمعوا أن أحمد مريود، كان عربي الهموم والمعاناة، لا يفرق بين أهالي البلاد والمناطق البعيدة، يده للخير مفتوحة، وقلبه يتسع لمحبة كل من ينتمي للوطن بشرف وإخلاص، ويكفي وقفته مع أهالي القرى اللبنانية المجاورة، يوم تعرضوا للجوع والمجاعة قبل وأثناء الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٤، فهب لنجدتهم في وقت منعت فيه الحكومة العثمانية تصدير الحبوب من ولاية سوريا إلى لبنان «فكان أحمد مريود يُحمِّلُ القمح على خيله ويمضي رجاله به خلسة إلى القرى اللبنانية فيوزع بسعر الكلفة على البيدرة دون زيادة... فأنقذ بهذا عائلات كثيرة كانت معرّضة للموت جوعاً»[٩].

وعندما رحل إلى الأردن بعد سقوط الحكم العربي، كان لا ينام قبل أن يطمئن على رجاله الذين رافقوه، «فكان يتألم عندما يعلم بوعكة أصابت أحد رجاله، وكان يعوده ويشرف على علاجه بنفسه»[١٠] هذا هو الزعيم الذي يستحق أن يذكر بالشجاعة والحلم وقوة العاطفة.

(٩) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ص ٢٦٨.
(١٠) من أوراق المرحوم تركي كايد عبيدات.

٤

موطنه .. الجولان

في بداية القرن التاسع عشر، وعلى أثر مقتل الأمير جودت المهداوي زعيم عشائر المهادوة «المهيدات» في البلقاء حيث يعود نسب آل مريود إلى هذه العشائر العربية الأصيلة، رحل «مريود» مؤسس آل مريود إلى إقليم الجولان عبر حوران، ووضع يده على عدد من المزارع والأراضي الواسعة الواقعة في الجبل لأسباب حربية، وفي السهل لأسباب زراعية حيث مواقع الينابيع الجوفية وبخاصة نبع عين «البيضة». وقد استقر «مريود» جد العائلة في قرية جباثا الخشب، التي كان يطلق عليها إلى تاريخ قريب «جباثا مريود» نظراً لبنائها من قبل العائلة وكان اختيارها لموقعها المرتفع، حيث تغطيها الغابات من جميع جهاتها. وتفيد المعلومات أن العائلات التي سكنت الجولان قبل وبعد عائلة مريود، تعود بجذورها النسبية إلى القبائل العربية المهاجرة من الجزيرة العربية واليمن وبخاصة قبائل الفضل والنعيم. أما العائلات الشركسية فجاءت من بلاد القفقاس. والعائلات المسيحية هي من الأصول الغسانية التي كانت تحكم بلاد الشام في ظل العهد الروماني، قبل الفتح الإسلامي. أما العائلات الدرزية فيمكن أنها



جاءت من جبل لبنان بعد عام ١٨٦٠. ومن الملاحظ أن الجولان يضم عائلات من مختلف الأجناس والمذاهب، حيث نجد فيها المسلم والمسيحي، وكذلك سكنها وأقام فيها بالإضافة إلى عائلات المريود، والفضل، والنعيم، عائلات من الأتراك والتركمان، وعائلات أخرى من البدو الرحل. وقد تمركزت هذه العائلات في مواقعها المحددة لها، وكانت كل عائلة تعرف حدود أراضيها، وقد ثبتت ملكية هذه الأراضي لأصحابها بعد قرار السلطان العثماني الذي قضى «بالإفراز» و«الطابو» أي التملك القانوني بموجب سجلات رسمية تحفظ في دائرة رسمية أطلق عليها «دائرة الأراضي والطابو».

إذن، ولد أحمد مريود ونشأ في قريته «جباثا الخشب» التي بنيت في بداية القرن التاسع عشر، فهي ليست بالقديمة كما أنها ليست بالحديثة نسبياً، ولا نعرف إذا كانت قد سكنتها قبائل في العصور القديمة كبقية قرى الجولان، فهي بوضعها الحديث تعتبر من أكبر قرى الجولان، وتقدر مساحتها وأراضيها بحوالى (٤٠ ألف دونم) وعدد سكانها حوالى (١٢ ألف نسمة) وتمتلك عائلة مريود حصة كبيرة من هذه الأراضي. ولو احتفظت بالمزارع الست التي كانت تابعة لملكيتها ـ قبل التنازل عنها ـ لكانت عائلة مريود أغنى العائلات ليس في الجولان فحسب، بل وفي حوران أيضاً.

نشأ أحمد مريود وإخوانه في منزل العائلة، وهو واسع المساحة، ويحتوي على (٢٥) غرفة، منها خمس غرف للضيافة[١] بالإضافة

---

(١) كان الشيخ موسى حيدر مريود، والد أحمد مريود، من الشخصيات الوطنية المعروفة في العهد العثماني، فعلاوة على يسر حاله، كان يشغل وظيفة مستنطق في بلدة قطنا، ومدعي عام في القنيطرة، وكان بيته مفتوحاً للزوار والضيوف الكبار من الجولان وحوران ومن الأتراك، وأهل البلاد العربية. وما نجاة ولده أحمد من حبل=

إلى «ديوان» العائلة المعدّ للقاءات العائلية والعشائرية والسياسية أيضاً.

ومن المفيد ـ ونحن نتحدث عن الجولان ـ أن نسلط الضوء على واقع وتاريخ الآثار في هذه المنطقة الاستراتيجية، عبر مراحلها التاريخية القديمة والحديثة. يمثل الجولان موقعاً هاماً كنقطة تربط الطرق الرئيسية التي تصل بين البلدان العربية المجاورة وهي نقطة ازدحام القوافل التجارية القادمة من الحجاز واليمن والحيرة، ومن مرافىء البحر المتوسط ومصر وغيرها، مما جعلها نقطة تفاعل حضاري وثقافي منذ أقدم العصور التاريخية.

وكانت أول إشارة تاريخية لسكن عربي هو ما ورد في الوثائق الأشورية وما ذكره علماء السلالات البشرية أنهم سلالات للأسر العربية التي سكنت الأقطار العربية وضمت البدو الرحل وسكان المدن الحضر.

وتفيد المعلومات التاريخية بأن الجولان كان جزءاً من الدولة الأشورية عام (٢٣٥٠ق.م) وأقامت به تحصينات قوية تحولت فيما

= المشنقة في عاليه ١٩١٥ إلاّ لمعرفة المدعي العام الذي كان يزورهم في جباثا الخشب في زمن والده ومن بعده أيضاً، وكان المدعي العام هذا، يلاقي من كرم الضيافة الشيء الكثير. ومثله كثر كانوا يترددون على ديوان آل مريود، والسبب يعود إلى مكانته الاجتماعية عند أهله وعند عشائر وحمائل الجولان وحوران والشمال الأردني.

وتفيد المعلومات التي استقصيتها من أهالي جباثا الخشب، أن منزل موسى مريود كان من أكبر البيوت في المنطقة على الاطلاق. وقد اقتسم منه مكاناً يطلق عليه اسم «الحوش» خصصه للحيوانات الأليفة من أغنام وأبقار وخيول[1]، وتضم الدار الكبيرة مزرعة واسعة فيها معظم الأشجار المثمرة والزيتون، وذكر لي أحد كبار السن في القرية أن هذه المزرعة بأشجارها وثمارها كانت بتصرف الزوار والضيوف وأهالي القرية..

ملاحظة: كانت الماشية بمختلف أنواعها تزيد عن عدة آلاف واصطبل الخيول وفيه العشرات، العشرات من الخيول العربية الأصيلة.

بعد إلى كنعانية في جميع المدن والقرى والمزارع. ثم أدت الخلافات بين الحكام إلى إنشاء دويلات صغيرة وضعيفة.

جاء إليه الآراميون من المناطق العربية المجاورة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ودخله الآشوريون عام (٧٣٢ق.م)، والكلدانيون من القرن ٨ ـ ٦ قبل الميلاد، والفرس من القرن ٦ ـ ٤ قبل الميلاد. دخل الجولان في العصر الهيلنسي وشهد تداخل الحضارة اليونانية الغربية على الحضارة الشرقية، فعاد الازدهار إلى المنطقة، حيث اشتهرت تجارتها بتصدير الحبوب والزيتون والبقول وخشب البلوط.

دخل الجولان تحت إدارة الأنباط الذين تولوا تجارته عبر الأسواق المختلفة، كما دخل ضمن الولاية العربية التي تضم الجولان ـ درعا ـ السوداء ـ الأردن بإدارة حكام الغساسنة، وانطوى تحت الحكم الروماني عام (١٠٦ق.م).

وتم طرد العبرانيين الذين حاولوا السيطرة على الجولان العربي طرداً حاسماً وبهزيمة نكراء للقوى المعتدية.

وأسس العموريون مملكتين في جنوب الشام: المملكة الرقائية، والمملكة الأمورية. وكان الملك «عوج» آخر ملك على المملكة الرقائية[٢] وكان ملكه يقع شمالي الأراضي الواقعة بين نهر الزرقاء وجبل الشيخ. وكان له عاصمتان: الأولى درعا وكان اسمها القديم «أدرعي». والعاصمة الثانية كانت «عشتروت» وهي من قرى الجولان.

(٢) يقال إن الملك عوج كان جباراً قوياً شديد المراس، طويل القامة، والسرير الذي كان ينام عليه يتسع لعشرة رجال، وسريره من الحديد القوي السميك طوله ١٤ قدماً وعرضه ٦ أقدام (أنظر كتابنا: **الأردن في التاريخ**، ج١، ص ٢٧١).

أما القبائل العربية التي سكنت إقليم الجولان قبل الفتح الإسلامي فهي كثيرة، ففي أوائل القرن الثالث للميلاد سكنته قبيلة الغساسنة، حيث أسسوا دولتهم العربية في عهد الدولة الرومانية الشرقية، واستوطنوا شمال الأردن وحوران والجولان(٣) ويظهر من شعر «حسان بن ثابت» شاعر الرسول العربي محمد(ص)، أن ملك الغساسنة كان يمتد من حوران والجولان حتى خليج العقبة. وسكنوا هذه المنطقة بعد أن تغلبوا على قبائل «سليخ» وحلّوا محلهم بقوة السلاح(٤). هذا بالإضافة إلى قبائل «القين بن جسد»، وقبائل ذبيان التي كانت منازلهم في شمال الأردن، وحوران، واليرموك، والجولان، وينسب إليهم الصحابي الجليل المقداد بن الأسود، وتنسب عائلة المقداد المقيمة حالياً في حوران، وقرية «جاسم» التابعة إلى قرى لواء بني كنانة في محافظة إربد الأردنية، إلى هذا الصحابي الجليل(٥).

وعند الفتح الإسلامي لبلاد الشام، كانت منطقة الجولان واقعة تحت الحكم الغساني التابع للأمبراطورية الرومانية. وتذكر المعلومات التاريخية أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، عقد مع قادة جيوشه مؤتمر «الجابية» على أرض الجولان، بعد معركة اليرموك، وعلى أساسه تمّ تحرير سائر بلاد الشام وتوحيدها(٦).. وكانت القبائل العربية بعد الفتح الإسلامي تنتقل بين مرابع الجولان وأهم هذه القبائل، قبيلة الفضل وهي من فروع ربيعة،

---

(٣) أنظر كتابنا: الأردن في التاريخ، ص ٣٨ ـ ٤٠.
(٤) صبحي الأعشى، مسالك الأبصار، الجزء الأول، ص ٣١٩.
(٥) معجم البلدان، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٦) جريدة تشرين السورية، العدد ٥٩٤١، الصادر يوم ١٩٩٤/٥/١٩ دراسة محمد قنبس.

وقبيلة النعيم وهي الأكبر وبنو مرة، وقبائل ولد علي وغيرهم من القبائل.

إن موقع إقليم الجولان الاستراتيجي، الذي يحتل الجزء الجنوبي من القطر العربي السوري، ويقع عند مفترق أربعة أقطار عربية مجاورة (سوريا ـ لبنان ـ الأردن ـ فلسطين)، وامتداده الطبيعي لمناطق الحرمون، وإشرافه على الحولة بمنخفض شديد الوعورة[7] جعله موضع اهتمام وأطماع القوى الأجنبية المعادية، وتعرضه الدائم للاحتلال من قبل هذه القوى، التي تمّ طردها ومحاربتها من قبل أهلها وشعبها المجاهد عبر التاريخ، فكما تمّ طرد اليهود الذين حاولوا السيطرة على أرض الجولان[8] اجتمع العرب في شهر أيار/ مايو عام ٦٢٦م، وحققوا انتصاراً في البقعة نفسها على الجيوش البيزنطية وتمّ معها أيضاً تحرير القدس. وفي عام ١٢١٧م حطم صمود أهل الجولان والقوى العربية قوى الصليبيين وتمّ طردهم ودحرهم ولم يعاودوا الكرة ثانية بعدها.

وتعرضت الجولان لهجمات المغول في القرن الرابع عشر وخرب معظم مدنها وقراها وكانت نهايتهم في عين جالوت..

أما الاستراتيجية الصهيونية تجاه الجولان، فهي قديمة، ولكنها أخذت تتجسد وتأخذ طريقها إلى التنفيذ بعد عام ١٩٤٨.

ففي عام ١٩٢١، كتب الباحث الصهيوني الأميركي «هوراسن مين كالين» في مؤلفه «الصهيونية والسياسة العالمية».

«إن مستقبل فلسطين بأكمله هو بأيدي الدولة التي تبسط

(٧) صفوح خير، **إقليم الجولان**، السلسلة القومية، رقم ١٢.

(٨) جريدة **تشرين الدمشقية**، المصدر نفسه.

سيطرتها على الليطاني واليرموك ومنابع الأردن»[٩].

وقبل ذلك كان بن غوريون قد رسم في عام ١٩١٨ تصوره لحدود الدولة العبرية، فكان إقليم الجولان، ووادي عنجر وحاصبيا، من ضمن الحدود التي تصورها رغم أنها ليستْ من أرض الميعاد.

وجاء في المذكرة التي تقدمت بها المنظمة الصهيونية العالمية إلى المجلس الأعلى لمؤتمر السلام في باريس، يوم ٣ شباط/ فبراير ١٩١٩، ما يلي: «وجبل الشيخ هو أبو المياه الحقيقي».

وفي ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٩، عشية انعقاد مؤتمر سان ريمو، وجّه زعيم الحركة الصهيونية آنذاك «حاييم وايزمان» رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا رفض فيها تقسيم خط سايكس ـ بيكو وقال: إن ذلك الخط «يحرم الوطن القومي اليهودي بعض أجود حقول الاستيطان في الجولان وحوران التي يعتمد عليها إلى حد كبير نجاح المشروع بأسره»[١٠].

وفي ١٦ شباط/فبراير ١٩٢٠، بعث ممثل الصهيونية الأميركية «لويس برانديس» برقية إلى وايزمان يطلب فيها باسم المنظمة الصهيونية الأميركية، تدخل الحكومة البريطانية عملياً للحيلولة دون خسارة جزء كبير من «فلسطين الشمالية»[١١] وجاء في البرقية النص التالي:

«الحدود الوطنية الشمالية والشرقية لا غنى عنها لقيام مجتمع يعيل نفسه بنفسه. فمن أجل تطور البلاد الاقتصادي في الشمال ينبغي أن تضم فلسطين مفارق مياه الليطاني عند جبل الشيخ،

(٩) **الاستراتيجية الصهيونية تجاه المنطقة العربية**، دراسات حركة فتح.
(١٠) مكتب الدراسات، المصدر نفسه، ١٩٨٠.
(١١) المصدر نفسه.

وبعد قيام الكيان الصهيوني، بدأت «إسرائيل» سلسلة من أعمال خرق الأحكام الخاصة باتفاقية الهدنة السورية ـ الإسرائيلية، والمتعلقة بشكل خاص بالمناطق المجردة من السلاح. وكان من أوائل أعمال الخرق هذه مشروع تجفيف بحيرة الحولة والمستنقعات المحيطة بها شمالاً، وفي شهر كانون الثاني/ يناير عام ١٩٥٣ أنجز الإسرائيليون بناء القناة الخاصة بتحويل مياه الحولة وابتدأت عمليات التجفيف، وأصبحت جميع الأراضي المجردة تحت تصرفهم. قال دايان: «أجل لقد ألغينا من جانبنا الوضع الخاص بالمناطق المجردة وتصرفنا بها كأنها داخل إسرائيل»[١٢].

وفي أواخر عام ١٩٦٣، كانت إسرائيل قد أوشكت على تنفيذ مشروع تحويل مياه نهر الأردن العلوي إلى المنطقة الساحلية ومنها إلى النقب.. وعندما أوشك هذا المشروع على الانتهاء اجتمع العرب في مؤتمر القمة القاهرة يوم ١٩٦٤/١/١٧ لتدارس الخطة الكفيلة بدرء خطر المشروع، وقد أقر المؤتمر المذكور، كما هو معروف، مشروعاً لتحويل روافد هذا النهر في المنطقة العربية لقطع الطريق على المشروع الإسرائيلي الرامي إلى تحويل مجرى النهر، وعندما دخل المشروع العربي في مراحله التنفيذية لجأت إسرائيل في الأعوام ١٩٦٤ و١٩٦٥ على التوالي إلى أعمال القصف الجوي لمنشآت المشروع وآلياته في الجولان بقصد تعطيله ووقف تنفيذه.

ويربط المعلق الإسرائيلي المعروف «أرييه أفنيري» بين تنفيذ المشروع العربي وبين الجولان فيقول:

«إننا كنا سنضطر في النهاية لشن حرب ضد سوريا لو نفذ

(١٢) المصدر نفسه، ويذكر أن دايان كان من أشهر محبي «اقتناء الآثار».

مشروع تحويل الروافد، حتى لو لم تنشب حرب الأيام الستة بسبب الحصار في سيناء».

وفي عام ١٩٦٧، احتلت إسرائيل الجولان، وسيطرت على الأرض ومصادر المياه، ثم بنت المستوطنات، وهو ما يعني عملياً ضم الجولان إلى إسرائيل، وقد أظهرت التصريحات الإسرائيلية في هذه المرحلة مدى تشدد إسرائيل في التمسك بالجولان. فقد قالت صحيفة دافار:

«إن إسرائيل لن تعيد هضبة الجولان إلى سوريا حتى ولو مقابل اتفاقية سلام.. فالهضبة تعتبر ضمن المناطق التي لا يثار الجدل حولها بين الجمهور الإسرائيلي».

بعد حرب تشرين/أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣، فقدت إسرائيل الجزء الكبير من أحلامها، فتركت هذه الحرب بصماتها وآثارها على الاستراتيجية الصهيونية في الجولان، فوجد من يقول في إسرائيل:

«إن الجولان يجب أن يبقى ميداناً للقتال والقتل دون أن يكون مكاناً للحياة والاستيطان»[١٣].

وفي مستوطنة (ماروم جولان) قال أحد المستوطنين:

«إن الإنسان لا يعرف أية امتحانات تنتظرنا. إن كل من يقول بأن هضبة الجولان بكافة أجزائها ستكون بلا شك جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل لا يفقه ما يجري على لسانه، فمن الصعب التكهن بالصراعات والحروب والضغوط الخارجية التي تنتظرنا»[١٤]

ونشير أخيراً إلى أن جباثا الخشب كانت من القرى التي تمّ

---

(١٣) جريدة دافار الإسرائيلية، الصادرة يوم ١٩٧٤/٣/٢٧.
(١٤) المصدر نفسه، ١٩٧٤/١/٢٦ (راجع: الاستراتيجية الصهيونية تجاه المنطقة العربية).

احتلالها عام ١٩٦٧، وبعد حرب تشرين/ أكتوبر، بعد إنجاز اتفاقية الفصل، تمّ تحريرها كقرية ولكن الكثير من أراضيها ما زال تحت الاحتلال.

وعلى المستوى الحضاري، فإن الجولان كان في كل العصور نقطة تفاعل حضاري وثقافي في كل العهود التاريخية، فالمباني والآثار التي اكتشفت في مواقع الجولان تؤكد على حقيقة ذلك الدور الحضاري. ويبدو أن الصخرة التي تعلو نهر بانياس كرست كمعبد للإله «بان». ومن الآثار المكتشفة تمثال الأميرة (آوفة) من البرونز في مزرعة أوفانيا التابعة لجباثا الخشب. و(آوفة) هي التي حكمت منطقة الجولان في القرن الأول الميلاد، وهذا التمثال يعتبر آية في الروعة والجمال مما يدل على ازدهار وتقدم الحضارة التي ينتمي إليها في ذلك الوقت، وهو الآن معروض في المتحف الوطني بدمشق.

ومن أهم المواقع الأثرية في الجولان، مبنى خان أرنبه الأثري الذي تبلغ مساحته الإجمالية (٢٥٠٠م٢) منها (١٥٠٠م٢) تتشكل منها الغرف المتعددة والمستودعات والإسطبلات، وفيه جامع مكون من ثلاثة أقواس، وتمّ بناء هذا الخان في العهد المملوكي، ولا يزال قائماً حتى الآن.

أما عن خان مدينة القنيطرة الذي يقع ضمن مدينة القنيطرة فقد استخدم قديماً داراً للسرايا، وتمّ استخدامه حديثاً متحفاً للمحافظة وسيكون مقراً دائماً لدائرة الآثار بالقنيطرة مستقبلاً.

أما بالنسبة إلى «أوفانيا» فهي تعود في تسميتها لاسم مملكة «أوفة» وهو اسم كنعاني، وتقع غرب بلدة «خان أرنبة» بـ٣ كم وتسمى قرية «أوفانا» وتم فيها كشف كنيسة بيزنطية عام ١٩٩٠، وأوفانيا

تابعة لجباثا الخشب. ومن التلال الأثرية المنتشرة في محافظة القنيطرة نذكر:

«تل محيرس» الذي وجدت فيه مغائر تصل إلى عين ماء في جوف التل، كما جرت بعض أعمال التنقيب في «تل نبع الصخر»، وشوهد فيه بناء مكون من الطوب الأحمر.

أما تلال كوم الباشا، وعين الباشا، والأصح الشرقي، وتل قرية «كودنة» وتل مسحرة، وتل أبو قبيس، وتل شرق جباثا الخشب وغيرها فهي تلال أثرية فيها معالم حضارية وثقافية متعاقبة في تاريخها على مر العصور. وتنتشر المغائر والكهوف في محافظة القنيطرة بكثرة، نذكر منها: مغائر قرية حضر، ومغائر عبيد، ومغارة «الدار» في قرية «جبا».

ومن القلاع المشهورة، قلعة «الصبيب» العربية التي بناها العرب لصد الغزاة الصليبيين عن بانياس والجولان[١٥].

وقلعة الصبيب مبنية على شكل أبراج نصف دائرية وعددها (١٤) برجاً، وفيها عشرة أبراج على شكل مربع. ويحيط بالأبراج خندق على شكل مثلث طويل الأضلاع، وبداخل القلعة مساكن وكنيسة، وجدرانها بسماكة (٤ أمتار)، وفي أعلى الجدران ممرات علوية تساعد على تحرك القوات بسهولة. ومن القلاع المشهورة في الجولان أيضاً قلعة «العال» التي بناها الجيش الصليبي عام (١١٠٥ ـ ١١٠٦) بعد احتلالها مباشرة. وتقع هذه القلعة الحصينة عند مشارف القرية.

وهناك مواقع أثرية في فيق والرفيد، ومجدولية، وقد تعرضت

---

(١٥) حديث الأستاذ عبد الله مرعي مدير آثار القنيطرة لجريدة تشرين، ١٩٩٤/٥/١٩.

جميعها للقرصنة والسرقة من قبل الاحتلال الصهيوني. وتؤكد مصادر مديرية الآثار في محافظة القنيطرة أن العدو الصهيوني أقدم على تدمير القرى والمدن في الجولان. ولم تمض ثلاث سنوات على احتلاله حتى شرع بسرقة الكنوز الأثرية في بانياس ـ والحمة وفيق والعال والرفيد وخسفين، وكان يستعمل الآلات الثقيلة في جرف معظم المواقع الأثرية معرضاً إياها للتخريب والتلف دون وازع علمي أو ثقافي.

كما أقدم العدو الصهيوني على سرقة جميع محتويات الأبنية القديمة، وبخاصة القطع الرخامية التي كانت موجودة في الجوامع والكنائس، وأجزاء التماثيل والحجارة المزخرفة ونقلها إلى أماكن غير معروفة حتى الآن. وقام الجيش الإسرائيلي بتدمير بلدة الرفيد ذات المباني التي تعود للعصر الروماني والبيزنطي والعصور الوسطى. وسرق أرضية الكنيسة من العصر البيزنطي ذات الأرضية الفسيفسائية. وبالتالي كان لا يجد نقشاً أو زخرفة أو أي أثر يزين واجهات الجوامع والكنائس والبيوت والمساكن إلاّ وسرقها.

الفصل الثاني

النضال القومي في العهد العثماني

ينتمي المجاهد الكبير أحمد مريود إلى ذلك الجيل المبكر من أمة العرب الذي تولى مقاومة السلطة العثمانية، منادياً بحرية قرار العرب واستقلالهم الوطني والقومي. فكان أحد البناة الأوائل لحركة التحرر العربي النشطة، وممن ساهموا في تأسيس الأحزاب العربية القومية شمولاً وأهدافاً في تلك المرحلة، وكان من قادتها المرموقين.

فهو لم يتقن حمل القلم والتعامل السياسي مع الحدث فحسب، بل إنه حمل السلاح فيما بعد، عندما أصبح السلاح هو وسيلة الحسم ضد المستعمر الغربي الغادر الناكث بالمواثيق والعهود.

منذر الموصلي

١

مدخل البحث التاريخي

في مستهل القرن السادس عشر، خضعت البلاد العربية للسيطرة العثمانية، فما الذي استهوى الفاتحين العثمانيين في الأقطار العربية؟

إن الذي استهواهم قبل كل شيء هو رغبتهم في فرض الاستغلال الاقتصادي على الجماهير العربية، ثم موقع البلدان العربية الملائم في طرق التجارة العالمية.

وكانت الأقطار العربية المختلفة في درجات تبعية متفاوتة بالنسبة إلى الأمبراطورية العثمانية. فأقطار المغرب العربي مثلاً، كانت تعتبر ولايات عثمانية، ولكنها كانت قد حصلت على استقلالها الفعلي من الباب العالي منذ مستهل القرن السابع عشر. وقبيل منتصف هذا القرن فقدت تركيا سيطرتها الفعلية على اليمن، وحتى في سوريا الطبيعية، كانت سلطة الباب العالي سلطة رسمية، حيث كان يتولى الحكم الولاة الأتراك الباشوات، وهؤلاء الولاة كانوا يدبرون المؤامرات ضد السلطان تارة، بينما كان الأغنياء العرب المحليون يشجعون الثورة ضد الباشوات تارة أخرى لكثرة الضرائب المفروضة عليهم، وطمع الولاة بأموالهم، وكانت الثورات الشعبية

تهزّ أركان الأمبراطورية بين آونة وأخرى.

هذا وقد احتفظ الغزاة الأتراك بالنظام الإقطاعي في سوريا ولبنان على غرار ما فعلوه في مصر، وظلت الأراضي في أيدي (الأشراف) الإقطاعيين العرب المحليين، ما عدا شمال سوريا. وكانت توجد في المناطق النائية لسوريا بقايا من النظام المشاعي البدائي، تقطن فيها منذ أمد طويل كثرة من القبائل الرحل والقبائل الحضرية، وتجري فيها عملية تكوين النظام الإقطاعي خلال قرون، ومع ذلك ما زال شيوخ القبائل أشبه بالحكام الإقطاعيين، وكان الروحانيون يلعبون دوراً كبيراً، وغالباً ما كان النضال السياسي يتسم بصبغة قوية.

ويمكن أن نصف المدينة العربية في غضون القرون، من السادس عشر إلى الثامن عشر بطابع القرون الوسطى، بحيث كانت هذه المدن بمثابة المراكز الإدارية التي يتربع فيها الباشاوات والبكوات الأتراك أكثر من أن تكون مراكز اقتصادية، ومع ذلك كانت تمارس في المدن التجارية الحرفية التجارة، وينمو الإنتاج وبخاصة الإنتاج الحرفي اليدوي في هذه المدن.

وقد صادف عهد الحكم العثماني في الأقطار العربية فترة انتعاش في التجارة العالمية ونموها السريع. وكانت الصناعة الأوروبية آنذاك بحاجة إلى المزيد من الأسواق، الأمر الذي كان توفره الأمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف. فابتاع المتمولون العرب والأتراك الأقمشة الصوفية الإنكليزية والهولندية، والحرير الفرنسي، والفراء الروسي، والزجاج من البندقية. كما صدّروا إلى أوروبا الحبوب والحرير الخام والجلود والصوف الخام والفواكه والجوز وزيت الزيتون والمنسوجات والأقمشة البيتية. وقد كتب آدم سميث «إن

سكان المدن التجارية استوردوا من الأقطار الأكثر غنى، البضائع المتأنقة لإنتاج المعامل اليدوية وسلع الترف ذات الأسعار الباهظة، وبهذا غذّوا عجرفة كبار الملاكين الذين ابتاعوا هذه البضائع بشره، ودفعوا ثمنها بكميات كبيرة من خامات محاصيل أراضيهم».

مثل هذه التجارة، أفضت إلى تقوية الاستغلال الإقطاعي للفلاحين وإلى خراب القرى. لذلك كانت التجارة العثمانية تتسم بصفة غير متكافئة، وألحقت أضراراً فادحة بالأمبراطورية العثمانية.

وثمة صفة مميزة أخرى، هي أن التجار الأجانب، على الضد من الخلافة الإسلامية مثلاً لعبوا دوراً رئيسياً في هذه التجارة[1]، وبهذا الخصوص قال أنجلس:

«من هم التجار في تركيا؟ على كل حال إنهم ليسوا الأتراك.... إن الأسلوب الذي اتبعوه للقيام بالتجارة هو نهب القوافل، والآن وقد أصبحوا أكثر تمدناً، قامت تجارتهم على أساس مختلف أنواع الضرائب القسرية والتعسفية. ورسخ اليونانيون والأرمن والسلاف والأوروبيون الغربيون أقدامهم في المرافىء البحرية الكبيرة قابضين في أيديهم على كل التجارة. وليس لديهم ما يبرر إطلاقاً شكر البكوات والباشوات الأتراك على إتاحة الفرصة لهم لممارستها. ولو تخلصنا من جميع الأتراك في أوروبا لما قاست التجارة من ذلك على الإطلاق»[2].

وفي أواخر القرن السابع عشر، دخلت الأمبراطورية العثمانية أزمة خطيرة جداً تردد صداها في كافة الحياة الاجتماعية. فقد تدهور الاقتصاد، ودب الفساد في ماكنة الدولة، وخرجت الأقاليم عن

---

(١) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، (دار التقدم، موسكو، ١٩٧١) ص ١٩.

(٢) فريدريك أنجلس، القضية التركية، ماركس وانجلس، المؤلفات، الطبعة الروسية الثانية، المجلد ٩، ص ٢٥.

طاعة الحكومة المركزية، وفقد الجيش قدرته القتالية، وتمرد الشيوخ والأمراء العرب على الباشوات، واندلعت نيران النزاعات القبلية، وتوسعت الانفصالية، واستقلت معظم الأقاليم العربية فعلاً عن السلطان التركي، وانتقلت تحت سيطرة الطغمات الإقطاعية المحلية التي حاول رؤساؤها الانفصال عن الباب العالي كلياً وتشكيل أُسر حاكمة مستقلة[٣].

وفي عام ١٧٧٥، تعرضت سوريا إلى ممارسات القهر والإرهاب على يد أحمد الجزار وذلك بعد إخماد ثورة الشيخ ظاهر العمر. وقد قرن اسم أحمد الجزار بأحلك أيام تاريخ سوريا، ودمشق التي لا تسكت على الظلم، ثار أهلها عام ١٧٩٨ ورفضوا دفع الجزية إلى الجزار. ويسجل التاريخ أعظم ملحمة نضالية قامت بها عشيرة آل مريود عندما هبّ رجالها يشاركون بالثورة والعصيان ضد هذا الظالم حتى تمكنوا من خلعه بقرار من الباب العالي عندما أفلح بتعيين والٍ جديد في دمشق. وقد ذكر المؤرخ العربي الأردني الأستاذ سليمان الموسى في كتابه «صور من البطولة» وهو يتحدث عن الخلفية النضالية للمجاهد الشهيد أحمد مريود، أن عائلة مريود حاربت الجزار في دمشق، كما حاربت الأتراك من خلال انضمامها إلى جيش إبراهيم باشا وقال:

> «وقد ورث أحمد مريود كراهية الأتراك عن أبيه وعن أجداده الذين حاربوا في صف إبراهيم باشا ضد الأتراك وقتل عدد منهم نتيجة لذلك..
>
> كما أن أجداده اشتركوا في مقاومة أحمد باشا الجزار[٤]

(٣) لوتسكي، المصدر نفسه، ص ٤١.

(٤) منح الجزار لقب باشوية صيدا في عام ١٧٧٥م، جزاء لخدماته البارزة في إخماد ثورة الشيخ ظاهر العمر، ولقب بالجزار لما اقترفه من مذابح لا تحصى.

وقد عرف عن أهله الفروسية والحمية وقوة البأس»[٥].

بقيت سوريا تابعة للأمبراطورية العثمانية، وكانت صلاتها بالباب العالي أبعد من أن تكون مجرد صلات شكلية. إذ كان تاريخ الأقطار العربية في آسيا الغربية في تلك الحقبة ـ أواخر القرن التاسع عشر ـ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتاريخ تركيا، ولا يمكن النظر إلى هذا الجزء من المشرق العربي بمعزل عن التاريخ العام للأمبراطورية العثمانية، فالظلم الذي أصاب الإنسان التركي، نال منه الإنسان العربي قسطاً وافراً، ولوحظ في كل مكان التذمر والاستياء من تصرفات السلطان عبد العزيز الذي أتهم بخيانة تركيا إرضاءً للأجانب، بحيث تحولت الأمبراطورية العثمانية إلى دولة عميلة للمرابين الأجانب. ففي أيار/ مايو ١٨٧٦ بدأت في القسطنطينية تظاهرات شعبية تطالب بوضع الدستور، فلم يستجب السلطان، بل زاد على ذلك أن عقد لقاءات سرّية مع الأجانب مما دفع ثلة من ضباط القوات العسكرية أن تأتي وتلقي القبض عليه في ليلة الثلاثين من أيار/ مايو ١٨٧٦. ثم أعلنت عزله وأجلست مكانه على العرش أخاه مراد الخامس المعروف بغبائه وقلة فهمه، وقد أطلق الإنقلابيون على أنفسهم اسم «العثمانيون الجدد».

وفي آب / أغسطس ١٨٧٦، خلع السلطان مرة ثانية ونُصّب عبد الحميد الثاني سلطاناً على الأمبراطورية، وبدأ عهد الظلم الاستبدادي، وأصبح عبد الحميد حاكماً مطلقاً ذا سلطة غير متناهية، وقد أثار تغلغل الرأسمال الأجنبي والنظام البوليسي الصارم لعهد الظلم استياء واسعاً، إذ كانت جماهير الولايات العربية تقاسي من نوعين من الاضطهاد: أي من اضطهاد الرأسماليين

(٥) سليمان الموسى، صور من البطولة، ص ١٠٨.

الأجانب ومن ظلم الباشوات الأتراك. ومع ذلك كان الشعب يعتبر عهد الظلم بتعسفه الإقطاعي ـ البيروقراطي والضرائبي المصدر الرئيسي والأساسي للكوارث التي حلّت به. كما كان يعتبره السبب الأساسي للاستعباد الأجنبي..

وقد عمّت موجة الاستياء من هذا العهد سواء بسواء بين ممثلين البرجوازية الوطنية والمثقفين الوطنيين وبين الجماهير الشعبية الواسعة. وانعكس هذا الاستياء في تفشي روح المعارضة بين المثقفين العرب ضد الحكومة، وفي الانتفاضات العفوية للجماهير الشعبية[٦]. وفي عام ١٨٨٢ شبّت انتفاضة شعبية في منطقة البلقاء في الأردن امتدت جذورها حتى وصلت حوران والجولان وجبل العرب، حيث شبّت انتفاضة فلاحية في جبل العرب عام ١٨٨٦ بقيادة شبلي الأطرش. ولم تتضاءل الانتفاضة إلاّ عندما وافقت السلطات التركية على التنازل وعينت الأطرش أميراً للدروز، كما حاولت السلطات التركية أن تمنح هذا اللقب إلى الشيخ موسى حيدر مريود، والد شهيدنا أحمد مريود ـ موضوع البحث ـ إلاّ أن هذا الشيخ رفض رفضاً قاطعاً ألقاب الأمير والباشا حتى لا تكون عقبة أمام المواقف الوطنية والنضالية عند بني قومه وجماهيره في الجولان، إذ شعر أن الألقاب تقيّد أصحابها عندما تمنح منّة من الحكام والولاة[٧].

وكانت أكبر الانتفاضات التي قام بها سكان المدن، الاضطرابات التي وقعت في حلب سنة ١٨٩٥، وفي بيروت ١٩٠٣، وفي وادي

(٦) راجع كتابنا: «الأردن في التاريخ»، ج١.

(٧) هذا الاعتقاد ليس نظرية تطبق على الجميع، وإنما على الذين في نفوسهم مرض أمثال أحمد الجزار ومن على شاكلته، فشبلي الأطرش مثلاً كان يمثل قاعدة شعبية كبيرة.

موسى في الأردن ١٩٠٥، وثورة قدر المجالي في الكرك ١٩١٠.

وقد أدى الاستياء العميق الجذور ضد عهد الظلم إلى تأليف جميعة سرية في بيروت، ضمّت مئة من المثقفين العرب. وترأس الجمعية إبراهيم اليازجي وفارس نمر. وكانت للجمعية فروع في دمشق وطرابلس والسويداء والقنيطرة ودرعا. ووزعت بعض المناشير، التي كان من شأنها نشر أهداف ومهمات الجمعية. ودعا منهاجها إلى استقلال سوريا الطبيعية وإلى الاعتراف باللغة العربية كلغة الدولة الرسمية، وإلغاء الرقابة المفروضة على حرية الكلام، وتحريم الملاكات العسكرية المحلية خارج حدود سوريا. وأخذت نشاطات الجمعية السرية المنعزلة عن الجماهير تتضاءل تدريجياً، وانحلت الجمعية فعلاً حوالى ١٨٨٢، واعتمد الكثيرون من الوطنيين العرب في كفاحهم ضد عهد الظلم الجائر على معونة جمعية «تركيا الفتاة». وظنوا أنهم يستطيعون بتحالفهم معها إسقاط عبد الحميد وتحقيق أماني العرب الوطنية[8] ضمن إطار الأمبراطورية العثمانية. ودافع آخرون عن فصل واستقلال البلاد العربية التام وظنوا أنهم يستطيعون الاعتماد على معونة الدول الغربية.

وفي عام ١٩٠٤ ألّف نجيب عازوري في باريس رابطة الوطن العربي. إذ نشر باسم الرابطة عدداً من النداءات، وفي عام ١٩٠٥ طبع باللغة الفرنسية كتاب «يقظة العرب» وفي عام ١٩٠٧ شرع بإصدار مجلة «استقلال العرب» وكان شعار نجيب عازوري هو «الأقطار العربية للعرب». ودعا في نداءاته إلى الثورة وتأليف دولة

(٨) أميل إلى الرأي الذي يقول إن العرب كانوا في عهد عبد الحميد أحسن حالاً من العهود الأخرى.

من الولايات العربية المستقلة عن الباب العالي. وكانت هذه الجمعيات بعيدة عن الشرائح الاجتماعية العربية، بل في عزلة عن الجماهير العربية، لأنها كانت تخاطب البرجوازية السورية، ومع كل هذا كانت توطئة ليقظة العرب الوطنية في هذا الموضوع قال لوتسكي:

«وكان هذا الانعزال عن الشعب وانقطاع الصلة بالجماهير السمة المميزة للقوميين العرب والعامل الأساسي لضعفهم في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكان يعيش معظمهم خارج البلاد، واقتصروا في نشاطهم على الدعاية للأفكار الوطنية. إلاّ أنه رغم جميع عيوبهم ونواقصهم كانت نشاطاتهم توطئة ليقظة العرب الوطنية، وكانت عاملاً من العوامل التي سببت صعود الحركة الوطنية التحررية في الأقطار العربية في عهد يقظة آسيا»(٩).

وفي عام ١٩٠٨ أعلنت «جمعية الاتحاد والترقي» ثورتها المسلحة، وحول ضباطها الأمبراطورية العثمانية إلى دولة برجوازية - دستورية، وقوبلت أنباء انتصار الثورة وبعث الدستور بابتهاج في الولايات العربية التابعة للباب العالي. إذ اعتبر العرب الثورة كنصر لهم. فعمّت الأفراح في كل أنحاء سوريا. وبهذا الصدد كتب أحد شهود العيان:

«أثارت هذه الأحداث الحماس في كل أنحاء سوريا. إذ عانق المسيحيون والمسلمون، بل وحتى القساوسة والملالي بعضهم البعض في الاجتماعات العامة. وحيا الكتاب عهد الحرية الحر والمساواة والأخوة»(١٠).

(٩) لوتسكي، المصدر نفسه، ص ٣٩٣.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٩٧.

وبعد الثورة بقليل، انتقل مركز الحركة العربية الوطنية من المهجر إلى القسطنطينية حيث تجمعت أكثرية العناصر النشيطة للأوساط الاجتماعية العربية من طلاب وموظفين وضباط.

وفي ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٠٨ عقدت هذه العناصر اجتماعاً كبيراً للجالية العربية في القسطنطينية وكونت أول منظمة عربية، عرفت باسم «الإخاء العربي ـ العثماني». وبدأت بإصدار صحيفة خاصة بها وفتحت لها فروعاً في جميع الأقطار العربية التابعة للباب العالي تقريباً. وحضر أعضاء جمعية «الاتحاد والترقي» جلسات مجلس الإخاء التأسيسي. وانطلق قادة الإخاء من مبدأ الجامعة العثمانية واعترفوا بوجود ما يعرف بالأمة العثمانية. فقالوا بأن الأمة العثمانية الموحدة تنقسم إلى عدد من الملل منها العرب الذين يكوّنون أهم عنصر من عناصر الأمة العثمانية. ولم ينبس برنامجهم ببنت شفة عن وجود أمة عربية خاصة. كما لم تذكر فيه أية كلمة عن الاستقلال بل وعن الحكم الذاتي للعرب... ومن هنا بدأ الخلاف مع الحكام الجدد وانتهى عهد «الإخاء العربي ـ العثماني»، واكتسبت الحركة العربية الوطنية صبغة مقاومة الأتراك بصورة سافرة، فتشكلت الجمعيات والمنتديات العربية. ومن أهمها: «المنتدى الأدبي»، و«الجمعية القحطانية»، و«الجمعية العربية الفتاة»، و«جمعية العهد».

وشهدت أعوام ١٩١٢ و١٩١٣ و١٩١٤، نشاطات عارمة دعت إلى إسقاط السلطة التركية عنوة، وقد شعرت السلطات التركية بتحرك الضباط العرب، وألقت القبض على القائمقام علي عزيز المصري، واتهمته بالخيانة العظمى. وفي ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٤، دخلت تركيا الحرب العالمية، وانقسم العرب إلى قسمين

بالنسبة إلى موقفهم تجاه الطرفين المتحاربين. وكان أمامهم مخرجان:

- فإما مؤازرة الوفاق واحتمال الاحتلال الفرنسي - الإنكليزي،
- وإما الإسهام في الحرب إلى جانب تركيا.

وفي ربيع ١٩١٥ لجأ جمال السفاح إلى الاضطهاد بالجملة ضد القوميين العرب. واستخدم الإرهاب ضد السكان العرب، وأعدم قافلة مناضلة من الثوار في كل من سوريا ولبنان.

وفي عام ١٩١٦، انطلقت الثورة العربية الكبرى. وحققت الانتصار المؤقت الجزئي، ففي ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨، دخلت القوات العربية دمشق، لينتهي حكم الأتراك، ويبدأ استعمار الحلفاء، ويذوب الانتصار في قوانين الانتداب الفرنسي - الإنكليزي.

٢

النضال السياسي والجمعيات العربية السرية

لقد بلغ تدهور الأوضاع في البلاد العربية مستواه الأقصى، وأصبح الحكم العثماني التركي ـ القديم ـ الجديد ـ كارثة عملت مع الكوارث السابقة في الإجهاز على ما تبقى من حيوية الأمة العربية. فلأول مرة في تاريخ العرب تنتقل عاصمة الخلافة إلى خارج بلادهم وتصبح لغة الدولة الرسمية لغة غير لغتهم. وأخطر من هذا أن الدولة لم تكن أداة استهلاك فحسب، ولم تكن تسعى لإنعاش البلاد أو تتدخل لمعالجة أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، بل كانت تسعى لدفع حركة التدهور دفعاً قوياً، وفي آن واحد جرى عزل البلاد العربية عن أوروبا التي كانت قد بدأت تسير في طريق التقدم والنهضة الصناعية والثقافية... والأعظم من كل ما ذكر من مصائب، سياسة التتريك لكل الفكر القومي العربي.

إن عنف الاستبداد الحميدي جعل النضال ضد الحكم التركي مسؤولية وطنية قومية، لا تقاعس فيها بعد الآن، هذا ما قاله المجاهد أحمد مريود لزعماء الحركة الوطنية العربية الذين التقوا في جباثا الخشب عام ١٩٠٧، لمناقشة الأوضاع، وحين مناقشة برنامج

رابطة الوطن العربي التي تأسست في باريس على يد نجيب عازوري[1].

تجلت مظاهر هذا الاستبداد في نواح عديدة أعطت لهذه الفترة طابعاً، أشبه بالعهد الحميدي، ولكن تحت ستار الشرعية الدستورية[2] وفي هذا الجو من الكبت والتشديد المركزي، أخذت المعارضة العربية أشكالاً جديدة من العمل السياسي، داخل المنظمات التي اتسمت بطابع السرية، أو التستر بأهداف ثقافية واجتماعية عامة، وفي مقدمة هذه الجمعيات «الجمعية القحطانية» التي تأسست عام ١٩٠٩، وكان من بين أعضائها الأوائل الأمير شكيب أرسلان، والدكتور عزت الجندي، ومحمد كرد علي، والأمير عارف الشهابي وعلي النشاشيبي، ومن أهداف الجمعية السرية «مجابهة التيار العنصري التركي بتيار قومي عربي ينازعه السيطرة على الدولة وعلى مؤسساتها في الولايات العربية»[3].

وفي عام ١٩١٠ تأسس «المنتدى الأدبي» ليكون هذا «المنتدى» الردّ الطبيعي والقومي على الأفكار العنصرية التركية التي أخذت بها حكومة «حقي بك» والهادفة إلى تعميق شعور العنصر التركي بين الأوساط الشعبية وبقية الشرائح الاجتماعية، ورفع «المنتدى الأدبي» شعار المحافظة على التراث العربي والحضارة القومية، ونبه إلى الأخطار المحدقة بمستقبل التراث العربي.. ومن هنا بدأ الصراع الفكري والثقافي بين الصحافة التركية والصحافة العربية، وقد لعب المفكر العربي والصحافي الشهير شكري غانم دوراً حاسماً،

(١) أوراق تركي الكايد.
(٢) العماد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص ٦٥.
(٣) المصدر نفسه.

سواء من خلال مسرحية «عنتر» التي عرضت في باريس باللغة الفرنسية، أو من خلال مقالة نشرها في جريدة «الزمن الباريسية» حيث بيّن بوضوح مدى الظلم التركي بحق الإنسان العربي وتراثه الحضاري.

أما على الصعيد السياسي العلني «فقد أثيرت القضية العربية لأول مرة في مجلس المبعوثان في ١١ آذار/ مارس ١٩١١، إذ عرض شكري العسلي مبعوث دمشق، بعض مقوماتها في خطاب جمع بين الصراحة والجرأة، وطالب فيه بحقوق العرب بالمساواة في جميع ميادين الوظيفة العامة والمراكز الإدارية والسياسية العليا، لا سيما وأن العنصر العربي يكاد يساوي نصف سكان الدولة، إن لم يزد على هذه النسبة»[٤] وفي الجلسة نفسها أثار مبعوث القدس روحي الخالدي، قضية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فأصبحت الحركة القومية العربية مسألة ذات خطورة بالغة في نظر الحكومة الاتحادية، وبدأ الخوف من ثورة عربية تؤدي إلى انفصال الولايات العربية عن الرابطة العثمانية[٥]. وفي هذه الظروف المتأزمة تأسست «جمعية العربية الفتاة» السرية في باريس، وضمت نخبة من الطلاب العرب الجامعيين القادمين من بلاد الشام. ووضع مؤسسو الجمعية أمامهم هدفاً معيناً ثابتاً. إذ إنهم أرادوا أن يكون للعرب جمعية تحاكي جمعية «تركيا الفتاة». وبصورة تدريجية نضج منهج الجمعية وأصبح أشد وضوحاً واستقر على مبدأ الاستقلال العربي[٦].

---

(٤) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ٦٩.
(٥) محمود عبيدات، الأردن في التاريخ، ج ١، ص ٧٧ - ٧٨.
(٦) لوتسكي، المصدر نفسه، ص ٤٠٤، أنظر توفيق علي برو، العرب والترك، ص ٢١٤.

وفي بادىء الأمر تكلم أعضاء الجمعية بصورة عامة عن بعث الشعب العربي، وأيدوا مبدأ «لا مركزية الأمبراطورية العثمانية». ومن ثم طالبوا باستقلال الأقطار العربية وكافحوا من أجل تحرير العرب من السيطرة التركية أو من أي طغيان أجنبي آخر، وبدأ النشاط السياسي لأعضاء الجمعية بين كبار الشخصيات الوطنية في بلاد الشام وبخاصة في المناطق السورية الداخلية، وعندما عادوا إلى أرض الوطن في نهاية عام ١٩١٢، وشرعوا في مبادرة توحيد نشاطات كافة الأحزاب والمنظمات العربية الوطنية. كان المجاهد أحمد مريود في طليعة الذين ناضلوا من أجل وحدة العمل والنضال المشترك لكافة القوى والفعاليات السياسية المعارضة للنظام التركي كما سنرى بعد قليل.

لقد نشطت المنظمات السرية العربية، وسعت كلها إلى استقطاب أكبر عدد من الضباط والمثقفين ووجهاء البلاد وضمهم إلى صفوفها لأهداف قومية متماثلة. وقد تنبهت من جديد الحكومة العثمانية إلى الأخطار المرافقة لتطور الحركة القومية العربية، لا سيما بعد أن بدأت الحكومة الفرنسية بالاهتمام علناً بالقضية السورية ـ اللبنانية وبالتكلم صراحة عن مصالحها الخاصة في بلاد الشام الشرقية «متخذة بعض المبادرات الديبلوماسية الواضحة المرمى، ومساندة اللجان اللبنانية في الجبل وفي الخارج، التي سعت وقتئذٍ إلى ضمان استقلال ذاتي أوسع لمتصرفية جبل لبنان. وفي هذا الجو المتأزم سرت إشاعات حول إمكانية احتلال فرنسا للساحل السوري»(٧).

(٧) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ٧٥.
أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج ١، ص ١٤٠.
اللجنة اللبنانية في باريس، مذكرات حول مسألة لبنان ـ باريس ١٩١٢ مراسلات الشرق تاريخ ١٩١٣/١/١ ص ٤٦٤ وتاريخ ١٩١٣/١١/١ ص ١ ـ ٢.

وفي هذا الإطار السياسي العام تألفت «الجمعية العمومية الإصلاحية» في بيروت من جميع المذاهب والطوائف ووضعت لائحتها الإصلاحية في ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩١٣، أما في دمشق فقد تعرقلت أعمال الحركة الإصلاحية لإنقسام أعضائها إلى فئتين:

- فئة الاتحاديين التي ضمت عدداً من الأعيان القدامى.

- فئة الائتلافيين التي جمعت نخبة من الشبان المتنورين.

وثبت من جراء ذلك للزعماء الإئتلافيين العرب المناهضين لسياسة التتريك، أنه لا بد من القيام بمبادرة إعلامية، تهدف إلى عرض قضيتهم أمام الرأي العام الغربي، وإلى تنسيق جهودهم، بمعزل عن الضغوط المحلية، لا سيما وأن الصحافة الأوروبية، والفرنسية منها بنوع خاص بدأت تهتم مباشرة بقضيتهم مُركزة على أهمية دور سوريا في هذا النضال القومي، وعلى أهميتها في ميزان القوى الشرقية، نظراً لغنى مواردها ولمؤهلات رجالاتها ولمركزها الاستراتيجي المتميز كمفتاح للقارة الآسيوية، وبابها الغربي الرئيسي المطل على البحر الأبيض المتوسط. وقد تهيأت ظروف داخلية وخارجية ساعدت على إبراز أهمية هذه القضية القومية العربية... ومن هنا ظهرت الحركة القومية العربية على المسرح الدولي، فكان مؤتمر باريس (من ١٧ ـ ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩١٣) البداية والمنطلق[٨].. وقد خرج المؤتمرون بالقرارات التالية:

- وجوب تنفيذ الإصلاحات بسرعة

- ضرورة تطبيق اللامركزية في الولايات العربية.

---

(٨) راجع كتابنا: الأردن في التاريخ، الجزء الأول، ص ٧٨ ـ ٨١.

- اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في مجلس النواب العثماني وفي مجالس الولايات العربية.

- إقامة الخدمة العربية في الولايات العربية إلاّ في ظروف استثنائية.

- إذا رفضت الحكومة التركية الاستجابة للمطالب العربية، فإن المؤتمر يطالب الأعضاء برفض أي منصب حكومي إلاّ بموافقة الجمعية التي ينتمون إليها[٩]..

وكان ردّ فعل الحكومة التركية أن اتخذت قرارات أكثر تعسفاً وحقداً وكراهية، فأقصت الضباط العرب من العاصمة إلى الولايات التركية البعيدة، وأسندت قيادة القطعات العسكرية في الولايات العربية إلى ضباط أتراك، وأبعدت الضباط العرب منها، وبدأت بتطبيق السياسة العنصرية التركية وكلفت أحمد جمال باشا بإعداد برنامج التتريك، كما قامت بتطويق الحركة الإصلاحية المعارضة في أهم المدن التي ظهرت فيها ومراقبة العناصر الإصلاحية مراقبة شديدة ومقاومة الدعاية الداعية إلى الانفصال، وألغت الأحزاب العربية، وهددت باعتقال قياداتها.

وبالمقابل، ومن جراء هذه السياسة التعسفية، نضجت فكرة القومية العربية في صفوف المثقفين. فكانت مقالات عمر فاخوري حول الجنسية العربية، ودراسات مصطفى الغلاييني حول موضوع عوامل النهضة العربية، وجميع هذه المقالات والدراسات نشرت في جريدة «المقيد» لصاحبها عبد الغني العريسي، كان لها الأثر

(٩) تمكنت الحكومة التركية من شق أعضاء المؤتمر واستمالت بعضهم من خلال الترضية بمناصب عالية.

الكبير في توضيح وتعميق فكرة الإصلاح بمعناها القومي(١٠)..

لقد روى بعض المؤرخين، أن الأزمة التي استعصت بين العرب والأتراك حملت بعض النواب العرب إلى الاتصال ببعض أمراء الجزيرة العربية لطلب العون، وقد رأوا فيهم البديل الوحيد للسيطرة العنصرية التركية، ويقال إن اتصالات زعماء بلاد الشام شملت الإمام يحيى أمير اليمن، والأمير عبد العزيز بن سعود سلطان نجد، والشريف حسين بن علي أمير الحجاز. وكان الخيار الأخير وقع على الشريف حسين بن علي الذي كان يملك قوة هائلة يحسب لها ألف حساب، وحتى العام ١٩١٥، أصبح الشريف حسين أقوى سلطاناً من الوالي التركي، وبدأ يتجه نحو الإنكليز كقوة مساندة لتحرير البلاد العربية، وبدأت مراسلاته مع مكماهون حيث أصبحت هذه المراسلات من أشهر المراسلات السياسية شهرة وإثارة للجدل في تاريخ العرب الحديث، وبخاصة بعد الاطلاع عليها وتحليلها، بعد أن أقدمت الحكومة البريطانية على نشرها عام ١٩٣٩(١١).

---

(١٠) على النقيض ظهرت بعض الأفكار تدعو إلى الابتعاد عن مناهل الثقافة والحضارة التركية الشرقية ـ العربية ـ الإسلامية، وإلى العودة إلى مصادر العرق واللغة التركية الأصلية البعيدة عن الأصل السامي العربي والفارسي، وأصحاب هذه الأفكار معظمهم من اليهود، كأرثور ديفيدر، وآرمينيوس فامبري، وليون كاحصون وغيرهم من الجنسيات غير العربية.

(١١) كتابنا: تاريخ الأردن في التاريخ، ص ٨١.
راجع كتاب العماد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، وبخاصة الصفحات المخصصة لمراسلات حسين ـ مكماهون من ص ٣٩٩ ـ ٤٣٧.
أنظر كتابنا: مشاهير في التاريخ الأردني، الكتاب الأول، سيرة الشهيد كايد مفلح عبيدات، ص ٩٥ ـ ٩٧.

٣

بين التجربة الفكرية والممارسة السياسية

في مرحلة الاستقطاب والبحث عن الرجالات المخلصة للوطن، كان اسم أحمد مريود يتردد في الجلسات السرية التي كانت تعقد في القسطنطينية وباريس والمقرات المؤقتة للجمعية العربية المناهضة للاستبداد والحكم التركي، إذ كانت الهيئات التنفيذية لهذه الجمعيات ترى في شخصية أحمد مريود، الرجل المؤهل فكرياً ونضالياً وعقائدياً، أن يكون الممثل والناطق لهذه الجمعيات في أرض الوطن، فأخذ قادة الجمعيات يتسابقون برسائلهم ووفودهم للاتصال بهذا الرجل الثقة من كل الزعامات التي بدأت التفكير في دفع حالة النهوض الوطني في الولايات العربية إلى الأمام، ولخلق حالة جديدة في الشارع العربي، دفاعاً وحرصاً على التراث والتاريخ واللغة، حيث بدأ الخطر التركي يقترب من مبادىء الرسالة العربية الخالدة من خلال سياسة التتريك التي انتهجتها الحكومة المركزية في الآستانة. ولقد تعمقت علاقات الزعيم المجاهد مريود مع زعماء الحركة الوطنية العربية في مطلع عام ١٩١٠، عندما بدأ نشاط الحركة السري من خلال جمعياتها ونواديها الأدبية والسياسية. وفي

المقدمة جمعية «المنتدى الأدبي» والجمعية القحطانية، وكانت تلك الجمعيات تخصه بالسرّ، وتزوده بالنداءات والنشرات والبرامج النضالية، في وقت لم يكن يسمح لأحد بالانتماء إلى تلك الجمعيات وبخاصة «الجمعية القحطانية» ذات الصبغة العسكرية، حيث تكونت من خيرة الضباط العرب، وعلى رأسهم القائمقام عزيز المصري. وكانت هذه الجمعية لا تقبل في عضويتها إلاّ من كان فوق مستوى الشبهات، وممن يوثق بكتمانه السر. وكان أحمد مريود رغم صفته المدنية من أوائل الذين أطلعوا على برنامج الجمعية النضالي(١).

تؤكد المعلومات التاريخية عن تلك الحقبة الزمنية، أن المجاهد أحمد مريود رغم أنه كان يتعامل مع تلك الجمعيات، ويؤكد حرصه على الإيجابيات في برامجها، إلاّ أنه لم ينتسب عملياً لواحدة منها، إلاّ في عام ١٩١١ حيث انتسب إلى «جمعية العربية الفتاة» وأصبح فيما بعد من قادتها بعد أن نقلت جلّ أعمالها ونشاطاتها إلى دمشق. وقد أخذ على الجمعيات التي تأسست قبل «جمعية العربية الفتاة» (من ١٩٠٩ - ١٩١١) أنها:

- جمعيات قليلة التوسع في دائرة الجماهير العربية، واقتصر استقطابها على الطلاب الدارسين في البلاد الأوروبية والمدن

---

(١) كان مركز الجمعية في القسطنطينية ولها فروع في خمس مدن أخرى، وفي الأيام الأولى من تأسيسها قامت الجمعية بأعمال تنظيمية عارمة، إلاّ أنها لم تقم بعمل نشيط في خاتمة المطاف. وتبين أنه كان بين أعضائها عملاء مدسوسون ولذا اتخذ قرار بحل الجمعية قبلما تنتهي الأمور إلى مرحلة الاضطهادات، فقام عزيز علي المصري، بتشكيل جمعية العهد شديدة الصرامة، ومن بين الزعماء العرب الذين أسسوا الجمعية القحطانية هم: عبد الكريم قاسم الخليل، الأمير عادل إرسلان، د. عزت الجندي، محمد كرد علي، الأمير عارف الشهابي، وعلي النشاشيبي وكثيرون غيرهم من الضباط.

التركية، ولم تعط اهتمامها لأبناء الوطن في الداخل، وإن حدث ذلك فقد كان يجري على نطاق ضيق وبخاصة بين ذوات المدن الكبرى.

حتى نجيب عازوري الذي دعا في نداءاته إلى تأليف دولة عربية مستقلة عن الباب العالي كانت حركته في عزلة عن الجماهير الشعبية.

قال لوتسكي:

«كان هذا الانعزال عن الشعب وانقطاع الصلة بالجماهير السمة المميزة... وكان يعيش معظمهم خارج البلاد»(٢).

- كانت هذه الجمعيات ـ بعضها ـ تعتمد في كفاحها ضد الحكم العثماني على جمعيات تركية، ولم تحدد معالم حسم الصراع لصالح الاستقلال العربي التام عن الأمبراطورية العثمانية، بل إن بعض هذه الجمعيات (القحطانية) دعا إلى أن يكون السلطان التركي ملكاً على العرب والترك، وأن تمنح الولايات العربية الاستقلال في نطاق الأمبراطورية العثمانية.

- معظم تلك الجمعيات كان يعكس مصالح الأوساط البورجوازية الوطنية مغفلاً دور الجماهير والمنظمات الشعبية والشرائح الاجتماعية الأخرى، صاحبة المصلحة الأساسية في الثورة والتغيير.

وقد عبّر المجاهد أحمد مريود عن أفكاره في لقاء عام جرى في منزله يوم ٢٩ رجب ١٣٣٣هـ سنة ١٩١٥م بمناسبة وفاة السيدة والدته، حيث التقت في هذه المناسبة الشخصيات والزعامات

---

(٢) لوتكسي، المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

الوطنية التي جاءت للتعزية من الأردن، وحوران، وجبل العرب ودمشق وبقية مناطق سوريا الداخلية[٣]. وقد حدثني الشيخ تركي باشا الكايد العبيدات عن هذا اللقاء وما جرى فيه من حديث تناول القضايا والهموم القومية فقال[٤]:

«تلقى والدي رحمه الله رسالة من آل مريود عام ١٩١٥ يخبرونه فيها بوفاة السيدة الفاضلة أم أحمد مريود، وقد شكل والدي الوفد الذي سيرافقه إلى جباثا الخشب من الشيوخ: عزام العبيدات، قويدر العبيدات، سالم العبيدات ومجموعة من الرجال الفرسان.. وكنت أنا معهم. توجهنا إلى جباثا الخشب عن طريق درعا حيث وصلناها مساء اليوم نفسه، وكنا بضيافة الشيخ فاضل المحاميد الذي استقبلنا بإطلاق الرصاص فرحاً بنا. وفي صباح اليوم التالي توجهنا إلى جباثا الخشب ومعنا المحاميد ومجموعة من أقاربه، فاستقبلنا المجاهد والزميل الكريم أبو حسين الزعيم أحمد مريود وخاله، وجمع غفير من مشايخ الجولان. وفي المساء جاءت شخصيات كثيرةِ ومن أحياء دمشق ومن عائلاتها المعروفة، أتذكر منهم: شكري القوتلي ونسيب البكري والحاج أديب خيرو وعلي آغا زلفو وعبد الرحمن اليوسف ونبيه العظمة، جلال البخاري، عز الدين التنوخي، حسن الحكيم، خير الدين الزركلي، سامي السراج، كامل القصاب، رشدي الصفدي، وثلاثة من آل العسلي أعتقد أن من بينهم صبري

(٣) أرسل آل مريود رسائل إلى الشخصيات والزعامات العشائرية وسنختار الرسالة المرسلة إلى الشيخ الشهيد كايد المفلح العبيدات، زعيم عشائر العبيدات ومنطقة الكفارات في الشمال الأردني نظراً لتوفرها في أرشيفي الخاص وهذا نصها:
حضرة الوجيه الأمثل كايد أفندي المفلح حفظه الله.
أهديك تحية وسلاماً، وبعد، فإني أخبرك بكل أسف وفاة أم أحمد والدة أخينا أحمد أفندي مريود وتوفيت رحمها الله صباح الاثنين الواقع ٢٤ رجب/١٣٣٣هـ فعليه بادرت بإخباركم لعلمي أنكم شركاء لنا في الفرح والترح. وأختم عريضتي بإهداء السلام لعموم المشايخ ولعائلتكم الكريمة وأطال الله بقاءكم. ٢٦ رجب/ ١٣٣٣هـ.

(٤) مقابلة تمّت في مدينة التل يوم ٢٦ جزيران/يونيو ١٩٦٤.

العسلي، وحضر اللقاء أيضاً عادل أرسلان، مصطفى الأطرش، وسلطان باشا الأطرش، إسماعيل الترك، وشخصيات كثيرة لم أعد أتذكرها، هذا بالإضافة إلى الشيخ عبد الله الطحان والأمير محمود الفاعور والشيخ زعل السلوم ونبيه العظمة.

وثلاثة أو أكثر من أنسباء الزعيم أحمد مريود: عمه أسعد العاصي أفندي وابنه الأكبر وأخوه الحاج كامل العاصي وقد عرفت فيما بعد أن هذا الرجل كان من كبار المتحمسين للثورة. وبعد التعارف والترحيب بوالدي من قبل الجميع وبخاصة من أحمد مريود ومن قبل الحاضرين من زعماء دمشق تحوّل الحديث إلى السياسة..

وتركز حول الحالة المتردية التي آلت إليها الأمبراطورية العثمانية، وحروبها الخاسرة في البلقان واليمن وليبيا، وعن مستقبل العلاقات العربية ـ التركية في ظل الدولة العثمانية، ثم تحول إلى الأحزاب والجمعيات السرية العربية التي تشكلت خارج الوطن العربي... وقد بدأ الحديث السيد حسن الحكيم، وكان حديثه يدور حول الأوضاع العالمية المضطربة، ومحاولة الأتراك البحث في عوامل الاستقرار من خلال التحالف مع ألمانيا وتقوية العصبية الإسلامية.

وتحدث خير الدين الزركلي، عن زحمة المشاريع التي تتنافس فوق أرضنا، مع وجود سلطة مركزية تحاول عبثاً اللعب على المتناقضات الدولية. واتهم الجمعيات العربية بالتشتت وضياع الوقت إذا لم توحّد نضالها، وحمّل «الجمعية العربية الفتاة» مسؤولية التصدي لجمع الشمل ووحدة القوى. وقد أيّده نبيه العظمة، الذي تحدث عن المخاطر الصهيونية، وأشار إلى أن الحركة الصهيونية وجمعية الاتحاد والترقي تربطهما علاقة يكتنفها الكثير من الغموض. حاول والدي أن لا يتحدث في هذه الجلسة، ولكن نزولاً عند رغبة صديقه وصديقي فيما بعد، ورغبة الآخرين في التعرف على وجهة نظر والدي الذي يمثل منطقة كبيرة في الأردن، قال والدي...

نحن أبناء أمة أعزها الله بالإسلام، وكرّمها عندما جعلها خير أمة أخرجت للناس، وخصنا بالسيادة، وحمّلنا مسؤولية نشر العدل ومكارم الأخلاق، السؤال... أين نحن من كل هذا العزّ والتكريم الرباني؟؟ علينا أن نذكّر قادة تركيا، بأن تركيا ستموت أمبراطوريتها إذا تخلت عن العرب وبقيت تمارس عليهم الظلم والقهر، والحل كما أفهمته لنائب الوالي أثر ثورة الكرك عام ١٩١٠، يكمن في حرية العرب وإقامة دولتهم المستقلة الصديقة للدولة التركية، وإلاّ سنكون وإياهم فريسة للأطماع الأوروبية»[٥].

ويتابع الشيخ تركي باشا العبيدات حديثه عن الذكريات التاريخية المجيدة ليصل محطة مهمة في ذاكرته فيقول:

«الرجل الذي شدني ووالدي بحديثه، هو المجاهد الكبير الذي بكيته كما بكيت والدي، شيخ الشهداء أحمد مريود، كان يتحدث وكأن هموم الوطن كلها فوق منكبيه، وشعرت من حديثه الهام كرهه كل المستعمرين في الدنيا الطامعين ببلادنا بالإضافة إلى الاستعمار التركي، وأتذكر أنه قال:

ـ يجب على العرب كل العرب من صغيرهم إلى كبيرهم أن يعيدوا قراءة تاريخهم والسيرة النبوية وسيرة أصحاب رسول الله(ص)، الأبطال الذين سلّمونا أمانة الأمة والوطن، حتى نعيد تاريخهم ومجدهم، فالذي لا يعرف ماضيه لن يعرف كيف سيكون مستقبله وأكدّ على تلازم العروبة والإسلام فكل عربي مسلم التراث والتاريخ والأمجاد والعثرات في آن معاً.

(٥) كايد مفلح العبيدات: ولد في قرية كفرسوم ١٨٦٨ وعين عضواً في مجلس القضاء، ثم نصّب زعيماً لمنطقة الكفارات في شمال الأردن، توفي في ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٢٠ في معركة أم الثعالب في فلسطين، حيث أعلن الثورة ضد الانتداب البريطاني والهجرة اليهودية (ألّفت كتاباً عن سيرته النضالية وهو الكتاب الأول من هذه السلسلة).

ـ الدولة العثمانية تعيش سنوات الاحتضار، وقبل أن تموت ستمارس القتل لكل عربي يحاول رفع رأسه. لذلك يتوجب أن يكون النضال العربي شمولي الفكر والتنظيم والسياسة، قوامه كل الجماهير وهدفه بناء المجتمع العربي في ظل الوحدة، وهي ضمان وجود وازدهار الحضارة العربية ونعني هنا وحدة مصر وسورية والعراق نواة الوحدة الكبرى وضمانة البقاء والاستمرار.

ـ إن وحدة القوى العربية الوطنية، ذات النظرة البعيدة للمستقبل العربي كفيلة بتحقيق الحدّ الأدنى من بناء علاقات تنظيمية مع الشرائح الاجتماعية، صاحبة السلاح الأقوى في المجابهة ضدّ التيارات التركية والاستعمارية الأخرى والمتعصبة لعرقها وقوميتها. وجمعية العربية الفتاة هي المؤهلة أن تكون الإطار التنظيمي والسياسي لكافة القوى والجمعيات العربية.

ـ إن توظيف الجهد العام الوطني لصالح فئة خاصة سيؤدي بالنهاية إلى حلول لا يستفيد منها إلاّ الداعين لها، وبمجرد التلويح لها من قبل الباب العالي أو من قبل الوالي التركي ستكون جاهزة، لأن الترغيب سيكون الأسلوب المتبع لدى الإدارة العثمانية في مثل ظروفنا الحالية.. وقد أكّد المجاهد أحمد مريود على صفوة القيادة في العمل الوطني والثوري. واتجه بفكره إلى المناضلين والقياديين العرب من بلاد الشام ومصر الذين جاهدوا بالسيف وبالقلم لتحرير أمتهم وتحقيق وحدتها على أسس الديموقراطية والشورى.

وعلى هامش هذا اللقاء الذي تحول: من اجتماع للعزاء بوفاة السيدة الفاضلة أم أحمد مريود، إلى ندوة فكرية وسياسية وتنظيمية، نسي الزعيم مريود ـ كما قال تركي العبيدات ـ «أننا جئنا لمواساته وتخفيف المصاب عنه فحمّلنا هموم الوطن العربي كله»[٦].

---

(٦) راجع كتابنا: سيرة المجاهد الشيخ كايد المفلح العبيدات، ص ٢٠ ـ ٢٤ و٩٦.
أنظر: صور من البطولة، المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
راجع كتاب: «شهداء الحرب العالمية الكبرى» للمؤرخ أدهم الجندي.

طلب نبيه العظمة جلسة سرية اختار لحضورها: أحمد مريود، كايد المفلح العبيدات، فاضل المحاميد والحاج أديب خير وعلي آغا زلفو ونسيب البكري وآخرين لست أذكرهم وتمّ الاتفاق في هذا اللقاء السري، أن تكون جباثا الخشب المحطة الأولى لإيواء الفارين من الظلم العثماني، ويشرف الزعيم أحمد مريود على تأمين حمايتهم ونقلهم خارج حدود الخطر، وأن تكون درعا المحطة الثانية، ويشرف على حمايتهم الشيخ فاضل المحاميد، وأن تكون كفرسوم في الأردن المحطة الثالثة، ويشرف على نقلهم إلى الحجاز الشيخ كايد مفلح العبيدات، بالتعاون والتخطيط مع المجاهد أحمد مريود والذي وضع خلال هذه اللقاءات الإطار الفكري والتنظيمي».

وهكذا يمكن القول إن عام ١٩١٢، كان بالنسبة إلى المجاهد أحمد مريود من بين أنشط أعوام المواجهة الفكرية والسياسية والنضالية، فقد ضحى بنفسه أكثر من مرة ومنها عندما كان يقوم بإيواء الشخصيات الوطنية في منزله ونقلهم خارج حدود خطر المخابرات والمباحث التركية، التي نشطت في بحثها ومراقبتها ضد القوى والفعاليات الحزبية والوطنية العربية المعارضة، وقد تعمقت الممارسة السياسية والتجربة النضالية اعتباراً من شهر تموز/ يوليو عام ١٩١٠، كانت نهايتها المؤقتة في سجن عاليه الذي قضى فيه بضعة شهور، ليخرج منه بتجربة أكثر شجاعة وعنفاً، وأعمق إيماناً بقدرة الأمة العربية على تجاوز جراحها..

من أين بدأت رحلة النضال؟

وكيف بدأت هذه الرحلة المباركة؟

ومن هم رفاق الدرب الطويل؟».

وعلى لسان مجموعة من الكتّاب والمؤرخين وردت تفاصيل رحلة النضال والسجن كما يلي[7]:

كان أحمد جمال باشا[8] العضو البارز في جمعية الاتحاد والترقي،

(٧) تحول اللقاء الحاشد برجالات الأمة وقياداتها في جباثا الخشب من مناسبة للتعزية بوفاة السيدة الفاضلة والدة المجاهد الكبير أحمد مريود، إلى جلسة فكرية سياسية حافلة. ويعلم الخاصة المقرّبون من المناضل أحمد مريود أنه، مثله كمثل جميع المؤمنين، ينطلق من التوكل على الله ومن تحكيم العقل «أعقل وتوكل» وهو يقبل مشيئة الله وقضاءه بكامل الرضى والتسليم. ومن جهة أخرى فهو ينفر من ويسفّه مظاهر الطقوسية المفرطة من مثل المبالغة بالحزن وإطالة مدته. وكان يرى أن كل مناسبة اجتماعية تحقق تلاقي الشعب والقيادات تحقق التواصل والتشاور واتخاذ القرار السليم الذي يخدم كفاح الأمة. وكما حقق الحزن على الوالدة اللقاء العتيد، كان يرى أن الأفراح مثل مناسبات الزواج أو الختان وهي تحفل باجتماع الناس الذين كانوا يتقاطرون على جباثا الخشب زرافات آتية من مشارف بلدة قطنا ومروراً بكل القرى والبلدات في الجولان وجبل الشيخ إلى آخر قرى وبلدات العرقوب؛ هذه الأفراح تحقق التواصل واتخاذ القرار الأنسب لخدمة قضايا الأمة. وقد ظل آل مريود وأهالي مناطق الجولان والعرقوب وغيرهم يسيرون على سنته هذه بعد استشهاده. ويروى أن الثلاثينات والأربعينات وما بعدها حفلت بأفراح ولقاءات الأعراس وحفلات الختان وكلها كانت حاشدة.
ويظلّ حفل الختان الكبير الذي تمّ في الثلاثينات بجباثا الخشب حياً في الأذهان لكثرة الجماهير الحاشدة التي جاءته من مشارف قطنا وحتى آخر بلدات قرى العرقوب وكان أبرز الفتيان الذين طالتهم موسى المطهّر الأستاذ أياد سعيد ثابت ابن المجاهد الكبير سعيد الحاج ثابت وهو من خيرة قيادات حزب الاستقلال وكانت والدته السيدة الفاضلة نبيهة مريود شقيقة المجاهد الكبير أحمد مريود والتي كان لها باع طويل في النضال التحرري امتد لما بعد الستينات وكان لها لقاء مشهود مع الرئيس جمال عبد الناصر وكان ولدها اياد سعيد ثابت وابنتها يسرى سعيد ثابت وزوجها حميد مرعي من خيرة القيادات الشابّة لحركة التحرر العربي..

(٨) أحمد جمال باشا: قائد عسكري وسياسي عثماني (١٨٧٣ - ١٩٢٢) انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي مع أنور باشا وطلعت باشا وأصبح من زعمائها. عيّن وزيراً للأشغال العامة عام ١٩١٣ ثم قائداً للبحرية العثمانية عام ١٩١٤، ثم عيّن قائداً للجيش الرابع في سوريا ١٩١٥ - ١٩١٧، وقاد حملة فاشلة على قناة السويس. سمّي بالسفاح لشدة سفكه دماء العرب. بعد الحرب العالمية الأولى أرسل إلى أفغانستان على رأس بعثة عسكرية وأغتيل في طريقه إلى تركيا في تفليس عام ١٩٢٢.

ووزير الحربية في الوزارة العثمانية، هو الرجل التركي المسيطر على دمشق، ومنح من السلطات بحكم القانون العسكري، ما أصبح بمقتضاه رئيساً للحكومة في بلاد الشام وقائداً عاماً للجيش... اتبع في بادىء الأمر سياسة المداورة وكسب العرب في صف تركيا. فعمل على زرع الطمأنينة وانتزاع المخاوف من نفوسهم. وفجأة جاءه الحماس وقرر أن يقوم بحملة على مصر ليعيدها إلى دائرة السلطة العثمانية وبخاصة بعد أن أعلنت بريطانيا في ذلك الوقت أن مصر أصبحت تحت حمايتها. الحملة فشلت فشلاً ذريعاً ولم تنجح خطته فعاد إلى دمشق مكسور الخاطر، وأصبح حاد المزاج عصبياً «كما هي عادة أوساط القادة حينما يصابون بخيبة الأمل المريرة»[٩]. فصار يصدق كل ما يقال له عن نشاطات عربية سرية ويوقع على حكم الإعدام بحق الأبرياء العرب[١٠] وأخذ يشك بكل شيء، نتيجة التقارير التي كانت تنهال على مكتبه. «وكانت تتضمن سرداً للأدلة التي تتزايد شيئاً فشيئاً عن النشاط السري للجمعيات القومية: فالجيش مليء بالخلايا الثورية، ولإنكلترا وفرنسا عملاء في البلاد يحرّضون على الثورة، ومن المتوقع نزول قوات الحلفاء على شواطىء الشام، كما أن بعض الضباط قد تعهد بمساعدة الحلفاء حينما ينزلون هناك»[١١].

وفي حزيران/يونيو ١٩١٥، وهو في تلك الحالة، طلب من أنور باشا أن يرسل ببعض الفرق إلى جبهة «غاليبولي». فأرسل الفرقة الخامسة والعشرين، وجميع أفرادها من العرب - وهي أحد

(٩) مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، ص ١٧٩.

(١٠) نفّذ حكم الاعدام بحق القسيس الماروني يوسف الحايك، واتهمه بتبادل الرسائل مع رئيس البرلمان الفرنسي «ديشانل» ونفذ الحكم علناً أمام الجمهور في دمشق في الثاني والعشرين من شهر آذار/ مارس سنة ١٩١٥.

(١١) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ١٧٩.

الأركان التي كانت تعتمد عليها منظمة العهد في خطتها للقيام بالثورة ـ وقد صار فيما بعد يقصي الكتائب العربية عن بلاد الشام كلما واتته الفرصة ويستبدل بها كتائب غالبية جنودها من الأتراك ثم أخذ يوجه همه إلى المنظمات المدنية، وقرر أن يحاكم المتهمين الذين ورد ذكرهم في الوثائق التي عثر عليها في القنصلية الفرنسية، ويبدو أن أسماء جلال البخاري وعز الدين التنوخي والشهابي والعريسي كانت من بين الأسماء المطلوبة للمحاكمة، لذلك لجأ في البداية جلال البخاري وعز الدين التنوخي إلى الزعيم أحمد مريود طلباً للحماية والنجاة من بطش جمال السفاح، والعمل على تهريبهما خارج البلاد. يقول المؤرخ الأردني سليمان الموسى في كتابه صور من البطولة ما يلي[١٢]:

«في عام ١٩١٥، عندما أخذ جمال باشا يسوق رجال العرب إلى منافي الأناضول، عمد جلال البخاري وعز الدين التنوخي إلى الفرار ولجأا إلى الزعيم أحمد مريود في قرية جباثا الخشب.. عرف الأتراك من جواسيسهم بما حدث، وخشي الزعيم أحمد مريود على حياة ضيفيه، فاعتزم الخروج بهما من القرية. وفعلاً صحبهما مع عدد من رجاله المسلحين إلى حوران ومنها إلى قرية كفرسوم[١٣] حيث نزلوا عند الشيخ كايد المفلح العبيدات شيخ عشيرة العبيدات، وكان صديقاً لأحمد مريود. ومن هناك رحلوا إلى الزرقاء ثم إلى الموقر حيث حلّوا في ضيافة الشيخ حديثه

(١٢) أنظر من الصفحة ١٠٨ ـ ١٠٩ وراجع كتابنا: **سيرة الشهيد كايد المفلح العبيدات**، ص ٢٠ ـ ٢٥.

(١٣) بلدة كفرسوم: وهي بلدتي ومسقط رأسي، تقع في الشمال الأردني وعلى بعد ١٦ كم إلى الشمال من مدينة إربد، ويبلغ عدد سكانها حوالى ٦ آلاف نسمة وترتفع ٤٥٥ متراً عن سطح البحر. يشتهر أهلها بالعلم والثقافة، وفيها أكثر من ألف شاب يحملون شهادات الدكتوراه والماجستير والليسانس وحوالى ٣٠٠ طالب في الجامعات. كانت في عام ١٩٢٠ بعد سقوط حكومة فيصل المقر الرئيسي للزعيم أحمد مريود و(٣١٠) من المجاهدين. وأقاموا فيها حتى عام ١٩٢٢.

الحريشة من كبار شيوخ بني صخر. ومن هناك توجه البخاري والتنوخي إلى الجوف وكان دليلهم الشيخ فرحان الحريشة».

وعن هذه الواقعة التاريخية. حدثني المرحوم تركي باشا الكايد العبيدات فقال:

«في عام ١٩١٥، وفي ليلة مقمرة، وقبل طلوع الفجر، سمعت صهيل خيول أصيلة بالقرب من العَقْدة[١٤] فاتجهت نحوها وإذا بالزعيم الوطني الكبير الصديق أحمد مريود ومعه ثلاثة مسلحين، رحبت بهم وأجلستهم في العَقْدة وقد تذكرتهم حيث تعرفت عليهم في جباثا الخشب عام ١٩١٥ يوم ذهبنا للعزاء بوفاة السيدة الفاضلة أم أحمد. أعلمت والدي فوراً واستقبل خبر قدوم العزيز أبو حسين بالفرح والسرور، وبعد صلاة الفجر وتناول الإفطار وقهوة الصباح العربية بدأ الحديث عن المهمة النضالية التي جاء من أجلها أبو حسين وتتطلب نقل التنوخي والبخاري إلى الديار الحجازية هرباً من بطش جمال السفاح. وقد اقترح والدي أن يبقيا في كفرسوم فمن دخلها لن يكون إلاّ آمناً بإذن الله، إلاّ أن الزعيم أحمد مريود قال إن الخطة تقضي أن يذهبا إلى الجوف، وفي منتصف ليل اليوم التالي رحل التنوخي والبخاري إلى الجوف عن طريق إربد ـ الزرقاء ـ الموقر ومن ثم إلى الجوف وقد رافقهما بالرحلة حتى أطراف الموقف ثلاثة من رجالنا الفرسان وهم: أحمد محمد موسى عبيدات، نهار سميرات، أحمد أبو فيصل، وبقي الزعيم في ضيافتنا لمدة ثلاثة أيام حتى أيقن أن البخاري والتنوخي قد وصلا أرض السلامة، ثم غادرنا ليبحث أمور الوطن المصيرية... وأتذكر أنه جاء إلينا بهذه الهواجس الكبيرة أكثر من مرة، وكانت رحلته الأخيرة مضنية ومتعبة أدت به إلى السجن وهذه حكاية طويلة».

---

(١٤) العَقْدة: هي مضافة الشيخ كايد مفلح العبيدات، وديوان عشريته في قرية كفرسوم ومساحتها ٣٦م٢ من أصل مساحة الدار التي يسكنها البالغة (٣٠٠٠م٢)، (راجع كتابنا: سيرة الشهيد كايد، ص ١٥).

وفي ذلك اللقاء القصير بين الزعيمين الشهيدين كايد وأحمد مريود، وضع الأخير صديقه في صورة الأحداث التي تعيشها سوريا الداخلية وبخاصة دمشق التي يعيش أهلها عهد الظلم القاسي والإعدامات العشوائية والنفي التعسفي، والتجويع المتعمد من قبل سلطان جمال باشا، الذي أخذ يتصرف بعصبية العسكري المهزوم والسياسي الفاشل، والمستعمر المنتقم والقائد والسياسي الذي ينتظر الهزيمة على يد جيوش الحلفاء ليدفع وحكومته ثمن الدخول في حروب خاسرة إلى جانب ألمانيا.

وفي ضوء هذه التحركات الوطنية النشطة الواسعة، فإن السلطات العثمانية وضعت منزل الزعيم مريود تحت المراقبة خلال فترة غيابه عن القرية، وأخذ دركها يسألون عن أحمد مريود وعن الجهة التي سافر إليها، والمهمة التي تجعله يتغيب عن أهله أكثر من أسبوع... فلم تقتنع سلطات الدرك التركية «بأنه ذهب إلى حوران بقصد التجارة بل كانت مقتنعة بأنه يذهب إلى حوران بقصد تعبئة القوى الوطنية وحماية الدماشقة من السلطات ومساعدتهم في السفر إلى حوران ومنها إلى شرقي الأردن. وذكرت المصادر أن سلطات الدرك العثمانية ومخابرات جمال باشا خصصت فيما بعد أحد كبار عناصر الدرك من أصل عربي، وكان هذا الضابط يحضر يومياً ويسأل أهل مريود عن المجاهد أحمد مريود، ولكن بدون إزعاج أو استفزاز، وقد لوحظ عليه علامات التعاطف والإعجاب بالذي يقوم به أحمد مريود لصالح الوطن، وإبعاد الأذى عن المناضلين الأحرار.

وفي مقابلة مع الشيخ أحمد محمد موسى عبيدات، عضو الارتباط الأساسي بين الزعيمين كايد عبيدات، وأحمد مريود، قال لي:

«عندما كان يبعث لحضوري عمي الشيخ كايد، أو عمي عزام العبيدات، كنت أعرف سلفاً أن الزعيم مريود في ديارنا، وإن لم يكن هذا السبب فإن مهمة جديدة، تتطلب مني السفر إلى درعا أو إلى جباثا الخشب لحمل رسالة إلى أبي- حسين رحمه الله».

ثم قال والدمعة في عينه:

«تعود أهل كفرسوم أن يكون عمي الشيخ كايد وبجانبه عمي عزام، في الديوان، وعندما يتغيب عنها، يبدأ الشك عند البعض بأن جماعة مريود وصلوا وأن الشيخ لا يحب الاجتماع بهم أمام الناس، للسرية التامة في العمل. ولكن أنا كنت أعرف كل صغيرة وكبيرة بين الاثنين، وكان الشهيد الزعيم مريود رحمه الله يحبني كثيراً ويثق بي ثقة مطلقة، ومازحني مرة عندما نجحت بمهمة صعبة، وقال لي: سأزوجك من بنات جباثا الخشب، وعندما نزح إلى كفرسوم مع جماعته الثوار عام ١٩٢٠ ذكرته بالوعد، ومازحته بمثل ما مازحني»[١٥].

وعن الرحلة النضالية حدّثنا «أدهم الجندي» في كتابه «شهداء الحرب العالمية الأولى» فقال:

«في شهر تموز/يوليو ١٩١٥، أعدّ أحمد مريود العدة للرحيل إلى الجوف، وأنه اجتمع بأصدقائه البخاري والتنوخي والبساط والشهابي والعريسي وحمد في موقع «الزلف» عند عرب الغياث. ومن هناك انتقلوا إلى موقع «الهزيم» على أمل أن يجدوا الشيخ حديثة الخريشة، ولكنهم وجدوا فخذاً من عشيرة السرحان وشيخهم حمد بن بالي، فما كان من هذا الشيخ إلاّ أن سلبهم ما يحملون من سلاح ومال وأمتعة وخيول، ظناً منه أنهم من الدروز الذين كان على عداء معهم. ولكن أحمد مريود ذهب إلى الشيخ حديثة لاسترداد ما سلبه السراحين.

(١٥) جرت المقابلة مع الشيخ أبو محمد في قرية كفرسوم، الأردن يوم ١٩٩٣/١١/١٦ في منزل ولده العقيد شفيق عبيدات، ويتمتع محدثي بذاكرة جيدة رغم تجاوزه سن المائة عام.

كان نواف الشعلان عضواً في جمعية الفتاة فقصده الأصدقاء المذكورون في الجوف مركز إمارته. ولكن نوافاً خشي بطش الأتراك فطلب إليهم أن يرحلوا على أن يساعدهم في ذلك. وبادر حمد والبساط والشهابي والعريسي إلى الرحيل أولاً، وأعطاهم نواف الشعلان رسالة توصية إلى الشيخ شهاب الفقير شيخ عرب الفقير، إذ كانوا يزمعون السفر إلى المدينة المنورة والانضمام إلى الشريف فيصل بن الحسين. وقيل إن ذلك الشيخ طمع بجمالهم فأقنعهم أن يسافروا بالقطار من محطة «مداين صالح» وشاء القدر إن يتعرف عليهم في المحطة طبيب من أصل تركي كان زميلاً لهم أيام الدراسة، فأبلغ عنهم، وألقي القبض عليهم فأعيدوا إلى دمشق ثم حوكموا وأعدموا أما أحمد مريود فلم يكن بمقدوره أن يصطحب معه سوى واحد من صديقيه لذلك اختار التنوخي أن يغادر الجوف باتجاه العراق، وكان ذلك سبباً في نجاته من حبل المشنقة[١٦].

ومضى المجاهد أحمد مريود مع الصديق الثاني جلال البخاري إلى مضارب عرب الفقير، وهنا علم بما حدث للرفاق الآخرين فعاد إلى الجوف، وكان نواف الشعلان قد رحل إلى بلدة الضمير حيث يقيم والده نوري الشعلان فلحقا به إليها.

وعندما عرف نوري الشعلان جلية الأمر قام بتسليم أحمد مريود وجلال البخاري وأحمد الخطيب، وكذلك الأمير طاهر الجزائري[١٧] إلى جمال باشا.

سيق الزعيم أحمد مريود الى أحد أهم القيادات العسكرية في عاليه بلبنان. وكان من الراجح أن يحكم عليه بالإعدام مثل رفاقه، ولكن شاء حسن الحظ أن يعرف النائب العام الذي حلّ في ضيافة الزعيم أحمد مريود في قريته قبل الحرب، ولقي من

---

(١٦) كان عز الدين التنوخي من بين الأسماء المطلوبة للمحاكمة في دمشق.

(١٧) من المؤكد أن أحمد الخطيب خال الزعيم أحمد مريود لم يكن في هذه الرحلة وكذلك الأمير طاهر الجزائري، بعكس ما ورد في كتاب أدهم الجندي «واسع الخيال».

الإكرام ما أثر في نفسه، فهمس في أذن أحمد أن يدعي أنه كان في البادية بقصد التجارة. وهكذا كان[١٨].

وعلى الرغم من صدور حكم المحكمة ببراءته، فإنه ظل في السجن ولم يطلق سراحه إلاّ قبيل الحرب، فأخذ يهيىء الأفكار لدخول الجيش العربي إلى سوريا لتحريرها[١٩].

لم يكن الزعيم المجاهد أحمد مريود مسروراً ببراءته، والاعدامات برفاقه ينفذها جمال السفاح بالجملة، ولكن قدره أن يبقى لتنفيذ مهمات نضالية كفاحية فيما بعد وليقود أهم وأطول ثورة من عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ثم من ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ في الأردن ثم ١٩٢٦ مجدداً. إن شهر حزيران/ يونيو عام ١٩١٥، هو شهر الشؤم في تاريخ الحركة الوطنية العربية المناهضة للحكم العثماني ولإجراءات السفاح جمال الانتقامية، فعلاوة على اعتقال الزعيم مريود ورفاقه، وحبسهم في سجن «عاليه» ألقي القبض على عدد من المجاهدين وقدموا إلى محكمة عسكرية اشتهرت بالشؤم ـ في عاليه بجبل لبنان، فاستُجوبوا، وعذبوا وحوكموا، وصدر الحكم بإعدام ثلاثة عشر منهم، وبالحكم نفسه غيابياً على خمسة وأربعين آخرين ممن كانوا خارج البلاد أو كانوا قد فرّوا، كما حُكم على عدد غيرهم بالسجن مدداً متفاوتة وبالنفي، وكانوا جميعاً من الرجال البارزين، وبعضهم من الشخصيات المشهورة في أنحاء الوطن العربي.

وقد أرجىء تنفيذ الحكم في اثنين من الثلاثة عشر الذين حضروا

---

(١٨) راجع كتابنا: سيرة الشهيد كايد المفلح العبيدات، ص ٢١ ـ ٢٢، وانظر: صور من البطولة، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(١٩) نعتقد أن فترة السجن كانت لا تتجاوز الأربعة أشهر بدليل أن مريود شارك بمعظم اللقاءات التي عقدها الأمير فيصل بدمشق مع أعضاء جمعية الفتاة قبل عام ١٩١٦ بوصفه عضواً في اللجنة العليا لهذه الجمعية التي كان الأمير فيصل رئيساً فخرياً لها.

المحاكمة واستمعوا إلى الحكم الصادر بإعدامهم، أما الباقون فقد نُفذ فيهم الحكم فجر اليوم الحادي والعشرين من شهر آب/ أغسطس ١٩١٥. فنُصِبتْ إحدى عشرة مشنقة في الميدان الرئيسي بيروت، الذي سمي فيما بعد بميدان الشهداء[٢٠] وكان عشرة من هؤلاء المناضلين مسلمين، أما الحادي عشر فكان مسيحياً[٢١]. ولقد جيء بهم من أنحاء مختلفة من بلاد الشام، وكان أكثرهم في ريعان الشباب، وقد أحسنوا استقبال الموت، ولاقت كلماتهم الأخيرة ـ التي صدرت عنهم قبل شنقهم ـ من تقدير أمتهم ما جعلها بمثابة رسالة وطنية مثيرة للمشاعر[٢٢]. وكان محمد المحمصاني واحداً منهم، وهو من المتخرجين النابهين في مدرسة الحقوق بباريس، وأحد مؤسسي جمعية «العربية الفتاة»، وعلى الرغم مما تعرض له من تعذيب وما وعدوه به من العفو إذا ما اعترف، فإنه استشهد دون أن ينطق بحرف واحد عن وجود الجمعية.

أما الشخصان اللذان أرجىء تنفيذ الحكم فيهما فهما: حافظ السعيد من يافا، والشيخ سعيد الكرمي من طول كرم، ثم خفف الحكم عليهما من الإعدام إلى السجن المؤبد بسبب كبر سنهما. وقد مات حافظ السعيد في سجنه. ونجا أحد هؤلاء الرجال بمعجزة، وهو حسن حماد من نابلس، ذلك أنه لم يتسلم إشعار استدعائه بسبب تأخر في الإجراءات، فلم يحضر الجلسة بل ذهب

(٢٠) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ١٨٠.
(٢١) المصدر نفسه، ص ١٨١.
(٢٢) راجع أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى المجلد الأول، ص ٨٣ ـ ٩٢، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ حيث جمع أقوال الشهداء قبل رحيلهم إلى الرفيق الأعلى. وراجع أدمون رباط في كتابه، الوحدة السورية والمستقبل العربي، (باريس، ١٩٢٧)، ص ١٠٥ (وراجع طلاس، ص ١٨٠ ـ ١٨١).

وهو خالي البال ليصرف أمور عمله بوصفه رئيساً لدائرة تسجيل الأراضي في نابلس. فحكم عليهم غيابياً بالإعدام، وفي تلك الأثناء وصله إشعار الاستدعاء، فسافر للمثول أمام المحكمة العسكرية في عاليه. وحينما وصل إلى فندق البلدة قرأ بالمصادفة إحدى الصحف التي نشرت الحكم عليه. فتناول حقيبة ملابسه، واستقل القطار إلى دمشق واختفى فيها وأطلق لحيته، وتزوج ابنة الرجل الذي اختبأ عنده وأنجب منها طفلين ـ كما ذكر العماد مصطفى طلاس في كتابه الثورة العربية الكبرى ـ وعاد إلى نابلس بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

أما الشيخ كايد المفلح العبيدات، فكاد أن يصيبه ما أصاب رفاقه الذين استضافهم في قريته ومنزله، فقد علمت السلطات التركية فيما بعد أنه كان وراء تهريب مجموعة من المناضلين إلى الجوف والحجاز. فبعد أن علم بما جرى للزعيم الوطني أحمد مريود ورفاقه قام باتصالات مكثفة مع زعماء العشائر وفي مقدمتهم راشد الخزاعي، وسليمان السودي، وناجي العزام، وحديثة الخريشة، وفاضل المحاميد وآل الأطرش في جبل العرب، كما قام بزيارة لمندوب الوالي التركي في سرايا إربد ولم يعثر عليه(٢٣). كل ذلك من أجل بذل المستحيل لإنقاذ حياة أحمد مريود ورفاقه، إلاّ أن كل هذه الاتصالات باءت بالفشل.

وفي أواخر شهر حزيران/يونيو ١٩١٥ جاءه من يخبره أن السلطات العثمانية في دمشق بعثت بإشعار تؤكد فيه على ضرورة مراجعتها بأقصى سرعة وذلك لأمر يتطلب تنظيم الجهاد المقدس، إلاّ أن الشيخ كايد عرف الحيلة الخبيثة فغادر المنطقة مع ثلاثة من

---

(٢٣) من ذاكرة الشيخ أحمد محمد موسى العبيدات.

الفرسان باتجاه قرية سما الروسان قرية الشيخ سليمان باشا السودي، وأبلغه بالطلب التركي فبيّن له السودي أنه أمام خيارات صعبة إذا سلّم نفسه للسلطات العثمانية. فهي في هذه الأيام لا تتعامل مع الزعامات الشعبية والعشائرية إلاّ بالاستفزاز المتعمد، فأصبحت لا تثق إلاّ بجواسيسها. والخيارات هي: إما الإعدام الفوري، أو السجن المؤبد، أو النفي إلى بلاد الأناضول، فاقترح عليه سليمان السودي أن يغادر المنطقة لعدة أيام، وفضّل له الإقامة في عجلون عند الشيخ راشد الخزاعي، إلاّ أن الشيخ كايد رفض في البداية الاختفاء وقال: «يا ليتني كنت مع صديقي أحمد مريود. فأنا لست بأحسن منه، وما يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا»[٢٤]. وعاد إلى قريته كفرسوم ينتظر مصيره، فوجد في مضافته عمه عزام الجبر العبيدات فسلمه رسالة من صديقه فاضل المحاميد يطلب منه القدوم إلى درعا فوراً وإلاّ ستكون النتيجة غير مرضية للجميع..

عن هذه الرسالة ومضمونها حدثني طويل العمر وعضو الارتباط الشيخ أحمد الموسى (أبو محمد) فقال:

«منذ أن عرف عمي الشيخ كايد بسجن صديقه الودود الزعيم أحمد مريود، تغيرت حياته اليومية وأصبح عصبي المزاج، لا يهدأ له بال.. كان يحبه كثيراً ويفديه بنفسه، وكان يرغب تسليم نفسه لأجل أن يبقى بجانبه في السجن، وسمعته أكثر من مرة وبعد كل صلاة يناجي ربه من أجل الإفراج عنه والتخفيف عن مصابه.. ويوم وصلت رسالة الشيخ فاضل المحاميد، تأكد أن الأمور وصلت درجة الخطورة فأمرني بتجهيز نفسي للسفر ليلاً

---

(٢٤) أوراق تركي باشا الكايد، وراجع كتابنا: مشاهير في التاريخ الأردني، الكتاب الأول، سيرة الشهيد كايد، ص ٢٢ ـ ٢٣.

بصحبته إلى درعا، فوصلناها مع طلوع الفجر وأعلمنا المحاميد أن جواسيس جمال باشا يبحثون عن كل المناضلين في كل المناطق. وقد نمّي إليه ومن مصادر موثوقة وصديقة تعمل مع السلطات العثمانية أن الشيخ كايد على رأس المطلوبين من منطقة عجلون، ويبدو أن جماعة حمد بن بالي صديق الأتراك ومعتمدهم في الصحراء، هم الذين كانوا وراء الوشاية بالشيخ كايد وحتى بأحمد مريود وجماعته، فطلب المحاميد أن يبقى عمي كايد في ضيافته حتى يفرج الله الهم عن العباد، وفعلاً بقي الشيخ لمدة تزيد عن الشهرين وكنت أزوره كل أسبوع وأحمل له الرسائل من عمي عزام الذي تسلم المشيخة وشؤون العائلة من بعده»[٢٥].

لو توقفنا قليلاً عند تلك الحوادث التي مرت برحلة الزعيم الوطني أحمد مريود ورفاقه، منذ بدايتها في قرية جباثا الخشب واستراحتها القصيرة في قرية كفرسوم (الشمال الأردني)، ومعاناة الصحراء. لأيام طويلة، وغدر بن بالي وغيره من الذين خانوا شرف التقاليد العربية الأصيلة لخلصنا إلى دلالات كثيرة نحرص على ذكرها، علّها تكون عبرة لنا ولأجيالنا ونلخصها بالملاحظات والدلالات التالية[٢٦]:

أولاً: إن تفكير الزعيم الوطني أحمد مريود المنصرف إلى التوجه برفاقه البخاري والتنوخي وغيرهما من المناضلين إلى قرية كفرسوم وعند الشيخ المجاهد كايد المفلح العبيدات، فيه

---

(٢٥) مقابلة مع الشيخ أبو محمد جرت في ديوان آل عبيدات في كفرسوم، يوم ٢٢/ ١٩٩٣/١١. وقد سرّ حتى البكاء عندما عرف أن هذه المعلومات التي أخذتها منه ستدوّن في كتاب يؤرخ سيرة الشهيد أحمد مريود، وقال بحزن عميق «أرجو أن أطلع على هذا الكتاب كما اطلعت على كتاب كايد» ودعيت له بطول العمر.

(٢٦) راجع كتابنا: سيرة الشهيد كايد، المصدر نفسه ص ٢٣ ـ ٢٥.

دلالة واضحة على عمق العلاقة النضالية التي كانت قائمة بين الزعيمين وعلى مدى التزام كل منهما بقضايا الكفاح القومي. وهذه الثقة المتبادلة جعلت الزعيم مريود مطمئناً على سلامة رفاقه وإبعادهم عن مخاطر وملاحقة السلطات العثمانية لهم، في وقت كان جمال السفاح يعدم فيه أبناء البلاد على الشبهة والوشاية(٢٧).

ثانياً: إن استجابة الشيخ كايد لضيوفه باستقبالهم لأيام عدة في قريته وفي منزله بالذات ـ رغم العقوبات القاسية، التي أقلها النفي، كانت تفرض على من يستجير ويحمي «عصاة» الدولة العثمانية ـ كانت تشكل بعداً حقيقياً للشجاعة والمروءة، وترجمة فعلية للالتزام بالقيم والعادات العربية الأصيلة، ودلالة على تحمل المسؤولية لما قد يحصل، وبخاصة أن جواسيس الأتراك كانوا في يقظة دائمة لمراقبة القيادات العربية. وبهذا الموقف الذي جسّد بأصالة ثوابت الشيخ كايد، تغلب عامل القيم النضالية وشرف الانتماء القومي على عامل الخوف، والاحتمالات مهما عظمت وكبرت(٢٨).

ثالثاً: إن موقف الشيخ فاضل المحاميد من الشيخ كايد العبيدات،

---

(٢٧) قبل هذه الحوادث بقليل استجار الشيخ كايد عائلة العلاوي الفلسطينية إذ حكم على أربعة من رجالها بالإعدام، وعلى رأسهم المناضل عبد الرحمن العبويني. وفي ذكرى هذه المناسبة كتب الأستاذ أحمد علاوي في جريدة أخبار الأسبوع بعددها رقم ١٥٧٢ تاريخ ١٩٩٢/٩/٢٠ مقالة قال فيها: كفرسوم بلد الأصالة والتسامح.. أهلها أمراء في الكرم والمودة والأصالة والرجولة، متسامحون في كل المواقف.. تختفي بينهم الزلات، ويأسرونك بالوقفات المشرفات.. رجال في الملمات. الغريب بينهم سيد والدخيل عندهم يفدونه بالنفس والنفيس (ولا تزال هذه العائلة موجودة في كفرسوم منذ ذلك الحين).

(٢٨) سيرة الشهيد كايد، المصدر نفسه، ص ٢٣.

كان صورة مشرقة، بل كان الوجه الآخر لموقف الشيخ كايد من الزعيم أحمد مريود ورفاقه، وهذه المواقف النبيلة فيها دلالات لا تعبّر إلاّ عن مدى التضحية ونكران الذات لمصلحة الآخرين عندما يكونون في مواقع الخطر.

رابعاً: إن العمل الذي أقدم عليه شيخ السرحان حمد بن بالي، لا يعبر بالضرورة عن مواقف بني قومه السرحان، بل دلّ على الجهل، وفقدان الحس القومي عند حمد بالذات. فكان ينطلق من موقف «القوي يأكل الضعيف» وبخاصة أنه كان يعيش في الصحراء على الغزو ونهب القوافل التجارية، وبعزلة بعيدة كل البعد عن الهموم والمعاناة الوطنية، بدليل أنه لم يميّز بين أحمد مريود الزعيم الوطني المعروف وبين الدروز. رغم مواقف حمد السرحان لم يكن الدروز فريق شرٍّ أو غدر، بعكس قرينه حديثة الخريشة الذي كان يعرف كل صغيرة وكبيرة بذكاء حاد وقدرة على التعامل. وعندما عرّف مريود على نفسه بأنه من جباثا الخشب في سوريا الداخلية، وذكره بالجذور النسبية لعائلة مريود ردّ عليه أنتم إذن من الحدود؟؟ بهذا الفهم، يكفي أن تعرف أن شيخ السرحان لا يعرف من الدنيا غير الغزو والعيش على حساب الآخرين. وعندما أعلنت الثورة العربية الكبرى. وقف ضدها إلى جانب الاتراك، وعندما راسله الشريف حسين بالانضمام إلى الثورة ووعده بإكرامية كبيرة تعهد أن ينضم للثورة، ومن بعدها جاءه الأتراك وحارب إلى جانبهم، وبقي على هذه المواقف حتى سقوط المدينة المنورة بيد الجيش العربي! علماً أن عرب السرحان انضموا للثورة

وقاتلوا إلى جانب الرولة وبني صخر والسردية، وقطعوا خطوط المواصلات التركية[٢٩].

أما مواقف نواف الشعلان ووالده نوري الشعلان، فهي غير متوقعة وبخاصة أنهما من الشخصيات المحسوبة على الخط الوطني، ولكن على ما يبدو أن عامل الخوف من بطش جمال السفاح، تغلّب على عامل النخوة العربية، وهي بطبيعة الحال صفة يتميز بها العربي البدوي، وقد غابت عن آل الشعلان خوفاً على إمارة الجوف والجاه في ظل الحكم التركي، ولكن الشيء الذي يميّز آل الشعلان عن حمد بن بالي، أن الشعلان لن يتردد في الانضمام للثورة العربية الكبرى، بل قام نوري الشعلان بنفسه بتجميع قوات الرولة في الأزرق وشن بها معركة ضد الجيش التركي[٣٠] ولكن غدره بالزعيم الوطني وتسليمه للجلادين الأتراك، ستبقى في ذاكرة المؤرخين والقراء معاً والكتّاب ورواة الملاحم الوطنية. وأخيراً لا بد من إنصاف نواّف والصفح عن «هفوة» الغدر تلك التي ارتكبها النوري، قال ذلك أحمد مريود ومعه شكري القوتلي ونسيب البكري.

(٢٩) سليمان الموسى، الأردن في القرن العشرين، ص ٧٣.
(٣٠) الماضي والحدس، المصدر نفسه، ص ٧٣ ـ ٧٤.

٤

لقاء قيادات العهد والفتاة والأمير فيصل في دمشق

بقي في الساحة النضالية العربية جمعيتان:

الأولى: جمعية العربية الفتاة، وتضم في صفوفها خيرة المناضلين العرب، وقدمت على مذبح الحرية والاستقلال كوكبة من مناضليها للاستشهاد والسجن والمنافي، مما قوى عودها، وزاد انتشارها، وأصبحت بحق الممثل الشرعي للجماهير الشعبية العربية، في كل الولايات العربية التابعة للحكم العثماني.

الثانية: جمعية «العهد» وتضم في صفوفها خيرة الضباط العرب العاملين في الجيش العثماني، وهي أيضاً كرفيقة نضالها الأولى، قدمت المئات من الضباط، تعرضوا للسجن والمنافي والإبعاد، وعلى رأسهم القائمقام الوطني والقومي عزيز علي المصري، الذي حكم عليه بالإعدام، ثم بالإبعاد وأخيراً التسريح من الجيش وتسفيره إلى مصر.

في نهاية نيسان/أبريل ١٩١٥، بدأت اللقاءات بين الأمير فيصل والقيادات العليا في الجمعيتين، وذلك بناء على رسالة أرسلت من دمشق إلى الشريف حسين مع رسول من جمعية «العربية الفتاة»

اسمه فوزي البكري. وفحوى هذه الرسالة أن الزعماء الوطنيين في سوريا والعراق ومن بينهم ضباط كبار في الجيش العثماني يسعون «لإنهاض العرب من كبوتهم ولاستعادة مجدهم الغابر، ولنيل الاستقلال فيما إذا لم تتمكن الدولة العثمانية من إصلاح الإدارة إصلاحاً حقيقياً، يجعل البلاد بمأمن من استيلاء الأجانب الذين يتحينون الفرص لاحتلال هذه الديار واستعمارها، إذ إن كل عربي أصبح مدركاً غايات الاتحاديين السيئة وقصدهم الجنوني بتتريك العناصر غير التركية»[1] وإن هؤلاء الزعماء الوطنيين يرغبون أن يشركوا احرار الجزيرة العربية الوطن الأم بلد الجذور في مسعاهم لانهاض العرب ونيل استقلالهم آملين ان يرسلوا مبعوثاً. وتلقى الشريف حسين الرسالة باهتمام بالغ، وتوافرت لديه الأسباب القوية من أجل أن يتعرف على وضع العرب في سوريا جيداً، فأوفد ابنه الأمير فيصل إلى استانبول حيلة، ولكن المهمة الأساسية إلى دمشق ليستطلع مدى قوة القوميين العرب وحقيقة أوضاعهم وإمكاناتهم.

قضى الأمير فيصل شهر آذار/مارس ١٩١٠ في دمشق، وهناك عقد عدة اجتماعات مع أركان جمعيتي «العربية الفتاة» و«العهد»، وتعرف على قوة الحركة القومية وعلى مطامح العاملين في تلك الحركة. وأطلعهم فيصل بدوره على مضمون الرسالتين اللتين تلقاهما أبوه من بريطانيا. ثم مضى إلى استانبول حيث حصل على تأكيدات بأن «وهيب بك» لن يعود إلى الحجاز[2].

(١) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ٢٠٢ - ٢٠٣. والغصين من الأعضاء الأوائل في جمعية العربية الفتاة. وكان عضواً في الوفد العربي الذي ذهب برئاسة فيصل لتمثيل العرب في مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩.

(٢) وهيب بك: وهو قائد عسكري برتبة عميد، عين في نهاية ١٩١٣ والياً وقائداً.

واستأنف فيصل اجتماعاته مع أركان الفتاة والعهد عند عودته من استانبول، وشاهد من الحماسة والثقة بالنفس ما أثر في نفسه. وقد أكّد هؤلاء لفيصل «أنهم مستعدون للعمل ولإضرام ثورة عربية في سوريا لتحرير البلاد العربية الخاضعة لتركيا... وقالوا إنهم لا يطلبون منه إلاّ أن يكون مواكباً أو مرشداً لهذه الثورة وسنداً»(٣) وسأل فيصل عن المساعدة التي يطلبونها من الحجاز، فقال له الزعيم ياسين الهاشمي (أركان حرب الفيلق الثاني عشر):

«لا نطلب شيئاً ولا نحتاج إلى شيء، فعندنا كل شيء. وما عليك إلاّ أن تقودنا وتسير في الطليعة»

(ثم انقلب ياسين الهاشمي وأصبح يفضّل الانتداب عن الاستقلال)

وقال فيصل:

«إننا متفقون مع رؤساء القبائل الحجازية وهم مخلصون لنا ومستعدون للعمل معنا».

وكان جواب ياسين الهاشمي:

«لا حاجة لنا بهم، فعندنا كل شيء».

كان ياسين ذا شخصية توحي بالثقة، فلا عجب أن يكون لموقفه

للقوات العسكرية في الحجاز، وقد حاول أن يتجاوز الشريف حسين، فأخذ يتدخل في كل شيء. وقد دبّر مؤامرة لاغتيال الشريف، إلاّ أن للمؤامرة فشلت بعد أن كشف خيطها الأول، عندما سقطت محفظة وهيب خلال سفره إلى مصر للاشتراك بالحملة ضدها فعثر عليها أحد رجال الشريف علي، وكانت هذه الحقيبة تحتوي على أوراق سرية من بينها خطة الاغتيال، وعندما سافر الأمير فيصل إلى استانبول وضع السلطات في صورة الأوراق السرية. فقررت الحكومة سحبه من الحجاز بعد اكتشاف أمره.

(٣) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، الجزء الأول، ص ١٠٩.

الحازم «أثر عميق في نفس فيصل لأنه موقف شخص يملك صفة التكلم باسم قوى الجيش المرابط في سوريا وهو الذي يتألف بأكثريته من العرب»[٤] وكان يمثل في وقت ما روح الجماعة الوطنية».

في تلك الفترة كانت الفرق العسكرية (٢٥، ٣٥، ٣٦) ترابط في سوريا، وكان معظم جنودها وضباطها عرباً، وكانت الفكرة أن يقوم الضباط العرب باعتصام، فيعتقلون كبار الضباط الأتراك، ويتولون زمام السيطرة على البلاد.. ولكن كل هذه الخطط فشلت لأسباب كثيرة، منها تركية بنقل هذه الألوية وضباطها إلى أماكن أخرى في المقاطعات العثمانية، ومنها تعود إلى الضباط العرب الكبار، ويكفي أن نشير إلى أن بعض البارزين فيهم ظلوا يخدمون في صفوف القوات العثمانية حتى الأيام الأخيرة من الحرب «ياسين الهاشمي وعلي رضا الركابي مثلاً». ومن هنا نرى أنه لولا المخلصين للوطن والأمة، أمثال الزعيم الوطني أحمد مريود من القيادة العليا في جمعية العربية الفتاة، لبقيت حركة القوميين العرب في تلك الحقبة تدور في فلك التنظير والمثاليات ولا تستطيع أن تتجاوز ذلك إلى نطاق التنفيذ.. ولو قدّر للزعيم الوطني أحمد مريود أن يبقى خارج أسوار السجن لكان تأثيره في مجرى الأحداث أكبر، ولكنه أغنى الاجتماعات مع الوطنيين في دمشق خلال شهري آذار/ مارس ونيسان/ أبريل من عام ١٩١٥، وكان له الدور المميز في صياغة ميثاق دمشق الذي وضع في اجتماع ضمّ القيادات العليا من جمعيتي العهد والفتاة وتمّ الاتفاق أن يحمل فيصل هذا الميثاق إلى والده في مكة، ويطلب منه أن يعرف من الحكومة البريطانية ما إذا كانت تقبل شروط الميثاق أساساً

(٤) مذكرات أحمد قدري، ص ٤٦.

للعمل المشترك[٥]. هذا الميثاق - القرار الذي اتخذته قيادات العهد والفتاة صدر عن جماعة اعتبرت نفسها ممثلة للعرب.

وعندما عاد فيصل إلى مكة كان يحمل معه الميثاق الذي وضعه أعضاء «الفتاة» والعهد، ليكون أساساً لعقد الاتفاق بين العرب (الآسيويين) وبريطانيا. ولا تكمن أهمية هذا الميثاق في أن الشريف حسين اعتمده أساساً للمفاوضة مع بريطانيا وهو رمز نظيف محترم بل لأنه أول قرار تتخذه جماعة منظمة من العرب بإنشاء دولة عربية مستقلة متحدة تستعين على توطيد كيانها بعقد معاهدة مع بريطانيا. ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن تلك الجماعة اعتبرت نفسها ممثلة للعرب، وأنها في ذلك لعلى حق مبين لأنها كانت بالفعل تمثل ضمير الأمة العربية ويقظتها وروحها المنطلقة نحو المستقبل الحر الخالي من أشكال الهيمنة الغربية. ولم يكن فيصل يحمل معه ذلك الميثاق فقط، بل كان يحمل معه أختام رجالات سوريا بأجمعهم وكانت تتجاوز المئتي ختم موضوعة في كيس»[٦] وكان إرسال هذه الأختام يعني تفويض الشريف حسين ليتحدث

(٥) ويتضمن الميثاق الشروط التالية:
اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية ضمن الحدود التالية: شمالاً - خط مرسين - أضنة إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالاً، ثم على امتداد خط بيريجيك - أورفه - ماردين - ميدات - جزيرة ابن عمرو - العمادية إلى حدود إيران شرقاً - على امتداد حدود إيران إلى الخليج العربي جنوباً. جنوباً - المحيط الهندي باستثناء عدن، غرباً - على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين.
وجوب إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية. احتمال عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا وهذه الدولة العربية المستقلة إذا حسنت النوايا وأفعال بريطانيا احتمال تقديم بريطانيا وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية إذا حسنت أفعالها.

(٦) الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين (بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٩)، ص ١٦ وصفحة ٢٦٨.

بأسماء أصحابها وأن يعقد بتلك الصفة، إتفاقاً ملائماً. وأن الأمير فيصل صرح علناً بهذه الحقائق في خطاب ألقاه بدمشق لأن فيصل يعلم أن أكثرية المناضلين القائمين بحركة النهضة في بلاد الشام يقولون بل يجزمون «بأن: نحن نثور على الأتراك ونخرجهم ونؤمّن استقلالنا. لذلك كتب فيصل بعد ذلك يقول: «إن أكثرية القائمين بالنهضة في الشام كانوا يقولون نحن نثور على الأتراك ونطردهم ونؤمّن استقلالنا... دون حاجة للاتفاق مع الإنكليز»[٧] ولكن بعد ميثاق دمشق تسلح الشريف حسين بالتفويض الشرعي من قبل ممثلي الشعب العربي «بأن يتولى قيادتهم ويفاوض بريطانيا باسمهم. ومن هنا اتخذ تلك الصفة واعتبر نفسه في مواجهة مسؤولية قومية تاريخية لا يستطيع أن يتخلى عن حملها»[٨]. ولا أن يخرج على مضمونها وفحواها وخاصة قرار **«دون الحاجة إلى بريطانيا كلما أمكن ذلك»**.

عاد الأمير فيصل إلى دمشق في بداية عام ١٩١٦، وحين وصل، صدم بأنباء خطيرة، فقد وجد أن الفرق العسكرية العربية قد نقلت ونقل معها أكثر أصدقائه من أعضاء جمعية «العهد»، وحلّت محلها فرق مؤلفة بغالبيتها من الجنود الأتراك. كما كان قد نفي إلى أماكن نائية في الأناضول عدة مئات من الرجال البارزين من البلاد الشامية مع أسرهم، وكانت قد بدأت المجاعة التي سقط ضحيتها بعد ذلك عدد هائل من الأرواح. في هذه الفترة، شهر كانون الثاني/ يناير ١٩١٦، خرج الزعيم الوطني أحمد مريود من

(٧) المراسلات التاريخية، المجلد الثاني (عمان، ١٩٧٥)، صفحة ٢٦٣، وخواطر خصوصية، كتبها فيصل في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩، راجع أيضاً: الحركة العربية، الحاشية، ص ٣٣.

(٨) سليمان الموسى، صور من البطولة، ص ٣٠.

سجن عاليه، وقد سرّ الأمير فيصل لخروجه من السجن، لأنه رأى فيه الرجل القائد القادر على تعبئة وتنظيم الجماهير. كما أنه يملك من الأفكار النيّرة ما يجعله قادراً على اتخاذ القرارات الحاسمة والصحيحة، وهو من رجال النهضة في بلاد الشام الذين كانوا يقولون نحن نثور على الأتراك ونطردهم، ونؤمّن استقلالنا دون حاجة للاتفاق مع الإنكليز. لذلك حرص على مشاركته في كافة اللقاءات التي كانت تعقد في دار البكري. كما أنه شارك في صياغة الرسائل التي كان يبعثها الأمير فيصل إلى الحجاز، والتي تتضمن معلومات عن إمكانية القيام بالثورة في سوريا في اليوم نفسه الذي تعلن فيه من الحجاز. وكانت الرسائل تتضمن معلومات كافية عن تفاصيل الهزائم التي لحقت الجيوش العثمانية في بلاد القفقاس، وأدت إلى سقوط «أرظروم»، ونتيجة لهذه الهزائم اضطرت الحكومة العثمانية إلى سحب قسم من القوات المرابطة في سوريا للوقوف أمام التيار الروسي، وأظهر فيصل تخوفه من أن يتقدم الروس جنوباً بحيث يتمكنون من فصل الأراضي العربية عن الأراضي التركية، الحركة التي «إن تمتْ ستجعل البلاد العربية بأسرها مفتوحة لكل طارق بدون حامي»[٩].

ثم أعرب الأمير فيصل عن رأيه بأن من الضروري جداً وجود قوة عسكرية عربية حتى يتمكن العرب من الدفاع عن البلاد العربية[١٠]. لقد فهم الشريف حسين من الرسائل، أن إمكانات القيام بحركة عسكرية في سوريا أصبحت مستحيلة، وتعزز هذا الرأي بعد مجازر ٦ أيار/ مايو ١٩١٦، فقد غطت هذه المجازر

(٩) المراسلات التاريخية، الجزء الأول، ص ٥٤ ـ ٥٦.
(١٠) المصدر نفسه.

على كل آمال الناس وزرعت في نفوسهم خوفاً تحول بسرعة إلى نقمة، وكانت جثث هؤلاء الشهداء المعلقة في ساحات دمشق وبيروت أفضل أشكال الدعاية الثورية والدعوة إلى الثورة.

كان الأمير فيصل، في اليوم الذي تمّ فيه تنفيذ الحكم، مقيماً مع آل البكري في مزرعتهم بالقابون، وعندما علم بذلك «قفز واقفاً كمن أصابه مسّ مفاجىء، وانتزع الكوفية من على رأسه وقذف بها إلى الأرض، وداسها بعنف، وصاح طاب الموت يا عرب»[11].

وبعد أيام قليلة من حوادث الشنق تلقى الأمير فيصل الأمر من والده بالعودة إلى الحجاز، فغادر دمشق يوم ١٦ أيار/ مايو ١٩١٦[12] بعد أن نجح في خداع جمال باشا.. وعند شروق الشمس في اليوم الخامس من حزيران/ يونيو ١٩١٦، ركب الإخوان علي وفيصل إلى قبر حمزة بن عبد المطلب عم الرسول العربي الكريم حيث احتشد (١٥٠٠) جندي في معسكرهم من الذين جندهم الشريف، وأعلنا باسم الشريف حسين أمير مكة، استقلال العرب عن الحكم التركي». ثم انطلقا يعدو بهما فرساهما، ومن خلفهما أولئك المجندون، وانضموا إلى رجال البدو في المكان المتفق عليه إلى الجنوب الشرقي من المدينة. وعندما وصل علي إلى «بئر ماشي» يوم ٩ حزيران/ يونيو، كتب إلى جمال باشا الإنذار التالي:

«إن المطالب العربية المعتدلة قد رفضتها الدولة العثمانية، وبما أن الجند تهيأ للجهاد سوف لا يرى عليه أن يضحي لغير مسألة

(١١) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ١٨٣.
(١٢) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

العرب والإسلام، فإذا لم تنفذ الشروط المعروضة من شريف مكة[١٣] حالاً فلا لزوم لبيان قطع أي علاقة بين الأمة العربية والأمة التركية، وأنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة ستكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين»[١٤]. وفي اليوم التاسع من شعبان ١٣٣٤هـ الموافق ١٠ حزيران/ يونيو ١٩١٦م أعلنت الثورة العربية الكبرى في مكة والطائف وينبع والوجه وسائر مدن الحجاز.

وفي اعتقاد المؤرخ سليمان الموسى، أن العوامل التي أملت على الشريف حسين قرار إظهار نياته علناً بالثورة، هي التالية:

١ ـ شعوره بخطورة المسؤولية التي ألقيت على عاتقه والتي تحتم إعطاء البرهان على رغبة العرب في الحرية، وعلى استعدادهم لخوض معارك القتال، من أجل إنشاء دولة مستقلة لهم تحل محل الدولة العثمانية.

٢ ـ ثقتـه بأن العرب في الحجاز قادرون على القيام بثورة ناجحة.

٣ ـ ثقته ببريطانيا وعهودها، وبإرتباط مصالحها مع مصالح العرب، واعتقاده بأن بريطانيا وحلفاءها سينتصرون في هذه الحرب.

٤ ـ خشيته من أن يتقدم الروس جنوباً إلى ديار بكر والجزيرة السورية.

٥ ـ الضغط والإرهاب اللذان كان جمال باشا يمارسهما في

(١٣) كانت شروط الشريف حسين تتضمن: (١) إعلان العفو عن المتهمين السياسيين. (٢) إنالة سوريا والعراق ما تطلبان من نظام لامركزي. (٣) جعل مكة إمارة وراثية في أولادي (أولاد الشريف).

(١٤) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ١٩١.

سوريا، وشعور الشريف حسين، أن النخوة القومية تدعوه إلى العمل على إنقاذ أهل البلاد الذين بايعوه واستغاثوا به من بغي الطاغية الشرير[١٥].

وفي يوم ٣٠ أيلول/سبتمبر ظهراً ١٩١٨ تبخرت السلطة التركية نهائياً، بحيث رفع الدمشقيون المتحمسون، العلم العربي على بناء قاعة المجلس البلدي. وقد خرجت آخر وحدة تركية وألمانية مجتازة هذا البناء، ونظرت إلى العلم العربي الذي يعلن عن هزيمتها، ولكنها لم تتجاسر أبداً على الاعتراض[١٦]. وفي الساعة السادسة من صباح يوم تشرين الأول/ أكتوبر، انطلق الشريف ناصر والزعيم أحمد مريود، والشيخ محمد الأشمر، ونوري الشعلان، مع أشخاص بارزين آخرين من الميدان محطة القدم إلى السرايا، لتسلم إدارة المدينة التي سبق أن أعلنت تحررها من الأتراك، وكان للزعيم الوطني أحمد مريود شرف أول من رفع علم الاستقلال في دمشق، قال في ذلك الضابط العربي «صبحي العمري»[١٧]:

«قبيل دخول الجيش العربي إلى دمشق بيوم واحد أي في ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨، قامت مظاهرة كبيرة في حي الميدان يقودها أحمد مريود والشيخ محمد الأشمر، وكان المتظاهرون يرفعون العلم، وكان أحمد مريود قد أرسل الشيخ محمد الأشمر وخاله محمد الخطيب لجلب علم عربي من الجيش العربي ورفعه على السرايا».

(١٥) سليمان الموسى، صور من البطولة، ص ٣٦.
(١٦) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ٢٥٧.
(١٧) صبحي العمري، مذكرات، ص ١٨٨.

الفصل الثالث

النضال والكفاح في عهد الاستقلال الوطني ١٩١٨ - ١٩٢٠

كان الزعيم المجاهد أحمد مريود ذكي المعنى، نبيهاً... سريع البديهة، صلباً، جاداً، مستقيماً، جريئاً في الحق، صادقاً في السيرة والسريرة، ثوري الروح والنهج.

وقد تعلق كل منا بصاحبه تعلقاً شديداً، وتزاملنا في الهيئة المركزية للجمعية (العربية الفتاة)، وانسجمنا في جميع المواقف بدون أي خلاف.

وكان ذا محاكمات صائبة، وآراء سديدة. وقد أكسبته صفاته صداقة وإعجاب إخوانه، ورجال الحركة وشبابها. وعندما تأزم الموقف بين الإفرنسيين وبين عهد فيصل، أخذ المجاهد الكبير أحمد مريود يقود حركة كفاح مسلح: ثورة ضد الجيوش الفرنسية انطلاقاً من الجولان.

محمد عزة دروزة

١

بدايات الحكم الوطني ودخول فيصل دمشق

انتصرت الثورة العربية ودخل الجيش العربي الوطني بقيادة فيصل عاصمة العرب مدينة دمشق، قبل الجيوش الإنكليزية بقيادة الجنرال اللنبي، ورفع الزعيم الوطني أحمد مريود العلم العربي، وجعله يرفرف لأول مرة في السماء العربية السورية. بهذا الانتصار العظيم، وجدت الحركة القومية العربية نفسها، جنباً إلى جنبٍ مع ما قدّر لها، إذ مشى النصر بأعلامها شمالاً إلى الحدود التي تمنت أن تبلغها، فتحررت سوريا من سيناء والعقبة إلى طوروس، وتحرر العراق حتى الموصل، ولم يبق في الجزيرة العربية نفسها من السلطة التركية إلاّ بضع حاميات لا حول لها وسيكون الاستسلام مصيرها. وهكذا تخلصت كل الولايات العربية في الأمبراطورية العثمانية من النير الأجنبي.

«ويبدو كأنما إله الحرب نفسه انحنى إجلالاً للدور الذي لعبته «اللغة» في تاريخ الحركة، فظل يقود الخطى شمالاً إلى أن وقف عند الحدّ الفاصل بين لغتين: العربية والتركية. وكان المجال الذي انهزم فيه الترك هو بالضبط المنطقة التي لا تتعداها أماني العرب

وتتفق حدودها تماماً مع الحدود التي عينها شريف مكة واعتبرها حدوداً طبيعية لمدى ما سيبلغه الاستقلال العربي»[1].

ولقد زاد في ابتهاج الشعب العربي وقادته، أن الثورة العربية أسهمت في إحراز النصر بجهد بارز، إذ أدت دورها المقدر لها وتجاوزته أحياناً في قهر العدو. وأحس العرب أنهم قد دفعوا كل النصيب المطلوب منهم في الصفقة المعقودة، وتوجهت أنظارهم الواثقة إلى بريطانيا العظمى لتؤدي النصيب المقرر لها.

ولكن حين جاء دور الحساب تبين أن ثمة بوناً شاسعاً بين ما يطالب به العرب وبين ما ترضى الحكومة البريطانية الحليفة المزعومة[2]. في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨، «تبخرت السلطة التركية نهائياً، وانطلقت الصرخات ودموع الفرح الشديد، وتنهدات الارتياح، عند مغادرة القوات التركية، من أفواه السكان الذين صلّوا طويلاً لوصول الجيش العربي»[3].

وفي الساعة السادسة من صباح يوم الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، انطلق كل من الشريف ناصر، وأحمد مريود، ومحمد الأشمر، ونوري الشعلان وأحمد الخطيب، وكامل القصاب، مع أشخاص بارزين آخرين من محطة القدم إلى السرايا لتسلم إدارة مدينة دمشق.

وفي الوقت نفسه كانت قوات الجنرال البريطاني «اللنبي» تدخل دمشق من محور القنيطرة ـ دمشق. وقد وصف «لورانس» في

---

(١) جورج طنوس، يقظة العرب، ص ٣٨٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٦.
(٣) العماد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص ٢٥٧.

تقرير له إلى القيادة الإنكليزية بتاريخ الأول من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨، حالة الأهالي بدمشق وقال:

«ولقد كان دخول القوات العربية والبريطانية إلى دمشق، وسط مشاهد من الحماسة فائقة النظير من جانب أهل المدينة.

كانت الشوارع حافلة بالجماهير إلى حد يكاد يتعذر المرور منها، وكانت الجماهير تهتف هتافات تشق عنان السماء، وهي ترقص ابتهاجاً»[٤].

وكان الأمير سعيد الجزائري، قد أعلن يوم ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩١٨ عن مولد الحكومة العربية المؤقتة، وبادر بإرسال البرقية التالية إلى رؤساء البلديات في المدن السورية والأردنية واللبنانية:

«بناء على (تسليمات) الدولة التركية، فقد تأسست الحكومة على دعائم الشرف. طمنوا العموم وأعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية»[٥].

وفي صباح الأول من تشرين/أكتوبر. وصل الرائد «آرثر أولدن» من الفرقة الأسترالية إلى دار الحكومة، وطلب من الأمير سعيد مساعدتـه في توطيد الأمن في دمشق، إلاّ أن الأمير سعيد قال له:

«إن الأمن مستتب ولا حاجة لمساعدتي»

وطلب أولدن دليلاً، فأعطاه الأمير سعيد اثنين من الضباط العرب لكي يدلاه على مخارج دمشق، وللحال انسحب، وبعد ذلك وصل الشريف ناصر إلى دار الحكومة ومعه الزعيم الوطني أحمد مريود وبقية الوجهاء الذين استقبلوه عند محطة القدم، فعرض عليه

---

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٧، نقلاً عن أوراق «ونجت» - تقارير لورنس إلى الحكومة البريطانية، والحقيقة أن القوات العربية دخلت دمشق قبل دخول قوات اللنبي.
(٥) علي سلطان، المصدر نفسه.

سعيد أن يتولى زمام السلطة بنفسه، ولكن الشريف ناصر طلب منه الاستمرار في إدارة الحكم ريثما يصل الأمير فيصل(٦).

وفي تاريخ ٣ تشرين الأول/أكتوبر وصل الأمير فيصل، وفضّل دخول المدينة ممتطياً جواده، وعمّت دمشق من جديد موجة عارمة من الفرح والبهجة، وكان دخول «اللنبي» إلى دمشق في اليوم نفسه، وسرعان ما عقد بينهما أول اجتماع طويل حضره كبار القادة العرب وزعماء الحركة الوطنية، والقيادة العليا للجمعية العربية الفتاة، وفي مقدمتهم الزعيم الوطني أحمد مريود، تمّ فيه بحث الترتيبات العسكرية لمطاردة القوات التركية المنسحبة. أما الترتيبات ذات الطابع السياسي فقد أجملها «اللنبي» في برقية منه إلى وزارة الحربية البريطانية، وهذا نص البرقية:

«لقد أبلغته (فيصل) أنني على استعداد للاعتراف بالإدارة العربية للأراضي المحتلة شرقي نهر الأردن من دمشق إلى معان، بصفة إدارة عسكرية تحت سيطرتي العليا، وأبلغته أيضاً أنني سوف أعيّن ضابطي ارتباط بيني وبين الإدارة العربية: أحدهما بريطاني والآخر فرنسي وأن هذين الضابطين سوف يتخابران معي عن طريق كبير ضباطي السياسيين. وقد أبلغت الشريف فيصل أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية، وافقتا على الاعتراف بمركز المحارب للقوات العربية المقاتلة في فلسطين وسوريا، بصفة حلفاء ضد العدو المشترك»(٧).

---

(٦) لم تكن قيادة الجمعية العربية الفتاة راضية عن تكليف سعيد الجزائري برئاسة الحكومة لأنه كان يتعاون مع الأتراك. وتسلم زمام الحكم أمير اللواء شكري الأيوبي مدة يومين حتى وصل فيصل فعيّن اللواء رضا الركابي حاكماً عسكرياً على دمشق ثم عين الأيوبي حاكماً عسكرياً على بيروت.

(٧) سليمان الموسى، **المراسلات التاريخية رقم ١٧٩**، ص ٢١٠ - ٢١٦. راجع أيضاً برقية اللنبي إلى ونجت في ٣ تشرين الأول/ أكتوبر. وكان بلفور (صاحب الوعد المشؤوم) قد بعث في ٢٨ أيلول/ سبتمبر برقية إلى «ونجت» قال فيها أنه اقترح على=

هنا بدأت ملامح المؤامرة، وتوضحت عندما أمر اللنبي بإنزال العلم العربي من على الدوائر الحكومية في بيروت، وطرد شكري الأيوبي من بيروت وسحبه إلى دمشق، وتأكدت النوايا الاستعمارية للحليفين عندما قسّم اللنبي سوريا الطبيعية إلى أقسام كغنائم حرب بين أطراف التحالف، وفق تقسيمات سايكس ـ بيكو، وقد حدّد أيضاً الحكم في كل منها، وعلى الشكل التالي:

١ ـ المنطقة الجنوبية (فلسطين) تحت إدارة قائد بريطاني.

٢ ـ المنطقة الغربية (لبنان) تحت الإدارة الفرنسية، وعين الكولونيل «بياباب» حاكماً عليها.

٣ ـ المنطقة الشرقية (سوريا الداخلية وشرقي الأردن)، من معان إلى دمشق وفيها حمص وحماة وحلب، تحت الإدارة العربية الحربية، وعين اللنبي ضابطي ارتباط بينه وبين فيصل، الكولونيل الإنكليزي «كورنواليس»، والكابتن «مرسييه» الفرنسي، ووجود الاثنين كان بسبب أن المنطقة الشرقية تتألف من المنطقة (ألف) التابعة لفرنسا، والمنطقة (ب) التابعة لبريطانيا حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو. وتكون المناطق (١)، (٢)، (٣) خاضعة لسلطة اللنبي.

إلاّ أن الشعب في سوريا لم يعترف بتجزئة بلاده، وبخاصة أنه كان يعيش أيام انتصار الثورة. فأعلن أنه لا يريد الانفصال عن

= الحكومة الفرنسية «الاعتراف بصفة المحارب لحلفائنا العرب الذين يقاتلون من أجل الاستقلال من الحكم التركي». أما من كان يعنيهم بلفور بقوله أنهم حلفاء فقد ورد في الحملة التالية من البرقية ذاتها: «أن هذه الصيغة بينما تعترف بالحركة القومية العربية وتشمل جميع العرب في مضمونها، فإنها لن تعطي الانطباع بأننا نرغب فرض الملك حسين على سوريا».

(راجع كتاب **الثورة العربية**، مصطفى طلاس، حواشي ٢٦١).

الحجاز ولا عن شريفها.. وعندما علم الشريف برغبة الشعب العربي السوري، اعتبر هذا الموقف مبايعة له، فعيّن ابنه الأمير فيصل نائباً عنه في سوريا، وأعلن رفضه لتقسيمات «اللنبي» واعتبرها مخالفة لما اتفق عليه قبل إعلان الثورة ١٩١٦. فالتفت الأمير فيصل لإقامة الدولة السورية الداخلية، على أساس أنه حكم عربي في دولة سوريا، مبني على نظام حديث كأسلوب للحكم. ويبدو أن الأمير كانت تراوده هذه الفكرة أثناء الثورة، حتى قبل بحكم جزء من سوريا تحت ضغط اللنبي ولو بشكل مؤقت. علماً أن والده وبّخه من أجلها بقوله: «إلى هذا الحدّ تصل بك القحة يا فيصل؟».

فبعد أن استقر به المقام حاكماً على سوريا، أخذ يعمل على تنظيم الدولة. فشكل الركابي حكومة من الأجزاء العربية المحررة، حتى تكون حكومة عربية لا سورية ولو بشكل نظري طالما لا تؤثر على حكمه بشيء. وفعلاً كانت الحكومة المؤلفة عربية من حيث التمثيل الجغرافي على الأقل، بالإضافة إلى من تمّ تعيينهم من العرب في المناصب الإدارية الكبيرة الأخرى، وتألفت الحكومة من:

- رضا الركابي، من دمشق، رئيساً للحكومة[٨].
- عادل أرسلان، من جبل لبنان، معاوناً للحاكم العسكري.
- سعيد شقير، بيروت، مديراً للمالية.
- إسكندر عمون، جبل لبنان، مديراً للعدلية.

(٨) رضا الركابي: ولد في دمشق، وتخرج من المدرسة الحربية في استانبول. تولى وظائف عسكرية في القدس والمدينة المنورة ١٩١٢، خدم الأتراك إبان الحرب. وتسلم رئاسة الوزارة في دمشق بعد دخول الجيش العربي، وتولى رئاسة الوزارة مرتين في عمان، بعد احتلال الفرنسيين لدمشق، ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها عام ١٩٤٢.

- رشيد طليع، جبل لبنان، مديراً للداخلية.

- سليم موصلي، دمشق، مديراً للصحة.

- ساطع الحصري، حلب، مديراً للمعارف.

- ياسين الهاشمي، العراق، رئيساً للجيش.

وفي الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨، أصدر الأمير فيصل بياناً للشعب، أعلن فيه التالي:

١ - تشكلت في سوريا حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان الحسين شاملة جميع البلاد السورية.

٢ - قد عهدت إلى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة المذكورة، نظراً لثقتي باقتداره ولياقته.

٣ - تتألف إدارة عرفية لرؤية المواد التي يحيلها القائد العام[٩].

وبالرغم من محاولة الأمير فيصل إنشاء دولة على الأسس الحديثة إلاّ أنه لم يعر كبير اهتمام إلى تطوير الجيش العربي وتقويته، مع أن احتلال الإنكليز والفرنسيين لفلسطين والساحل السوري، لم يدع مجالاً للشك في أن القوة هي العامل الحاسم الأول في تقرير المصير، وتَرَك الأمر لياسين الهاشمي، الذي حاول أن يحوّل هذا الجيش المؤلف من رجال البدو والمتطوعين السوريين والأردنيين والعراقيين أثناء الثورة إلى جيش حديث، فحلّه وشكل منه من جديد، ثلاث فرق في دمشق وحلب ودرعا. لكنه بقي جيشاً صغيراً تنقصه الأسلحة والذخيرة، التي رفضت بريطانيا وفرنسا أن

(٩) قدري، المصدر نفسه، ص ٧٦.

تمداه بها في أثناء الثورة، وفي المراحل التالية، حتى سقوط فيصل ـ حتى لا يكون عثرة أمام تنفيذ خططهما في المنطقة[١٠].

وخلال تنظيم فيصل لدولته وزياراته للمدن السورية، كان ثمة تصريح من بريطانيا وفرنسا قد وصل إلى مرحلة النضوج، وأعلن في ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨ وهو ما عرف باسم (الإعلان الفرنسي البريطاني). وكان هذا الإعلان بالأصل، قد بدىء بمشروع كتابته في أواسط تموز/ يوليو ١٩١٨ ليكون جواباً على مخاوف الشريف حسين بما سمعه عن اتفاقية سايكس ـ بيكو[١١].

وبالرغم من الوعود الطيبة التي أتى بها هذا الإعلان للعرب، فقد أفقدته بريطانيا قيمته المباشرة، إذ أرسلتْ إلى الجنرال كلايتون رئيس قسم الاستخبارات البريطانية في القاهرة، لتؤكد أن فلسطين مستثناة من الإعلان، وطلبت منه أن لا يذيع الخبر[١٢].

وكان الإعلان الفرنسي ـ البريطاني بمثابة الفَرَج، وقد أزاح بعض الخوف الذي أثقل العرب والشريف حسين شخصياً، وجدد الثقة بالحلفاء، قال فيه الأمير فيصل: «لأن هذا الإعلان يدل على شعور عالٍ وحسيات إنسانية، وعلى صدق نيات الحلفاء تجاه العرب»[١٣]، وقال فيه الشريف حسين: «بأن بريطانيا ستأتي بما هو فوق ذلك أيضاً»[١٤] وعبّرت دمشق بقوة عن فرحها بالمظاهرات وذهبت منها الوفود إلى مكتب البعثة العسكرية

---

(١٠) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٦.
(١١) المصدر نفسه:
(١٢) سليمان الموسى، **الحركة العربية**، ص ٤١١.
(١٣) راجع خطاب فيصل في كتاب ساطع الحصري، **يوم ميسلون**، ص ١٩٦.
(١٤) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٤٨.

الفرنسية والإنكليزية لشكر الحلفاء[١٥] ونظراً لأهمية هذا البيان نورد نصه:

«إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وإنكلترا في الشرق، تلك الحرب التي أهاجتها مطامع الألمان، هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالاً طوالاً تحت نظام الترك، تحريراً كاملاً، وإقامة حكومات وإدارات وطنية، تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين، اختياراً حراً. ولقد أجمعت بريطانيا وفرنسا، على أن تؤيدا ذلك، وأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات، والإدارات الوطنية في سوريا والعراق، المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما، وفي الأراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها، وأن تساعد هذه الهيئات، وتعترف بها عندما تؤسس فعلاً، وليس من غرض لفرنسا أو بريطانيا، أن تجبرا أهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه. ولكن همهما الوحيد، أن يتحقق ذلك بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة لهذه الحكومات والإدارات، التي يختارها الأهلون من ذوات نفوسهم، وأن تضمن لهم عدلاً متزهاً يساوي بين الجميع ويسهل على ترقية الأمور الاقتصادية في البلاد، بإحياء مواهب الأهالي الوطنيين، وتشجيعهم على نشر العلم، ووضع حدّ للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية، تلك هي الأغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة»[١٦].

ولكن هل بقيت دول الحلفاء عند موقفها؟؟

بالطبع لا ـ كما قال الزعيم الوطني أحمد مريود:

«إن هذا الإعلان، ما هو إلاّ ذر الرماد في العيون». فتابعت فرنسا

(١٥) كتبت جريدة، سوريا الجديدة، الدمشقية في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر، فقالت: «نحن مطلقون من كل القيود، وإراداتنا الآن طوع اختيارنا، لا تقيدنا معاهدات دولية، ولا تسيطر علينا أوامر أو مؤامرات، بل لقد تركت لنا الدول بأسرها، حق الاختيار، فسوف يأتي يوم يقولون لنا فيه ماذا تريدون».

(١٦) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١.

سياسة الاستفزاز، وبقيت بريطانيا تمارس سياسة شدّ الحبل مرة، والرقص على الحبال مرات، وتكشفت حقيقة كل منهما في الجلسات الأولى لمؤتمر الصلح. «ولقي الأمير فيصل في فرنسا ما توقع: وجود العقبة الكؤود، بل زاده ما سمع وما رأى»(١٧).

فعلى الصعيد الرسمي، أعلن «بيشون» وزير الخارجية الفرنسية يوم ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٩، من جديد عن تمسك فرنسا بعلاقاتها التاريخية في سوريا فقال:

«إن حقوق فرنسا في سوريا ولبنان وفلسطين، تقوم على التاريخ، وعلى اتفاقيات ومعاهدات ـ فضلاً عن أن أهل البلاد يريدوننا ـ وأن اتفاقياتنا مع بريطانيا، تربط بيننا وبينها، والحقوق المعترف لنا بها أصبحت ملكاً بالفعل»(١٨)

وقبل انعقاد مؤتمر السلم في باريس زاره «جين غو» الأمين العام لوزارة الخارجية الفرنسية وأبلغه:

«أن عدم اهتمام فرنسا به لم يكن نسياناً، وإنما تجاهلاً متعمداً، وأن فرنسا ما زالت تعتبره سائحاً، وأنها لا تعترف «للّنبي» بما أعطاه له من تأكيدات، وأن الإنكليز يتلاعبون به كما يشاؤون»(١٩)

ولم يبق من أمل أمام الأمير فيصل إلاّ باللجنة الدولية التي اقترحها الرئيس الأميركي ولسن، لأن إرسال اللجنة إلى سوريا، يُعدّ بحد ذاته مأزقاً بالنسبة لفرنسا وبريطانيا والصهيونية، لأن فرنسا تتوقع رفض السوريين لها، وبريطانيا تتوقع رفض العرب للصهيونية في فلسطين، فلم يكن في مصلحة أحد منها إرسال اللجنة، ولذلك

(١٧) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٧٧.
(١٨) رسائل فيصل إلى أبيه، **أوراق الأمير زيد**، سليمان الموسى، ص ٤٣٢.
(١٩) رسالة فيصل إلى والده بتاريخ ١٩١٩/١/١٩ (**أوراق الأمير زيد**) سليمان الموسى، ص ٤٦٤.

أخذت بريطانيا خلال مرحلة التسويف هذه، على عاتقها للتوفيق بين الأمير فيصل وفرنسا، حتى يغض النظر نهائياً عن إرسال اللجنة، فاستخدمت لورنس لهذه الغاية، فنصح فيصلاً بمقابلة كليمنصو قبل أن يعود إلى سوريا. وكان لورنس قد جسّ نبض الفرنسيين عن رأيهم بالاتفاق مع فيصل، وشعر برضاهم. وقبل الأمير فيصل نصيحة لورنس بمقابلة «كليمنصو» وتمّ الاجتماع فعلاً بين الطرفين في ١٣ نيسان/ أبريل ١٩١٩، فماذا جرى في هذا اللقاء؟؟

- فرنسا تريد إحتلال سوريا بدلاً من القوات الإنكليزية.
- فيصل يريد سوريا دولة مستقلة تحت حكمه، ويقبل فقط المساعدة الفنية من فرنسا..

وكان الأمير فيصل يعتمد في طلبه على قناعته، وبعد أن تيقّن أن لا أمل مطلقاً في إقامة دولة عربية واحدة، لما رآه من عزم بريطانيا وفرنسا على تنفيذ إتفاقية سايكس ـ بيكو، فتبنى قناعة جديدة، وفلسفة وضع نظريتها في باريس، بسّطها بالشرح التالي:

«إنه قامت ثورتان، لا ثورة واحدة، ثورة عربية قادها والده الشريف حسين، وثورة سوريا قادها بنفسه، بصفته عضواً قديماً في جمعية سورية، (ويقصد بها جمعية العربية الفتاة)، ولذا كان بنظره أمراً طبيعياً، أن تقوم دولة سوريا منفصلة عن الدول العربية، لأنها في الأساس منبثقة عن ثورة سوريا. ومن جهة أخرى أراد الأمير فيصل أن يعطي لنفسه صفة المواطنة السورية، حتى يصبح له حق شرعي في المطالبة بحكمها»[٢٠].

فهو يقول في مذكرته إلى المؤتمر:

(٢٠) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٨٠.

«قاد والدي الثورة لتوحيد العرب في أمة واحدة، وقدت الثورة السورية بصفتي عضواً قديماً في الجمعية السورية»[٢١].

وقبل عودته إلى دمشق ارتبط الأمير فيصل باتفاقية مع فرنسا، اتفق أن تبقى سرّية بين الطرفين المتعاقدين، إلى أن يتم التوقيع النهائي على الاتفاقية وتفاصيلها التي سيتم وضعها فور عودة الأمير فيصل إلى فرنسا، ومن ثم رفعها في الوقت المناسب إلى مؤتمر الصلح[٢٢]. وتتضمن الاتفاقية البنود التالية:

١ ـ تعد الحكومة الفرنسية بتقديم كل نوع من المساعدة للشعب العربي السوري وبضمان استقلاله ضد كل اعتداء.

٢ ـ يطلب الأمير فيصل من الحكومة الفرنسية، وحدها دون غيرها، تعيين مستشارين ومعلمين وتقنيين لتنظيم جميع الإدارات المدنية والعسكرية، ولتولي بعض الدوائر في هذه الإدارات مثل المالية والأشغال العامة.

٣ ـ يكون للأمير فيصل في باريس ممثل مفوض يعمل تحت إمرته وممثل في لندن وروما وواشنطن ضمن إطار السفارة الفرنسية في هذه العواصم. أما غيرها من البلدان فإن القناصل الفرنسيين سيرعون مصالح السوريين.

---

(٢١) من نص المذكرة التي قدمها الأمير فيصل للمؤتمر.

(٢٢) سليمان الموسى، المراسلات التاريخية (١٩١٩)، المجلد الثاني رقم ١٣٠، برقية الأمير فيصل إلى الأمير زيد، باريس ١٩١٩/١١/٢٨، ص ٢٥١. وحول الاتفاقية مع فرنسا ١٩١٩، راجع أيضاً رقم ١٣١ من الأمير فيصل إلى السيد «برتلو» باريس ١٩١٩/١١/٢٨، وجواب السيد برتلو إلى الأمير فيصل بالتاريخ نفسه رقم ١٣٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ وراجع كتابنا: **الأردن في التاريخ**، الجزء الأول، ص ١٤٦.
وراجع: **الثورة العربية**، مصطفى طلاس، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢، وأيضاً، علي سلطان، ص ٨١ ـ ٨٢.

٤ ـ يعترف الأمير فيصل باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي.

٥ ـ يسهل الأمير فيصل «إدارة مستقلة» لدروز حوران داخل الدولة السورية.

٦ ـ تقدم سوريا إلى فرنسا كل عون عسكري في جميع الحالات.

٧ ـ يعترف باللغة العربية لغة رسمية في الإدارة وفي المدارس. وتدرس اللغة الفرنسية كلغة ثانية.

٨ ـ تكون دمشق عاصمة سوريا، ويقيم المفوض الفرنسي السامي في حلب. ولكن يكون لرئيس الدولة السورية وللمثل الفرنسي مقر شتوي في بيروت ينعم باستقلال بلدي(٢٣)..

ويبدو أن فيصلاً كان ينوي توقيع الاتفاق بالحروف الأولى، لولا وصول رسول من لدن أبيه، هو الدكتور «ثابت نعمان» يحمل منه رسالة يحظر فيها على فيصل توقيع أي اتفاق يتنافى والعهود(٢٤). ومن الواضح أن فيصلاً لم يكن في أعماق نفسه سعيداً بذلك الاتفاق الناشئ عن المساومة والتهديد فبعث إلى أخيه زيد بالبرقية التالية(٢٥):

«منعاً لوقوع حادث ونحن على غير استعداد، عملنا الاتفاق المؤقت لحين نتمكن من الاستحضار، نحن لم نرتبط بأي شيء كان بالنظر إلى المستقبل، كونوا على عزائمكم الأولى في

(٢٣) وافق جميع مستشاري الأمير فيصل وأعضاء وفده على قبول مشروع الاتفاق ـ باستثناء الدكتور أحمد قدري ـ بعد أن توافرت عندهم القناعة بأن بريطانيا تخلّت عن العرب، وأن العرب لا يستطيعون مقاومة جيوش فرنسا، وأن الاتفاق خطوة ثانية تتلوها خطوات في المستقبل لتحقيق الاستقلال التام.

(٢٤) راجع أحمد قدري، ص ١٥٣ و١٥٧، ١٥٨، وأمين سعيد، ص ١١٩، ومصطفى طلاس ص ٣٣٢.

(٢٥) سليمان الموسى، **المراسلات التاريخية، ١٩١٩** المجلد الثاني، ص ٢٥١.

استحضار الجند، ولا تصدقوا ما ربما ينشد، فقط لا تتظاهروا بوجه عدائي لأي جهة كانت»[٢٦]

كان الأمير فيصل أثناء غيابه في أوروبا يرسل من وقت لآخر، وخلال مراحل مفاوضاته في لندن وباريس، برقيات مقتضبة إلى أخيه ونائبه في دمشق الأمير زيد. يطلعه فيها على سير هذه المفاوضات، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر بعض هذه البرقيات المختصرة:

- لا تصغوا لأقوال الصحف ... الحالة حسنة.
- المخابرات جارية أخبروا الشعب أن أية حركة فجائية تقع تضر بسير الحركة التفاوضية.
- الجماعة خائفون من حدوث قلاقل في سوريا.. الله الله! القوة القوة، كلما كنا أقوياء هناك (أي في سوريا) وكلما رأوا فينا أثر حياة عسكرية كلما احترمونا وخضعوا لمطاليبنا.
- الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ... ولكن حق بلا قوة لا يحترم ... أملي عظيم في تشكيل وحدة عسكرية تضم سوريا والعراق[٢٧]..

وكانت تتوالى الإشاعات في سوريا حول اتفاقية كليمنصو ـ لويد جورج فتزداد الخواطر التهاباً، والنفوس قلقاً على مصير البلاد.

وقد ظهرت في الصحف بيانات لجنة الدفاع. التي دعت إلى التطوع في صفوف المقاومة. وقد عارض الإنكليز هذه الحركة الوطنية شبه العسكرية وطالبت السلطات البريطانية على لسان

(٢٦) العماد مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ٣٣٢.
(٢٧) راجع سليمان الموسى، المراسلات التاريخية ١٩١٩، المجلد الثاني...

اللنبي بحل هذه التشكيلات، وطالب الفرنسيون بإقالة رئيس الأركان العربي وإبعاد رئيس الوزارة. كان الزعيم الوطني ـ أحمد مريود، العضو البارز والفعال في المؤتمر السوري وقيادة الحزب يواجه باستمرار كل قرار واتفاق يمس بوحدة البلاد واستقلالها، وبكل تسوية تخالف أهداف الحركة الوطنية الاستقلالية، واقترح مريود أن يبقى المؤتمر في انعقاد دائم لمراقبة الأحداث، وتحريك الشارع ضد كل ما يعرقل أهدافه وطموحاته بالوحدة والاستقلال، وكان فعلاً في انعقاد دائم خلال غياب الأمير فيصل. وعندما عاد الأمير فيصل إلى دمشق، أخذ يعقد الاجتماعات مع الشخصيات الوطنية وقيادات الأحزاب السياسية وبخاصة مع قيادة حزب الاستقلال، وكان يطرح للمناقشة في هذه اللقاءات مسائل عدة من أهمها:

- قبول المساعدات الأميركية والبريطانية.
- مقابلة لجنة الاستفتاء.
- تشكيل حكومة جديدة.

وقضايا كثيرة كانت موضع جدل بين الأمير فيصل والشعب العربي السوري الممثل بقواه الوطنية الاستقلالية... وكان من نتائج هذه اللقاءات والاجتماعات، أنْ يتم الاتفاق على بعض القضايا، والاختلاف على بعضها أحياناً، والسؤال أين موقع أحمد مريود في هذه اللقاءات والاجتماعات؟ وكيف كانت مواقفه من تلك الأحداث التي عصفت في سوريا منذ دخول القوات العربية وفيصل، حتى دخول القوات الفرنسية وغورو.

....

كان الزعيم الوطني أحمد مريود ..... وهو الزعيم الشعبي والوجه الوطني البارز العضو القيادي في جمعية العربية الفتاة، وحزب الاستقلال، وعضو المؤتمر السوري ـ شديد الحساسية من صيغة الأمير، ومن لهجة التعالي، وفي الوجه الآخر للعملة رأى حقيقة الحلفاء (فرنسا وبريطانيا)، وهي تماماً الصورة المماثلة للوجه الاستعماري التركي، مع فارق المأذنة والهلال، وقد نبّه العرب، كل العرب، أن لا فرق بين الأمر الصادر باللغة التركية عن الأمر الصادر باللغة الفرنسية أو الإنكليزية، وكانت البداية مع قرار الجنرال البريطاني اللنبي، عندما قضى بتقسيم بلاد الشام إلى مناطق تخضع للسيطرة الاستعمارية وسلطة القرار للدولتين الاستعماريتين: فرنسا وبريطانيا، وقد صارح مريود الأمير فيصل بخطورة هذا القرار، وما ينتج عنه فيما بعد، وبخاصة أن النشوة بالنصر والعلم العربي يرفرف في سماء دمشق والمدن العربية المحررة، ما زالت تنعش الجسد العربي والروح العربية. فقال:

«نحن طلاب استقلال وحرية، ولا نرضى سيادة أية دولة من الدول فوق سيادتنا لا فرق بين إنكلترا، أو فرنسا، أو تركيا.. ولدينا القدرة على إدارة بلادنا بأنفسنا، ومع الشكر للذين ساهموا معنا في تحرير بلادنا، ولن نقبل أن يكون الثمن استعمارنا».

وعندما عرض الأمير فيصل «إنذار» اللنبي هذا، على قيادة الجمعية العربية «الفتاة» لأخذ الموافقة عليه، بعد أن برّر قبوله، قال الزعيم الوطني أحمد مريود:

«كنا نعيش في دولة واحدة وموحدة، ويحكمنا السلطان التركي من استانبول. وبعد الثورة، سنعيش في دويلات مبعثرة، ويحكمنا أكثر من سلطان.. من منكم يملك القدرة على إقناع الشعب بأن الثورة حررت إرادتنا.. إنا قمنا بتحطيم القيد التركي

الواحد، ثم قيّدنا أرجلنا وأيدينا بعدة قيود فرنسية وإنكليزية، فمن هو القادر على تحريرها من جديد؟؟ لا تستغربوا إذا سمعتم هتافات شعبية عارمة ضدّنا».

وعندما صدر القرار الفرنسي ـ البريطاني المشترك يوم ١١/٨/ ١٩١٨، واستبشر الناس به خيراً، أخبره المناضل المؤرخ محمد عزة دروزة، بأن الرموز الوطنية وقيادات الأحزاب يرغبون زيارة البعثة العسكرية الفرنسية والإنكليزية لتقديم الشكر على حسن النوايا تجاه العرب، فرد عليه أحمد مريود:

«إن هذا الإعلان ما هو إلاّ ذرّ الرماد في العيون، إذا كانت دول الحلفاء صادقة في نواياها تجاه العرب، فعليها إلغاء اتفاقية سايكس ـ بيكو أولاً، وعلى اللنبي نفسه إلغاء قرار تقسيم البلاد عندها سأكون أول من يذهب إلى باريس ولندن لتقديم الشكر، وليس إلى بعثتهما في دمشق».

وبعد ظهور المطامع الأجنبية في بلاد العرب على حقيقتها وطرح فكرة قبول المساعدات الأميركية والبريطانية، وقد أخذ بعض السياسيين يرون أن يعلن الأمير فيصل قبول تلك المساعدات، كان للزعيم الوطني أحمد مريود موقفه المميز والواضح، فهو يرفض كل المساعدات المشروطة، ومن أي جهة كانت، لأن من يقدم مساعدة الآن سيطالب بثمنها غداً، والخوف أن ندفع الثمن غالياً.. وكانت هذه الأفكار تطرح داخل الاجتماعات التي كان يعقدها الأمير فيصل، ومعظمها كانت تدور حول المساعدات الأجنبية، ولجنة الاستفتاء الدولية التي ستزور البلاد لمعرفة رأي الشعب العربي في سوريا في الانتداب أو الاستقلال التام، عن هذه الاجتماعات ومواقف الزعيم الوطني أحمد مريود، يحدثنا أسعد داغر في مذكراته فيقول:

«لما أُعلن عزم عصبة الأمم على إرسال لجنة الاستفتاء إلى سوريا، كانت الأمة من أكبر زعيم إلى أصغر فرد من أبنائها مجمعة على المطالبة بالاستقلال التام ورفض كل مساعدة أو حماية أو انتداب. وكان الزعماء يعملون على تقوية هذه الروح وتعزيزها وتوحيد كلمة سوريا في مناطقها الثلاث الشمالية والجنوبية والساحلية. وقد سافرتُ لهذا الغرض مع المرحوم اسكندر عمون[٢٨] إلى لبنان، فاجتمعنا بمعظم الزعماء اللبنانيين وبحثنا معهم الأمر واتفقنا مع كثيرين من كبارهم على خطة واحدة للعمل على أساس استقلال كل من لبنان وسوريا استقلالاً تاماً».

ويضيف أسعد داغر، أن البعض من هؤلاء الزعماء الذين قالوا له ولرفيقه إسكندر عمون «إذهبوا فنحن معكم» كانوا بعد أسابيع في باريس يغيرون رأيهم. عاد أسعد داغر من بيروت إلى دمشق فوجد الكثير من الآراء والموقف قد تغيرت باستثناء موقف أحمد مريود، الذي بقي عند موقفه «الاستقلال بلا شروط» فقال:

«على أني لما عدت إلى دمشق وجدت الحالة قد تغيرت. فالدعاية التي كان يبثها كبار الرجال المسؤولين لحمل الشعب على رفض كل مساعدة أجنبية قد تبدّلت إلى عكسها وأصبحت سياسة البلاد ترمي إلى قبول مساعدة أميركا أو إنكلترا، مع رفض الانتداب الفرنساوي رفضا باتاً..

وقد ثارت أفكار الوطنيين على أثر هذا التبدل في سياسة فيصل وبعض المتصلين به، وبلغ الهياج أشده في نفوسهم من جراء ذلك. فتوالت الاجتماعات الحزبية والعامة لدرس الموضوع. وكان معظمها يعقد برئاسة الأمير فيصل. وكانت الحجة التي

---

(٢٨) اسكندر عمون: ولد في دير القمر في لبنان عام ١٨٥٧، ودرس الحقوق واشتغل بالأدب. وقطن في مصر وعمل بالمحاماة. وتولى وزارة العدل في الحكم الفيصلي، ثم استقال بسبب مرضه ومات في القاهرة عام ١٩٢٠. له بحوث كثيرة وترجمات عن الكتب الفرنسية (علي سلطان، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥).

يستند إليها القائلون بطلب المساعدة الأميركية أو الإنكليزية أن أميركا لا تقبل أن ترتبط بعهود جديدة في خارج القارة الأميركية، وأن إنكلترا لا يسعها بالنظر إلى علاقاتها الودية مع فرنسا أن تقبل بما تعده الحكومة الفرنساوية حقاً لها. فينتج عن ذلك أننا بطلبنا المساعدة الأميركية أو الإنكليزية نكتسب عطف الشعبين وصداقتهما من دون أن نُستهدف لنفوذهما أو انتدابهما، فنجعلهما بذلك عوناً لنا على درء المطامع الفرنسوية»..

ويستذكر المؤرخ والوجه السياسي أسعد داغر أنه حضر اجتماعين في ليلة واحدة، رأسهما الأمير فيصل بنفسه، في دار آل البكري، ويصف الاجتماع الأول بالعادي نظراً للعموميات التي نوقشت فيه، وتكمن أهميته بنوعية المشاركين فيه من رجال السياسة والفكر، وقد تجاوز عددهم المائة، بل يذكر «أن الأول كان عاماً اشترك فيه مئات الرجال»، والثاني خاصاً عقد في إحدى قاعات تلك الدار، وحضره بعض رجال حزب الاستقلال ورجال الهيئة الاستشارية لهذا الحزب[٢٩]. عن هذا الاجتماع وما دار فيه من مناقشات يتذكر أسعد داغر فيقول:

«وبعد مناقشة طويلة احتدم فيها الجدال، تكلم الأمير فيصل فبسط النظرية التي أشرت إليها. واستشهد على صحتها بمحادثات دارت بينه وبين رجال السياسة الإنكليز والأميركيين وبوثائق حصل عليها من بعض المقامات السياسية فأمكنه بذلك أن يستميل أكثرية المجتمعين إلى رأيه، أو بالأحرى أن يخفف من

(٢٩) شارك في هذا الاجتماع؛ أحمد مريود، أسعد داغر، محمد العظم، عبد الرحمن اليوسف، محمد عزة دروزة، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، شكري القوتلي، عوني عبد الهادي، خير الدين الزركلي، بهجت الشهابي، فخري البارودي، فوزي الغزي، جميل مردم، سعد الله الجابري، عادل إرسلان، نبيه العظمة، وغيرهم من الزعماء، بالإضافة إلى آل البكري.

معارضتهم بإضعاف الحجج التي كانوا يستندون إليها في هذه المعارضة».

يبدو أن البعض كان ميّالاً للفرنسيين وفي مقدمتهم عبد الرحمن اليوسف[٣٠] أما محمد العظم، فاكتفى بكلمة همسها في أذن أسعد داغر فقال له:

«أخشى يا بني أن تبلغوا إلى حالة تندمون فيها على الترك..»[٣١].

وفي خضّم هذا الجدال الصاخب أين وقف أحمد مريود وماذا قال؟ يقول أسعد داغر، وهو لا يزال يحدثنا عن ذاك الاجتماع التاريخي والمهم:

«غير أن أحمد مريود بقي مصراً على أنه لا يجوز أن تسمع لجنة الاستفتاء في البلاد السورية غير طلب الاستقلال التام الناجز».

وأكد مريود في هذا الاجتماع على ضرورة بناء القوة الذاتية، ورفض كل المساعدات المشروطة رفضاً يتشابه برفض الوصاية والانتداب الفرنسي أو الأميركي أو الإنكليزي، وأنْ لا حياة للشعب السوري بمناطقه الثلاث إلاّ ببناء الدولة المستقلة بالرأي والقرار.

وقد وقف إلى جانبه أسعد داغر نفسه، وخاطب الأمير فيصل بقوله:

«إن ما تفضلت به يا سمو الأمير .. على أعظم جانب من الأهمية. ولكن رجال السياسة الذين تعودوا إنكار المعاهدات لا يجوز الاعتماد على أقوالهم في مسألة حيوية كهذه المسألة، فإذا

(٣٠) عبد الرحمن اليوسف: اشترك في الحكومة التي شكلها علاء الدين الدروبي ساعة خروج فيصل من دمشق، وقتل معه في خربة غزالة على يدّ ثوار حوران.

(٣١) مذكرات أسعد داغر، ص ١٣٢

أنكروا وعودهم لسموكم كما أنكروا تعهداتهم لجلالة الوالد فماذا نفعل. وبأية حجة نستطيع حينئذٍ أن نقابل فرنسا»؟

كان الزعيم الوطني أحمد مريود في حالة اليقظة النفسية المتوقدة لأنه رأى بنظره الثاقب ما لم يره غيره، ولم يبدل من حاله ردّ الأمير فيصل الحماسي والوطني على أسعد داغر عندما قال له:

«إن الحجة الوحيدة هي القوة إذا فشلت السياسة. فعلينا أن نستعد».

ولكن، كيف يكون الاستعداد بنظر مريود؟؟ ومن أين القوة التي يهدد بها الأمير فيصل، والأمة تعيش الفراغ السياسي، ومعظم الضباط العرب في منازلهم، ومعظم الوحدات العسكرية سرّحت من الخدمة؟ كيف يقرأ مريود المستقبل العربي، وما الحلول المناسبة لبناء هذا المستقبل مجهول الهوية، وممزق الصورة؟ والحديث هنا لأسعد داغر على لسان أحمد مريود:

«قال لي ... إن المستقبل مظلم جداً لأننا نسير بلا برنامج وعلى غير هدى حيثما تدفعنا أيدي المطامع المحيطة بنا من كل الجهات. فإذا لم نضع لأنفسنا برنامجاً صريحاً نتعهد بأن لا نحيد عنه، ذهبت جهودنا كلها أدراج الرياح، وكانت العاقبة شراً ووبالاً علينا وعلى البلاد».

خرج مريود من هذا الاجتماع ومعه أسعد داغر، وذهبا معاً إلى فندق وفي شرفته المطلة على نهر بردى، توجّه الزعيم الوطني الغيور أحمد مريود بذاكرته، وبصيرته، وبصره، إلى وادي النيل، حيث مصر، التاريخ الوحدوي مع سوريا في عهد البطل الأيوبي صلاح الدين.. فقاده تفكيره الوطني وشرف انتمائه القومي إلى مقولة «التاريخ يعيد نفسه» فقال:

«إن سوريا لا تستطيع أن تحل محلها في هذه المهمة، ولا العراق،

ولا الجزيرة العربية.. فمن الواجب والحالة هذه أن نتقرب من مصر ونحملها على السير في موكب العروبة فشعب الكنانة الشقيق هو المقتدر والسند الوحيد».

وعندما دعيت اللجنة المركزية لحزب الاستقلال إلى الاجتماع باللجنة الأميركية التي كان يرأسها المستر «كراين» اقترح الزعيم الوطني أحمد مريود، أن يعدّ الحزب مذكرة يحدد فيها مطالب الشعب، وقد وافقت اللجنة المركزية على الاقتراح وشرعت في وضعها فوراً، وشكلت لهذا الغرض لجنة صياغة تألفت من: أحمد مريود، أسعد داغر، سعيد طليع، توفيق الناطور، الدكتور أحمد قدري، محمد عزة دروزة، وعند مناقشة بند «المساعدات الأجنبية» وجد مريود نفسه في عزلة عن رفاقه باستثناء أسعد داغر الذي اقترح قبول المساعدات غير المشروطة، أما بقية أعضاء اللجنة فكان رأيهم قبول المساعدات الأميركية والبريطانية لتفويت الفرصة على فرنسا التي ترغب رفض المساعدات لسوريا، أمام ذلك، اقترح مريود من جديد أن تكون المساعدات بناء على طلب سوريا، وهي التي تقدّر حاجتها للمساعدات وليس الآخرين، وأخيراً تمّ الاتفاق على ما يلي:

١ ـ المطالبة بالاستقلال التام الناجز.

٢ ـ استعداد الشعب العربي السوري لطلب كل مساعدة يرى نفسه في حاجة إليها من حكومة الولايات المتحدة الأميركية، أو من الحكومة البريطانية، بشرط أن لا تمس هذه المساعدة استقلاله، وأن يكون هو الذي يحددها ويطلبها.

٣ ـ يرفض الحزب، كما رفضته الأمة رفضاً باتاً الانتداب الفرنسي.

من الواضح أن البنود الثلاثة كانت من صياغة الزعيم أحمد مريود،

بدليل أن عباراتها وردت في أحاديث سابقة له، وبخاصة عبارة البند الأول، وقد جاءت في كلمة مريود أمام الأمير فيصل «لا يجوز أن تسمع لجنة الاستفتاء في البلاد السورية غير طلب الاستقلال التام الناجز»[٣٢].

هذه المطالب، التي أطلق عليها «تقرير حزب الاستقلال» لاقت استحساناً وقبولاً من قبل أعضاء اللجنة المركزية للحزب، ومن قبل الأكثرية الساحقة في البلاد، ويذكر أسعد داغر في مذكراته، أن الأسباب التي دعت لقبول المساعدات في حال طلبها من قبل الحكومة المستقلة، تعود إلى فكرة «عملت بعض المقامات الرسمية في سوريا على ترويجها وهي أن الاكتفاء بطلب الاستقلال يظهر الشعب السوري أمام عصبة الأمم بمظهر الشعب الذي لا يشعر بسوء الحالة التي نشأت عن الحرب، ولا يريد أن يستعجل الإصلاح، ليستطيع أن يسير بخطوات سريعة في طريق النهضة والارتقاء، وأن يقوم بنصيبه في خدمة الحضارة والسلم»[٣٣].

ونشير هنا، أن الزعيم أحمد مريود، أرسل رسالة إلى صديقه الشهيد كايد المفلح العبيدات يوم ٣ حزيران/ يونيو ١٩١٩، أي قبل ثلاثة أيام من زيارة لجنة كنغ ـ كراين للأردن، يوصيه فيها بتبني المطالب التالية:

- رفض مبدأ الانتداب.
- رفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وعدم الاعتراف بوعد بلفور للصهيونية.

---

(٣٢) راجع مذكرات أسعد داغر، ص ١٣٢.

(٣٣) طلبت حكومة الأمير فيصل مساعدة من بريطانيا قدرت بـ ١٥٠ ألف جنيه ثم قطعت هذه المساعدات فيما بعد.

- الالتزام بمقررات المؤتمر السوري.
- وحدة الأراضي العربية السورية، وإقامة الدولة العربية المستقلة فوق هذه الأراضي بما فيها فلسطين.
- عدم السماح للجنة بمقابلة «جهلة القوم»[٣٤].

(٣٤) قام الشيخ كايد المفلح بإرسال هذه المطالب إلى عشائر عباد في السلط لتبنيها كما بعث بنسخة منها إلى الشيخ حديثة الخريشة، والشيخ مثقال الفايز. ونشير هنا إلى رسالة الشيخ كايد إلى الزعيم أحمد مريود عضو المؤتمر السوري يوصيه برعاية أعضاء المؤتمر من الأردن، والتنسيق معهم وهم: سليمان السودي الروسان، عبد الرحمن الرشيدات، سعيد الصليبي، سعيد أبو جابر، ناجي ديب، خليل التلهوني، حسن العطيوي، عبد الهادي المرافي، عيسى المدانات، ناصر الفواز، (راجع كتابنا: سيرة الشهيد كايد المفلح العبيدات، ص ١٠٦ - ١٠٧).

٢

ثورة أحمد مريود في سوريا والأردن ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

أدرك الزعيم الوطني أحمد مريود، كغيره من الزعماء العرب، أن القرارات التوسعية الأوروبية تنطلق من ضرورة تأمين خطوط التجارة، وفتح أسواق جديدة للهيمنة على العالم، ولكي تصل إلى أهدافها (أوروبا) وهي تعي الأهمية العظمى لموقع بلادنا المتحكم بطرق المواصلات العالمية حرصت على التوافق والاشتراك بالسيطرة غير المباشرة على البلاد، وإعداد خطط التقاسم، حين تحين الفرصة المناسبة، وبانتظارها يمكن المباشرة بزعزعة الوحدة الوطنية في البلاد العربية، وفرض سياسة الإفقار. ولم تكن أوروبا بحاجة إلى حرب كحرب الأفيون مع الصين، لأن نظام الامتيازات العثماني، وفساد الإدارة كانا كفيلين بتحقيق هذه الغاية، وكانت الحركة الصهيونية تحاول إدراج نفسها ضمن هذه الضرورات الاستراتيجية الغربية، وقدمت نفسها منذ الربع الثاني من القرن الماضي كعامل مساعد لإحكام القبضة الغربية على بلادنا..

وعشية الحرب العالمية الأولى، والثورة العربية التي تلتها، كان

التنافس الأوروبي في وطننا العربي وبخاصة في بلاد الشام، قد بلغ حدّ الحرب الخفية، مع تطور التقنيات وتضخم المصالح، وبروز عوامل جديدة، قد يكون من أهمها اكتشاف النفط، ولم يغب عن الذهن الأوروبي أن سوريا بوحدتها الطبيعية، وأهمية موقعها، وحجم ثرواتها، وتجربتها الحضارية التي شهدت تعايش وتفاعل أديان وأجناس مختلفة، تشكل البديل الذي يمكن أن يهدد التوجهات الغربية ومنحاها الاستراتيجي الإستعماري ويبلور مساراً مختلفاً لهذه الصيرورة التاريخية التي تتحكم بها أوروبا. من هنا يمكن فهم المهادنة التي قامت بها الاستراتيجية الأوروبية للأمم المجاورة مثل تركيا التي تركتها على حالها، بل منحتها الجزء الغالي من سوريا (الإسكندرون) وإيران التي لم تقترب منها، مقابل لتشدد في محاولة تفتيت بلادنا وتجزئتها، وتدمير المقومات لأساسية لوحدة الأمة ونهوضها. فجاءت اتفاقية سايكس ـ بيكو لتخدم هذه الاستراتيجية، وتوظف لصالح الأطماع الأوروبية، وكما قال «لورنس»:

> «وسيكون على العرب أن يدفعوا الثمن مضطرين، ويصبحوا ضحية على مذبح مصالح الحلفاء»[1].

وأجمل «مكماهون» كل ما آلت إليه الأمور، وكشف عن حقيقة الموقف البريطاني تجاه العرب «الضحية»، كما كشف أيضاً عن حقيقة التخوف الغربي من قيام دولة عربية مستقلة، قد تعيد للأمة العربية أمجادها التاريخية، وذلك بقوله:

> إن تأييد القضية العربية عمل محفوف بالمخاطر، لأن حرية العرب

(١) توفيق برو، القضية العربية في الحرب العالمية الأولى، ص ٣٨٨.

قد تنمو في أحد الأيام، فتصبح كالغول الذي افترس صانعه»[٢].

وتراكمت الأحداث وذلك بسبب:

- تصاعد الشعور القومي ضد الاتفاق البريطاني - الفرنسي، والذي عرف باتفاق ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩١٩، وهو في حقيقته تنفيذ لاتفاقية سايكس - بيكو.
- إعلان الضباط العرب في احتفال للنادي العربي في دمشق، أنهم مستعدون أن يرموا الفرنسيين المستعمرين خارج سوريا.
- تشكلت مجموعات من المتطوعين بلغت من ٤٠٠ - ٥٠٠ وسيّروا مظاهرة في دمشق، وكانت جموع الناس تصل في تظاهراتها إلى قصر الأمير، هاتفة برفض الانتداب الفرنسي[٣].
- فرنسا وبريطانيا تحمّل ياسين الهاشمي مسؤولية التدريب العسكري، وإعداد جيش مؤلف من اثني عشر ألفاً من الجنود ليقاتلوا الغرب[٤].
- سَارَ الآلاف في شوارع دمشق (٢٢ تشرين الأول/ اكتوبر) والقلق يساورهم على مصيرهم ومصير بلادهم، وأبلغوا الأمير زيد نائب الأمير فيصل «أنهم مصممون قلوباً وألسنة مجموعات وأفراد، على الدفاع عن الوطن»[٥].
- الأمير فيصل يتفق مع رئيس وزراء فرنسا على صيغة تشبه الانتداب، ويوافق على المساعدات الفرنسية، وعلى استقلال

---

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. (أنظر كتابنا: **سيرة الشهيد كايد**، ص ١٠١).
(٣) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٢٢١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.
(٥) عن الحقيقة، عدد ١١٨٦، ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩.

لبنان، ومنح جبل العرب (الدروز) الإدارة الذاتية المستقلة داخل الدولة السورية.

- التفكير البريطاني بالانسحاب من الأراضي العربية السورية، واستبدالها بقوات فرنسية، مقدمة للاحتلال، وفرض الانتداب بالقوة من طرف واحد.
- الموقف السلبي للولايات المتحدة الأميركية تجاه التفاهم الفرنسي ـ البريطاني من القضية السورية.
- إقرار مبدأ الانتداب وليس الاستقلال التام والناجز.
- عدم الأخذ بنتائج لجنة الاستفتاء (كنغ ـ كراين) وتجاهلها تماماً.
- ممارسة أسلوب النزعات الطائفية من قبل «بيكو» لصالح السياسة والأهداف الفرنسية وبخاصة في مدينة حلب.
- المجاهد صبحي بركات يعلن الثورة من الحدود الغربية في شهر أيار/مايو ١٩١٩ ويطلق رصاصته الأولى ضد القوات الفرنسية من إنطاكية، لتمر الثورة وتتسع حتى تصل المناطق الشمالية والغربية، والجزيرة الفراتية[٦].
- وفي تل كلخ، اشتعلت نار الثورة، احتجاجاً على رفع العلم الفرنسي.

وسنطّلع في الصفحات التالية على نبذة من جذور وأصول الثورة الأم ثورة المجاهد الكبير أحمد مريود والفصائل الوطنية المنضمة للثورة الأم. وسنقرأ كذلك تفاصيل اتصالات ولقاءات قائد الثورة

(٦) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري، ص ٦٨ ـ ٦٩.

قبيل إعلان ساعة النفير لمحاربة ومنع القوات الإفرنسية المستعمرة من دخول سوريا من بوابة مرجعيون.

كما سنتابع معارك الثورة التي تعتبر مفخرة التلاحم القومي والجهاد في سبيل تحقيق استقلال البلاد ووحدتها الوطنية في الداخل مع الأردن ولبنان وفلسطين.

لقد كانت ثورة الزعيم الوطني أحمد مريود فريدة من نوعها حاربت على جبهتين: الإفرنسيين في سوريا ثم الإفرنسيين والبريطانيين انطلاقاً من الأردن، وانتهت معارك الثورة الأولى ١٩١٩ - ١٩٢٠ بعد سقوط ميسلون واحتلال جيش غورو دمشق. ثم انتقلت الثورة إلى الأردن لأنها كانت في سوريا بين فكيّ الكماشة مطوقة بالقوات الفرنسية ومحصورة في رقعة ضيقة من الأرض تصعب فيها حرب الأنصار في مواجهة جيش الاحتلال الفرنسي الأكثر عدداً وعدة هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تفِ بالغرض العسكري عملية التوسع في جناحي جبل عامل وحوران لكل الأسباب الجغرافية والعسكرية المعروفة، فكان الانتقال إلى الأردن حيث الأخوة المناضلون رفاق العقيدة السياسية والسلاح وتمَّ ذلك بالتنسيق الكامل مع مجاهدي جبل عامل ومجاهدي حوران الذين استمروا بتوفير العمق الجغرافي الاستراتيجي المطلوب لحرب المغاوير والأنصار، حرب الاستنزاف التي أعلنها المجاهد أحمد مريود انطلاقاً من الأردن.

إن عودة سريعة بالزمن إلى الوراء واجبة في هذا البحث، فقد كان ماثلاً في ذهن قائد الثورة أحمد مريود أمر خيانة الحلفاء الغربيين فرنسا وبريطانيا عبر ممارساتهما المشبوهة قبل أن تنكشف مخططات البلقنة والتقسيم عبر اتفاق سايكس - بيكو... ولم يكن

الأتراك العثمانيون والكماليون قبل الغرب أكثر ائتماناً على حقوق العرب الأساسية والمشروعة في حرية القرار وتحقيق الوحدة، وبسبب المعاناة المستمرة من الهيمنة والقهر للعرب قرر المجاهد أحمد مريود وفي وقت مبكر أن يعدّ للثورة بتأطير الجماهير الشعبية في تنظيمات شبه عسكرية ذات محتوى تحرري تحسباً لأسوأ الاحتمالات، فقام على تعبئة جماهير الثورة منذ العهد العثماني بداية من منطقة جبل الشيخ والحرمون والجولان والعرقوب وصولاً إلى جبل عامل ثم حوران بعد ذلك (أي إبان محاربة الاستعمار الفرنسي ـ البريطاني في العشرينات) وكانت الزوية ومزيريب والجيدور ودرعا محط الاهتمام الدائم وساحة النشاط العسكري لقوات ثورة الزعيم مريود الشعبية انطلاقاً من الأردن.

وقد حاربت جماهير الثورة هذه والتي عبأها المجاهد أحمد مريود وكانت كتلتها المقاتلة الأساسية من قرى وبلدات امتدت جغرافياً من مشارف قطنا وحتى آخر قرى العرقوب وجبل عامل والجنوب لما بعد مدينة صور (ومركزها بلدته جباثا الخشب) وناهزت بعددها خمسة آلاف مجاهد[7]، وكان الحليف الجنوبي المميّز لهذه القوة هو من مجاهدي جبل عامل، وقاتلت معه مجموعات من

(٧) وكانت تجمع بين أهلها هذه الكتلة روابط العصب والنسب وظروف الشقاء وظلم السلطان وهمجية المستعمر الغربي. لقد وحدتْ الجغرافيا الآمال والآلام وحفلتْ ذاكرة الزمن بأنصع صور التعاطف والتعاون والتآخي. ويروي المجاهد والكاتب الكبير خير الدين الزركلي أن الزعيم الوطني أحمد مريود كان يحرص دائماً بأن تصل الحنطة إلى لبنان بوفرة وبأسعار البيدر فتحفظ كرامة الناس خاصة في سنوات القحط والاضطرابات الاجتماعية. وهكذا ظلت هذه الكتلة المقاتلة القوة الأساسية للثورة جاهزة للفداء وظل التلاقي الأخوي بين سوريا ولبنان قائماً حتى يومنا، وترمز اليه بين اشياء أخرى صلات حميمة مع أسر متعددة في آل الخوري وآل حيمور وعرابي وغيرها الكثير.

مجاهدي الحولة، ومن عشيرة الفضل بقيادة الأمير محمود الفاعور ومن عشيرة السلوم بقيادة الشيخ زعل السلوم ومن عشيرة النعيم بقيادة الشيخ عبد الله الطحان، ومن جهة أخرى حرص قائد الثورة أحمد مريود على إشراك المجاهدين من شرقي الأردن وفلسطين بالثورة تجسيداً لمبدأ وحدة الهدف القومي وتحسباً واستعداداً لمجابهتهم أي عدوان بريطاني في المقبل من الأيام بعد أن انكشف تآمرها على العرب. وكان قائد الثورة أحمد مريود قد عقد مع الحكومة العربية في دمشق اتفاقاً سرحت بموجبه نخبة من الضباط للعمل في صفوف الثورة مهامها الأساسية تدريب وتنسيق جموع المجاهدين الذين تعوزهم صنوف الخبرات التنظيمية خصوصاً في مواجهة قوات جيش فرنسا المتمرس في الحروب والغزوات الاستعمارية.

ولنتابع فيما يلي الاتصالات والإعداد لثورة المجاهد أحمد مريود:

١ - في خريف ١٩١٩ بدأ قائد الثورة اتصالاته برجال الحكومة الوطنية في دمشق وبالضباط في جيش سوريا العربي وأوفد رسله للاتصال بالزعامات الأردنية الوطنية للاشتراك بالثورة التي ستمنع جيش غورو من دخول دمشق عن طريق جديدة مرجعيون.

٢ - واتصل بالشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية العليا فبدا متحمساً داعماً ومؤيداً ووعد بأن يضع كل الإمكانات بتصرف الثورة.

٣ - ثم اتصل بالمجاهد شكري القوتلي الذي تولى مهمة إخبار القيادات الوطنية الأخرى في دمشق، وقد تمّ لقاء قائد الثورة بالزعيم القوتلي بدار الأخير وحضره الزعيم الشعبي الكبير

عبد الله الطحان والأمير محمود الفاعور والشيخ عبد الله الطحّان وزعل السلّوم والقائمقام علي خلقي وآخرون، وعرض في الاجتماع اقتراح تشكيل قوة ضاربة من المغاوير الأنصار من سوريا وشرق الأردن وفلسطين لمحاربة القوات الإنكليزية والإفرنسية المحتلة، وقد بارك الجميع الاقتراح وشرع قائد الثورة بتوفير الأسباب اللازمة لذلك.

٤ ـ ثم اقترب من ميدان الثورة وساحة المعركة (القنيطرة) باتصاله بمسلم العطار المجاهد المجرب وقيادة منطقة الجيدور (جاسم وما حولها والزوية ومزيريب واليادوده وهي من بين أهم الفصائل التي التحقت بثورته.

ـ وكان من أهم الاجتماعات لقاؤه بقوات ثورته التي تتواجد في منطقة شاسعة وهامة استراتيجياً وكفاحياً وهي تعج بالمجاهدين المتمرسين المتحمسين والذين ناهز عددهم خمسة آلاف مجاهد موزعين على قرى وبلدات تبدأ من مشارف قطنا وتتدرج حتى آخر قرية في العرقوب، ومن بين أهم مراكز هذه القوة بلدته جباثا الخشب في قلب الجولان الثائر وعلى سفح جبل الشيخ الأشم وعلى السفح الآخر شبعا وحاصبيا وغيرها. لقد كانت هذه القوة الكبيرة عماد الثورة الأساس، الأكثر انسجاماً وتناسقاً، وقوة وفاعلية تربط بين بلداتها وقراها أواصر التلاحم التاريخي، وروابط العصب والنسب، وهي التي ظلّت بعد أن انفكت قوى عديدة من القوى المؤتلفة معها في الجهاد، لسبب أو لآخر، ظلت مع قائدها وفيّة لثوابت الأمة في محاربة الاستعمار والذود عن حياض الوطن طيلة أعوام خمسة كاملة من عام ١٩١٩ ـ ولغاية ١٩٢٤ من سوريا والأردن وهي التي نالت تدريباً

عسكرياً مكثفاً على أيدي ضباط جرى فرزهم لهذه الغاية من الجيش العربي النظامي..

٦ - واجتمع قائد الثورة بعد ذلك إلى نخبة من معاونيه في المجلس الاستشاري العسكري نذكر منهم الضباط: المقدم فريد رحمون - والرئيس شوكت عائدي - والرئيس محمد علي البشير - والملازم تيسير ظبيان - والملازم طارق الجندلي، وفي البداية القائمقام علي خليف الشرايري[٨]. وكان للزعيم الشعبي الكبير عبد الرحمن أرشيدات الدور الاساس في قيادة النضال الوطني ودعم كفاح سورية في تصديها لجيش الاستعمار الافرنسي.

٧ - وكان من مرافقيه السادة: سليمان التميمي (من نابلس) ونصوح منور (من صفد) وسيف الدين القائد (من الجزائر) ومحمود أبو غنيمة ومحمد الحافظ (من الأردن) فمثلوا الوطن العربي أفضل تمثيل وحرص عليهم اشدّ الحرص تأكيداً لأهمّية الشمولية العربية في ساحة الحرب كما في أوقات السلم.

٨ - بعد إعلان الثورة تواجدت القوات العربية المشاركة وعلى رأسها القائد القائمقام محمد علي العجلوني والقائد محمود أبوراس والضباط: أحمد التل، أحمد أبوراس، عبد الله التل (أبو عز الدين) وكانت هذه القوة مؤلفة من (٣٠) فارساً من بني عبيد و(٣٠) فارساً من الكورة و(٣٠) من الوسطية و(٤٠) من السرد، و(٢٠) من الكفارات و(١٢٠) من

---

(٨) وقد أبلى جميع هؤلاء الضباط البلاء الحسن. وتميّز أداء الرئيس شوكت عائدي والمقدم فريد رحمون والملازم تيسير ظبيان تميّزاً رفيعاً أثار اعتزاز وتقدير قائد الثورة الزعيم أحمد مريود والحكومة الوطنية في دمشق.

جهات متعددة وكان لوصولها أثر معنوي طيب، وشعر قائد الثورة مريود بارتياح عميق إذ قرأ روح الفداء والتضحية على جبين كل مجاهد منهم. وكانت التعبئة العامة قد أعلنت قبل يومين فنفرت قوات الثورة الأساسية بكامل جاهزيتها القتالية جامعة حشودها العظيمة من مشارف قطنا مروراً بجباثا الخشب وحتى آخر قرى العرقوب وبلدان جبل عامل الحليف القوي الخيّر والحافل بالمجاهدين. وهكذا برزت أهمية قوات الثورة الأساسية هذه فانضمت إليها حشود مجاهدي الحولة وعشيرة الفضل بقيادة الأمير محمود الفاعور وعشيرة النعيم بقيادة الشيخ عبد الله الطحان والقوات العربية الأردنية الفلسطينية المشاركة بقيادة اللواء البطل محمد علي العجلوني الذي تربطه بآل مريود روابط الخؤولة.

انطلقت الثورة على بركات الله وبعزائم الرجال الأبرار المجاهدين الأخيار وتوزعت جموعها إلى سبع مجموعات مع كل مجموعة جماعة من الضباط (من الجيش العربي السوري) جاء بهم قائد الثورة أحمد مريود بناء على اتفاق مع حكومة دمشق، إذ اعتبروا شكلاً مسرّحين من الجيش العربي وأنهم قد انضموا إلى ثورة أحمد مريود، وكانت المجموعة التي ضمت مجاهدي الأردن وفلسطين بإمرة القائمقام محمد علي العجلوني قد أخذت مواقعها في الحيز الجغرافي بين قرى الحدود السورية اللبنانية الفلسطينية إلى جانب المجموعات القتالية الأخرى.

وفي هذه الأثناء وصلت إلى قائد الثورة مريود معلومات نقلها أحد ضباط الجيش العربي والذي التحق بالثورة، تفيد أن وزير الحربية الفرنسي وبناء على طلب الجنرال غورو أمر بأن ترسل قوات عسكرية إضافية لتحارب قوات الثورة على أمل أن تفتح ثغرة ما

بدءاً بمرجعيون، قد تتسع لتنفذ منها إلى سوريا فتحتلها وتنهي الحكم الوطني القائم في دمشق وتقيم حكم الاستعمار الملتحف بعباءة الانتداب.

وكان قرار وزير الحربية الفرنسي هذا يتضمن إرسال تسعة ألوية مشاة، ومن ثلاث إلى أربع فرق خيالة وثماني بطاريات مدفعية، وكتيبتين هندسة وسرب طيران وأربع كوكبات خيالة مغاربية وكتيبة آلية مع عناصر الاتصال والخدمات زائد بطاريتين من عيار (١٠٥) بدلاً من عيار (٦٥) وإلحاقهما ببطاريتين (مدفعية) جبليتين إضافة لما هو موجود من قوات فرنسية.

وقد اتخذ قائد الثورة المجاهد أحمد مريود من مثلث (زعورا ـ عين فيت ـ بيناس) مركزاً للقيادة والتعبئة اللوجستية والإمداد والتموين لقوات هذه الثورة المظفرة الحاشدة. ومنها انطلقت الأوامر لكل فصائل المجاهدين (الذين فصّلنا فيما تقدم صفوفهم ومواقعهم) وكانت معارك هذه الثورة مظفرة وكثيرة تكللت بالنصر على جيش الاستعمار الفرنسي برغم التفوق العددي وبالمعدات التي كانت للإفرنسيين، نذكر من هذه المعارك معركة المطلة، معركة مرجعيون، معركة النبطية ومعركة الحمارى ومعركة القليعة ومعركة تل النحاس ومعركة إبل السقي ومعركة الخصاص الأولى والثانية.

وتميزت معركة الحمارى في سهل الحولة بضراوة واستبسال رجال الثورة في حصر القوات الفرنسية ذات التفوق الملحوظ عدداً وسلاحاً مدرعاً برية وجوية، وجاء مع النصر في هذه المعركة أسر (٣٥) عسكرياً قام بتسليمهم المجاهد أحمد مريود إلى الحكومة العربية في دمشق، واكتسبت معارك المطلة والقليعة ومرجعيون

والنبطية أهمية سياسية واستراتيجية خاصة وعمقت ترابط والتفاف الفصائل المؤازرة مع الثورة الأم ومكّنت من تحقيق النصر الكامل بعد احتلال مرجعيون وطرد حشود الإفرنسيين الذين انكفؤوا إلى لبنان ليعاودوا الكرة ولكن عن طريق اقتحام مجدل عنجر ثم ميسلون فدمشق. واكتسبت معركة الخصاص الأولى والثانية أهمية اقتصادية كبيرة حين صدّ المجاهدون فرنسا عن عمرة الفاعور رافضين الخضوع للابتزاز والنهب الاستعماري.

لقد تحققت أهداف ثورة ١٩١٩ بردِّ الغزو الفرنسي لسوريا عن طريق بوابة مرجعيون؛ وتحققت أيضاً بوجود المجاهدين الأردنيين والفلسطينيين واللبنانيين من جبل عامل وخوضهم معارك هذه الحرب ببسالة واكتسابهم كل الخبرات استعداداً لملاقاة الاستعمار الغربي بشقيه الفرنسي والبريطاني في المقبل من التحديات وتحققت أهداف ثورة ١٩١٩ القومية بقيادة المجاهد أحمد مريود عندما تعمّد السلاح العربي بوحدة ثوابت الأمة بالتحرير وتوحيد الأجزاء وبوجود المجاهدين من كل أطراف سوريا الداخلية والجنوب حتي ما وراء صور وفلسطين والأردن. كما تحققت أهداف ثورة الزعيم مريود باستمرارية الحماس الثوري واللياقة العسكرية والجاهزية القتالية التي أثبتت مصداقيتها النضالية والقتالية عندما انتقل زعيم الثورة بحشودها إلى الأردن.

كانت قيادة قوات الثورة من المجاهدين الأردنيين والفلسطينيين معقودة لأمير اللواء محمد علي العجلوني. وقد أغنت فصائل المجاهدين الأردنيين والفلسطينيين معارك الثورة وكانت دائماً بالقرب من قائد الثورة أحمد مريود تقاتل معه ببسالة عالية كما أغنت أدبيات الثورة بوصفها الوقائع واليوميات فيما يلي:

بدأت حركات الثوار بالاصطدام بالمستعمرات اليهودية توجساً من صلاتها بالإفرنسيين، ولا سيما في جهات صفد، وتمكن الثوار من قتل مجموعة من أفراد القوات الفرنسية واستلام أسلحتهم، ثم تحركت مجموعة من الثوار باتجاه مستعمرة «المطلة». وكانت وقتذاك واقعة تحت النفوذ الفرنسي، وقامت بغارات موفقة، وحصلت المجموعة على مكاسب وفيرة. فطلب قائد الثورة الإكثار منها وبمجموعات متتالية لتحقيق مكاسب عسكرية بقتل أكبر عدد من جنود العدو، والاستيلاء على كميات كثيرة من الأسلحة والعتاد لحاجة الثورة إلى هذه الأسلحة، فتحركت مجموعات من المقاتلين وتمركزت في الحولة، وخاضت هذه القوات معارك حيّة أثبتت قدرتها على مجابهة القوات الفرنسية وإلحاق الأذى والهزيمة فيها. وقد أثّرت هذه الحوادث على العلاقة بين الفرنسيين والحكومة العربية لأن قائد الثورة أحمد مريود يُعَدّ من ألمع قيادي حزب الاستقلال الحاكم من أعضاء المؤتمر السوري، ومنطقتهم قريبة من دمشق، وكانت المعارك شاملة لقرى المنطقة[٩] لكن قائد الثورة ورغم ذلك كثف من الغارات على الحدود الغربية مع لبنان، وتجاوزت قواته واحتلت عدة قرى منها، ودمرتها، وهاجمت بعض المفارز التابعة للجيش الفرنسي، المتمركزة في هذه المنطقة أيضاً، فجمع الفرنسيون قوات كبيرة، وضربوا المناطق التي يتمركز فيها الثوار بعنف بالغ، واستعملوا المدافع والطائرات حتى اضطر كثير من سكان (الحولة) الى ترك قراهم[١٠]. «وكان لهذه الغارات المتلاحقة على المطلّة أثرها الفعال داخل البلاد»[١١].

---

(٩) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٩.
(١١) علي خلقي، المصدر نفسه.

وعن هذه المعارك تحدث اللواء الشرايري قائلاً:

«وفي صباح يوم ١٤/١/١٩٢٠، أفقنا على صدى المدافع، وهي تقذف النار في أرض الحولة، حيث ترابط بعض القوات المجاهدة.. فهرعت قوات الثوار للاحتشاد في ذلك المكان، وانضمت إليهم قوات الحولة، وقامت بهجوم على قوات العدو، واضطروا للانسحاب من الخطوط الدفاعية.

وقد اجتاز الثوار نهر (الغجر) وقذفوا بأنفسهم، وكان كل مجاهد يمسك بيد الآخر، وركزوا على العدو هجوماً عنيفاً بالغ الروعة، واضطروه للفرار، تاركاً (١٥) قتيلاً و(٢٥) أسيراً و(١٥) رشاشاً، وعدداً من الخيول - واستمرت قوات الثوار بزحفها حتى بلغت المطلة، وحاصرتها ثلاثة أيام»[١٢].

ومن جهة أخرى قام الأهالي في صور بهجوم على القرى المجاورة لهم وحصل صدام بين الطرفين[١٣]. وحدث مثل ذلك في جبل عامل، وهاجم الفرنسيون قرى المنطقة فيه، حتى نزح عنها أكثر من ثلاثين ألفاً[١٤]. واحتج المؤتمر السوري والأمير فيصل على تسليح الفرنسيين لأنصارهم، والتحريض على الحرب بين المسلمين والمسيحيين، وعزا الاضطرابات في منطقة صور وبقية المنطقة الغربية، إلى الإدارة الفرنسية، وطالب بإعادة المنطقة الساحلية كي تكون تحت الإدارة العربية، حسب قرار مؤتمر سان ريمو، الذي اعترف باستقلال سوريا، لكن غورو حمّل الأمير فيصل مسؤولية كل الأعمال العدائية، وحمّله إثارة الناس والعشائر ضد الفرنسيين.

---

(١٢) ذكرت معلومات أن عدد الأسرى كان ٣٥ فرنسياً، سلّموا لقائد الثورة أحمد مريود، الذي قام بدوره بإرسالهم إلى دمشق.

(١٣) كتبت جريدة البيرق عدد ١٠٢٢، في ٩ حزيران/ يونيو ١٩٢٠ «قامت حوادث في صور بين «الشيعة» و«المسيحيين» وحصل الذبح والقتل، وقد قتل أهالي بنت جبيل ٨٣ شخصاً من قرية عين إبل (أنظر علي سلطان، ص ٣٣٩).

(١٤) المصدر نفسه.

وحمّله أيضاً مسؤولية الهجوم على قرية (عين إبل) القريبة من صور التي هاجمها الشيعة بتشجيع من قائد الثورة. كما أنكر غورو تسليح القرى المسيحية في منطقة جبل عامل[١٥].

وحين أحسَّت القوات الفرنسية بالقدرات القتالية عند الثوار، بادرت إلى استدعاء بعض الوحدات العسكرية التي كانت ترابط في زحلة، ونقلتها إلى منطقة مرجعيون التي كانت محط أنظار قائد الثورة أحمد مريود وهدف قواته الرئيسي.

ففي العشر الأول من شهر كانون الثاني/يناير ١٩٢٠، تحركت جميع قوى الثورة، واحتلت مرجعيون في غضون بضع ساعات، ورفعت فوق قلعتها ودار الحكومة العلم السوري. وفتكت قوات الثورة بعدد كبير من جنود الحامية الفرنسية، وألحقت بمواقعها الخسائر الفادحة، وقد استقبلت قوات الثورة بالأهازيج والهتافات من قبل أهالي مرجعيون، ورحبوا برجال الثورة، وكان في مقدمتهم الوجيه مراد غلمية[١٦]..

---

(١٥) اتهم المؤتمر السوري الحكومة العربية بالتهاون، وأنها لم تدافع عن جبل عامل، ضد الفرنسيين الذين دمروه (أنظر المصدر نفسه، ص ٣٤٠) (وانظر جريدة الكنانة، عدد ٢٧٣. في ٢٦ أيار/ مايو ١٩٢٠) وانبرى قائد الثورة المجاهد أحمد مريود عضو المؤتمر السوري بتقديم لائحة الاتهام بالتقصير والتهاون ضد الحكومة.

(١٦) من الحق أن نذكر بالجميل المدعو أديب وهبة من السلط (الأردن) الذي كان يساند الثورة ويزود قائدها أحمد مريود بالتقارير السرية والمعلومات العسكرية عن تحركات الجيش الفرنسي في لبنان، حيث كان هذا الضابط يتولى قيادة منطقة مقاطعة الحدود، ومقره في حاصبيا، هذا من جهة. ومن جهة أخرى تؤكد جماهير قرى الجولان وخاصة في جباثا الخشب أن مجموعات من رجال مرجعيون وعلى رأسهم قائد غاضب جاؤوا إلى جباثا الخشب بعد احتلالها من الفرنسيين في نهاية الثورة وبداية حزيران/ يونيو ١٩٢٦، ووضعوا ديناميت بكميات كبيرة في أركان دارة القائد مريود بأمل تفجيرها وهدمها ولما لم يفلح الديناميت هدموا بالفؤوس القناطر الحجرية للدار انتقاماً لاحتلال رجال الثورة الأبطال لمدينة مرجعيون وقلعتها ودار السراي فيها وردّهم قوة جيش الاستعمار الفرنسي على أعقابها.

حاولت قوات الثورة التوجه نحو النبطية، إلاّ أنها اضطرت للانسحاب بعد أن قام الفرنسيون بهجوم كبير، اشتركت فيه جميع الوحدات الفرنسية، من الفرنسان، والمدفعية، والدبابات والطائرات، واستردت مرجعيون وما بجوارها من المناطق التي احتلتها قوات الثورة(١٧). وعاد الثوار إلى مواقع التمركز الأولى في قرى الجولان، كما عاد الضباط والجنود إلى دمشق، استعداداً لمعركة جديدة، وعاد أيضاً قائد الثورة إلى مواقع العمل السياسي للمشاركة بأعمال المؤتمر السوري الذي سيقرر مصير البلاد.. كما سنرى.

حوادث البقاع:

وصل الجنرال غورو إلى بيروت في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩، وكان يحمل في ذاكرته الصورة الواضحة للعداء الذي سوف يقابله به الشعب العربي السوري. وحاول أن يظهر مهمته على أنها مجرد استبدال القوات الفرنسية بإنكليزية وأخفى مهمته الحقيقية في احتلال سوريا، لكن القوى الوطنية وفي مقدمتهم الزعيم الوطني أحمد مريود، كانت على علم بأنه جاء لاحتلال سوريا وفرض الانتداب عليها بالقوة، فرسالة بيكو للحكومة الفرنسية في ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٩ تؤكد انعدام النوايا الحسنة، فاقترح أن يُعين قائد عسكري في سوريا، حتى «يظهر للعسكريين السوريين صلابة الحلفاء، ويجعلهم يعرفون المسؤولية الخطيرة التي يتحملونها، إذا مُستْ الأوامر، أو سادت الفوضى في

(١٧) تمتْ استعادة القوات الفرنسية لمرجعيون بعد هجوم كبير اشتركت فيه جميع صنوف الأسلحة بما في ذلك الطيران الحربي. وكان ذلك بعد سقوط ميسلون ودمشق بأيدي قوات الاستعمار الفرنسي.

البلد الذي سوف يكون كلية تحت إدارة الفرنسيين»[١٨].

وقد قابلت الصحافة في دمشق قدومه باستنكار شديد، واعتبرته إنذاراً بالخطر الحقيقي[١٩] فكتبت جريدة «الدمشقية» في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ـ بعد يومين من إعلان ثورة أحمد مريود ـ «بأن الدم سيسيل كالنهر مع الحقد المجنون، حيث تقوم معركتنا التي سوف تقرر استقلالنا.. إن الجنرال غورو معروف بقسوته وبسفك الدماء. لقد أتمّ ذلك في مراكش، وأن مآثره الواضحة، تكشف عن اتحاد هذه الصفات المخيفة في شخصه»[٢٠].

ومع قدوم غورو، اشتعلت الثورة على الحدود الغربية مع لبنان ضد القوات الفرنسية، وقد استغلها تماماً، وأخذ يرسل القوات الكبيرة إلى القرى بحجة حماية المسيحيين، وحاولت القوى الوطنية اللبنانية تفويت الفرصة على الفرنسيين، فأصدرت بيانات دعت إلى عدم الاستماع إلى الفرنسيين الذين يثيرون المشاعر الطائفية، حتى يكونوا هم المنتصرين باستعمال مبدأ «فرق تسد»[٢١] وكانت الخطورة كامنة في منطقة الأقضية الأربعة:

البقاع.

بعلبك.

حاصبيا.

راشيا.

---

(١٨) الوثائق الفرنسي، رقم ١٩ ص ١١٦ - ١١٨.
(١٩) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٢٣٩.
(٢٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٢١) أمين سعيد، ص ١١٢.

التي طالب بها الوفد اللبناني (في مؤتمر الصلح)، لضمها إلى لبنان، وكانت راشيا منطقة حساسة متنازع عليها بين الفرنسيين والسوريين. «وفي راشيا جرت محاولة قتل «بيكو» في أواخر آب/ أغسطس ١٩١٩، إذ هاجمه الثوار بعد علمهم بمحاولة ضمّها إلى المنطقة الفرنسية، فنجا بيكو وجرح رفيقه قائد الأسطول الفرنسي الأميرال «مورني»، لكن السلطة الفرنسية لم تذع الخبر، حرصاً على إبقاء دعايتها «بتعلق اللبنانيين بالفرنسيين»، وقد اهتم الزعيم الوطني أحمد مريود بتحريض أهالي راشيا على الثورة وقتل كل فرنسي يدخل المنطقة، وعلى أثر ذلك قامت السلطات الفرنسية بحملة كبيرة واعتقلت كثيراً من الأهالي، وقتلت عدداً آخر، وضربت القرى بالمدافع، ولم تهدأ الثورة هناك حتى عام ١٩٢٢[٢٢].

قرر غورو احتلال البقاع لوجود القوات العربية، إلاّ أن اللنبي نصحه بتأجيل الاحتلال ريثما يتدبر أمره مع الأمير فيصل بإقناعه بسحب القوات العربية من المنطقة تفادياً لحرب بين الطرفين، وحتى تأتيه الأوامر من حكومته في لندن. ويبدو أن مراسلات قد أجريت بين اللنبي وحكومته بهذا الخصوص. حتى صدرت إليه الأوامر بوجوب إجلاء الجنود العرب عن البقاع وتسليمها للفرنسيين، فأرسل في ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩، ضابطاً إلى الأمير زيد، أبلغه أن الجيش الفرنسي سيحتل البقاع والأقضية الأربعة، ولذا طلب منه بشكل قاطع أن تخلي القوات العربية المنطقة. لكن لم يأت الأول من كانون الأول/ ديسمبر، حتى احتلت القوات الفرنسية الأقضية الأربعة. وكانت ردة الفعل عنيفة

(٢٢) علي سلطان، ص ٢٤٣.

في دمشق ضد الاحتلال الفرنسي للبقاع، فأرسل الأمير زيد إلى أخيه الأمير فيصل رسالة يستحثه على العودة سريعاً، بعد أن وصل الموقف إلى درجة الانفجار. قبل الاحتلال الفرنسي للبقاع، حاولت الحكومة ثني غورو عن فعلته، فأوفدت نوري السعيد إلى زحلة للتباحث مع سكرتير غورو الخاص الجنرال «دلاموت» وفي اجتماع عقد بين الطرفين حضره أسعد داغر قال نوري السعيد:

«إن الحوادث التي وقعت في معلقة زحلة أخيراً وشعور الرأي العام في سوريا برغبة الفرنسويين في توسيع نطاق احتلالهم في البقاع وكثرة القوات التي حشدوها على الحدود. كل ذلك أحدث في سوريا هياجاً عظيماً أصبحت الحكومة السورية في عجز تام عن معالجته. ولذلك أرى أن المحافظة على روح الصداقة والتحالف بينها وبين فرنسا تستلزم إبقاء الحالة على ما هي عليه في البلاد، ريثما تحل المشكلة نهائياً بالطرق السياسية، وما دامت هذه الحالة وقتية باعتراف الفريقين، فمحاولة تعديلها لا تفيد بل قد تكون عظيمة الضرر، ولا سيما إذا أثارت عاصفة من الهياج كالعاصفة التي تهب على سوريا الآن»[٢٣].

فأجاب دلاموت قائلا:

«إن ما قلته يا حضرة الجنرال عن حالة الرأي العام في المنطقة الداخلية يمكن أن نقوله عن الحالة في المنطقة الساحلية أيضاً. فإن الرأي العام عندنا في هياج كما هو عندكم. وما دامت الحالة في سوريا وقتية ومادمنا حلفاء وشركاء في تحمل تبعية الإدارة فماذا يهم دخول جندنا أو جندكم في منطقة أو خروجه منها»[٢٤].

واستمرت المباحثات نحو ساعة واحدة، أسفرت عن الاتفاق على عدم تجاوز الجيش الفرنسي حدود البقاع والاكتفاء بإرسال بضعة

(٢٣) أسعد داغر، ص ١١٦.
(٢٤) المصدر نفسه.

جنود لا يزيد عدد أفرادهم عن العشرين إلى محطة الطيران الفرنسية في رياق لحراستها وتأمين سير العمل فيها.

وعلى هامش هذا اللقاء خاطب أسعد داغر الجنرال دلاموت وسأله:

«لا أدري يا حضرة الجنرال ما الذي تتوخاه فرنسا من سياستها في سوريا؟ ولماذا تقف عقبة في طريقها وهي التي تلقب نفسها بمحررة الشعوب وحامية استقلالها؟

إنكم تحتلون الساحل الآن، وتطمعون إلى التوسع في الداخل وتسيرون على خطة ملؤها العداء للشعب السوري، وهذا ما لم تفعلوه مع الشعوب الأخرى التي ساعدتموها حقيقة على نيل استقلالها»[٢٥].

وعلى الرغم من طيب قلب دلاموت، البعيد بتفكيره عن خبث السياسة ومكرها خلافاً لصديقه الجنرال غورو، فقد كان رده على أسعد داغر فيه ما يشبه التفكير الاستعماري، عندما قال له:

«إننا لا ننتهج هذه السياسة بقصد الاستعمار، بل رغبة في منافسة الإنكليز الذين سلبونا أقطاراً غنية وواسعة من بلاد الشرق العربي!».

وبعد اختتام المباحثات انتقل نوري السعيد إلى «رياق» ليضع علي جودت قائد البقاع في صورة الاتفاق مع دلاموت.. ولما كان أسعد داغر غير راضٍ عن هذا الاتفاق، اختلى بغرفة خاصة بعلي جودت وجرى بينهما الحوار التالي:

أسعد داغر: هذا ما تم الاتفاق عليه. فماذا تنوي أن تفعل إذا دخلت القوة حدود البقاع غداً.

---

(٢٥) أسعد داغر، ص ١١٨.

علي جودت: ما هو رأيك أنت؟

أسعد داغر: أرى أنه لا يجوز لك أن تنفذ هذا الأمر لأن البلاد مجمعة على المقاومة، فهل في طاقتك أن تقاوم، وما هي القوة التي لديك؟

علي جودت: إذا لم تشأ الحكومة الدخول رسمياً في الحرب فلا يمكنني أن أعتمد على أكثر من سبعين أو ثمانين ضابطاً وجندياً.. ولكن لديَّ نحو ثلاثة أو أربعة آلاف مقاتل من الأهلين هم الآن محتشدون بجوار قرية الناصرية المطلة على سهل البقاع وهم قوة لا يستهان بها، وقد يتضاعف عددها عند إطلاق أول رصاصة.

وأخيراً تمّ الاتفاق بين الاثنين على إبلاغ اللجنة الوطنية في دمشق بخلاصة ما جرى، وأن يضع علي جودت نفسه تحت تصرفها.

أثناء ذلك، أبرق الأمير فيصل إلى شقيقه الأمير زيد بوجوب مقاومة كل جندي فرنسي يريد اجتياز الحدود، لأن هذه المقاومة تعزز مركز القضية في أوروبا، ولأن الحالة السياسية الدولية لم تكن في ذلك الحين لتسمح بأن تنقلب هذه المقاومة إلى حرب رسمية. وكانت هذه البرقية توحي بمضايقة الأمير فيصل في أوروبا، فهو يريد مقاومة محدودة لتقوية مركزه وموقفه أمام الحلفاء، ولا يريد حرباً شاملة يخسر فيها كل شيء، ولكن وبكل أسف فشلت اللجنة الوطنية من إرسال الأمدادات إلى علي جودت، واقتصرت وسائل الدعم على المساعدات العسكرية والبشرية التي قدمها الزعيم الوطني أحمد مريود، حيث كانت ثورته لا تزال مشتعلة في المناطق الحدودية.

أطلع أحمد مريود على برقية الأمير فيصل لشقيقه زيد، ورأى أن

الواجب الوطني يستوجب تواجده في البقاع لتعبئة الجماهير، وتنظيم صفوفها وتجهيزها لمقاتلة العدو المتربص لاحتلال المنطقة، كمقدمة لاحتلال سوريا الداخلية، فسافر إلى قطنا، حيث اختار سبعين خيالاً من الدرك وقصد بهم البقاع، فاستحث فيهم الشهامة العربية، وشرف الانتماء للوطن المهدد بالاحتلال، ومصادرة حرياتهم الشخصية والسياسية وحتى الحياتية، فاستجابوا لندائه الوطني والقومي، وهذا يعود إلى شخصية مريود المحببة. ولم يجد في استقطاب الأهالي والوجهاء والزعماء، أمثال: طراف حيمور من بلدة القرعون وزعيمها، وتركي عراجي زعيم برّ الياس، وحسين حمود، وأبو علي حمود، وأبو عمر حمود، وكافة وجهاء عائلة الفرزلي في البقاع. وهؤلا الزعماء لم يبخلوا بشيء فوضعوا رجالهم وأموالهم بتصرف الزعيم الوطني أحمد مريود، فأشرفوا على تشكيل المجموعات المتطوعة، كما قام رجال الدرك بتدريب المتطوعين على السلاح، وعلى أسلوب شن الغارات الخاطفة(٢٦) حتى وصل عدد المتطوعين إلى أكثر من أربعة آلاف مقاتل، كما ذكر علي جودت قائد البقاع العسكري..

ولما كان عدد المتطوعين في بلدة القرعون يزيد عن حدِّ التصور، أوفد الزعيم الوطني أحمد مريود كبار رجال الدرك لتدريبهم، وكانوا أربعة رجال من بينهم الأخوين عبد القادر وأحمد بارافي. وعند مشارف البلدة شاهدوا مجموعة من المسلحين ومن غير المنتسبين للمقاومة الشعبية الوطنية، فأراد المجاهد عبد القادر بارافي أن يطلق الرصاص عليهم ويخوض معهم معركة قبل أن يتعرف

(٢٦) إلى جانب ضباط من الجيش العربي بدمشق اختارهم قائد الثورة للإشراف على مشاريع التدريب وشن الغارات.

على هوياتهم الشخصية، إلاّ أن الرأي الأخير كان أسرهم لأنهم ليسوا من جنود الجيش الفرنسي بل من مرتزقتهم المغرر بهم، فقام المجاهد أحمد بارافي بإطلاق الرصاص باتجاه مقدمة سيرهم حتى توقفوا، فأخذوا يبحثون عن مصادر الرصاص، وقبل أن يستكملوا استعدادهم للقتال، كانوا أمام مفاجأة لم يتوقعوها، فصرخ بهم المجاهد أحمد بارافي أن يرفعوا أيديهم إلى الأعلى، وأن يرموا أسلحتهم بجانب أقدامهم، فكان عدد هؤلاء المرتزقة ضعاف النفوس ٢٥ شخصاً، تمّ أسرهم، فلولا شهامة الرجال، من منطلق «العفو عند المقدرة» ومن منطلق إعطاء فرصة للتوبة، لأجهز عليهم قبل أن يتمادوا في خيانتهم، واختيار موقفهم إلى جانب العدو المحتل، فتمّ نقلهم أسرى إلى مخفر عنجر، وسلّموا إلى قائده فؤاد سليم، وكانت هذه الحادثة بمثابة الانتصار المعنوي الذي قوّى من عزائم أهل القرعون بخاصة وأهل البقاع بعامة، كما كانت بمثابة الدرس للذين سولت لهم أنفسهم بالتعاون مع السلطات الفرنسية.

بعد هذه الحادثة تعرض المناضل الوطني طراف حيمور إلى التهديد بالتصفية الجسدية من قبل السلطات الفرنسية وأزلامها المرتزقة، إلاّ أنه قابل التهديد بالتحدي، فأقبل يشرف بنفسه على تنظيم وتعبئة أهل القرعون بنشاط أكبر وعزيمة أشد، وعندما عرض عليه الزعيم أحمد مريود أن يرافقه أحد جنود الدرك لحمايته قال له: «يا سيدي من سيحرس الآخر.. إن مشيئة الله ستحرس الجميع، فالموت من أجل الوطن شهادة أتمناها لنفسي» فأكبر فيه أحمد مريود روح التضحية والفداء، وكبرياء النفس العربية.

أراد الزعيم الوطني أحمد مريود، تعميم خطة مقاومة الجيش

الفرنسي وأسلوب التصدي له على جميع المقاتلين في كافة القرى والبلدات البقاعية، كما أراد أن يتعرف على مواقف جميع الشرائح الشعبية ومدى الالتزام بالدفاع عن الوطن، فاقترح على المجاهد طراف أن يدعو إلى اجتماع في قرية القرعون، وأن تكون الدعوة عامة، يحضره حتى الذين في قلوبهم مرض لاستقطابهم وأبعادهم عن الترغيبات الفرنسية، فعقد الاجتماع في جو مشحون بالتوتر والعصبية. وكان هدف الزعيم مريود من هذا الاجتماع توحيد الكلمة ورصّ الصفوف، بعيداً عن النزعة الطائفية والمذهبية الضيقة التي يراهن العدو عليها وعلى إذكائها في نفوس المرتدين والانفصاليين، فعلى قاعدة الانتماء للوطن، ومبدأ الوطن للجميع تقوى الإرادة العربية وتضعف طموحات العدو وبهذه المعاني والمفاهيم النضالية القومية، بسط الزعيم أحمد مريود أهمية هذا الاجتماع وضرورة الخروج منه بوحدة تصوّر، ووضوح الرؤيا أمام الجميع، لأن العدو لا يستهدف فئة ويستثني أخرى من أهدافه الاستعمارية والاستعبادية.

ومن خلال المناقشات التي دارت في اجتماع القرعون، والتي كادت أن تؤدي إلى الصدام بين الأطراف المتنازعة بالآراء والمواقف، اكتشف الزعيم أحمد مريود، أن الأغلبية الساحقة تنسجم بمواقفها مع مواقفه الوحدوية والنضالية، وأنها ستضحي بنفسها دفاعاً عن الوطن، ومنع الغزاة من احتلال البقاع بالتصدي والمقاومة الانتحارية، كما اكتشف فئة قليلة كانت متناقضة بمواقفها وآرائها فتارة تطرح فكرة الحياد وترك الأمور للمجتمعين في مؤتمر الصلح، وتارة أخرى تعبّر عن مظاهر الخوف من القوة الفرنسية التي لا مجال لمقاومتها والانتصار عليها. وبرزت قوة ثالثة، وضح موقفها من خلال التزامها بآراء ومواقف الوفد اللبناني

في مؤتمر الصلح، وهذه الفئة، عارضت بشدة فكرة العداء للسلطات الفرنسية ومقاومتها إذا فكرت باحتلال البقاع، أما الفئة الرابعة فكانت مجموعة من الانتهازيين الوصوليين الذين لا همّ لهم إلاّ تأمين مصالحهم الشخصية، فرحبوا بالحضارة الفرنسية القادمة على يد سلطات الانتداب، واعتبروا الجيش الفرنسي صديقاً لا غازياً. أما الفئة الأخيرة، فهم من المرتزقة، يقبضون ثمن مواقفهم من مخابرات الجيش الفرنسي همهم الوحيد إشباع رغباتهم اليومية دون التفكير بأهمية حرية الوطن واستقلاله. وهذه الفئة ليست بالضرورة متجانسة بالفكر والعقيدة والمذهب الديني، إنما هي موحدة بظاهرة الخيانة والعمالة للأجنبي. أمام هذه المواقف والآراء المتناقضة، كيف سيعالج الأمور الزعيم الوطني أحمد مريود، لا سيما وأنها وصلت حد التناحر وتبادل الاتهامات بين زعامات الفئات المذكورة؟؟

من المعروف أن الزعيم مريود يتمتع بشخصية مهابة، ولديه القدرة على احتواء الغضب، بصبر واتزان، ويتميز بالاستماع إلى الرأي الآخر حتى النهاية، حتى ولو كان هذا الرأي يؤلمه ويخالفه. فهذه المواصفات في شخصيته القيادية تؤهله دائماً لحسم الأمور إلى صالح موقفه الصحيح، ألقى كلمة حماسية وأعاد السكون إلى وضعه الطبيعي وأثّر كلامه في الحضور حتى في الذين عارضوه في الرأي والموقف وقال:

«إن قدرنا، وهو قدر الخالق سبحانه وتعالى أن نكون أبناء أمة واحدة، نعيش جميعاً في وطن واحد، عربي الانتماء نعرّفه نحن ببلاد الشام وقد أبتلينا جميعاً المسلم قبل المسيحي بالاستعمار التركي، وناضلنا جميعاً للتخلص منه، فلماذا لا نناضل جميعاً مرة أخرى ضد قوة استعمارية تريد أن تكون بديلة عن

الاستعمار التركي؟؟ ما الذي بدل الحال؟ عندما تحالفنا مع فرنسا وبريطانيا كنا نعرف أن الدولتين تدينان بالمسيحية، وحاربنا معا ضد تركياً التي تدين بالإسلام، ولم يقدنا تفكيرنا إلى غير تحرير الوطن واستقلال بلادنا من استعمار كرهناه جميعاً كعرب، يوحدنا جميعاً التفكير القومي، وفرنسا تريد استعمارنا ليس من مفاهيم دينية، بل من خلال مفاهيمها الاستعمارية، وإلاّ لماذا حاربت فرنسا ألمانيا طالما أنها تدين بديانتها نفسها؟ إن تضارب المصالح بين القوى العالمية أدى إلى الحرب، فمصالحنا كعرب تفرض علينا أن نكون في مستوى الأمم التي تحافظ على وحدتها القومية، فإذا كانت مصلحتنا أن نكون في دولة مستقلة، لماذا لا نقف بقوة ضد من تحاول أن لا نكون مثلها دولة مستقلة».

وتابع الزعيم الوطني حديثه بقوله:

«إن الذين يقولون بأن فرنسا دولة حضارية، يجب الاستفادة من حضارتها، أقول لهم، بأن الحضارة لا يتم نشدانها بالقوة، بل بالتبادل الحضاري والاكتساب عن طريق العلم والتعلم، وأذكرهم بأن المؤرخ والفيلسوف الفرنسي «مسيو فالبري» قال: (لو لم تظهر حضارة العرب على مسرح التاريخ لتأخرت حضارة أوروبا عدة قرون). ومع كل هذا نعترف أن فرنسا دولة متقدمة ونرغب الاقتباس منها. لكن بطرقنا الخاصة وليس على طريقتها».

واختتم الزعيم أحمد مريود حديثه بدعوة أهل البقاع إلى الوحدة الوطنية، والوقوف بصف واحد، أمام الخطر الاستعماري، الذي يهدد الهوية الوطنية والقومية، ولاقت كلمته استحسان الحضور، والتف حوله شعب ووجهاء البقاع. وخرجوا من الاجتماع، وهم على عهد الدفاع عن الوطن، والتصدي لأعدائه. وقد تسربت أخبار الاجتماع إلى السلطات الفرنسية عن طريق جواسيسها

فأخذت تعمل على انحياز زعماء ووجهاء البقاع إلى جانب صفها، بأساليب مختلفة، فتارة بالترهيب، وتارة أخرى بالترغيب بالأموال والجاه والزعامة، ولكنها لم تستقطب إلاّ ضعاف النفوس، فكانت حريصة على استقطاب زعماء عوائل الفرزلي، وحيمور، وحمّود وعراجي إلاّ أن مساعيها باءت بالفشل، فظلت هذه العوائل في الصف الوطني حتى خلال الانتداب. وعلى الرغم من أن المقاومة البقاعية لم تخض معارك كبيرة ضد السلطات الفرنسية، إلاّ أن معركتها في وادي الحرير ضد جماعة من عملاء فرنسا كانت عائدة من بيروت، وضعت السلطات الفرنسية ومعها قوى المرتزقة في مأزق صعب، وأخذت تفكر في طريقة لحماية جواسيسها وعملائها قبل التفكير بمهاجمة مواقع رجال المقاومة، لا سيما وأن كبير الجواسيس والعملاء قد قتل على يد رجال المقاومة في معركة وادي الحرير، ويعرف هذا الجاسوس بأبي الفخد»[٢٧]..

أسباب موضوعية أملت على الزعيم الوطني أحمد مريود الانسحاب من البقاع، ولكنه ترك قيادات سياسية وشعبية أفرزتها أحداث وحوادث البقاع تمكنت من قيادة الجماهير وتصدت بالقول والفعل لقوات غورو التي احتلت البقاع في أوائل شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٩[٢٨]. وأخيراً كلمة اعتزاز ووفاء لدور اللواء عطاف باشا المغربي في نصرة الثورة. عمل اللواء عطاف باشا على نصرة القوات في معاركهم على امتداد سورية

---

(٢٧) أخذت هذه المعلومات عن شريط كاسيت سجله المجاهد أحمد بارافي.

(٢٨) استمر مجاهدو البقاع بمقاومة الاستعمار الفرنسي بعد أن انتقلوا مع قائد الثورة المجاهد الكبير أحمد مريود إلى الأردن، وساهموا في حرب الاستنزاف انطلاقاً من ربوعه جنباً إلى جنب مع مجاهدي سوريا والأردن وفلسطين الذين اشتركوا في ثورة ١٩١٩. وكان أهم قيادي المجاهدين من البقاع رجال ذوي مكانة مرموقة اجتماعياً وكفاحياً من مثل آل حيمور وآل عراجي وآل حمود وغيرهم.

وكانت صلاته عبر سكان حي السويقة في دمشق بالثوار او مباشرة كلما أمكن ذلك.

وكانت القوات المغاربية التي في أمرته تارة في طليعة الحملات الفرنسية على الثوار أو في مؤخرتها، ولكنه وعلى الدوام كان يؤازر الثوار ويترك لهم السلاح والعتاد الحربي في نهاية كل معركة وهم بأمّس الحاجة اليه. كما كان يأمر رجاله بتفادي إطلاق النار على الثوار الذين كانوا بدورهم يتحاشون توجيه رصاصهم إلى إخوانهم المغاربة.

وفي معارك حرب ١٩١٩ بقيادة الزعيم أحمد مريود والتي دارت رحاها لصدّ العدوان الإفرنسي عن سورية (عبر مرجعيون والحولة والجولان) حرص وقبل كل معركة أن يهيئ أسباب التآزر والتنسيق بين رجاله وبين الثوار وفي أضعف الإيمان عدم التصادم. ويذكر التاريخ أن اللواء عطاف باشا وفي كل معارك هذه الثورة ـ الحرب على قوات العدوان الفرنسي تجمع بكل خططه المتعاطفة والمؤازرة وتمكن وفي كل مرة من إبلاغ قائد الثورة الزعيم أحمد مريود بجوهر التحرك الفرنسي، وكعادته كان يترك العتاد والذخيرة.

رحم الله هذا البطل العربي المجاهد الحرّ الأبي وزاده وأهله وجنوده وموطنه المغرب العربي الكبير تشريفاً وتعظيماً.

٣

الاستقلال
بين الحقيقة والوهم

كان اتفاق استبدال القوات الفرنسية بالإنكليزية في ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩١٩، دليلاً لدى الحركة الوطنية العربية على بداية الانتداب الفرنسي.. ورغم مظاهر الخطر، بدأت القوات البريطانية انسحابها في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، بالتخلي عن بعض المراكز في طوروس وعينتاب إلى الفرنسيين، وكانت خطة بريطانيا أن تتم عملية الانسحاب بدون حوادث.

وفي هذه الأثناء وصل إلى دمشق نوري السعيد موفداً من قبل الأمير فيصل من باريس، للمداولة مع زعماء الأحزاب والجمعيات الوطنية والحكومة وقيادة الجيش، والوقوف على آرائهم ومدى تقبلهم الاتفاق الفرنسي ـ الإنكليزي وعقد اجتماع ضم الأمير زيداً وزعماء الأحزاب، وكبار قيادة الجيش والحكومة، وأبلغهم نوري السعيد بكل ما حدث مع الأمير فيصل في أوروبا، وسألهم إن كانت هناك قدرة لمقاومة الجيوش الفرنسية التي ستحل محل الإنكليز، فأجمع الحاضرون على المقاومة، ما

عدا الركابي[1] وقلة رأوا عدم جدوى المقاومة، ووجوب الاعتماد على السياسة، واقترح الأمير زيد سماع رأي المؤتمر السوري. فعقد المؤتمر جلسة في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩، وهو يوم اعتقال ياسين الهاشمي، وكان الزعيم الوطني أحمد مريود قد سبق (دعماً للمقاومة) المؤتمر وأعلن ثورته ضد الجيش الفرنسي الغازي. فأصدر المؤتمر بياناً في ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر، يوجب على الشعب العربي الدفاع ضد كل من يحاول الإخلال بوحدة البلاد واستقلالها والعبث بسيادتها. وكذلك اتخذ قراراً بإتباع سياسة الأمر الواقع وإعلان استقلال سوريا بمناطقها الثلاث على أن يعقب ذلك إعلان الملكية الدستورية[2].

وزاد الموقف المتوتر حدة في سوريا حادثان:

- اعتقال ياسين الهاشمي، رئيس مجلس الشورى العسكري في الحكومة[3].
- وصول الجنرال غورو.

وكانت إحدى التهم الموجهة ضد ياسين الهاشمي، توزيع الأموال على القبائل العربية بشكل علني، وكذلك توزيعه للأسلحة علناً على المتطوعين في الشوارع، وعلى إرسال أسلحة

(١) الركابي: كان الركابي من الضباط الكبار في الجيش التركي، وبقي يقاتل إلى جانب الأتراك حتى نهاية الحرب، وكان يتمركز بقواته التركية في منطقة القنيطرة في الجولان، وقد حاول استمالة الجماهير إلى جانب الأتراك إلاّ أنه لم يستمر في محاولته بعد إصابته بجرح كبير، فترك قواته العسكرية وأخذ يبحث عن الزعيم أحمد مريود، وبعثه إلى دمشق للانضمام إلى الجيش الفيصلي، وكان يملك أكثر من ستين ألف ليرة ذهبية أخذها من الترك.

(٢) أنظر كتابنا (سيرة علي خلقي ـ قيد الطباعة).

(٣) مذكرات علي خلقي، مخطوط، ج ١.

لدعم ثورة الزعيم أحمد مريود[٤].

إذن، كانت التطورات الداخلية تتجه نحو توطيد الوحدة والاستقلال، ونحو القيام بمبادرات دستورية تُعلن للرأي العام العالمي عن إرادة الشعب وممثليه في المؤتمر الوطني السوري.

حاول الأمير فيصل أن يهدىء من ثائرة السوريين، فقام بجولات في مختلف المقاطعات، ليشرح ما قام به من اتصالات وما توصل إليه من نتائج. ولهذا الغرض وفي سبيل هذه الأهداف فقد خطب في حلب بتاريخ ١٩٢٠/١/٢٨، وكرر ما قاله في خطاب آخر ألقاه في النادي العربي بدمشق قبل أسبوع، قال فيه:

«إنني أناضل من أجل الاستقلال الذي ترغبون ولكن الواجب يقضي بعدم التشدد في العداء لأن بيننا وبين الدول الكبرى روابط لا يمكننا أن نتجرد عنها»[٥].

وكان هذا الخطاب سبباً لإثارة نقمة معارضي سياسته من الوطنيين الأحرار. وهكذا بدأ الخلاف يدب بين فيصل وبين القوى الوطنية، وقد أفهمه الزعيم الوطني أحمد مريود، أثناء زيارته لموقع منزلة الشريف قرب جباثا الخشب «أن المعارضة الوطنية هي كل الشعب وقياداته ومطلبها الاستقلال وليس إرضاء الدول الكبرى، والوضع الطبيعي أن تكون على رأس المعارضة» وتمشياً مع الرأي العام السائد، في الأوساط الشعبية، والسياسية، وكذلك في المؤتمر الوطني، قبل الأمير فيصل السياسة الاستقلالية التي دعت إليها

(٤) راجع كتابنا سيرة علي خلقي، حيث نوضح فيه الأسباب التي أدت إلى اعتقاله مع عدم صحة إمداده ثورة الزعيم أحمد مريود بالسلاح.
(٥) العماد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، ص ٣٣٨.

غالبية الشعب السوري، وقد أفصح الأمير عن وجهة نظره في الخطاب الذي ألقاه في النادي العربي في دمشق في ٦ آذار/ مارس ١٩٢٠، بحضور أعضاء الحكومة وممثلي الشعب وعدد غفير من زعماء البلاد، فتشكلت في الحال لجنة لتكريس هذا الوضع، وللقيام بإعلان الاستقلال، ومبايعة الأمير فيصل ملكاً على سوريا[٦]. وفي اليوم التالي ٧ آذار/ مارس أجمع الأعضاء على اتخاذ القرار التاريخي، الذي ينص على استقلال سوريا في حدودها الطبيعية، وعلى رفض المشروع الصهيوني للوطن القومي - وعلى تطبيق مبدأ اللامركزية الإدارية، مع إعطاء الضمانات الخاصة بجبل لبنان، وإنشاء حكومة جديدة مسؤولة أمام المؤتمر، الذي سيتخذ صفة مجلس نيابي وتأسيسي معاً، وإعلان حق العراق في الاستقلال، مع اتحاد سياسي واقتصادي مع القطر الشقيق[٧]، وأخيراً مبايعة الأمير فيصل ملكاً على سوريا، على أن تعلن المبايعة في اليوم التالي أي في ٨ آذار/ مارس[٨].

وتقرر مبايعة الأمير فيصل ملكاً على البلاد السورية في ٨/٣/ ١٩٢٠، في دار البلدية، وفي اليوم المذكور جرت حفلة مراسيم المبايعة المقررة وسط حماس الشعب والمؤتمر، وقد أطلقت المدافع ورفع العلم السوري وهو علم الثورة العربية مع نجمة بيضاء في المثلث الأحمر[٩]، وقد شارك في هذه المبايعة كافة الطوائف، ممثلة برؤسائها الروحيين[١٠] وفي اليوم نفسه اجتمع ممثلون عن الشعب

---

(٦) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ١١٢.

(٧) العماد طلاس، المصدر نفسه، ص ٣٣٩.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) ما زالت الأردن تتخذه علمها منذ ذلك التاريخ وحتى الآن.

(١٠) أورد أحمد قدري في كتابه، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص ١٧٨ -=

العراقي، وأعلنوا استقلال العراق مبايعين الأمير عبد الله شقيق فيصل الأكبر ملكاً عليه، ومطالبين بالاتحاد مع سوريا اتحاداً سياسياً واقتصادياً.

وألقى عوني عبد الهادي أمين سر الملك المتوج حديثاً، خطاباً باسم صاحب الجلالة الملك فيصل، ملك المملكة السورية، تضمن النقاط التالية:

١ ـ أعلن الشعب السوري استقلال البلاد من منطلق ممارسة الحق الشرعي والقانوني، كون هذا الاستقلال جاء نتيجة طبيعية وحتمية لتحرير سوريا من الحكم التركي وبحرب طويلة اشترك فيها العرب بقصد نيل الاستقلال ووحدة البلاد، وهو في النهاية «تحقيق للمبادىء السامية التي حارب من أجلها العرب لتحقيق استقلال الشعوب، والتي أعلنتها بريطانيا وفرنسا في منشور ١٩١٨/١٠/٨، وأيضاً تحقيق مبادىء ولسن رئيس الولايات المتحدة الأميركية، وبناء على حسن النوايا التي وجدها الأمير فيصل من الحلفاء».

٢ ـ إذا كان المقصود من الحرب العالمية تقسيم الغنائم بين الحلفاء، فإن العرب الذين شاركوا الحلفاء بالحرب، يستحقون أن يشاركوا في مغانم الحرب، مثلما شاركوا في الوصول إلى النصر بما قدموه من تضحيات شهد الحلفاء وغيرهم لهم فيها.

=

١٨١. نص خطاب الأمير فيصل في جلسه ٦ آذار/ مارس.. وقد وقّع على قرار المؤتمر السوري في جلسه ١٩٢٠/٣/٧ ممثلو المدن الكبرى وهم: هاشم الأتاسي (حمص)، يوسف الحكيم (طرابلس)، مرعي الملاح (بيروت)، عبد القادر كيلاني (حماه)، محمد تاج الدين حسني (دمشق)، إبراهيم هنانو (حلب)، صبحي بركات الخالدي (إنطاكيا).

٣ ـ ستكون سياسة سوريا المستقلة سياسة صلح وسلم، مبنية على الثقة المتبادلة والمنافع المتقابلة، مع الأمم المتمدنة، على شرط الصداقة التي لا تمس بكرامة العرب، ولا تخل باستقلالهم[١١].

٤ ـ الدولة المستقلة الجديدة بحاجة إلى وضع دستور، يحقق لها النظام والعدل والتقدم[١٢].

٥ ـ التضامن والتعاضد مع العراقيين، الذين شاركوا السوريين في أداء الواجب الوطني[١٣].

كما تلا محمد عزة دروزة أمين سر المؤتمر السوري قرار الاستقلال وتتويج فيصل من على شرفة البلدية في ساحة المرجة (الشهداء) ورفع العلم الجديد، ونصب لوحة كبيرة كتب عليها: «ليحيا جلالة الملك فيصل».

وأظهرت الصحف فرحتها بتعليقاتها العديدة على الاستقلال، وتتويج فيصل[١٤] وعندما وصلت أنباء المبايعة، اتخذت الحكومتان البريطانية والفرنسية موقفاً صريحاً مناهضاً لقرارات المؤتمر السوري، فقد أبلغ الملك أن الحكومة البريطانية لا تستطيع الاعتراف بما جرى في دمشق، لأنها تعتبر هذه القرارات وكأنها «باطلة لا وجود لها» فالحكومات الحليفة وحدها لها الحق في

(١١) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣.

(١٤) كتبت جريدة حلب الشهباء في ١٠ آذار/ مارس «أن الاستقلال الذي تفرح به اليوم، لم تأت به الصدف، ولا أنعم علينا به منعم، ولا تصدق على الأمة متصدق، بل هو حق طبيعي اكتسبته الأمة بما أراقته من دمائها في هذا السبيل. والفضل الأكبر لجلالة ملك العرب (أنظر علي سلطان، ٢٨٠ ـ ٢٨١).

اتخاذ القرارات الخاصة بسوريا والعراق وفلسطين، لأنها هي وحدها التي حررت هذه البلاد من الاحتلال العثماني. وطلب من الملك فيصل من جديد أن يرجع إلى أوروبا لعرض القضية السورية أمام مؤتمر السلم[١٥] أما موقف الملك المتوج فقد بات واضحاً ومتماشياً مع رغبات الشعب والمؤتمر السوري، فأرسل مذكرات إلى كل من رئيس الولايات المتحدة الأميركية ولسن، وإلى وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزون، وإلى المندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو قال فيها:

«إن ما أعلنه المؤتمر السوري من قرارات تاريخية، يهدف إلى المحافظة على وحدة البلاد السورية، وإلى تهدئة الخواطر العارمة في الشعب، وهي علاوة غلى ذلك تنسجم تماماً مع تعهدات الحلفاء قبل وخلال الثورة العربية الكبرى»[١٦].

وعندما حاول الجنرال اللنبي، اقتراح حل وسط على حكومته في ١٩٢٠/٣/١٨ يقضي بأن يعترف بملكية فيصل على اتحاد عربي، مع إبقاء الإدارة الفرنسية في سوريا والإدارة الإنكليزية في فلسطين والعراق، أجابه اللورد كرزون: «أنه لا مجال لهذه الخطة لأن المحادثات القائمة الآن بين الحلفاء تهدف إلى فرض الانتداب على هذه المناطق»[١٧].

وقد بارك الشريف حسين ما قام به المؤتمر السوري من مبايعة ابنه

---

(١٥) الوثائق البريطانية، المجلد ١٣، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٣١ ـ ٢٣٦.
(راجع مصطفى طلاس، المصدر نفسه، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١، وانظر كتابنا: الأردن في التاريخ، الجزء الأول، ١٥٨ ـ ١٦٢).
(راجع أمين سعيد، المصدر نفسه، المجلد رقم ٢، ص ٣٤ ـ ٣٧. وراجع جريدة القبلة، في عددها ٣٧٣ الصادر يوم ١٩٢٠/٤/٨.

فيصل، وأرسل برقية بهذا الخصوص إلى رئيس المؤتمر السوري بتاريخ ١٩٢٠/٣/٢٠ وأبرق إلى اللنبي يبلغه تأييده لمقررات المؤتمر، كما أرسل رسالة إلى الخارجية البريطانية يبلغها الاعتراف بملكية فيصل على سوريا. وقد أجاب اللورد كورزون وزير الخارجية البريطانية، الملك حسين بن علي، أن الحكومة البريطانية لا تعترف بما قرره المؤتمر الذي انعقد بتاريخ ١٩٢٠/٣/٨ في دمشق، لأن مؤتمر السلم وحده صاحب الصلاحية في تقرير مستقبل العراق والبلاد العربية. وقد رفض الشريف حسين الموقف البريطاني، فردّ على وزير الخارجية خطياً:

«فبريطانيا هي التي دعتني، وهي التي جعلتني أعلن الثورة، وهي التي قبلت كل شروطي المتعلقة باستقلال البلاد العربية»(١٨).

هذه المواقف من قبل الشريف حسين، شجعت الملك فيصل على استخدام صلاحياته الدستورية كاملة، وعيّن وزارة جديدة لتحل محل المديرين برئاسة رضا الركابي لإدارة شؤون الدولة، ولتكون مسؤولة مباشرة أمام المؤتمر السوري حسب الأعراف الديموقراطية، وكانت هذه الوزارة هي الأولى في تاريخ سوريا الحديث.

قام الملك فيصل بإطلاع فرنسا على خطوة إعلان الاستقلال، عن طريق الجنرال غورو فجاءه الجواب بأن فرنسا لا تعترف باستقلال سوريا، وأن هذا الاستقلال لا قيمة دولية له.

حاول الملك فيصل مرة أخرى، الحصول على اعتراف فرنسا، باستقلال سوريا في ٢٥ آذار/ مارس ١٩٢٠، وعبّر عن شعور

(١٨) الوثائق البريطانية، المجلد رقم ١٣، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(أنظر طلاس، المصدر نفسه، ص ٣٤١ حواشي)..

الأمة العربية، وقال: بأنه يحق للعرب اختيار حكامهم... وهو ينتظر رداً كي يسافر إلى أوروبا.

وظل الملك فيصل مصمماً على رفضه الذهاب إلى أوروبا لحضور مؤتمر الصلح، ما لم تتحقق شروطه السابقة. ونظراً لذلك قررت الحكومتان البريطانية والفرنسية حسم الموقف معه واتخاذ إجراء واحد بالنسبة إليه، فعقدت وزارة الخارجية البريطانية مع السفير الفرنسي في لندن اجتماعاً في ٣٠ آذار، واتخذت القرارت التالية:

١ ـ إبلاغ فيصل ثانية بأن مؤتمر الصلح هو السلطة الوحيدة التي تحسم الموقف في سوريا.

٢ ـ سيعقد مؤتمر الصلح ثانية في ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٢٠ في سان ريمو في إيطاليا.

٣ ـ يدعى فيصل للحضور، فإذا لم يستطع، فليرسل مندوباً عنه، على أن لا يكون نوري السعيد، لأنه لا يملك السلطة اللازمة لذلك، ولأنه يحمل وجهة نظر المتطرفين، ومن المرغوب فيه أن يرسل فيصل أحد إخوته، كعبد الله أو آخر(١٩).

٤ ـ فإذا حضر فيصل أو أخ له إلى مؤتمر الصلح، فإن الحكومتين البريطانية والفرنسية، مستعدتان للاعتراف به ملكاً على سوريا، ضمن بعض الشروط.

---

(١٩) إن التوصية بعدم إرسال نوري السعيد ممثلاً لسوريا، تخالف رغبة الجنرال غورو الذي كان يرى في نوري السعيد الشخص المقبول لدى فرنسا. ولم يكن نوري السعيد من المتطرفين بل كان على العكس من ذلك. لكننا نرى أن رغبة الحلفاء في أن يحضر أحد أبناء الشريف حسين، لأن المسألة تمس العلاقات مع الحليف الاستراتيجي الأول وهو الشريف حسين، (انظر علي سلطان، ص ٢٩٤).

٥ ـ أول هذه الشروط أن ينتخب ملكاً صحيحاً بطريقة دستورية، تثبت أنه ممثل حقيقي للشعب السوري، وليس فقط من قبل مجلس لا سلطة له ولا هو شرعي.

٦ ـ الشرط الثاني هو أن يكون فيصل مستعداً لعقد اتفاقات منفصلة مع فرنسا، بما يخص سوريا ولبنان، ومع بريطانيا بما يخص فلسطين، مع ضمان فرنسا لإقامة حكم ذاتي في لبنان. أما بالنسبة الى بريطانيا، فعليها أن تضمن تحقيق الوطن القومي لليهود في فلسطين، لوعدها لهم بذلك من قبل...

ظلّ وايزمن حريصاً أشد الحرص ولوقت طويل على تحقيق اتصال بحزب الاستقلال لعلمه بأن هذا الحزب هو التنظيم الشعبي السياسي الأقوى والذي يتولى مهام الحكم في أكثر من بلد في المشرق العربي وخاصة في سورية والعراق.

وقد استطاع وايزمن بواسطة لورد بريطاني صديق الوصول إلى إبلاغ رغبته لمكتب جنيف بسويسرا التابع لحزب الاستقلال ويرأسه شكيب أرسلان وإحسان الجابري، بأن يزورهما وايزمن ليشرح رغبات الصهاينة في فلسطين.

قام مكتب جنيف بالاتصال بالقيادة في دمشق ولم يتأخر الرد وكان على النحو التالي:

إن على وايزمن وفي مؤتمر صحفي علني يعقده في مبنى عصبة الأمم بجنيف أن يعلن أن فلسطين عربية مع ضمان الحزب الحرية الدينية لكل الفئات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرى الحزب أن يتمّ الحوار بين أعضاء مكتب جنيف وبين وايزمن تحت قبّة قصر الأمم في جنيف وهو مقر عصبة الأمم الدائم بسويسرا.

ذهب اللورد البريطاني الوسيط من المكتب العربي. ولم يعد ولكنه استمهل ثم لم يعد لا هو ولا وايزمن. وقيل في أوساط عصبة الأمم بجنيف أن شروط حزب الاستقلال صعبة لم تلائم وايزمن والصهيونية العالمية.

٧ ـ ليس من الضروري كما اقترح اللنبي في برقيته في ٢٣ آذار/ مارس أن تناقش مسألة سوريا وفلسطين في بحث المسألة التركية، لأن مستقبلهما لا علاقة له بها، وسيقرر ذلك باتفاق بين القوى المهتمة بذلك[٢٠].

أمام هذه المواقف البريطانية الفرنسية تجاه سوريا واستقلالها، شعر الشعب العربي السوري بالمرارة والسخط من جديد، على فرنسا وبريطانيا، وعاد الوطنيون إلى انتقاد السياسة البريطانية وحليفتها فرنسا، ويطالبون باتخاذ سياسة حازمة، وتهيئة البلاد كلها للدفاع عن الاستقلال، واستمر الجو المتوتر في دمشق ضد الفرنسيين خلال شهر نيسان/ أبريل، وتعرضت الوزارة السورية إلى نقد شديد في المؤتمر السوري، واتهمها الزعيم الوطني أحمد مريود عضو المؤتمر السوري بالتساهل مع الفرنسيين وبخاصة في مسألة إنزال العلم العربي في بيروت، كما اتهمها بالتقصير تجاه الحشود الفرنسية على الحدود الغربية، وزاد على ذلك أن اتهم الركابي بخلق حالة اليأس عند الجماهير الشعبية، «فكان الركابي يجيب بكل اعتدال، بعدم قدرة سوريا على محاربة دولة عظمى، خرجت منتصرة من الحرب، وأن الموقف لم يصل إلى حد الحرب»[٢١] وقد بيّن الزعيم أحمد مريود لأعضاء المؤتمر أن حكومة الركابي تجاهلت

---

(٢٠) راجع القرارات كاملة في كتاب د. علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢١) الدكتور علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٣١٣.

مدّ ومساعدة الثوار بالمال والسلاح، لأنه يرغب بانتهاج سياسة العنف الثوري ضد الغزاة والمستعمرين، فلقيت هذه الشكاوي الأذن الصاغية من قبل الوطنيين في المؤتمر الذين لم يكونوا راضين أصلاً عن خطة الوزارة المعتدلة، ولا عن الركابي، لأنهم وجدوا فيه الرجل غير المناسب في ظروف تتطلب الدفاع عن الوطن ومحاربة فرنسا المعتدية على استقلال الوطن(٢٢).

وكان الموقف من نوري السعيد، هو الموقف نفسه مع الركابي، فكان الثاني يتطور في تفكيره وعواطفه ومبادئه ومنهجه السياسي تطوراً تدريجياً بالميل إلى الغرب، فبالغ من حبه بالإنكليز مثلاً، إلى أن قال لأسعد داغر:

«إذا كان دجلة لا يزال يجري في العراق فما ذلك إلاّ بفضل الإنكليز!!».

وكان الشعب والرأي العام العربي يشعر بهذا التطور، حتى أجمع الشعب على اتهامه بالخيانة وأصبح الناس يهتفون ضده في الشوارع. والرواية التالية التي جاءت على لسان أسعد داغر في مذكراته صفحة ١١٢ ـ ١١٣، تؤكد نواياه تجاه مستقبل البلاد، وانفراده بعدم الاهتمام بالرأي العام... قال داغر:

«فقد توترت العلاقات مرة مع الفرنسيين إلى حد استعجل عودة فيصل من أوروبا. وقرر كثيرون من رجالات سوريا الذهاب إلى

---

(٢٢) ذكرت الوثائق البريطانية F.O. 371/5188/P. 70-71 «العلاقة بين السوريين وملكهم، ليست عرقية ولا دينية، وكل ما يهمهم هو التخلص من الاحتلال». وذكرت الوثائق كما ترجمتها جريدة القاهرية بعددها الصادر يوم ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٢٠ أن أحمد مريود والأمير محمود الفاعور أبلغا الملك فيصل بأن يعطي الحرية لقوات ثورة الزعيم مريود وللقبائل فهي قادرة على احتلال بيروت وصيدا وصور، وطالباه بتبني سياسة الأخذ والرد حتى يبني قوته استعداداً لمحاربة فرنسا فيما إذا فكرت باحتلال سوريا.

بيروت لاستقباله فيها، والبحث معه في الموقف السياسي. وقد أخبرني نوري السعيد بأنه يريد السفر إلى بيروت وأنه سيذهب على ظهر مدرعة فرنسية لمقابلة الملك فيصل في عرض البحر فيبسط له الحالة قبل أن يجتمع بالزعماء الآخرين.

فقلت له: إياك أن تفعل هذا. فأنت متهم لدى الرأي العام وما يبدو من التردد في موقف فيصل يعزى كله إلى مساعيك. ثم أن ذهابك على ظهر بارجة فرنسية إلى عرض البحر يزيد نقمة الرأي العام عليك ويعزز في نظره التهم التي يوجهها إليك، فأرجو منك باسم الصداقة أن لا تحرج موقف ومركز الملك ومركزك إلى هذا الحد. فقال: ولكنني اتفقت مع الفرنسيين على أن يعدوا لي سفينة حربية كي أذهب لمقابلة الملك.. قلت له: إذا كان لا بد من ذهابك لمقابلة الملك في عرض البحر فلا تذهب وحدك واحذر أن تختلي به في الباخرة... قال: أنا أوافق على أن أذهب مع الأشخاص الذين تختارهم وأن أكلّم الملك أمامهم فقلت: سأحاول إقناع أحمد مريود وعزة دروزة بالذهاب معك.. فوافق، وذهبت إلى هؤلاء الأصدقاء وكلمتهم بالموضوع فقبلوا على مضض. ولكن نوري السعيد أسرع إلى مغادرة دمشق من دونهم تاركاً لي في البيت نبأ سفره الفجائي».

والسؤال .. لماذا ذهب نوري السعيد وحده؟؟

الأحداث التي جاءت فيما بعد، أكدت أن نوري السعيد كان على قناعة بأن الزعيم الوطني أحمد مريود إذا التقى الملك فيصل سيضعه في صورة الشارع الشعبي السوري المتأهب لمواجهة المعتدي الفرنسي على الاستقلال، وسيقنعه بالانحياز إلى جانب الموقف الوطني، بعكس نوري السعيد الذي وضعه في حالة اليأس والتردد، بل والتخوف من فرنسا.

لهذه الأسباب ذهب وحده، تاركاً أحمد مريود وزميله عزت

دروزة في دمشق، رغم أن أحمد مريود قَبِل الدعوة على مضض كما ذكر أسعد داغر، ولكنه قبلها حتي لا ينفرد نوري السعيد بالملك العائد من أوروبا ولا يعرف إلاّ القليل عن حالة الهياج الشعبي ضد الموقف البريطاني ـ الفرنسي من استقلال البلاد..

بعد اتفاقية «سيفر» التي وقعت يوم ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٢٠، أبلغ اللنبي الملك فيصل يوم ٢٧ نيسان/ أبريل قرار الحلفاء في سان ريمو، باستقلال سوريا المؤقت تحت الانتداب الفرنسي، واستقلال العراق تحت الانتداب البريطاني، ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وسعي بريطانيا لتحقيق وعد بلفور لليهود فيها. وأبلغه أن هذه القرارات، ستحال إلى عصبة الأمم للتصديق عليها...

كان قرار «سان ريمو» ضربة موجعة لآمال الشعب، فقامت المظاهرات والاحتجاجات، وطالب الزعماء الملك فيصل تغيير الحكومة المعتدلة بحكومة جديدة، تؤيد الاتجاه الوطني المصمم على الدفاع، وقد شكلت فعلاً حكومة جديدة برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية رضا الصلح، وعلاء الدين الدروبي، وعبد الرحمن الشهبندر، ويوسف العظمة، وفارس الخوري، وجلال زهدي، وساطع الحصري، ويوسف الحكيم.

وقدمت الوزارة بيانها الرسمي يوم ٨ أيار/مايو، وكان يتضمن:

١ ـ تأييد الاستقلال التام الناجز بما في ذلك حق التمثيل الخارجي.

٢ ـ المطالبة بوحدة سوريا بحدودها الطبيعية، بما فيها فلسطين، ورفض الوطن اليهودي فيها.

٣ ـ رفض كل مداخلة أجنبية تمس بالسيادة القومية.

٤ ـ قبول قرار سان ريمو الخاص باعترافه باستقلال سوريا، واعتبار ذلك أساساً للحقوق الأخرى، وقبول تصريح بريطانيا باستعدادها للاعتراف بفيصل كرئيس لدولة مستقلة. أما القرار الخاص بالانتداب فستسعى الوزارة لإزالته[٢٣]..

بعد ذلك، أرسل الملك فيصل ردّه إلى بريطانيا وفرنسا، فرفض مبدأ الانتداب على سوريا وفلسطين والعراق، وطالب بالاعتراف بالاستقلال التام والناجز. وفي بداية شهر تموز/ يوليو عام ١٩٢٠، وصل التوتر إلى ذروته بين الفرنسيين والوطنيين في دمشق، فحشد الجيش الفرنسي قواته على الحدود الغربية، وصار واضحاً، أن غورو يريد احتلال سوريا، وقابلت الحكومة السورية الحشد الفرنسي بإرسال قوات من الجيش العربي، لترابط على الحدود أيضاً، علماً أن اعتماد الملك فيصل على بريطانيا كان أقوى وأكبر من اعتماده على قوات الجيش العربي، وأبلغ فيصل اللنبي أن بريطانيا وحدها القادرة على منع الاحتلال الفرنسي وحفظ السلام.

شعر الملك فيصل بالخطر، ولذلك تخلى عن شروطه وبخاصة شرط الاعتراف بوحدة سوريا بما فيها فلسطين، وأرسل نوري السعيد في ٥ تموز/ يوليو، لمقابلة غورو رغم معارضة الوطنيين، لكن غورو رفض الموافقة، إلاّ إذا قبل الملك فيصل وحكومته بالشروط الاستفزازية التالية:

١ ـ أن تقبل الحكومة السورية بالانتداب الفرنسي رسمياً.

---

(٢٣) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

٢ ـ إلغاء التجنيد، وتحجيم الجيش وإعادته إلى وضعه الذي كان عليه قبل إعلان الاستقلال.

٣ ـ قبول التعامل بالنقد الورقي، الذي أصدره مصرف سوريا ولبنان الفرنسي.

٤ ـ الموافقة على احتلال القوات الفرنسية، لمحطات سكة الحديد في رياق ـ حمص ـ حماه ـ حلب.

٥ ـ معاقبة الثوار الذين استرسلوا في معاداة فرنسا[٢٤] وأضاف غورو بأنه أعدّ إنذاراً رسمياً، سيرسله إلى فيصل بعد بضعة أيام، وأبلغ نوري السعيد أيضاً، أنه إذا سافر فيصل عن طريق حيفا، فلن تعترف الحكومة الفرنسية به، ولن تستقبله[٢٥].

عاد نوري السعيد إلى دمشق يحمل إلى الملك فيصل ما يشبه الإنذار من غورو، وكان أول من التقاه في شوارع دمشق أسعد داغر، فاستوقفه وسأله عما لديه من أخبار، وكان مستعجلاً يرغب في مقابلة الملك فيصل فدعاه إلى السيارة الملكية الموضوعة تحت تصرفه. قال داغر:

«ومما قاله لي نوري السعيد، أن الجنرال غورو قرر إرسال إنذار نهائي إلى الحكومة السورية، وأن هذا الإنذار يتضمن شروطاً قاسية أطلعه عليها، ثم سرد عليَّ الشروط التي وردت بعد ذلك في إنذار غورو، وقال إنه يتوخى منها أن يفرض الانتداب على البلاد فرضاً... وأردت أن أعرف هل هو مبالغ في روايته التي وجدتها في منتهى الغرابة أم لا؟ وهل هو موقن بأن فرنسا ستوجه إلى سوريا مثل هذا الإنذار. فقال: ...هذا ما سمعته

(٢٤) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(٢٥) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص ١٠٤، وأحمد قدري، ص ٢٢٠، والحكيم، العهد الفيصلي، ص ٢٧٥، وعلي سلطان، ص ٣٥٦.

اليوم من الجنرال غورو، ولا أعرف هل هو جاد أم يقصد التهويل، وعلى كل حال أرى الموقف حرجاً والخطر شديداً.

وكنا قد وصلنا حينئذٍ إلى البلاط فتركته وعدت مسرعاً إلى النادي العربي حيث اجتمعت ببعض الاخوان الذين وجدتهم فيه وأخبرتهم بما سمعته من نوري السعيد»[٢٦].

ناقش المجتمعون في النادي العربي ما نقله إليهم أسعد داغر، واستقر الرأي حينئذٍ أن يذهب بعضهم إلى القصر الملكي بعد خروج نوري السعيد منه، ليجتمعوا بالملك فيصل ويطلعوا على حقيقة الحالة ويقرروا بالاتفاق معه ما يجب على البلاد أن تفعله. قال أسعد داغر:

«وكان من الذين انتدبوا لهذه المهمة الزعيم الوطني أحمد مريود، وقد غابوا عنا نحو نصف ساعة ثم عادوا إلينا، وكنا لا نزال في انتظارهم، فأخبرونا بما سمعوه، وهو ما كنت قد نقلته إليهم على لسان نوري السعيد، ولكن بعضهم أبدى ارتيابه في صحة الرواية وصدق راويها مدعياً أنه لفقها لغرض في نفسه. فأنكرت هذا الاتهام. وقلت: إن نوري السعيد نقل إلى الملك التهديد الذي سمعه، ولكنه لم يؤكد أن الجنرال عازم على تنفيذه. وعلى كل حال يجب أن نستعد لمقابلة هذا التهديد بكل ما لدينا من قوة»[٢٧].

حاول الملك فيصل أن يثني الجنرال غورو عن إرسال الإنذار، كما حاول تأليف لجنة دولية لحسم الخلافات الموجودة، وخاطب الدول المنتسبة إلى عصبة الأمم المتحدة عن طريق سفرائها وقناصلها، وجاء في رسالته إلى الحكومة البريطانية:

أدعوكم باسم الإنسانية، ومصالحكم، ومصالح حلفائكم،

---

(٢٦) مذكرات أسعد داغر، المصدر نفسه، ص ١٣٤.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

التدخل حالاً، كما تدخلتم من قبل لمنع الخطر وإراقة الدماء، وقبل أن يُلهب غورو النار في المنطقة المسالمة، حيث لم يأخذ بعين الاعتبار ما يترتب على حربه الجديدة من نتائج. والعالم كله شاهد على إخلاص العرب وعلى ما عملوه لحفظ السلام».

وبذلك يكون فيصل قد أبلغ جميع الأطراف بقصة غورو، واستعداده لاحتلال دمشق وسوريا كلها، لكنها بقيت مجرد تبليغات وأخذ علم، ولم يتحرك أحد لمساعدة سوريا في موقفها العصيب، إلاّ الحكومة العربية والشعب..

في القصر الملكي، قال الزعيم الوطني أحمد مريود للملك فيصل، الذي كان في حالة قلق:

«إن فرنسا عازمة على فرض سيطرتها على البلاد، وأن الجنرال غورو يحمل في جيبه كتاب التكليف بهذه المهمة، وأن بريطانيا شريكة في المؤامرة ولم يعد ينفع المراهنة عليها... نحن أمام خيارين لا ثالث لهما. الخيار الأول: أن نستعد لمقابلة تهديد غورو وعلى جميع المستويات، بتقوية الجيش أولاً وبدعم الثوار ثانياً. والخيار الثاني: قبول الذل والإذلال والاستعمار، وبهذا الخيار نكون شركاء في التآمر على الأمة والوطن والاستقلال».

وفي النادي العربي، كرر الزعيم الوطني أحمد مريود ما قاله للملك فيصل أمام المجتمعين، وأبلغهم أنه سيترك دمشق الآن، وسينتقل إلى الجولان لتنظيم الثوار، لأن فرنسا لن تفهم إلاّ لغة الحرب، وقد جاء في مذكرات أسعد داغر، أن أحمد مريود، ترك الاجتماع في النادي العربي وانتقل إلى القنيطرة ليجدد حيوية العمل النضالي الشعبي وثورته التي أعلنها في تشرين عام ١٩١٩، فقال:

«وقد سافر الزعيم الوطني أحمد مريود على أثر هذا الاجتماع إلى مناطق الجولان والعرقوب والقنيطرة حيث كان يتمتع بنفوذ

كبير لتنظيم وسائل الدفاع في تلك المنطقة لتشكل خط الدفاع الأقوى والعمق الاستراتيجي، وسافر غيره إلى جهات أخرى وبقي الآخرون في دمشق يرقبون الأحداث»..

وأخيراً وصل الإنذار الفرنسي وكان أشد لهجة مما كان يتوقع الملك فيصل، فهبّت على البلاد عاصفة شديدة من الحماسة، وأقبل الناس على التطوع، فغصت بهم الثكنات العسكرية في كل مكان. ولم تقتصر مظاهر النشاط على حركة التطوع، بل تعدتها إلى جميع مظاهر الحياة القومية. فامتلأت شوارع دمشق برؤساء القبائل وزعماء المناطق، وقد جاءوا ليتلقوا منها الأوامر. ويتبادلوا مع رجالها الآراء. واشتد الاقبال على ابتياع الأسلحة والذخائر من فلسطين والعراق والأردن والجزيرة العربية «وتمكن بعض الوطنيين من الاتفاق مع إحدى الشركات الأجنبية على شراء مقادير كبيرة منها، وبدأت الأحياء تنظم قوات محلية للمحافظة على الأمن بعد ما أخلوا المدن من القوات المسلحة»(٢٨).

وشهدت منطقة القنيطرة وقرى جبل الشيخ، أروع معاني التلاحم النضالي، فلبى أهلها نداء الزعيم الوطني أحمد مريود، فأصبحت جباثا الخشب من جديد قبلة يتوجه إليها الثوار الذين لم يرموا أسلحتهم، فأعاد أحمد مريود تنظيم صفوفهم من جديد، كما عمل ومجاهدي أهل الحولة والحليف الأقوى لثورة مريود والأكثر أهمية تحت لواء مجاهدي الجولان والعرقوب من قطنا شرقاً وحتى آخر قرى العرقوب على السفح المقابل من جبل الشيخ ثوار جبل عامل الذين كانوا من أشد المجاهدين صلابة وصبراً.

حين نبّه الزعيم الوطني أحمد مريود الملك فيصل عند استقباله

(٢٨) أسعد داغر، المصدر نفسه، ص ١٣٦.

ومجموعة كبيرة من أعضاء الحكومة وقيادة الحزب في موقع (متزلة الشريف) قرب جباتا الخشب فقد أراد التأكيد مجدداً على ضرورة أن يقف الملك فيصل مع الأكثرية الوطنية في المؤسسات العليا للحزب والحكم. وأن يقف في وجه الفريق المتساهل المتواطئ مع الفرنسيين والإنكليز.

وكان معروفاً أن أبرز وجوه الفريق المتواطئ ثلاثة هم:

نوري السعيد، ورضا الركابي، وياسين الهاشمي (الذي انقلب على الفريق الوطني بعد عودته من الأسر). ياسين الهاشمي هو الذي لعب الدور الأول الانهزامي والخطير بنتائجه المدمّرة وذلك عندما انعقد المجلس الحربي برئاسة الملك فيصل في ذروة الأزمة مع الخصم الإفرنسي المستعمر وفي مناخ التشويش والتشكيك الذي مارسه عملاء فرنسا. حين قال مؤكداً جازماً بأن الجيش العربي جيش البلاد لا تتوفر لديه الذخيرة ولا القنابل ـ قنابل المدافع وأن الاعتماد على الجيش يجعل المقاومة (مقاومة الغزو الإفرنسي) أكثر من بضعة أيام، أمراً مستحيلاً.

وكان رضا الركابي وفي اجتماع آخر حضره الأمير زيد (في فترة غياب الملك فيصل بأوروبا) وحضرته كافة القوى السياسية في سورية وكبار قادة الجيش والحكومة. كان رضا الركابي هذا، قد خالف إجماع الحاضرين بوجوب مقاومة الجيوش الفرنسية الغازية التي ستحل محل الإنكليز الذين دخلوا مع العرب دمشق في أول يوم لعهد الاستقلال العربي ونصبّوا فيصل عليهم ملكاً، إذ قال الركابي بعدم جدوى المقاومة ووقف وحيداً في وجه الإجماع الوطني.

كان موقف الملك فيصل لا يحسد عليه، فحالته النفسية يراودها

القلق والخوف على البلاد والاستقلال، ولم يبق من مهلة الإنذار إلاّ القليل من الأيام.. هل يرفض الإنذار ويستعد للحرب؟ أم يقبل الإنذار ويضع البلاد تحت الانتداب والهيمنة الفرنسية؟؟ وأخيراً قرر أن لا يتحمل وحده مسؤولية القرار فلجأ إلى المؤسسات الرسمية وهي:

المجلس الحربي

مجلس الوزراء

المؤتمر الوطني (البرلمان)

انعقد المجلس الحربي برئاسة الملك فيصل، وطلب من ياسين الهاشمي أن يقدم التقرير الكامل والمفصل عن الجيش من الوجهة الفنية والعسكرية، فجاء تقريره مخيباً للآمال، ونوه بعدم توفر الذخيرة لديه ولا سيما قنابل المدافع، وقال:

«إن الاعتماد عليه وحده ـ أي على الجيش ـ يجعل المقاومة أكثر من بضعة أيام مستحيلة»[٢٩].

ثم انتقل الملك فيصل للاجتماع بالوزارة يوم ١٦ تموز/يوليو، وعقد الاجتماع في منزله لدرس الموقف. فانقسمت الوزارة إلى قسمين (فريقين) قال أحدهما برفض إنذار الجنرال غورو وخوض غمار الحرب إلى النهاية، وكان وزير الحربية يوسف العظمة في مقدمة هذا الفريق. ورأى الفريق الثاني من المصلحة قبول إنذار غورو وانتهاج سياسة التفاهم معه لتعديل بعض مواد الإنذار. وأيّد الملك فيصل القائلين بالرأي الثاني مستنداً إلى البيانات التي أفضى بها بعض كبار الضباط في المجلس الحربي. فاستمال في النهاية جميع

(٢٩) أسعد داغر، ص ١٤٠.

الوزراء إلى رأيه ما عدا يوسف العظمة الذي بقي مصراً على الرفض وأنذر بالاستقالة.

أما الاجتماع الثالث والأخير فكان مع أعضاء المؤتمر السوري، وقبل أن تنتهي مدة الإنذار بنحو (١٦) ساعة. وكان الرأي العام يعتقد بأن لهذه الدعوة علاقة بإعلان الحرب. مع أن الغرض منها كان حمل المؤتمر على تأييد قرار الحكومة. افتتح الملك فيصل الاجتماع بكلمة وصف فيها الحالة وصفاً يدعو إلى اليأس، وشرح لأعضاء المؤتمر الوضع الخطير وضعف الجيش، وسألهم رأيهم في أحد أمرين، إما المجازفة بمصير البلاد في حالة حرب أمام جيش قوي، وإما المسالمة؟؟ وتبين أن الأعضاء مختلفون في رأيهم، فالفلسطينيون وسكان الساحل، رفضوا الإنذار، لأنه سواء احتلت سوريا أم لم تحتل فإن مناطقهم محتلة، كما رفض الإنذار الزعيم الوطني أحمد مريود باسم شعب سوريا لأنه كان عضواً قيادياً في المؤتمر السوري وقال:

«جئت إليكم اليوم لأقول إن أهلنا في سوريا يرفضون الإنذار، وإننا أعددنا أنفسنا للدفاع عن الوطن مهما كانت النتائج فالموت بشرف وكبرياء، أعظم وأكبر من الحياة بذلّ وشقاء وحرمان وعدم، في ظل عبودية فرنسا.. إنني أدعو الملك والحكومة وأعضاء المؤتمر أن ينزلوا إلى الشعب ليروا بأنفسهم روح الشعب المعنوية، ورغبتهم بالموت دفاعاً عن أرض الوطن واستقلاله».

«أما سكان دمشق فكانوا ميالين إلى قبول الإنذار»[٣٠] أما أعضاء المؤتمر من أهالي الأردن، فأجمعوا على رفض الإنذار، وانسحبوا مع الزعيم الوطني أحمد مريود من المؤتمر، وعادوا إلى الأردن

(٣٠) دروزة، ص ١٢٨، وانظر: علي سلطان، ص ٣٦٦.

لتنظيم الصفوف والاستعداد للمعركة[٣١]. وخرج النواب من قصر الملك فيصل دون الوصول إلى نتيجة[٣٢]. وعندها عقد الملك فيصل اجتماعاً آخر لمجلس الوزراء في ١٨ تموز/ يوليو برئاسته، وقرروا قبول الإنذار بالإجماع، ووقّع الملك على البرقية بقبول الإنذار إلى الجنرال غورو، وحضر الكولونيل تولا التوقيع..

وفي صباح اليوم التالي ١٩ تموز/يوليو، تلقى الملك فيصل جواباً من غورو، يشكره لقبوله الإنذار، لكنه ذكّره بأن الغاية هي تنفيذه قبل ٣١ تموز/ يوليو، ولذلك فقد مدد مهلة تحرك الجيش الفرنسي، حتى الواحد والعشرين من تموز إذا لم يتم تنفيذ الإنذار بكامله.

وكان أول عمل قامت به الحكومة تنفيذاً لإنذار غورو، هو تسريح الجيش في ١٩ حزيران/ يونيو، وإرجاع القطعات العسكرية من مجدل عنجر إلى دمشق، حتى تسرح أيضاً. وبلغ اليأس بيوسف العظمة أن أصدر أمراً بالتسريح، دون أن يفكر بالتدابير الاحتياطية، التي يجب اتخاذها في مثل هذه الحالات. ولذلك خرج الجنود من ثكناتهم بعد أن تلقوا الأوامر بتسريحهم، ومعهم أسلحتهم، واختلطوا بالجماهير المحتشدة الغاضبة من قبول الحكومة بالإنذار،

---

(٣١) جاء في كتاب **الأردن في القرن العشرين**، سليمان الموسى ومنيب الماضي، ص ٩٢ ما يلي: «وعندما صمم السوريون وفيصل على الدفاع بعد أن فشلت جميع المحاولات السلمية مع الإفرنسيين، تنادى الاشتراكيون للاشتراك مع القوات المسلحة في صد العدو. وقد زحفت قوة كبيرة من عشائر الأردن لا يقل عددها عن الألفين. «وعندما بلغت في سيرها المزيريب علمت بما حدث في ميسلون وبانهيار القوة الدفاعية في البلاد فعاد رجالها إلى مضاربهم وقراهم».
وذكر الزعيم الوطني الأردني تركي باشا عبيدات أنه تلقى رسالة من الزعيم أحمد مريود يبلغه فيها خطورة الموقف ويناشده بتنظيم الصفوف وإرسال المتطوعين إلى حوران والجولان للانضمام إلى الثوار.

(٣٢) أحمد قدري، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

وقد ضربت الفوضى أطنابها بينهم، وساروا نحو ساحة المرجة. وقال قائل في تلك الساعة إن الشيخ كامل القصاب اعتقل وأن الحكومة سلّمت البلاد إلى الفرنسيين، وأنه يجب إنقاذ الذخيرة من القلعة فاتجهوا نحوها لتسلم ما فيها من سلاح وذخيرة قبل أن يتسلمه العدو، وإخراج الشيخ القصاب منها.

أمام هذه الفوضى التي أدت إلى النهب والقتل، والمصادمات العنيفة بين الجماهير وقوات الحكومة، ووقوع القتلى والجرحى بين الطرفين، قال شكري القوتلي لرجال الحركة الوطنية:

«يجب أن لا نتركها تتحول إلى فوضى، وأن نتصل في الحال بزعمائها ونبدأ بتنظيمها ووضع الخطط المناسبة لها»[٣٣]، ولكن كما يقول أسعد داغر: «سألنا عن زعماء الحركة فقيل ليس بينهم زعيم»[٣٤].

وفي ٢١ تموز/يوليو ١٩٢٠، وصلت الأخبار إلى دمشق، بتقدم الجيش الفرنسي نحو دمشق، وكانت حجة غورو في تقدم جيشه، أن البرقية التي أرسلها فيصل عن تنفيذ الإنذار لم تصل، «بسبب انقطاع أسلاك البرق، من قبل العصابات السورية، ولذا فإن سوريا الآن تجني ثمار ما فعلت»[٣٥].

وفي صباح يوم ٢٢ تموز/يوليو أرسل الملك فيصل ساطع الحصري ومعه ممثل فرنسا لدى الحكومة السورية لمقابلة قائد القوات الفرنسية في البقاع وإبلاغه أن حكومة دمشق قبلت الإنذار قبل

(٣٣) أسعد داغر، المصدر نفسه، ص ١٤٠.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٤١.
(٣٥) من حديث غورو إلى ساطع الحصري.

الموعد المعين وأنها ليست مسؤولة عن تأخير وصول برقيتها المنبئة بذلك.

ولكن هذا المسعى لم يُجدِ نفعاً لأن غورو كان عازماً على الحرب. وتناقلت الألسنة في دمشق منذ فجر اليوم التالي أن الحكومة قررت إعلان الحرب، وكان ذلك على أثر الأمر الذي أصدرته إلى القوات العسكرية التي انسحبت من مجدل عنجر بالتوقف في ميسلون بعد أن وردت أنباء بأن الجيش الفرنسي بدأ يزحف إلى دمشق.

وانقضى ذلك النهار وسوريا تغلي كالمرجل على النار، ولكن القوة المنظمة فيها كانت قد تضعضعت، ولم يكن هناك متسع من الوقت لجمع شملها وإعادة تنظيمها. فالحكومة في دمشق فقدت هيبتها ونفوذها على أثر الثورة، والجيش سُرِّح في جميع أنحاء البلاد، و«كانت الأوامر تصدر من دمشق متضاربة متناقضة حتى حار قواد الفرق العسكرية وحكام المناطق في تنفيذها»[٣٦] وقد ظلت الحكومة تعتقد بإمكان اجتناب الحرب حتى المساء ولم تتأكد أنه لم يعد منها مناص إلاّ في أوائل الليل. ومع ذلك ظل بعض رجالها يفكرون في عدم إعلانها وفي اجتناب القتال مع الفرنسيين.

وبعد أن نُمي للزعيم الوطني أحمد مريود، الذي عرف حقيقة نوايا غورو مبكراً، أن الجيش الفرنسي بدأ الزحف باتجاه دمشق، وأن القوات السورية المنسحبة من مجدل عنجر عسكرت في ميسلون قرر أن يرسل مئات الرجال من المجاهدين الأبطال الأشداء ليشاركوا في ميسلون كقوة فعّالة في القتال ضد الجيش الفرنسي،

(٣٦) أسعد داغر، ص ١٤٣.

أعدتْ خصيصاً ليوم الجهاد المقدس[٣٧]. وفي دمشق حاولت القوى الوطنية إيجاد منفذ للمأزق الحرج فاستقر الرأي أن يذهب أسعد داغر لمقابلة الأمير زيد ويعرض عليه ما يلي:

«إذا كان الملك وبعض الوزراء يرون أن لا فائدة من الدفاع ويفضلون الاستمرار في معاملة الفرنسويين معاملة حلفاء في بلاد محتلة لم يبت بمصيرها، وإذا كانوا يعتقدون أن هذه السياسة تكسبهم عطف أوروبا وتأييد عصبة الأمم، فليفعلوا ذلك ولكن بالشروط التالية:

١ - أن يخرج سموه (الأمير زيد) وجميع أعضاء المؤتمر (البرلمان) بما لديهم من السجلات والوثائق الرسمية ومعهم جميع الوطنيين الذين يستطيعون السفر إلى مكان معين في شمال سوريا لاستئناف أعمال المؤتمر وإقامة حكومة مشروعة مؤقتة هناك.

٢ - أن يتفق سموه مع يوسف العظمة على أن يغمض عينيه عن القوات النظامية التي تريد الالتحاق بهذه الحركة ومعها الأسلحة والمهمات الكافية من مدافع وبنادق وذخائر وسيارات ورجال.

٣ - وأن يقتحم بعض الوطنيين بالقوة دور الحكومة وخزائنها في كل المحافظات فيأخذوا ما فيها وينقلونه إلى حيث يجتمع البرلمان وتؤلف الحكومة المؤقتة. ويمكن اتخاذ التدابير لتنفيذ جميع هذه الإجراءات من دون أن «تعلم» بها الحكومة ودون أن تراق نقطة من الدماء، بالاتفاق مع بعض ضباط

(٣٧) مذاكرات علي خلقي (مخطوط).

الجيش والشرطة. ففي هذه الحالة تستطيع الحكومة أن تنفذ سياستها السلمية مع الاحتفاظ بقوة الأمة ووسائلها الدفاعية. ولن يستطيع الفرنسيون أن يتهموا حكومة الملك فيصل بهذه (المؤامرة) لأنها تكون «جاهلة» لها وبعيدة عنها إذا استثنينا يوسف العظمة أحد أعضائها الذي يجب أن ينضم إلى الحركة فيما بعد..»[٣٨].

لقد وافق الأمير زيد على اقتراح القوى الوطنية، كما رحّب به يوسف العظمة، إلاّ أن الملك فيصل رفضه رفضاً قاطعاً. وقرر تشكيل حكومة عسكرية، فاستدعى رضا الركابي، وكلفه بتشكيل حكومة جديدة فاعتذر، ثم استدعى ياسين الهاشمي فاعتذر أيضاً. أما يوسف العظمة فقد تقدم بحماسة من فيصل وأبدى استعداده للدفاع عن الوطن، إذا أولاه الثقة. عندئذٍ عينه نائباً للقائد العام للقوات السورية، وبقيت الوزارة كما كانت على تشكيلتها السابقة. وبينما كانت الوزارة مجتمعة برئاسة الملك فيصل، إذا بالكولونيل «كوس» يدخل ويبلغهم برقية من غورو، بأن الجيش الفرنسي سيتقدم حتى ميسلون، لنقص الماء في مكان تجمعه وتبقى الشروط الأخرى كما هي، فأيقن الملك والحكومة، أن غورو لن يقف حتى يدخل دمشق، فأعلن الجهاد ضد الفرنسيين في منشور قال في آخره:

«فإلى معاضدة هؤلاء الأبطال، الذين يعرضون مهجهم للدفاع عن الوطن المقدس، ندعو كل فرد من أفراد الأمة، إلى السير إلى الأمام، حيث الشرف والمجد والدين والوطن»[٣٩].

---

(٣٨) أسعد داغر، ص ١٤٣.
(٣٩) محيى الدين السفرجلاني، فاجعة ميسلون والبطل يوسف العظمة، ٢٤٥.

كما أصدرت الحكومة والقيادة العامة للجيش، بيانين للدفاع عن الوطن. ونبّهت القيادة ألاّ يخاف الناس من الطائرات الفرنسية. وسط هذه الأجواء المشحونة تشكلت اللجنة القيادية للتعبئة الشعبية وحرب الأنصار (العصابات) لإمداد وتسليح الثورة في كل المحافظات السورية. وبقيت هذه اللجنة شبه سرّية لكيلا «تعلم الحكومة» بأمرها فتحتج فرنسا وتتخذ ذلك ذريعة للمزيد من الملاحقات والعدوان. ويروي الجنرال فيليب غورو في كتابه: (الجنرال هنري غورو في سوريا ولبنان من ١٩١٩ - ١٩٢٣) أن عمل اللجنة القيادية للتعبئة واتصالاتها النشطة بقيادات الثورة وجماهيرها في كافة انحاء سورية زادت من تقطيع أوصال وانهاك القوات الفرنسية ومن ازدياد خسائرها بالأرواح والعتاد وأطالت بعمر المقاومة الشعبية وحرب الأنصار. ويذكر الكتاب أن المجاهدين من أعضاء اللجنة القيادية الذين اتصلوا بالشيخ صالح العلي وُفِقوا كثيراً بحيث أمدتْ خطط قائد الثورة الشيخ صالح العلي من عمر المقاومة وشِدَّتها في الجبل والساحل الأمر الذي خفف من الضغوط على الثورة في المحافظات الأخرى وزاد في حسن أداء المقاومة وأنعش الآمال بالنصر والاستقلال. وقد تألفت اللجنة القيادية للتعبئة من: الشيخ كامل القصاب وأحمد مريود وعزة دروزة وشكري القوتلي وأسعد داغر واستمرت بمبادراتها (لم يشترك الأمير زيد في اللجنة، والتحق بها القائد العسكري يحيى حياتي) في كل المحافظات مجتمعة تارة وبمبادرات أعضاء، فيها تارة أخرى وفقاً لظروف الأمن والإمكانات ثم شكلت لجاناً فرعية محلية للإمداد والمعاونة لكل الثورات في الجولان في الجبل وفي الغوطتين وفي وسط سوريا وفي الساحل

وفي حلب والشمال الأمر الذي أدى إلى حسن التنسيق بين الثورات وأبقى جذوتها مشتعلة ضد الغزو والاستعمار الفرنسي، حتى فجر الاستقلال.

وفي صباح يوم ٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٠، وقعت المأساة والفاجعة، وكان يوسف العظمة على موعد مع البطولة والشهادة في ميسلون. بدأت المعركة بالهجوم الفرنسي بالدبابات والمشاة. فتصدت لها القوات العربية، النظامية والشعبية. وبقيت تقاتل بشراسة الأبطال حتى نفذ معظم ذخيرتها. وتابعت القوات الفرنسية تقدمها رغم الألغام المزروعة أمامها، حتى اقتربت من القلب حيث كان يوسف العظمة يشرف بنفسه على هذا الجناح المقاتل، وفي الساعة العاشرة والنصف اقتربت القوات الفرنسية أكثر حتى توغلت تماماً، تحميها الدبابات والمدرعات والطائرات التي حلّقت في سماء المعركة على ارتفاع منخفض، وقد تمكنت هذه القوات من قائد المعركة في وقت مبكر من سير العمليات، فأصابته قذيفة من دبابة كانت على مقربة منه، وسقط قتيلاً شهيداً على درب النضال والحرية، وبمقتله انهارت مقاومة قوات القلب بعد انتشار خبر استشهاده، ومارست قوات المشاة الفرنسية أسلوباً همجياً في قتالها، عندما أقدمت على قتل الجرحى بالسلاح الأبيض وبانهيار جناح القلب وتشتت رجاله، تحمَّل الجناح الأيسر عبء القتال لوحده، فقد صمد ببطولة فائقة، ولم يتمكن الجيش الفرنسي من دحره «حتى استعملوا الحيلة، وأرسلوا خمسين رجلاً من قرية (حلوى) المجاورة، وخدعوا ضباط الجناح الأيسر واشتركوا معهم في هجوم على الفرنسيين، وفي منتصف المعركة انسحب هؤلاء إلى خلف الجناح الأيسر، وأصلوه ناراً، وكان الفرنسيون

يهاجمونه من الأمام، حتى قُضي على مقاومته»[٤٠]. وعندما عرف ضباط هذا الجناح بخيانة المسلحين من أهل (حلوى) تحولوا إلى مقاتلتهم وأعدموا كثيراً منهم بعد انسحابهم، وقد طاردهم صبحي العمري، ومحمد علي العجلوني من كبار ضباط الجناح الأيسر وقتلا منهم أكثر من عشرين خائناً وجاسوساً، أما الجناح الأيمن، فلم يشترك بالمعركة، لتأخره ولسطو عصابة حسين الشماط على أسلحته، مما اضطر جنوده للانسحاب ليلاً بأنفسهم، كما أن قوات بقيادة علي خلقي لم تشترك في المعارك، حيث تحرك من دمشق في الساعة العاشرة والنصف، وعندما وصل إلى ميسلون كانت المعركة قد انتهت[٤١]. ولكنه شارك بمطاردة القوات المرتزقة من عصابات الشماط والحلواني أبو داوود[٤٢].

وفشلت الجهود في إقامة خط دفاعي، لقلة الجنود والمؤن، وعدم وجود تحصينات جاهزة، ولهجوم عصابات في المنطقة على الجنود المنسحبين وسلبهم أسلحتهم، وقد ذكر الدكتور محيي الدين السفرجلاني، أن أهالي القرى اعتدوا على متفرقات الجنود «وكانوا يسلبون الضباط والجنود ما لديهم من السلاح والعتاد والدراهم. ومن يتلكأ يقتل بلا شفقة ولا هوادة.. ولعبت عصابة حسين الشماط، دوراً قذراً آخر، ضد الجيش السوري باعتدائها على الجنود السوريين وسلبهم وقتلهم.. ولعب خائن آخر اسمه أبو داوود، صاحب حلوى، دوراً قذراً في اتفاقه مع الفرنسيين وخداعه للسوريين.. وسعى بعض وجوه دمشق وأعيانها، إلى أذكاء نار الفتنة والعصيان، فشكلوا عصابات قطعت الهاتف عن دمشق

(٤٠) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٣٨١.
(٤١) مذكرات اللواء علي خلقي، مخطوط.
(٤٢) المصدر نفسه.

والجبهة، حتى صارت دمشق والجبهة معزولتين»[٤٣] أما قوات نوري الشعلان فقد كانت مهمتها السلب والنهب كما فعلت بسرية القاوقجي، لكن القاوقجي، اكتشف أمرها ولاحق أفرادها. وكان نوري الشعلان وعد الملك فيصل أن قواته ستكون طليعة القوات الشعبية في القتال[٤٤]. كما أن القوات الشعبية غير العسكرية، لم تؤدِ واجبها القتالي بالشكل المطلوب، وذلك يعود إلى البنادق المختلفة (عثمانية، فرنسية، إنكليزية، ألمانية). وكانت الذخيرة لا تطابق البنادق، مما جعلها عديمة الفائدة، فقوات حي الميدان التي بلغ عددها (٢٧٢) رجلاً، تفرغت لحماية الذخيرة والمؤن ومساعدة الجناح الأيسر، أما قوات بلدة دوما وقراها، التي كانت حوالى (١٥٠) رجلاً، فقد أفرغت ذخيرتها قبل نهاية الساعة الأولى من القتال، وكانت خسائرها كبيرة، وأخيراً انضمت إلى قوات حي الميدان وانسحبت معها باتجاه دمشق في تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم..

أما القوات الشعبية التي أرسلها الزعيم الوطني أحمد مريود إلى ميسلون يوم ٢٣ تموز/ يوليو أي قبل المعركة بيوم واحد، والتي تقدر بـ(٣٥٠) رجلاً، فقد انتشرت على مضيق ٣ كيلومترات، أي أنها غطت مساحة كبيرة من أرض المعركة، التي قدرها غورو بمضيق ٨ كيلومترات. وعلى الرغم من أن بنادق هذه القوات كانت شبه موحدة، وربما كانت القوة الشعبية الوحيدة التي امتلكت رشاشات، ومدافع، إلاّ أن ذخيرتها كانت قليلة جداً، وقد حاولت مجموعة من مجاهديها الانتقال إلى مواقع تخزين الذخيرة

---

(٤٣) السفرجلاني، فاجعة ميسلون والبطل يوسف العظمة، ص ٢٦٧ - ٢٧١.

(٤٤) مذكرات القاوقجي، ص ٦٩ - ٧٠، (أنظر كتابنا: سيرة علي خلقي، قيد الطباعة)، وانظر علي سلطان، ٣٨٢.

إلاّ أنها فشلت بفعل الطائرات الفرنسية، والدبابات التي اخترقت جناح القلب، فانضمت هذه المجموعة إلى سرية القاوقجي في مطاردة قوات حسين الشماط، وبقية العصابات الخائنة التي ساهمت بتحقيق النصر لصالح الجيش الفرنسي، وإلحاق الهزيمة بالقوات العربية، وقد انسحبت هذه القوات باتجاه قطنا، في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم الفاجعة.. أما فلول القوات النظامية ومعها بقية القوات الشعبية فتابعت تراجعها بانسحابات غير منتظمة. قال قائد الجبهة تحسين الفقير في برقية أرسلها إلى القيادة العامة في دمشق «أفاد مراقبونا الأماميون أنهم يرون جموعاً غفيرة تعود من جهة ميسلون ولم يروا منتهاها»[٤٥].

في الساعة الثانية ظهراً، أبلغ نوري السعيد الجنرال (غوابيه)، أن دمشق مدينة مفتوحة حتى يتفاهم مع الفرنسيين، إلاّ أن غوابيه فرض شروطاً وهي:

تقديم التموين اللازم للجيش الفرنسي، وإلى المستشفيات، ودخول القوات العسكرية الفرنسية دمشق، والقيام باستعراض فيها، فقبل نوري السعيد بها، وأبلغه أن بإمكان الجيش الفرنسي دخول دمشق في أي وقت شاء[٤٦]. وكان نوري السعيد قد عُيِّن محافظاً لدمشق قبل معركة ميسلون بأيام قليلة، وذكر أسعد داغر في مذكراته، أن نوري السعيد. قد أعدّ مسودة بيان للشعب مع بداية المعركة، «وكان هذا البيان مفرغاً في قالب لا يتفق مع مظاهر

(٤٥) مذكرات أسعد داغر، ص ١٤٥.

(٤٦) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري، ص ١٩٢.

الحماسة التي تجلت في البلاد. وقد يفهم منه أن الحكومة لا تعد نفسها في حالة حرب مع فرنسا»(٤٧).

ودخلت القوات الفرنسية ما بين الساعة الخامسة والسادسة من مساء يوم ٢٥ تموز/ يوليو، يتقدمها غوابيه على حصان أبيض، ووراءه الكولونيل بتيلا، وجرى استعراض الجيش الفرنسي في شوارع دمشق الرئيسية(٤٨) وكانت دمشق حزينة بائسة، ووجوه الذين خرجوا إلى الشوارع عابسة واجمة. وقد وصفت الكاتبة الفرنسية (سانت بوينت) دخول غوابيه فقالت:

«وفي اليوم التالي دخل الجنرال غوابيه دمشق، وكان الصمت مطبقاً في الشوارع، بينما كان السوريون يبكون استقلالهم المذبوح»(٤٩).

---

(٤٧) مذكرات أسعد داغر، ص ١٤٤.
(٤٨) الوثائق الفرنسية، رقم ٥ صفحة ٣٣ (انظر د. علي سلطان، ص ٣٨٧).
(٤٩) علي سلطان، ص ٣٨٨.

الفصل الرابع

النضال الوطني من الأردن ضد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ ـ ١٩٢٤

لقد كان غورو يتذوق عطر الشباب الخالد وعطر المخيلة الكبرى والروح الإنسانية المهيمنة في دمشق كما تذوقها من قبل في فاس.. وكان غورو يقوم بدور الدليل السياحي لأقاربه وأصدقائه كلما جاءوا إلى دمشق، غير أن إحدى هذه الجولات السياحية تحوّلت إلى مأساة يوم حلّت في دمشق شقيقة غورو وإحدى بنات عمه فسألتني إلى أن يذهبون؟ فاقترحت عليه زيارة القنيطرة القريبة من دمشق فأكثرية أهل القنيطرة من الشراكسة والشراكسة كانوا من المعروفين بودهم لفرنسا.. وبالتالي كان من المستحيل الإبقاء على الزيارة سرية كما كنت آمل وذلك لأسباب تتعلق بأمن المفوض السامي نفسه. فقد كانت حياته مهددة دون شك من قبل أولئك الذين لجأوا إلى مناطق الانتداب البريطاني، وأقصد بذلك شرق الأردن.

الجنرال الفرنسي كاترو

مندوب المفوض السامي لدولة دمشق

إن بلداً مثل سوريا يتبوأ فيه الوطني المقام الأول لمجرد كونه وطنياً. وإن بلداً كهذا لهو البلد الذي تصلح تربته لبناء صروح المجد، ونمو مبادىء الحرية وتوطيد دعائم الاستقلال ولأن يكون مصدر كل حضارة وارتقاء. لقد كانت دمشق وسوريا كلها في قبضة الوطنيين من أمثال أحمد مريود وغيره من الرجال الوطنيين الذين استمدوا نفوذهم من صدق وطنيتهم فنصروا قضية الحرية والاستقلال

أسعد داغر

١

الخروج
من دمشق إلى الأردن

بدأت الثورات الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي في المناطق الجنوبية، بثورة الزعيم الوطني أحمد مريود، كما اشتعلت في الوقت نفسه في المناطق الغربية، وأقدمت سلطات الاحتلال الفرنسي على استقطاب فئات اعتقدت أن مصلحتها تكمن في الوجود الفرنسي على أراضيها.. وطلب الملك فيصل من رئيس الوزراء البريطاني أن يتدخل مع الفرنسيين لإيقاف هذه العمليات التي تهدد الوحدة الوطنية. ولما وُقعت الهدنة بين الفرنسيين والأتراك في ١٩٢٠/٥/٣٠، خلا الجو للفرنسيين لحشد قواتهم ضد المنطقة الشمالية من سوريا، أي ضد حكومة الملك فيصل، وتشكل هذه الهدنة منعطفاً خطراً في تاريخ العلاقات الفرنسية ـ السورية حتى يوم ميسلون.

كانت قرارات سان ريمو بمثابة إطلاق يد فرنسا في سوريا، وشرع الجنرال غورو بعد تلقي الإمدادات اللازمة يستعد للزحف على دمشق. وفي ١٤ تموز/ يوليو يوم عيد الحرية في فرنسا تلقى فيصل إنذار غورو الشهير الذي كان بمثابة طلب استسلام كامل، وكان

غورو قد صاغ هذا الإنذار على نحو اعتقد أنه لم يترك فيه مجالاً ليقبله فيصل، ولهذا فوجىء حين وصله إشعار فيصل بقبول الإنذار والشروط الواردة فيه[1]، ولكن القوات الفرنسية كانت في طريقها إلى دمشق، فادعى غورو أن القبول وصل متأخراً، ولم يطرأ أي تغيير على حركة القوات الزاحفة، التي شعرت بأنها تقوم بنزهة عسكرية، بعد أن قام فيصل بتسريح الجيش السوري، ولم تؤثر على حركتها مقاومة جمهرة من الجيش النظامي وبضع مئات من المتطوعين بقيادة الزعم الوطني أحمد مريود، فكانت معركة ميسلون في ٢٤ تموز/ يوليو مجزرة أكثر منها معركة[2]، وفي ٢٥ تموز/ يوليو دخلت القوات الفرنسية دمشق. وكان الملك فيصل قد ترك دمشق في ١٩٢٠/٧/٢٤ إلى الكسوة، مع أخيه الأمير زيد وعدد من وزرائه، أملاً أن يتوصل إلى اتفاق مع الفرنسيين في آخر لحظة، ولذا عيّن رئيساً جديداً للوزارة السيد علاء الدين الدروبي، وفوض نوري السعيد بالتفاوض مع الفرنسيين. وكانوا قد أبلغوه رسمياً بوجوب مغادرة دمشق إلى الحجاز، فاضطر إلى النزول عند إرادتهم، ولو أنه أرسل إلى غورو برقية احتجاج[3].

وتروي جهات حسنة الاطلاع أن مجموعة من الأهالي بدرعا أوقفت قطار فيصل ومنعته من إكمال رحلته إلى حيفا، إلى أن وصلت درعا عصبة من الوطنيين ومن أبرزهم الزعيم الوطني

(١) شروط غورو: ١ ـ وضع سكة حديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي. ٢ء ـ قبول الانتداب الفرنسي. ٣ ـ إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين. ٤ ـ قبول الأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري. ٥ ـ معاقبة المجرمين (أي زعماء المقاومة ضد الفرنسيين وفي مقدمتهم الزعيم الوطني وقائد الثورة أحمد مريود.

(٢) العماد طلاس، المصدر نفسه، ص ٣٤٤، راجع ساطع الحصري، معركة ميسلون ص ٣١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٤، والحصري، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

المجاهد أحمد مريود وفكّت الحصار عن فيصل وأرسلت بصحبته عدداً من أفرادها إلى حيفا، ثم غادر فيصل درعا ورافقه ساطع الحصري من الوزراء وعوني عبد الهادي سكرتيره الخاص، وإحسان الجابري كبير أمنائه، وتحسين قدري مرافقه، والدكتور أحمد قدري طبيبه الخاص، والقائمقام علي خلقي الشرايري رئيس حرسه(٤).

كما رفض محافظ درعا، استقبال الوطنيين الذين غادروا إلى حيفا مع فيصل على القطار نفسه(٥).

وغادر الملك فيصل درعا إلى حيفا في الأول من آب/ أغسطس ١٩٢٠، وبذا يكون قد أمضى في سوريا سنة واحدة وعشرة أشهر.

وكان آخر ما قاله بعد الوداع الحزين:

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد(٦)

كانت منطقة شرقي الأردن يومذاك في وضع غريب، إذ بالرغم عن أنها تؤلف جزءاً من الدولة السورية (الفيصلية) إلاّ أن الفرنسيين لم يتقدموا (لاحتلالها لاتفاقهم مع الإنكليز في مؤتمر سان ريمو (نيسان/ أبريل ١٩٢٠) بأن تخضع هذه المنطقة ـ شرقي الأردن ـ للانتداب البريطاني). ولما لم يكن الإنكليز في وضع

---

(٤) جيمس موريس، الملوك الهاشميون، ص ٧٦. جاء في هذا المصدر أنه خرج مع فيصل أخوه زيد، و٢٧ جندياً و٧٢ تابعاً و٢٥ سيدة، ٢٥٠ جواداً، و٧ سيارات، وعربة واحدة (راجع حواشي تاريخ سوريا (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) حكم فيصل بن الحسين الدكتور علي سلطان، ص ٣٩٢).

(٥) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، (القاهرة، ١٩٥٧)، ص ٣٩٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

يمكنهم من احتلال شرق الأردن، احتلالاً مباشراً، فقد تمتعت بحكم استقلالي، ووجد الأحرار من سورية فيها وطناً وامتداداً للوطن بالداخل، فظلت الأردن حوالى تسعة أشهر دون حكومة مركزية تحافظ على الأمن والنظام فيها. وهكذا غدت ميداناً للفوضى والاضطراب، وعاد الزعماء التقليديون إلى ممارسة سلطاتهم العشائرية من خلال الحكومات المحلية التي تشكلت في مراكز النواحي، وبإشراف ومراقبة الضباط الإنكليز المرتبطين بالمندوب السامي البريطاني في القدس، ولكن هذا الوضع الخاص في شرقي الأردن كان عظيم الفائدة للوطنيين الأحرار الذين غادروا دمشق إلى الأردن. فقد أصبحت موئلاً لهم في تلك الأيام العصيبة، وجاء إليها منهم كثيرون بينهم: رشيد طليع، وعادل أرسلان، وكامل القصاب، وحسن الحكيم، وخير الدين الزركلي، ورشدي الصفدي، ونبيه العظمة وسامي السراج وفؤاد سليم(٧) وغيرهم من المناضلين الذين رافقوا الملك فيصل إلى حيفا ثم عادوا إلى عمّان.

أما الزعيم الوطني أحمد مريود، والمحكوم عليه بالإعدام من قبل الجنرال غورو ومحكمته العسكرية فقد كان أمام خيارات وطنية صعبة:

- هل يبقى في البلاد ـ كما هي عادته في الظروف الصعبة ـ رغم قرار الحكم عليه بالإعدام غيابياً، ويستمر في ثورته التي أعلنها عام ١٩١٩ من القنيطرة، ويضع الأمة العربية أمام مسؤولياتها التاريخية، ويعيد للثورة العربية الكبرى روحيتها التحررية الوحدوية؟

---

(٧) فؤاد سليم، حلّ في إربد بضيافة علي خلقي.

- أم يُسلم بالأمر الواقع (الفرنسي) ويترك البلاد كما تركها غيره من الزعماء، ويترك خلفه عشرات الرجال الأبطال الذين قاتلوا بإمرته في القنيطرة ومرجعيون للظروف والاحتمالات؟؟

- هل يغادر دمشق إلى «عاليه» في جبل لبنان حيث يتواجد الجنرال غورو. ويسلم نفسه عله ينال العفو منه، ويحظى بمراتب الرضا «كما فعلها من كانوا وعملوا مع فيصل، ومع من سبقه للسلام عليه والاحتفاء به، كنوري الشعلان الذي ذهب لتحيته في عاليه، ونسيب الأطرش، ونواف البركات شيخ الرمثا، الذي أرسل ولده يحمل تحياته وآخرون»[٨]؟

- أم يذهب إلى القرى الحدودية الأردنية ـ السورية مع كافة رجاله الثوار باعتبارها قاعدة متقدمة لعمل نضالي ضد الاحتلال الفرنسي؟؟

ناقش هذه الخيارات الوطنية الصعبة مع نفسه، ومع بعض الزعامات المخلصة في حزب الاستقلال، الذي هو في هيئته التنفيذية العليا، فرأى أن لا فائدة من بقائه في دمشق، فتعليمات رئيس وزراء فرنسا للجنرال غورو كانت واضحة وصارمة «وذلك بعد أن أعلنت بريطانيا مبدأ الحياد. ورفضت الرد على نداءات الشريف حسين»[٩] وتركت فرنسا تنهي المشهد الأخير من

---

(٨) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ٤٠٣، نقلاً عن وثيقة بريطانية
D.F.G. Le Vant.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٩٩ (قال الشريف حسين في رسالة إلى اللنبي: إن إنذار غورو يجعلني أشعر أن بريطانيا خفضت شرفي وكرامتي، وإن حدث هذا، فلا أستطيع العيش في العالم).

مسرحية شاركت في تركيب فصولها «فلا يهمها مصلحة العرب، ما دامت قد حصلت على لقمتها الكبيرة في بترول العراق وفي فلسطين»[١٠] فكانت تعليمات رئيس الحكومة الفرنسية التي نفذّها غورو فور وصوله دمشق، تحدّ من أي تفكير بالمجابهة، وبخاصة بعد نكسة ميسلون[١١] ونذكر أهم هذه التعليمات:

ـ احتلال المدن والخط الحديدي الحجازي.

ـ إقامة إدارة جديدة من أتباع فرنسا.

ـ حل الجيش الشريفي وإنهاء الحكم الوطني تماماً.

ـ فرض الغرامات المالية على الشعب.

ـ ملاحقة رجال «العصابات» الوطنية بإعدام قادتها فور إلقاء القبض عليهم، وتأديب كل من تسول له نفسه بالاعتراض أو التحـريض، وذلـك بالسجن والاعتقال والعقوبات الشاقة الأخرى.

---

(١٠) علي سلطان، ص ٣٩٩.

(١١) بعد أن أتمّ الفرنسيون احتلال حمص وحماه في ٣١ تموز/يوليو والقنيطرة في آب/ أغسطس، قدم غورو إلى دمشق في ٧ آب/ أغسطس، وتوجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، الملاصق للجامع الأموي، ودخل إليه. وتقول الرواية أن غورو دخل دون إشارة تحية، بملابسه العسكرية وسيفه إلى جانبه وقبعته فوق رأسه، فقال: «يا صلاح الدين، أنت قلت لنا في إبان حروبك الصليبية، أنكم يا غرب خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه، وها قد عدنا؛ فانهض لترانا هنا في سوريا» (إحسان الهندي، كفاح الشعب السوري، ص ٢٠١). وقال أيضاً: «حضوري هنا يقدس انتصار الصليب على الهلال» (سلطان، ص ٤٠٣) كما قال غوابيه في مذكراته «أوليستْ العدالة العليا، هي التي سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية، أن يدخل المدينة المقدسة ظافراً منتصراً» (الحصري، يوم ميسلون، ص ٣٦٨).
إن عبارات غورو الواردة أعلاه لم ترد في رسائل غورو، ولم يذكرها «كاترو» في كتابه مهمتان في الشرق الأوسط.

- وضع الانتداب الفرنسي موضع التنفيذ الفوري.

إن أحمد مريود، وهو الزعيم الوطني، وقائد أول ثورة شعبية ضد الانتداب والاستعمار الفرنسي قبل أن يصبح هذا الانتداب واقعاً مفروضاً، يعزّ عليه أن يحمل حقائب سفره إلى جهات الأمان والاسترخاء، ويترك خلفه الرجال عرضة للموت والتنكيل. في زمن كان فيه هؤلاء الثوار الرجال سيفه المسلول، وصوته المرتفع، وكان هو رمزهم وقدوتهم، فأقسم أن لا يتركهم فريسة القهر والإذلال..

إن الزعيم الوطني أحمد مريود، الذي ورث النضال الوطني ضد الاحتلالات المختلفة، كابراً عن كابر، لا يرضى لنفسه أن يكون في مواقع غير مواقع الكبرياء والشمم، فعاليه ذهب إليها ذهاب الفارس المتأبط سلاحه، ولن يذهب إليها مستسلماً وهي ساقطة بيد غورو وعساكره. ذهب إلى عاليه ليكون نزيل سجنها في العهد العثماني، ولن يذهب إليها في العهد الفرنسي، الأبغض استعماراً والأشرس حقداً على العروبة، حاملاً تحيات الترحاب ومشاعر التودد..

لا وربِّ البيت والكعبة لن يفعلها ابن موسى، الذي ما تعود أن يكون إلاّ في الموقع الصح، وما اتخذ يوماً إلاّ القرار الأصح فماذا كان قراره؟ في ضوء المعطيات الميدانية والسياسية بعد سقوط دمشق أصبحت ثورة الزعيم مريود محاصرة بين فكيّ الكماشة. سقطت مرجعون بعد ميسلون واضطرت الثورة في حوران أن تكون قصيرة الزمن بعد انتفاضة غزالة المباركة. في ضوء ما تقدم قرر أن تنتقل ثورته إلى الأردن حيث الأهل ورفاق العقيدة والجهاد وكان القرار هذا بعد أن نسّق مع قيادات المجاهدين حلفائه في

جبل عامل والجنوب ومجاهدي العرقوب والجولان وحوران قبيل فرض المعاهدة الإفرنسية عليها بأقل من شهرين.

وكان قبل ذلك قد اجتمع إلى رفاقه في قيادة الحزب والحكومة وأشار عليهم بعرين الشعب العربي في الأردن البلد الحرّ الشقيق الذي لم يكن الاستعمار الغربي قد بسط عليه هيمنة بعد (عبر بريطانيا «حليف» الأمس) وهكذا قدم الإستقلاليون العرب إلى الأردن جماعات وفرادى ليقيموا مع رفاقهم بالفكر والمبدأ والعقيدة، رجالات الأردن الأشاوس، حكماً ديموقراطياً حراً بعد أن أسقط المستعمر الفرنسي توأمه في دمشق.. ونتابع في ما يلي مسار تحرك قائد الثورة الدائمة أحمد مريود.

نعم.. اختار قرية كفرسوم، القرية القريبة للزوية وفيق والشجرة وكل قرى الجولان وحوران، لا ليستريح فيها بل ليجعل منها قاعدة عسكرية للثوار الخيالة الثلاثمائة الذين انسحبوا من مواقعهم إلى مواقع جديدة أكثر أمناً، فهي صديقة وشريكة في الكفاح والنضال منذ عام ١٩١٥، وحتى قيام الساعة..

وصل الزعيم الوطني وجماعته أرض كفرسوم في الأيام الأولى من شهر آب/ أغسطس ١٩٢٠، وكانت كفرسوم ما زالت تلبس ثوب السواد حداداً على روح الشهيد كايد المفلح قائد ثورة ومعركة «أم الثعالب» بالقرب من مدينة سمخ الذي استشهد فيها مع ثلاثة من أقربائه[١٢] يوم ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٢٠، وقد استقبل الضيف والزعيم أحمد مريود، عند مشارف البلدة من قبل

(١٢) الشهداء هم: كايد مفلح عبيدات، فندي عبيدات، سلطان جبر عبيدات، قفطان عبيدات.

شيخ عشيرة العبيدات، تركي باشا الكايد وزعماء ووجهاء المنطقة، وقد أطلق المجاهد فارس معركة «أم الثعالب» عزام الجبر العبيدات العيارات النارية في الهواء ابتهاجاً بعودة وسلامة الأمير مريود، وتكريماً له ولجماعته الثوار، وشعر الأهالي في قرية كفرسوم أن الحزن على كايد قد انتهى، وأن مرحلة جديدة من النضال والثأر لروحه الطاهرة قد بدأت من جديد..

وفي لقاءات مع كبار السن في قرية كفرسوم أجريتها خصيصاً لإغناء الموضوع بمعلومات حية وصادقة، ولم يسبق لها أن سُجلت في التاريخ، خرجتُ بالانطباعات والملاحظات التالية:

١ ـ لم يكن أحمد مريود زعيماً وطنياً في سوريا فحسب، بل زعيماً على مستوى بلاد الشام، وكان يتمتع بشعبية واسعة بين الأهالي في الشمال الأردني بعامة وقرى الكفارات بخاصة، وكان له حضوره السياسي والاجتماعي، يحترمه الكبار والزعماء ووجهاء البلاد.

وتسلم منصب «نائب العشائر» في أول حكومة وهذا المنصب الوزاري كان من أهم وأدق المناصب في مجتمع تسوده سلطة العشيرة والقبيلة واستمر في هذا المنصب الوزاري حتى رحيل الوطنيين عام ١٩٢٤.

٢ ـ إن الرجال الثلاثمائة الذين قدموا إلى كفرسوم مع الزعيم أحمد مريود شكلوا نسبة تزيد عن ٣٠٪ من سكان أهل القرية، حيث كان عددهم لا يتجاوز الألف نسمة، ومع كل هذا أشرف الشيخ تركي العبيدات على تأمينهم، ضيوفاً أكارم وفي ١١ آب/ أغسطس ١٩٢٠ أعلن الشيخ تركي بحضور صديقه أحمد مريود وأمام حشد من وجهاء المنطقة

حالة «التآخي» بين عشيرة العبيدات وعشيرة آل مريود(١٣)، وقال: «أنتم المهاجرون ونحن الأنصار نقتسم وإياكم كسرة الخبز، حتى يهوّن الله أمر الجميع».

٣ - ويتمتع الزعيم أحمد مريود بموهبة تنظيمية كبيرة، وخبرة وتجربة في العمل السياسي والجماهيري وعمليات حرب المغاوير والفدائية. فلم يمض أكثر من أسبوع على إقامته في بلدة «كفرسوم» حتى أصبح ورجاله الثوار بكامل الجاهزية القتالية، وكان لهم حضورهم المميّز في معركة «خربة غزالة» المعروفة، والتي قتل فيها علاء الدين الدروبي، رئيس الحكومة

---

(١٣) اختلفت الآراء والمصادر حول عدد الرجال الثوار الذين رافقوا أحمد مريود إلى الأردن، فهناك معلومة تذكر أن عددهم من الفرسان الخيالة كان ٢٠٠ رجلاً. وقد أعلمني الشيخ عارف السلامة العبيدات كونه من الذين أشرفوا على توزيع الرجال على المنازل المخصصة لهم، أن عددهم كان (٣١٠ فرسان) رَحَل بعضهم بعد شهور إلى كفر أسد ودير أبي سعيد لتسهيل عملهم الكفاحي، وكانوا يترددون على كفرسوم كثيراً وهي مقر القيادة وذكر أحد كبار السن في القرية: إن إقامة هؤلاء الرجال لم تكن دائمة في كفرسوم، فكانوا بمهمات دائمة، وبعضهم كان يذهب سراً إلى الجولان ثم يعود بعد أيام، وبعد محاولة اغتيال غورو، توزع بعضهم على القرى الحدودية لتسهيل عملهم الكفاحي، ضد القوات الفرنسية، فمنهم من سكن في المغير، وفي قرية عقربا (الواقعة على نهر الشريعة) ومنهم من أقام في راحوب أيضاً.

وفي رواية أخرى أن الزعيم أحمد مريود جاء بقوات ثورته الأساسية (قرابة خمسة آلاف مجاهد) بالإضافة للفرسان الثلاثمائة الذين استمروا معه طيلة السنوات الأربع لحكم الوطنيين في الأردن، لقد جاء بقوات ثورته الأساسية لفترة محدودة محسوبة ليتعرفوا إلى الأهل ورفاق العقيدة والجهاد وليخبروا شعاب ومسالك الطرق والوديان على ضفتي الشريعة أبطال حرب الاستنزاف في العمق السوري الواسع الرحب والذي استنزف قوة فرنسا بالتواصل والتنسيق مع قائد الثورة الأمير أحمد مريود وتقول الرواية أيضاً إن الزعيم أحمد مريود جاء بهم وبألف رأس من الماشية الجولانية الجيدة مع بضعة عشرات من الخيول العربية الأصيلة وحصاد موسم طيب من الغلال والحنطة، وظلّ خير كفرسوم وكرمها سباقاً سخياً لم يتوقف طيلة السنوات الجهاد في الأردن .ومن الأردن ضد قوات الاستعمار الإفرنسي في سوريا.

السورية المتعاون مع فرنسا يوم ٢١ آب/ أغسطس ١٩٢٠.

والشيء الذي يميّز أحمد مريود عن بقية زعماء حزب الاستقلال، هو نَفَسه الطويل، والصبر والمثابرة في الاتصال مع زعماء ووجهاء الأردن، لحثهم على تشكيل «النجدات» المساندة للثوار والمجاهدين السوريين إلى جانب الرسائل التي كان يبعثها مع موفديه إلى المناطق الداخلية في سوريا.

٤ ـ كان يقال عن القائد الوطني أحمد مريود بأنه صاحب الذراع الطويلة، وأول من أطلق عليه هذا اللقب الصحافة الفلسطينية في القدس، لكثرة الشكاوى التي كان يتلقاها المندوب السامي البريطاني من القنصل الفرنسي في القدس، وقد ذكرت إحدى الصحف «أن حكومة الانتداب الفرنسي في دمشق وجهت إلى المجاهد القائد أحمد مريود تهمة قتل جنودها الفرسان في قرية المزيريب القريبة من درعا» وكانت الصحف الصفراء التي تصدر في بيروت بأمر التوجيه والإعلام الفرنسي قد وجهت مثل هذه التهم إلى مريود عندما قامت مجموعة من الثوار باجتياز الحواجز الفرنسية، وتعمقت في داخل الأراضي السورية حتى وصلت باب سريجة وقتلت مجموعة من الفرنسيين. وجاء في تقرير القنصل الفرنسي في القدس «أن أحمد مريود يلاقي تسهيلات جيدة من زعماء العشائر الأردنية، وأنه شخصياً يتحمل مسؤولية الأعمال التخريبية التي تقع في جميع الأراضي الجنوبية، وحتى التي وقعت في دمشق مؤخراً».

٢

مقتل الدروبي وثورة حوران

بعد احتلال الجيش الفرنسي مدينة دمشق، أصدرت السلطات العسكرية أحكاماً بالإعدام على عدد من أقطاب العهد الوطني بدمشق وعلى عدد من الزعامات الوطنية الثورية التي أعلنت المقاومة ومارستها قبل معركة ميسلون وبعدها وفي المقدمة الزعيم الوطني قائد ثورة الجنوب التي بدأت سنة ١٩١٩ واستمرت، أحمد مريود، كما أصدرت بلاغاً باليوم نفسه ألزمت فيه حكومة علاء الدين الدروبي، ويتضمن تحصيل الغرامة التي فرضها الفرنسيون على الشعب العربي السوري، تنفيذاً للبند الرابع من شروط غورو على الملك فيصل.. وكانت حوران أول منطقة رشحتها حكومة الدروبي لتحصيل الغرامة من أهاليها، وكلفت الدروبي نفسه بهذه المهمة، ففي يوم ٢١ آب/ أغسطس ١٩٢٠ غادر الدروبي والوفد المرافق له دمشق إلى درعا، للتباحث مع زعماء حوران في أمر الغرامة، وفي الطريقة التي تقضي بجمع وتحصيل الحصة المفروضة عليهم. كانت حوران كبقية المناطق السورية، تعيش مأساة ميسلون، فلم يقبل أهلها أن يأتي رئيس الوزراء «ودماء الشهداء لم تجف

بعد»[1] لنهب الشعب وأمواله وقوته «بحجة الغرامة» لصالح الجيش الفرنسي الذي يتوجب عليه دفع الغرامة والتعويضات عن الخسائر البشرية والمادية التي خسرها الشعب السوري الآمن في أرضه ووطنه، فأضعف الإيمان أن لا يطالب المحتل الأجنبي «بتعويضات» من الشعب الوطني المحتلة أرضه، والمصادرة حريته، المهانة كرامته. ومن هذا المنطلق كان السخط عاماً بين الأهلين ضد أعضاء الوفد الوزاري، فقد تجمهر عدد كبير من أهل حوران في محطة «خربة غزالة» وهم عازمون على الفتك بالوزراء الذين تعاونوا مع المحتل الفرنسي عند وصولهم..

«وعندما أقبل القطار الذي يقل أعضاء الوفد، قام الثائرون بقتل علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء المتعاون مع الفرنسيين، وعبد الرحمن اليوسف، وبعض الجنود الفرنسيين. ثم قطعوا المواصلات البرقية والهاتفية وعطلوا سكة الحديد وأخذوا يستعدون للمقاومة».

وعلى أثر ذلك عقد شيوخ حوران وزعماؤها اجتماعاً في قرية «نصيب» قريباً من الحدود الأردنية، للتباحث في ما يجب عمله بعد حادث مقتل الدروبي وجماعته، وتوقع قدوم الجيش الفرنسي للانتقام ولإخضاع المنطقة المنتفضة. ونتيجة لهذا الاجتماع قرر الزعماء بصورة إجماعية أن يتعاون الأهلون على مقاومة الفرنسيين، وأرسلت الرسائل إلى أهالي شرقي الأردن للاشتراك مع

---

(١) جاء في كتاب صور مشرقة من نضال حوران: (المؤلف أحمد محمود عطا الله الزعبي) قام الحوارنة والمقاتلون من الجولان ومقاتلون من الأردن بقيادة الزعيم أحمد مريود وانتشرت القوات بين جبال الكسوه والأسود والمانع ووعرة زاكيه وكلها امتداد طبيعي لمنطقة الجولان. وأشرف مع الزعيم أحمد مريود النائب سعد الدين المقداد من حوران وقاموا بمحاربة قوات الغزو والاستعمار الإفرنسية.

الحوارنة في شرف مقاتلة الغزاة. كما أرسل شيوخ حوران رسالة إلى الزعيم الوطني أحمد مريود من أجل متابعة خطة تصعيد وتيرة العمل الثوري في جنوب سوريا والأردن لتعبئة الجماهير، كما طلبوا منه مخاطبة الشريف حسين الذي اعتبروه الرمز الفخري الأول وتنادى الأردنيون للمساهمة في المعركة(٢) بعد أن قام الزعيم مريود بالاتصال مع زعماء ووجهاء المناطق الأردنية وبخاصة زعماء البلقاء وعجلون والكفارات. وكان التجاوب مع دعوته يشير إلى المفخرة والإحساس بالمسؤولية القومية. كما قام بالاتصال مع عدد من رجال الجيش العربي، الذين كانوا يحتفظون بأسلحتهم. ومعظمهم من ضباط حزب «الاستقلال»، فأستعدوا أن يكونوا بأمرته، باعتباره قائداً أساسياً في قمة قيادة الحزب..

وفي ٢٤ آب/أغسطس ١٩٢٠ اجتمع الزعيم المريود مع الزعيم العشائري الأردني منوّر الحديد، زعيم عشائر الحديد في عمان والسلط، وزوّده بالأسلحة الخفيفة بالإضافة إلى مدفعين، واستعد الحديد أن يقوم بقيادة جيش العشائر الأردنية الذي سيصل تعداده إلى أربعمئة خيال، واتفق معه على احتجاز القطار الذي كان ما يزال يسير بين درعا وعمّان، واستعماله يوم الزحف إلى حوران.

وفي ٢٥ آب/أغسطس ١٩٢٠، اجتمع مع الشيخ راشد الخزاعي

---

(٢) تنادى الأردنيون للمساهمة في المعركة كرد فعل على بلاغ علاء الدين الدروبي بتاريخ ١٠ آب/ أغسطس ١٩٢٠ الذي عمّمه على جميع الحكام الإداريين ومنهم متصرف الكرك. وفي ذلك البلاغ طلب من الأهلين وجوب التزام السكينة وعدم إثارة الفتن، والتقيد بأوامر حكومته. كما أكد على ضرورة تداول العملة السورية ومجازاة كل من يأبى التعامل بها. وكان من أثر بلاغات الدروبي أن رفع عبد السلام كمال قائمقام معان آنذاك العلم الفرنسي على دار الحكومة فبادر عودة أبو تايه إلى نزعه وزج القائمقام في السجن.

زعيم جبل عجلون وضمن مشاركة الجبل في الحملة التي ستتوجه إلى جنوب سوريا في نهاية شهر آب/ أغسطس، واتفق معه أن يكون مع قواته في أربد يوم ٢٩ آب/ أغسطس لتلتحق قوات جبل عجلون بقوات السرد والكفارات بقيادة تركي الكايد العبيدات وسليمان السودي[٣]. وفي ٢٦ آب/ أغسطس ١٩٢٠ عاد من حيفا إلى أربد الشريف علي البدوي، وعندما بلغته أنباء ثورة الجنوب، أخذ يبحث عن الزعيم الوطني أحمد مريود للتنسيق معه فتم اللقاء مساء اليوم نفسه في منزل السيد عبد الرحمن الرشيدات[٤] وحضر هذا اللقاء مصطفى حجازي، وعارف العنتباوي ونجيب الحمود، وعبد القادر التل والشيخ علي حشيشو وجميعهم من وجهاء وزعماء إربد. وتمّ الاتفاق في هذا الاجتماع على تقديم كل وسائل الدعم لثورة الجنوب وحوران وذلك من خلال الاشتراك الفعلي بصدّ هجمات الجيش الفرنسي في حال تفكيره بمهاجمة حوران للانتقام من مقتل الدروبي وجماعته..

وفي ٢٧ آب/أغسطس ١٩٢٠، أوفد الزعيم الوطني مريود مجموعة من رجاله إلى حوران وأبلغوهم «أن ألف مقاتل على الأقل سيكونون في درعا عند سماعنا خبر تحرك القوات الفرنسية من دمشق، ويبلغكم الزعيم أحمد مريود، ووجهاء شرقي الأردن، تحيات الجهاد، والتحلي بالصبر وشدّ العزائم»[٥]، وقبل طلوع

(٣) سليمان السودي: شخصية أردنية معروفة، وقد مثل منطقة شرقي الأردن في المؤتمر السوري الذي أعلن الاستقلال يوم ٨ آذار/ مارس ١٩٢٠، وزعيم عشيرة الروسان في منطقة السرو، في محافظة إربد.

(٤) عبد الرحمن الرشيدات: مثل منطقة شرقي الأردن في المؤتمر السوري وتقلد عدة مناصب وزارية في عهد الإمارة والمملكة في الأردن، ومن أعضاء لجنة الوصاية على العرش قبل أن يستكمل الملك حسين سنه القانوني.

(٥) أوراق تركي الكايد.

الفجر من يوم ٢٩ آب/ أغسطس ١٩٢٠، كان الزعيم الوطني أحمد مريود، وعلي الحارثي، وتركي الكايد العبيدات أمام محطة سكة حديد درعا لاستقبال القوات الشعبية القادمة من عمان والبلقاء بقيادة الشيخ منور الحديد، وبعد قليل من وصول القطار القادم من عمان، وصلت قوات الزعيم أحمد مريود والقادمة من قرى الجولان والعرقوب والكفارات، ثم تتابع وصول النجدات الأخرى، وكانت الأنباء تشير أن القوات الفرنسية بدأت زحفها باتجاه الجنوب وأن أهالي القرى في ريف دمشق القريبة من الكسوة تحركت. وهنا نترك الحديث للمؤرخ سليمان الموسى ليصف بقية الأحداث فقال[٦]:

«جهزت السلطة الفرنسية حملة عسكرية لإخضاع حوران. وفي أواخر شهر آب/ أغسطس زحفت الحملة فلاقاها المجاهدون في الكسوة جنوبي دمشق، ودارت معركة شديدة انتهت بتغلب الحملة فواصلت تقدمها، فصدها الثوار في «المسمية» فشقت طريقاً لها، فعادوا إلى قتالها في غباغب.. واشترك الأردنيون في المعركة عند قرية «نوى» حيث استعمل الفرنسيون مدافعهم لضرب خطوط الوطنيين، وقد قام الخيالة الأردنيون بالالتفاف حول خط الإفرنسيين وأبدوا شجاعة فائقة. واستمرت المعركة من الفجر حتى العصر. وقد حرص الزعيم أحمد مريود على إشراك الأردنيين بمحاربة الإفرنسيين لشعوره بالخطر على مصير الأردن ومن جهة أخرى رغب أن يكون الأردن قاعدة انطلاق لثورته وتعزيزاً للتلاحم النضالي بوجه الاستعمار الغربي وبعد المعركة عاد أهل شرقي الأردن عن طريق طفس ـ الرمثا ـ سوف».

وعن هذه المعركة، حدثني السيد عبد المجيد مصطفى الخليلي نقلاً

---

(٦) الماضي والموسى، المصدر نفسه، ص ٩٣ ـ ٩٤.

عن والده المجاهد مصطفى الخليلي فقال[7]:

«لم تكن الغلبة للفرنسيين كما قرأت في عدة كتب تناولت هذه الحادثة. لأن عدد القتلى منهم كان أكثر بكثير من عدد القتلى في الجانب العربي، كما أن عدد القوات الفرنسية تجاوزت الثلاثة آلاف، بينما القوات العربية كانت أقل من نصف هذا العدد، وأن القوات القادمة من الأردن هي التي كانت تحمل السلاح والمدافع بينما قواتنا نحن الحوارنة، كانت تحمل العصي والفؤوس والخناجر، وهذه الأدوات لن تفعل فعلها أمام ثلاثين مدفعاً ورشاشاً فرنسياً، وقد استفادت القوات الأردنية من سلاح الجيش العربي، كما أن قوات الزعيم أحمد مريود كانت جميعها مسلحة.. ويضيف الخليلي «لقد سمعت من والدي أن الزعيم المجاهد أحمد مريود أراد من هذه المعركة أن يضع قوات غورو أمام حقيقة واحدة هي أن الشعب العربي لن يسكت على الظلم. وأن استعمارهم لسوريا لن يكون سهلاً، وأن المقاومة ستبقى مستمرة حتى الاستقلال، ولن نسمح للفرنسيين أن يستريحوا في وطننا، فالظلم دائماً هو الذي يحرر الشعوب، عندما تقوم الشعوب بمحاربة الظلم».

وقال أبو مصطفى أيضاً:

«إن أحمد مريود كان يرمي من وراء إشراك الشعب الأردني في مجابهة القوات الفرنسية، شعوره بالخطر المحدق بالأردن من جراء الفراغ السياسي، وكانت لفترة من الزمن وهي لا تعرف مصيرها، هل هي منطقة مستقلة، أم منطقة خاضعة للانتداب البريطاني في فلسطين أم هي مقبلة على احتلال من قبل القوات الفرنسية باعتبارها القسم الجنوبي من سوريا وكانت تابعة لحكومة الملك فيصل؟؟ هذا بالإضافة إلى رغبة الزعيم المجاهد أحمد مريود أن تكون منطقة الأردن قاعدة ارتكاز للثورات التي

(٧) مقابلة تمت مع الخليلي في مكتبه بإربد، وقد وعدني بتسجيل ذكرياته على أشرطة، ويتمتع الرجل بذاكرة قوية، ويعرف عن طريق والده كل صغيرة وكبيرة.

ستشعلها مناطق جنوب سوريا وحتى حماه والساحل في المستقبل، وأن يتعود الشعب الأردني ـ الذي لم يشارك بمعارك ضد قوات الاستعمار الغربي بعد ثورة كايد المفلح ـ على محاربة من يفكر النيل من حريته، علماً أن هذا الشعب كان يرغب المشاركة في معركة ميسلون ولم يتمكن من ذلك[٨] ومع كل النتائج التي تمخضت عن الثورة في حوران، إلاّ أنها ستبقى صفحة ناصعة في التاريخ النضالي العربي، أكّد فيها أهل الأردن صدقهم في شرف الانتماء العربي، القومي والوطني».

(٨) بعد أن فشلت جميع المحاولات السلمية مع الإفرنسيين، تنادى الأردنيون للاشتراك مع القوات المسلحة العربية السورية في صدّ العدوان عن دمشق. زحفت قوة كبيرة من عشائر الأردن بزعامة سلطان العدوان وعندما بلغت في سيرها قرية «المزيريب» علمت بما حدث في ميسلون وبانهيار القوة الدفاعية في البلاد فعاد رجالها إلى مضاربهم وقراهم. وعلى أثر احتلال الفرنسيين لدمشق أصدروا أحكاماً بالاعدام على عدد كبير بينهم من أهل الأردن وفلسطين السادة: علي خلقي، وسليم عبد الرحمن، وعبد الهادي، ورفيق التميمي من فلسطين.
(سليمان الموسى ومنيب الماضي، المصدر نفسه، ص ٩٢)..

٣

أحمد مريود ومعاهدة أم قيس

أراد أحمد مريود وضع المعاهدة بصيغة تسهّل تحرير سوريا عبر الخطوة التوحيدية، فبالرغم من بلاغات حكومة الدروبي التي تشير إلى أن الأردن ضمن دائرة السلطة الفرنسية في سوريا، ومعرفة سلطة الانتداب في دمشق بمشاركة أهالي الأردن بالثورة في حوران، لم يتقدم الإفرنسيون نحو منطقة شرقي الأردن، كما أن الإنكليز لم يتعجلوا الأحداث بعد إعلان انتدابهم على المنطقة، فقد كانوا منهمكين في إنشاء إدارة مدنية في فلسطين، ثم إنهم كانوا يترقبون وضع فرنسا الجديد في سوريا الداخلية، وأخيراً قررت الحكومة البريطانية بسط سلطتها غير المباشرة أولاً ثم المباشرة بعد أن حلّت مشكلة الملك فيصل بترشيحه ملكاً على العراق بدلاً من شقيقه الأمير عبد الله.. وأول خطوة اتخذتها بريطانيا كانت البرقية السرية التي أرسلها «هربرت صموئيل» المندوب السامي البريطاني في فلسطين إلى الملك فيصل، وخاطبه فيها بلقب «صاحب السمو الملكي» وليس بلقب «صاحب الجلالة». وقد تضمنت الرسالة السرية ـ الموقعة يوم ١٦ آب/ أغسطس ١٩٢٠ ـ النقاط التالية:

١ - امتداد الإدارة البريطانية إلى شرقي الأردن، (ولما كان الاتفاق المعقود - من زمن بعيد - بين الحكومتين البريطانية والفرنسية يقضي بأن تكون البلاد الواقعة جنوبي خط سايكس - بيكو ضمن منطقة النفوذ البريطاني لا الفرنسي)..

٢ - تُشكّل حكومات محلية عشائرية من زعماء ووجهاء النواحي الأردنية كمرحلة أولى، ويشرف على هذه الحكومات المناطقية الضيّقة الضباط الإنكليز. (فالحكومة البريطانية تميل في هذه الحالة إلى تعيين عدد قليل من الضباط لمساعدة أهل شرقي الأردن على تنظيم حكوماتهم).

٣ - بعد ضياع الحلم العربي وبسقوط الحكومة العربية، بعد حوادث دمشق، شعر بعض مشايخ الأردن بالخوف من الخلافات والمنازعات بين القبائل الأردنية فلجأوا إلى المندوب السامي البريطاني لربط الأردن بالإدارة البريطانية ومساعدتهم على حلّ مشاكلهم والتي من الممكن أن تساعدهم أيضاً على تنظيم الإدارة والحكم (نريد تأسيس إدارة منفردة تساعدكم على حكم أنفسكم)[1].

على أرضية هذه الرسالة عقد المندوب السامي اجتماعه الأول في مدينة السلط، ولم يشارك فيه وجهاء الشمال الأردني (إربد - عجلون) لأسباب كثيرة، منها الخصومات العشائرية بينهم وبين بعض عشائر البلقاء[2] ولذلك تمّ الاتفاق أن يجتمعوا يوم ٢ أيلول/

(١) من نص كلمة صموئيل في اجتماع السلط يوم ٢١ آب/أغسطس ١٩٢٠.
(٢) راجع كتابنا: الأردن في التاريخ، الجزء الأول، ص ١٨٨ - ٢٠٠.

سبتمبر ١٩٢٠ في قرية «أم قيس»[٣] للتباحث في علاقة منطقتهم ببريطانيا.. وقد حضر الاجتماع عدد من الزعماء والشيوخ منهم: أحمد مريود، علي خلقي، تركي الكايد العبيدات، قويدر السليمان العبيدات، محمد الحمود، سالم الهنداوي، عبد الرحمن الرشيدات، ناجي العزام، سليمان السودي، محمد السعد، مصطفى حجازي، محمود الفنيش، سعد العلي[٤] ونتيجة للمباحثات التي جرت آنذاك مع المعتمد البريطاني السياسي الميجر «سمرست» اقترح الزعيم الوطني أحمد مريود أن تقدم عريضة خطية إلى المندوب السامي البريطاني، يُذكر فيها أهم المطالب الأساسية التي تضمن تشكيل حكومة عربية مستقلة، مع التأكيد على الرد الفوري على المطالب، من قبل الحكومة الانتدابية في فلسطين، للتأكد من حسن النوايا تجاه القضايا المطلبية العربية، وقد عرفت مطالب الأهلين وجواب الميجر سمرست عليها «بمعاهدة أم قيس». ونظراً لأهمية بعض المطالب، وجدنا الاستفادة في ذكرها، لأنها تحدد حقيقة الموقف السياسي لزعماء الشمال الأردني أولاً، وتبيان الأهداف المستقبلية التي كانت في ذاكرة الزعيم الوطني أحمد مريود، إذا تحققت هذه المطالب ثانياً[٥].

---

(٣) أم قيس: قرية صغيرة تقع في الشمال الأردني، وتطل على بحيرة طبريا، وكانت في عهد الانتداب البريطاني المقر الرئيسي لاجتماعات الميجر سمرست مع أهل الشمال الأردني لقربها من طبريا مكان إقامة نائب المندوب السامي، واسم «أم قيس» في العهد الروماني كان «جدارا» إحدى مدن الديكابوليس.

(٤) الماضي والموس، المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(٥) ذكر لي الشيخ تركي الكايد، أن أهداف أحمد مريود من وراء مشاركته بالاجتماع أن تُشكّل حكومة وطنية تأخذ على عاتقها تحرير سوريا من الاحتلال الفرنسي لذلك ركّز على أن تكون مناطق حوران والجولان ومناطق لبنانية تابعة للحكومة الجديدة وعندما رفضت بريطانيا هذه المطالب رفض الاشتراك في حكومة إربد المحلية..

فالمطلب الأساسي «نقبل بأن تتشكل الآن حكومة عربية وطنية مستقلة مركبة من لوائي الكرك والسلط وقضائي عجلون وجرش، ونطلب بشدة وإلحاح تشبث الحكومة البريطانية بضم لواء حوران وقضاء القنيطرة إلى هذه الحكومة، ونتمنى أن يتبعها قضائي مرجعيون وصور تحت إنتداب دولة بريطانيا العظمى» ولكي تكون هذه الحكومة تحت الانتداب البريطاني، على الحكومة البريطانية أن تقبل بالشروط التالية:

أولاً: أن يكون لهذه الحكومة أمير عربي ـ الشرط م.

ثانياً: أن لا يكون لهذه الحكومة أدنى علاقة بحكومة فلسطين ـ الشرط ج ـ وكان الهدف من وراء ذلك أن لا تكون مناطق هذه الحكومة ضمن دائرة وعد بلفور.

ثالثاً: أن تمنع المهاجرة الصهيونية بتاتاً إلى داخلية هذه الحكومة ويمنع بيع الأراضي إليهم ـ الشرط ء.

لأن الحركة الصهيونية كانت تنادي منذ مؤتمرها التأسيسي الأول بوحدة أراضي (الكيان والعبور) أي فلسطين والأردن[٦].

رابعاً: أن يكون لهذه الحكومة جيش وطني ـ ولها الحق بزيادة عدد هذا الجيش إذا رأت خطراً خارجياً يهدد البلاد ـ الشرط هـ.

خامساً: إعفاء المناضلين السياسيين في داخل هذه المنطقة، وعدم تسليم أي مناضل سياسي كان يلتجيء إليها وكذلك

(٦) محمود عبيدات، **الاستراتيجية الصهيونية تجاه الأردن**، مخطوط، الجزء الخامس من سلسلة كتاب، **الأردن في التاريخ**.

«الجرائم» السياسية الناتجة من أسباب سياسية ـ الشرط ز[(٧)].

وقد وضع هذا الشرط لحماية رجال المقاومة من أحرار سوريا وضمان عدم تسليمهم إلى سلطات الانتداب الفرنسي.

سادساً: يكون شعار هذه الحكومة الآن العلم السوري ذا النجمة ـ الشرط ي ـ وهذا يدل على تعلق الزعيم أحمد مريود بأول علم عربي يرتفع في سماء دمشق وبقية مدن بلاد الشام التي كانت تابعة للحكومة العربية في دمشق.

سابعاً: نكرر طلبنا بأن تكون حكومة بريطانيا العظمى منتدبة على حكومة عموم سوريا تأميناً لوحدة... ـ الشرط ل.

وبلغ عدد الشروط ١٦ شرطاً. وقد اكتفت الحكومة البريطانية بتقديم نصيحة «بعدم جدوى مقاومة الفرنسيين، والتركيز على تشكيل حكومة خاصة بهم بدلاً من الدخول في معركة خاسرة»[(٨)].

وقد شكلت الحكومة المحلية يوم ٥ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٢٠ من الوجهاء علي خلقي، راشد الخزاعي، سعد العلي، سليمان السودي، ناجي العزام، تركي الكايد العبيدات، نجيب فركوح.. واعتذر الزعيم الوطني أحمد مريود عن الاشتراك في هذه الحكومة، وذلك من أجل التفرغ السياسي في حزب الاستقلال، والتفرغ الكفاحي وتهيئة وتنظيم المقاومة ضد الانتداب الفرنسي..

(٧) كانت صفة «مجرم سياسي» تتردد بشكل عادي حتى عند المجاهدين.
(٨) من نص الكلمة التي ألقاها سمرست في لقاء «أم قيس» مع وجهاء لواء عجلون.

وقد واجهت حكومة قضاء عجلون الوطنية صعوبات شتى منذ بدء تأسيسها ولم تستطع السيطرة في يوم من الأيام على كل المنطقة المعروفة بلواء عجلون، وتتلخص مصاعب هذه الحكومة في انشقاق بعض النواحي عنها وتأليفها حكومات خاصة بها منفصلة عن الإدارة المركزية[٩] في إربد، مثل حكومة دير يوسف، وحكومة ناحية عجلون، وحكومة جرش وحكومة ناحية الوسطية، وحكومة ناحية الرمثا، هذا بالإضافة إلى رفض زعماء السلط والكرك بالانضمام إلى هذه الحكومة لتكون حكومة مركزية واحدة تشمل كل الأراضي الأردنية[١٠]، وقد حكم الزعيم أحمد مريود على هذه الحكومات بالفشل، وأنها بالأساس فكرة استعمارية لتزيد من التجزئة الوطنية، وأبعاد الناس عن مقاومة الفكر الانتدابي[١١].

(٩) الماضي والحوس، المصدر نفسه، ص ١١١.

(١٠) لم يكن عدد سكان شرقي الأردن وقتذاك يزيد عن النصف مليون نسمة، وكان عدد الحكومات يزيد عن الثمان حكومات، علماً أن البدو كانوا يتمتعون باستقلال ذاتي، ورفضوا الانصياع لزعماء تلك الحكومات.

(١١) يلاحظ من صيغة المطالب أن حوران كانت حينذاك في ثورة ضد الإفرنسيين، وتعمل على مقاومتهم بالتعاون مع سكان شرقي الأردن.. ومما يذكر بشأن هذه المعاهدة أن عدداً من الوطنيين كان يعتبرها أفضل من المعاهدة التي فرضها الإنكليز على شرقي الأردن عام ١٩٢٨. (أنظر الماضي والحوس، حواشي صفحة ١٠٩).

٤

أحمد مريود والهم الوطني

كانت الزوية: تتبع إدارياً درعا، فأولى الزعيم هذه المنطقة من اهتماماته الشيء الكثير، وتبنى الثورة، حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأمن همّه الوطني.

وبعث بالمجاهدين والسلاح من قاعدته في الأردن، واستمرت اللقاءات بينه وبين قادتهم، كما أن الرسائل والتقارير لم تنقطع، وكانت هذه الرسائل توضح حقيقة الأعمال التي يقوم بها الثوار من جهة، كما تصف الإرهاب والقمع من قبل الدوريات الفرنسية ضد أهالي القرى من جهة ثانية.. وكان الزعيم مريود يضع زعماء شرق الأردن في صورة الأحداث في الجولان والزوية وحوران، ويطلعهم على التقارير التي تصله من ساحة الأحداث، فكان يرى في هذه الثورة الأمل الوطني القادر على تحريك الجماهير في بقية المناطق، والقدرة الفعلية التي تحدّ من ممارسات الإرهاب والقمع الفرنسيين.. فمن أجل ذلك، ولتوظيف القدرات العسكرية ـ المتواضعة ـ عند حكومة إربد المحلية، لصالح الثورة في المناطق الحدودية، عقد اجتماعاً مع أعضاء حكومة إربد المحلية يوم ١٧

أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠، وطلب منهم أن يكونوا عند مستوى المسؤولية الوطنية. وذلك من خلال:

- العمل على تشكيل جيش وطني من الأهالي، والاستفادة من ضباط الجيش العربي الذين لزموا منازلهم بعد سقوط الحكم الوطني.
- الأخذ بعين الاعتبار أن منطقة حوران وحسب المطالب التي رفعت إلى الميجر سمرست، هي تابعة لحكومتكم، وأن أهلها وفق هذا الفهم هم من رعايا حكومتكم أيضاً. وهذا بالطبع يلزمكم تقديم كافة وسائل الدعم البشري والمادي والعسكري لاستمرارية الثورة في الجولان والزوية وحوران، مع النظر أنها منطقة محتلة من قبل الجيش الفرنسي يتوجب العمل على تحريرها.
- إن استقبال الأحرار من سوريا الداخلية، وإيواء الفارين من الظلم والإرهاب والقتل إلى شرقي الأردن، مسؤولية وطنية وقومية، ومهمة نضالية يجب أن يكون لكم السبق في تنفيذها، وعليكم الاستفادة من خبراتهم في الإدارة، والأمن، والجيش.
- إن انتشار ظاهرة «الأشقياء وقطاع الطرق» في البلاد، تعود أولاً إلى فقدان الأمن والاستقرار، وإلى انتشار الأسلحة وامتلاكها من قبل هؤلاء الأشقياء، لذا يتوجب عليكم تحقيق الأمن، وجمع هذه الأسلحة لوضعها بتصرف رجال المقاومة الذين يتصدون للدوريات الفرنسية بالعصي والحجارة في أكثر القرى في الزوية والجولان ودرعا.
- مخاطبة الوجيه سعيد خير، رئيس بلدية عمان، بأن يستولي

على أسلحة الكتيبة العربية الموجودة في عمان منذ العهد الفيصلي، والتابعة إلى قيادة الفرقة الثانية ومركزها درعا قبل شحنها إلى ثكنات الجيش الفرنسي، وذلك من أجل تسليح قواتكم المنوي تشكيلها، وإرسال الزائد منها إلى حوران ثم تبوأ مهمتنا عندما يتم لكم ذلك(١).

وللحقيقة نقول إن حكومة إربد المحلية، قد تجاوبت تجاوباً كاملاً مع توجيهات الزعيم الوطني أحمد مريود، وأخذت تعمل على تنفيذها حسب المستطاع، فكلفت محمود أبو راس (الروسان) قائد الدرك بمسؤولية الإشراف على المجاهدين بتأمين سلامة وصولهم إلى إربد، وتأمين اجتيازهم نهر الشريعة بعد تزويدهم بالسلاح والذخيرة، كما قام سامح الحجازي مدير المخابرات بتعريف المجاهدين على الطرق الآمنة والسالكة وزودهم بالمعلومات عن النقاط الضعيفة التي تمرّ منها الدوريات البريطانية من اتجاه الأردن وفلسطين، والدوريات الفرنسية من اتجاه الزوية وفيق وبعض القرى الحدودية.. كما أقرّت هذه الحكومة في اجتماع لها يوم ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠ النقاط التالية:

---

(١) بعد فترة قليلة من الزمن، حدث ما كان يفكر به الزعيم الوطني أحمد مريود، فجاءت الأوامر من قيادة الفرقة في درعا إلى قائد كتيبة عمان بأن يسرح جنود كتيبته ويتسلم أسلحتهم ويقوم بإرسالها إلى درعا، وأرسل الفرنسيون قطاراً إلى عمان كي ينقل ما فيها من أسلحة وأعتدة عائدة للجيش، وكانت الصدفة أن أحمد مريود، ونبيه العظمة، ومثقال الفايز، وتركي العبيدات، كانوا بزيارة للسيد سعيد خير في مبنى البلدية حيث وصلتهم مغلومات بأن قائد الكتيبة سيرحل إلى درعا مع الأسلحة وبقية المعدات العسكرية، فلم يمكنوا قائد الكتيبة من تنفيذ رغبات الفرنسيين، واتفقوا مع سائق القطار توفيق المتوالي أن لا يعود إلى درعا بل يجعل قطاره وسيلة للمواصلات بين عمان ومعان، وسُمح لقائد الكتيبة مغادرة عمان إلى درعا لوحده.
(من أوراق تركي الكايد.. أنظر كتابنا، الأردن في التاريخ، الجزء الأول، ص ٢١٣ .. وانظر: الماضي والحوس، ص ١٢٧).

- معاملة لواء حوران وقضاء القنيطرة بمثل ما تعامل المناطق الأردنية الأخرى.
- عقد لقاءات دورية لزعماء ومشايخ المنطقة.
- فتح الأبواب مشرعة للمناظلين الملاحقين سياسياً من قبل الاستعمار الفرنسي. وعدم السماح للقوات البريطانية بالتدخل في شؤونهم وإحباط كل محاولة من قبلها إذا ما حاولت تسليم هؤلاء المناضلين إلى السلطات الفرنسية في دمشق.
- عدم إجراء أي اتصال مع اليهود، والوقوف بصلابة بوجه التفكير الصهيوني في شراء الأراضي العربية أو تأجيرها.
- تشكيل قوات عربية مقاتلة تحشد بكاملها عند منطقة الرمثا ونهر اليرموك لمقاتلة الجيش الفرنسي، وتقديم كل وسائل الدعم الممكنة للأهل في حوران والجولان، والتي تمكنهم من الصمود والثبات أمام القوى الفرنسية الاستعمارية.
- السماح للأهل في الجولان وحوران بالانخراط في سلك الجيش والدرك والجمارك اعتباراً من تاريخه، وتكليف قائد الدرك ومدير المخابرات وبالتعاون مع الضابط فؤاد سليم لتنفيذ هذا الأمر(٢).

لو أمعنا النظر بتلك القرارات لوجدنا بصمات الزعيم أحمد مريود على كل بند فيها، وهذا يدل على مستوى الثقة المتبادلة بينه وبين الزعماء في الشمال الأردني. فالرجل الغيور كان يحمل أكثر من هم وطني، كانت عيناه وبصيرته على حوران بمعناها الجغرافي

(٢) من أوراق تركي الكايد، (راجع كتابنا: الأردن في ال تاريخ، ص ١٩٠).

والسياسي الواسع من إربد إلى أقصى الجولان، وكان قلبه يخفق قلقاً وخوفاً على شرقي الأردن، غير المعروفة المصير والمستقبل السياسي، حيث كانت تعيش في الفراغ السياسي منذ سقوط الحكومة العربية دمشق، فرسالته إلى رئيس حكومة إربد المحلية، تعبّر عن ذاك الإحساس والشعور بالخطر، وجاء في رسالته المؤرخة يوم ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٠ ما يلي:

«أكتب إليكم من قرية «كفرنجة» من دار راشد الخزاعي، وغداً نستأنف السير إلى السلط. لا بد أنك تعرف جمال هذه البلاد الطبيعي الفتّان، فاستمت في خدمتها.. حرام والله أن تسقط في أيدي أبناء صهيون. لا شك أنك تعرف أنها أجمل من لبنان فاستبسل في الدفاع عنها.. أرجوك أن تكتب لعثمان قاسم واخبره عن روح الحياة الكامنة في البلاد، وأنها إذا سقتها ريح الجنوب بأمطارها عاشت وانتعشت. وكلّفه أن يكتب لمصر ومصر تكتب لمكة، بالهمة والسرعة، للاستفادة من نسمة الحياة التي تتردد حتى الآن في صدور الحورانيين قبل أن يُقضى عليها. أوصل كتابي للأمير محمود الفاعور، وللعم أسعد أفندي»[٣].

كان هذا الهم الوطني والقومي يفرض عليه أن يبقى في حالة السفر والتنقل الدائمين، من شمال الأردن إلى وسطه، ومن أغواره إلى أقصى جنوبه، وذلك من أجل تأمين وسائل الدعم إلى المجاهدين الثوار، حتى يوم الجمعة كان يلتقي فيه بوجهاء منطقة السرو في منزل صديقه سليمان السودي عضو المؤتمر السوري، إلى جانب لقائه مع الموفدين من الجولان وحوران. وكان يخصص يوم

(٣) سليمان الموسى، صور من البطولة، ص ١٢٠. وقد أورد الموسى في كتابه النص الحرفي لست رسائل أرسلها القائد المجاهد أحمد مريود إلى رئيس حكومة إربد علي خلقي، ولم أتمكن من الحصول على أصل الرسائل بخط اليد، ويبدو أنها لدى المؤرخ، الموسى كما ذكر لي أحد أحفاد علي خلقي.

الجمعة من كل أسبوع لزيارة سما الروسان ليلتقي بقائد الدرك محمود أبو راس «الروسان» حيث كان يزورها كل يوم جمعة، وذلك من أجل متابعة أعمال الإشراف التي يقوم بها «الروسان» لمصلحة المجاهدين، ويزيد من حثه على متابعة أخبار الساحات المشتعلة بالثورة ضد القوات الفرنسية..

كما أن متابعة أخبار الثورة لم تلهه عن متابعة أخبار الموفدين من قبل الشريف حسين في مكة، أو الأمير عبد الله في تبوك ومن بعدها معان، ففي يوم ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٠، ذهب من السلط إلى عمان ليلتقي بالشريف محمد علي البدوي، وفهم منه أن «القوات العربية ستصل إلى معان غداً ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر» وفي اليوم نفسه سافر من عمان إلى معان، وكان بصحبته مجموعة من الأصدقاء، وقد أعلم حكومة إربد بذلك فقال في رسالته:

«واليوم قبل وصولي لعمان تواجه الأخ فؤاد سليم مع مثقال الفايز، وحديثة الخريشة في عمان، وقرر وإياهم أن نتوجه سوية إلى معان، وذهبا هما لأهليهما ينتظراننا، والساعة وصلت لعمان فأخبرني فؤاد، وها نحن ذاهبون متوكلون على الله فاستعدوا لعودتنا».

في معان ـ كانت وقتذاك تابعة للحكومة الحجازية فلم تضم بعد إلى الأردن ـ التقى مريود وجماعته بالأمير عبد الله، فوضعه في صورة الأحداث التي تجري في سوريا الداخلية، وفي حوران والجولان، حيث الثورة مستمرة، وهي بانتظار وصول قوات وعند عودته إلى عمان، بعث برسالة إلى رئيس حكومة إربد المحلية مؤرخة يوم ١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٠ قال فيها:

«تبلغ الشريف علي الحارثي في عمان من المعتمد البريطاني فيها

أن بريطانيا والملك فيصل وفرنسا على وشك إتمام المفاوضة بشأن القضية السورية. والمفاوضة سائرة سيراً حسناً. فطلبت منه التفصيل فقال إنه لم يكن عنده تفاصيل أكثر من هذا. خابرت متصرف السلط تلفونياً فأخبرني أن أساس المفاوضة على وحدة سوريا وملكها فيصل وداخلة فيها فلسطين، على أن يكون لليهود حق الهجرة إليها وليس لهم فيها حق الحكم، وأخبرني أنه جاءت برقية من الملك فيصل للقدس وأنها أرسلت مع صبحي الخضرا للأمير عبدالله. هذا ما أخبرني به مظهر الرسلان (متصرف السلط)... أما حالتنا الداخلية: فالأمير حازم وإن كان يعتمد على صداقة بريطانيا وله فيها ثقة تامة، لكنه لا يعتمد على صدق فرنسا.. ولذا فهو يُعدُّ لتخليص البلاد عدتها ويستعد للحرب على رأي قول القائل الاستعداد للحرب يمنع الحرب».

كان أحمد مريود بحق الزعيم الوطني والرائد المتقدم في الحركة العربية الثورية، وهكذا كان ينطلق بأفكاره الوطنية والقومية بكل تصرفاته، ويدعو إلى تعزيز مفهوم الفكر العربي القومي «عند الشباب والمتنورين من أبناء الشعب العربي» فيقول:

«لا يمكننا أبداً السكوت إذا خدعنا هذه المرة، لأنه كما هو معلوم... فإن حركتنا هذه إذا لم تنجح ستتحول أفكار العامة إلى التركية، وعندئذٍ القضاء المبرم على الفكرة العربية.. فنحن إذن مجبورون على أن لا نزيل ثقة الأهلين من حركتنا العربية وأن لا ندعهم يعتقدون أنها ماتت، ولو أدى ذلك إلى سوء التفاهم مع البريطانيين، إذاً المسألة فيها موت أبدي لنا.. والخلاصة للإنكليز رأيهم ولنا حق الاحتفاظ بحقوقنا. ولا يمكننا أن نتساهل بحياتنا فنقضي عليها»[٤].

في هذه الفترة اضطرب الإفرنسيون وخشوا من تعاون سكان شرقي الأردن وأهل الزوية والجولان ودرعا وحوران، فسارعوا

(٤) من رسالة بعثها أحمد مريود إلى رئيس حكومة إربد المحلية.

لتقوية مراكزهم الدفاعية في جبل العرب وكاتبوا حليفتهم بريطانيا للعمل على مقاومة تحركات الشعب في شرق الأردن وإيقافها عند حدها[٥].

ونتج عن اتصالات الحكومتين أن اللورد «كورزون» وزير خارجية بريطانيا استدعى الأمير فيصل في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠ وأبلغه «أن الحكومة البريطانية تنظر بعين الاستياء إلى الحوادث التي تقع في شرقي الأردن»[٦] وطلب إليه أن يرسل برقية بهذا المعنى إلى والده وأخيه. وكان من جملة مساعي فيصل (السلمية) وصول صبحي الخضرا إلى السلط لنقل وجهة نظر فيصل للأهلين، ثم مواصلة السفر إلى معان لهذه الغاية[٧].

هذا الموقف البريطاني والذي اتخذ نتيجة التفاهم الاستراتيجي القائم مع الشريكة فرنسا، أضعف المقاومة العربية وشجع السلطات الفرنسية على ممارسة القمع والإرهاب ضد القرى التابعة للزوية والجولان، بقصد إخماد أو إضعاف عمليات المقاومة المسلحة فقامت السلطات الفرنسية بأعمال استفزازية في عدد من القرى، فقد أشار أحد التقارير التي كانت تصل تباعاً إلى الزعيم الوطني أحمد مريود[٨] أن سريّة مكونة من مائة جندي فرنسي قامت بعرض عضلات جنودها في قرية الشجرة لمدة ساعة واحدة، ثم انسحبت إلى قرية القصير حيث تمركزوا قبالة خط سكة الحديد، ثم عادوا إلى قرية الشجرة في اليوم الثاني، وداهموا المنازل وروّعوا أصحابها واستولوا على أسلحة الأهالي، وألقوا القبض على

(٥) الماضي والحوس، المصدر نفسه، ص ١٣٧.
(٦) الأمالي السياسية، الملك عبد الله بن الحسين، ص ٥٠.
(٧) الماضي والحوس، المصدر نفسه، ص ١٣٧.
(٨) أنظر صورة عن التقرير بخط يد مرحسله في آخر صفحات الكتاب.

المواطنين: محمد أبو سعيفان، محمد الجاعوني، عوض الأحمد، قاسم الجاعوني، ومحيي الدين الخطيب، ونقلوهم إلى قرية القصير للتحقيق معهم من قبل قائد السرية الفرنسية، وبعد ممارسات التعذيب والإرهاب من جهة والترغيب من جهة ثانية، انتزعوا منهم اعترافات بحق مجموعة من الأهالي وفي مقدمتهم الآخوين محمد وكايد... وفي اليوم التالي جاءت دورية من الفرنسان وألقت القبض على محمد (كاتب هذا التقرير) وشقيقه كايد، فأفرجوا عن الأول وقادوا الثاني إلى قرية «تسيل» ووجهوا إليه التهم التالية:

- إظهار العداء العلني لسلطات الانتداب، والخروج على القانون.
- حيازة الأسلحة غير المرخصة رسمياً من السلطات الأمنية.
- التعاون مع رجال «العصابات»، وإيواء الفارين من وجه العدالة.
- توجيه رسائل وتقارير إلى أحمد مريود (مكاتبة أحمد مريود).
- مكاتبة الأمير عبد الله، بقصد محاربة سلطات الانتداب.

ويشير التقرير أن وجهاء من قرية «تسيل» جاءوا للتوسط للمناضل المعتقل «كايد»... فرفضت وساطتهم، بل وألقوا القبض على السيدين مطلق المزيب ومختار الزين بتهمة العمل مع المجاهدين، وذلك بناء على وشاية من قبل المدعو محمد عبد الرحمن الزين، من قرية «سحم». ويذكر صاحب التقرير «وألقوا القبض على الأخ كايد من بعد ما عذبوه بالنيشان (النطاق) والضرب... شيئاً يغضب وجه الله لحتى أن يعطيهم إفادة. لم أفادهم بشيء فأخذوه

معهم إلى قريت (قرية) تسيل فحضر لعندهم مطلق المذيب فحكا لهم بمسئلة (بمسألة) الأخ فألقوا القبض عليه وعلى مختار الزين، حيث تحقق لنا أنه معطي عليهم إخبارية محمد بن عبد الرحمن الزين من قريت (قرية) سحم أنهم شريكين لنا في العمل فأخذوا الجميع إلى درعا ومن درعا إلى الشام»[٩].

بعد أيام قليلة من تلك الحوادث، تسرب الخوف إلى ذهن المدعو قاسم الجاعوني وزعم أنه معرض للانتقام من المجاهدين فتوجه بعريضة إلى الفرنسيين وقّع عليها أيضاً محمد أبو سعيفان ومحمد الجاعوني، وعوض الأحمد ومحيي الدين الخطيب، يطلب منهم الحماية، وتأمين حياته وحياة رفاقه من الموت، فأسرعت سلطات الأمن الفرنسية بتلبية الطلب «وحضرت القوة السابقة ومعهم مائة خيال.. وعند وصولهم الشجرة أحرقوا دارنا (دار كاتب التقرير) بعد نهبها، وتوجهوا في اليوم الثاني إلى الزوية الغربية ولم يعارضهم أحد، فأحرقوا دار عكاش، ودار طالب الشرع ودار علي المحمد، وكل منسوب لنا ولهم»[١٠].

ويذكر التقرير المرسل إلى الزعيم الوطني أحمد مريود، أن القوات الفرنسية تمارس الإرهاب والقتل ضد أهالي الزوية، وتلقي القبض على كل شخص يشتبه بنصرته للثورة، كما قامت بجمع الأسلحة التي بحوزة الأهالي، وطالب صاحب التقرير بإرسال الأسلحة والنجدات لمتابعة مسيرة الثورة، وأكّد أن الجسر الواقع جنوب قرية نصيب لم ينسف بل معطل.

---

(٩) نقل من النص الأصلي الوارد في التقرير ولم نتدخل إلاّ ما جاء بين قوسين.

(١٠) اسم كاتب التقرير محمد ولم أعرف باقي اسمه فالتوقيع يشير إلى أن اسمه محمد، انظر نص الرسالة في آخر الكتاب (الوثائق).

لقد تسلم الزعيم الوطني أحمد مريود هذا التقرير، وهو لا يصدق ما آلت إليه أحوال الناس في الزوية والجولان، وأخذ يتساءل:

هل وقفت الحكومة في إربد موقفاً محايداً وفي عدادها وطنيون ومن حزب الاستقلال؟ هل هناك مؤامرة على الحركة العربية بالإضافة إلي عملاء وعسكر فرنسا؟ فلم يجد أمامه إلاّ أن يبعث برسالتين، الأولى إلى رئيس حكومة إربد المحلية، والثانية إلى رئيس دركها القائد محمود الروسان.

جاء في الرسالة الأولى والمؤرخة من عمان يوم ٥ آذار/ مارس ١٩٢١ ما يلي:

«وردتنا أخبار عن حادثة الزوية وعن النتيجة المشؤومة التي ستؤدي إليها.. أن القوة الفرنسية التي زحفت على الزوية لا يتجاوز عددها الأربعمائة عبداً، توغلت في أطراف الزوية. فأين همّتكم لو شجعت أهالي الزوية الغربية والمناضرة وأمديتهم بقسم من الكفارات (قرى العبيدات) سرّاً ونشّطت النعيم على مهاجمتهم ليلاً، وسمحت لهم بشيء من العتاد، أو بتشجيع يبرهن لهم أنك معهم لقضوا عليهم. أرى أن تعطي أمراً قاطعاً لخلف أفندي التل[١١] وأن تساعده أيضاً بالإيعاز إلى المشايخ على مساعدته، وترتب لهم خطة لمهاجمة الإفرنسيين وتأمره بتنفيذها، وإذا لم تمكن المهاجمة فليستعد أهالي الزوية الغربية للمدافعة، وليستعد جوارهم لمسادتهم ريثما تصل النجدة، فإن عربان البلقاء يعدون نجدة لمساندتهم. وعلى كل أن صيانة أهالي الزوية وتثبيتهم ريثما تصلهم النجدة، إذا لم تجدوا لهم نجدة من عندكم، مطلوبة من همتكم، وهي مقدمة إلى مجيئك إلى هنا وعلى كل شيء. أنت وعدت أنك سوف تحافظ على الزوية

(١١) خلف التل، ضابط برتبة رئيس (نقيب) من مدينة إربد، ومن ضباط العهد الفيصلي.

والوعد على الحر دين. وإذا ماتت حركة الزوية فاعلم أنه سوف لا تقوم حركة بعدها إلاّ بجيش منظم.. وأنا باذل جهدي هنا لتسريع المدد لكم من بني صخر وسواهم من عرب البلقاء»[١٢].

أما الرسالة الثانية والمرسلة إلى مدير الدرك يوم ٦ آذار/مارس ١٩٢٠ فقد جاء فيها ما يلي:

«لا شك أنكم تقدرون أهمية نجاح حركة الزوية.. وبالعكس لا سمح الله الموت الأبدي من عدم نجاحها. ولا شك أنكم تعلمون أن النجاح متوقف على اجتماع كلمة أهالي الزوية والسكان الذين حولهم. وهذا يتوقف على تقوية معنوياتهم. إذ أن سرّ نجاح الحركة متوقف على تقوية معنويات القائمين بها، وهذا بإمكانك عمله وذلك بأن تمدهم بقسم من رجال السرو والكفارات ولو سراً[١٣] وبقليل من العتاد، أرجوك يا أخي محمود أن تشجع القوم وتمدهم وتثبتهم ريثما تصلهم النجدة».

---

(١٢) راجع نص الرسالتين في كتاب: **صور من البطولة**، سليمان موسى، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(١٣) في نهاية شهر كانون الأول، طلب الملك فيصل من حكومة إربد والأهالي في الشمال الأردني توقيف العمليات ضد القوات الفرنسية، ويبدو أن خلقي رئيس هذه الحكومة وقائد الدرك محمود الروسان قد التزما بذلك، من هنا كان طلب القائد مريود أن تكون الامدادات ولو بالسرّ.. والرسالة التالية التي بعثها صبحي الخضرا إلى خلقي تؤكد ذلك، وهذا نص الرسالة:

«فقد وصلتني تعليمات من جلالة الملك فيصل في لندن يأمرني فيها بعبور الأردن وتبليغ الزعماء والمشايخ والأصدقاء أن يمنعوا وقوع أية محاربة ويحافظوا على الأمن والسكينة والنظام. وقد أبرق جلالته لجلالة والده الملك في مكة يرجو منه توقيف أي حركة عدائية ضد أي دولة من دول الحلفاء في سوريا، لأن هكذا حركة تضر بمصالح الوطن وتعرقل مخابرات جلالته المقبلة في المسائل السياسية مع حكومة بريطانيا العظمى وبما أنني ذاهب الآن إلى معان لإيصال رسالة جلالته لسمو أخيه الأمير عبد الله فحضرتكم مفوضون في اتخاذ الاجراءات التي ترونها مناسبة في هذا الشأن إلى أن يمكنني الحضور لطرفكم».

(راجع نص الرسالة في كتاب: **الأردن في القرن العشرين**، المصدر نفسه، ص ١٣٧ - حواشي).

إن الزعيم أحمد مريود، عندما يخاطب رئيس الحكومة، وقائد دركه باللهجة والطريقة السالفة، من يكون هذا الرجل؟؟

أليس من حقه علينا أن نكتبه للتاريخ؟

أليس هذا الرجل الزعيم قمة في قمم النضال الوطني والقومي؟؟

نعم ... إنه الرجل الذي لا يهزه الريح.. فلا همّ عنده غير الهمّ الوطني والقومي.. وكان حلمه أن يرى ذلك المتعجرف الصليبي غورو، وقد نالته رصاصة الثأر والانتقام.. ولنقرأ الصفحات التالية:

٥

مهاجمة موكب الجنرال غورو

خلال ثوانٍ معدودات وسيارة الجنرال تنهب الأرض مسرعةً، اقتحم فرسان قائد الثورة أحمد مريود موكب غورو المدجج بحراسة مكثفة من خيالة الدرك يزرعون رصاصات الوطن الرافض للاستعمار في ذراع غورو.

قبعة بارنيت مرافقه العسكري تتدحرج على حافة الطريق وتأخذ طريقها إلى ابنة القائد العظيم يوسف العظمة.

غورو ... الجنرال الفرنسي المتعجرف، والصليبي الهوى والعقيدة، الاستعماري المتعطش لسفك الدماء.. نتذكره بالحقد والكراهية، عندما نتذكر ميسلون ويوسف العظمة، وجباثا الخشب وأحمد مريود.. فمن هو غورو؟

هو الجنرال الفرنسي الأكثر شهرة في فرنسا وفي الشرق أيضاً، وهو الأكثر حظاً لنجاته من الموت أكثر من مرتين، فاكتفى القدر ببتر ساعده في معارك الدردنيل في المرة الأولى، وبإصابته بإصابات غير خطيرة في طريق القنيطرة (موضوع البحث) للمرة الثانية..

كما تعرض للخطر في تشاد وموريتانيا والصحراء المغربية.. لقّب غورو «بخادم الوطن الفرنسي» فقد كان دائم الأسفار، الجندي المقاتل من أجل الفكر السياسي الاستعماري، فحارب في تشاد، ثم انتقل إلى موريتانيا، وهو أول من رفع العلم الفرنسي في الصحراء المغربية، وفي عام ١٩١٢، قمع الثورة الشعبية في فاس (المغرب). برز غورو كأكبر جنرالات فرنسا في بداية القرن العشرين، ولمع اسمه في الحرب العالمية الأولى، عندما تمّ اختياره قائداً عاماً لقوات فرنسا في الشرق، والتي قدمت من بورسعيد مصر، إلى حيفا في فلسطين، بعد سقوط الدولة العثمانية. لقد «ارتبط اسمه بحقبة من تاريخ سوريا أكثر مما ارتبط بها اسم أي أجنبي استعماري آخر. لا لأنه صاحب قرار الاحتلال الفرنسي لسوريا الداخلية بعد احتلال ساحلها كله فحسب، بل لأنه جزّأ سوريا وبمبادرة منه أقرته عليها حكومته في باريس. فجعلها ست دول»[1] لكن المحاولة فشلت في مهدها. ولم يلبث أن اختارته حكومته لمنصب المفوض السامي في سوريا ولبنان اعتباراً من ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٠، أي بعد احتلال العاصمة السورية دمشق بأربعة أشهر[2]. وبعد محاولة اغتياله بفترة قصيرة، قرر غورو تقديم استقالته وغادر سوريا إلى بلده وتوفي عام ١٩٤٦ ويصف الجنرال كاترو جنازة صديق عمره غورو بكلمات حزينة فيقول:

«بدا وكأن ستارة النسيان قد أسدلت على الذكرى المجيدة لهذا القائد العظيم الذي كان تفانيه في خدمة فرنسا أشبه بسيرة ملحمية. لقد ظلت ساحة الأنفاليد شبه مهجورة، وجماهير

---

(١) منذر الموصلي، دراسة بعنوان «صفحات وضاءة من تاريخ سوريا القومي والسياسي»، نشرت في جريدة الشرق الأوسط.

(٢) المصدر نفسه.

العاصمة لم تكن تتدافع، هي نفسها تلك الجماهير التي كانت تصفق بحماس لغورو وأسطورة غورو عندما كان حاكماً عسكرياً لباريس، يوم كان في احتفالات ١٤ تموز/ يوليو يتقدم قواته وهو يحمل بيده الواحدة التي تركها له العدو سيفه المنتصر.. لم يأت الباريسيون لإلقاء التحية على غورو. الزمن قد تغير. ومنذ العام ١٩٤٠ تحول الباريسيون عن الجنرالات لكي يكرموا زعماء آخرين»[٣].

هذا هو الجنرال غورو، الذي قرر الزعيم الوطني أحمد مريود، تأديب فرنسا الاستعمارية من خلال ضربه وأن يدفع من وراء هذه العملية حالة النهوض الوطني إلى مستوى الثورة العامة.. فكيف تمّ التخطيط لعملية الاغتيال؟؟

كان الزعيم المناضل أحمد مريود عضواً قيادياً بارزاً في حزب الاستقلال وكان يرى أن الوضع الخاص في شرقي الأردن، سيكون عظيم الفائدة لأحرار سوريا وذلك برسم استراتيجية سياسية قومية: إعادة تنظيم حزب الاستقلال، وخطة عسكرية بشنّ حرب استنزاف على القوات الفرنسية في سوريا انطلاقاً من الأردن، وممارسة العنف الثوري ضد القيادات العسكرية التي تصدر أوامرها لإخماد الانتفاضات الشعبية التي ما توقفت منذ فرض الانتداب على البلاد، وكانت هذه القيادات الفرنسية تتخوف من ظاهرة النشاط السرّي والعلني أحياناً، التي يديرها ويخطط لها الزعيم الوطني أحمد مريود، بهدف إحكام الضغط على المحتل وعدم تركه يستريح يوماً واحداً. وفي ظل المناخ

(٣) مهمتان في الشرق الأوسط، الجنرال كاترو، «مناقشة سمير عطا الله نشرت على حلقات في مجلة المستقبل، والمعلومات الواردة والتي سترد هي من الحلقة السابعة، العدد ٥٥٥ تاريخ ١٠/١٠/١٩٨٧».

السياسي الشعبي المتحمّس في الأردن. قرر الزعيم مريود قطع رأس الأفعى، وذلك باغتيال غورو، في أي مكان يمكن اصطياده فيه، فبدأت عملية رصد تحركاته ساعة بساعة من قبل العيون الساهرة والغيورة على حرية الوطن واستقلاله، لم يطل الانتظار، فجاء الخبر من القنيطرة بأن غورو سوف يتوجه اليها سائحاً عند الشركس أصدقاء بلاده وبأن الأمير محمود الفاعور سوف يقيم وليمة للجنرال غورو بطلب من غورو وحاشيته يوم ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٢١ في واسط بلدته ومقرّه وتأكد الخبر من رسول آخر قدم تفصيلات هامة، عن الزيارة من قبل المجاهد الحاج كامل العاصي من القنيطرة. عندها بدأ الزعيم مريود يرسم خطة الهجوم على موكب غورو، فجاءت على الشكل التالي:

أولاً: تشكل المجموعة الانتحارية من المجاهدين: محمد ضاهر من شبعا ـ العرقوب (جنوب لبنان)

محمود حسن من جباثا الخشب

أبو دياب الرازي من دمشق، حيّ ركن الدين (الأكراد)

شريف شاهين من جباثا الزيت

خليل مريود من جباثا الخشب

ثانياً: يكون خط سير المجموعة على الطرق والمناطق التالية كفرسوم ـ عقربا ـ نهر اليرموك ـ الزوية ـ جباثا الخشب ـ طرنجة ـ مفرق ماعص وهو موقع الكمين على الطريق المؤدية إلى القنيطرة على بعد ١٢ كيلومتراً تقريباً.

ثالثاً: يرتدي أفراد المجموعة اللباس العسكري المشابه تماماً للباس الذي يرتديه رجال الدرك السوري ويمتطون صهوة الخيول.

وكانت التعليمات تقضي بالانسحاب الفوري إلى شرقي الأردن بعد تنفيذ العملية مباشرة، وعدم اللجوء - قدر المستطاع - إلى منازل الأهلين خوفاً من ممارسة الإرهاب والتنكيل بهم وأن يتمّ سحب (من أرض المعركة) من تكتب له الشهادة من المجاهدين، أو من يصاب بجرح بليغ وفي هذه الحالة يمكن الاستعانة بالأهلين.

تحركت المجموعة الكفاحية المناضلة في الوقت المحدد لها من قرية كفرسوم، بعد وداعها من قبل أحمد مريود، وتركي العبيدات(٤)، ثم انتقل أحمد مريود إلى إربد مباشرة.

لقد تعددت الروايات حول الحادث وتفاصيله، ورواها أكثر من راوية، وكتب عنها أكثر من مؤرخ، على أن أدق وأصدق ما روي وكتب عنها، هو ما جاء في مذكرات الجنرال «كاترو» التي نشرها عام ١٩٥٤، تحت عنوان: «مهمتان في الشرق الأوسط».. يقول كاترو:

«كان غورو يحب كثيراً المجيء إلى دمشق. كان يحب جوها التاريخي، وكانت الإيحاءات الطالعة من حجارتها العتيقة توقظ فيه الرجل الرومانطيقي والعسكري معاً... كان غورو يتذوق عطر الشباب الخالد وعطر المخيلة الكبرى.. إن الرجل الذي دمّر ميسلون هو أيضاً ذلك الرجل الذي كان يقوم بدور الدليل

(٤) حدثني تركي باشا العبيدات عام ١٩٦٤ في مدينة التل وأن أمر اغتيال غورو كان بغاية السرية، وكنت الوحيد الذي يعرف بذلك، نظراً لأهمية العملية، كما أن العملية كانت من تفكير وتخطيط الصديق أبو حسين أحمد مريود وتحمل مسؤوليتها بالنجاح أو الفشل شخصياً، وأجزم القول أن لا الحكومة ولا قيادة حزب الاستقلال كانوا على علم مسبق بالعملية، وقد باركوها (لأن وحدة الأهداف القومية ومحاربة الاستعمار الإفرنسي والإنكليزي كانت في صلب مبادىء حزب الاستقلال وسياسات الحكومة) بعد وقوعها ونجاحها لأن مبادرات القيادات في الحزب أو الحكومة العربية كانت دوماً ملزمة لوحدة الهدف والمبدأ.

السياحي لأقاربه وأصدقائه كلما جاءوا إلى دمشق، ومن بين هؤلاء شقيقته ماري تيريز غورو.

غير أن إحدى هذه الجولات السياحية تحولت إلى مأساة، يوم حلّت في دمشق شقيقة غورو وإحدى بنات عمه.. وسألني غورو إلى أين يذهبون، فاقترحت عليه زيارة القنيطرة القريبة من دمشق».

ويتابع الجنرال كاترو الملقب «بملك دمشق» والصديق الشخصي والمعاون الموثوق للجنرال غورو، حديث الذكريات فيقول:

«كان من المستحيل الإبقاء على الزيارة سرية كما كنت آمل وذلك لأسباب تتعلق بأمن المفوض السامي نفسه. فقد كانت حياته مهددة دون شك من قبل أولئك الذين لجأوا إلى مناطق الانتداب البريطاني، وأقصد بذلك شرق الأردن. وقد كان الوطنيون السوريون، بزعامة متطرف يدعى أحمد مريود، يلاحقون تحركات غورو منتظرين المناسبة لاغتياله، والمعروف أن الطريق الواصلة بين دمشق والقنيطرة لم تكن بعيدة من مدينة إربد الأردنية، حيث كان يقطن مريود، أكثر من (٦٠) كيلومتراً. وفي ضوء ذلك كان يجب الحؤول دون مثل هذه المحاولة بإقامة حراسة مشددة على تلك الطريق. وهكذا أصدرت الأمر بأن يتولى الحراسة على طول الطريق رجال درك سوريون على أحصنتهم، يكون كل واحد منهم على مرأى من الآخر».

ويعلق الكاتب والباحث اللبناني سمير عطا الله على هذه الإجراءات ـ التي اتخذها كاترو لحماية الجنرال غورو من حادث اغتيال محتمل ومتوقع، كونه يعرف نوايا الزعيم المتطرف أحمد مريود ـ بقوله:

«لكن جميع الاحتياطات التي اتخذها كاترو لم تكن كافية. وسوف يكون في إمكان رجال مريود التسلل إلى صفوف الدرك

بشكل مذهل. كيف؟؟ وهل فعلوا ذلك بالتواطؤ مع الدرك، لا يقول لنا الجنرال، لكنه يروي في أي حال. أن غورو أراد أن يصطحب شقيقته وابنة عمه في سيارته فنصحه بألا يفعل».

والحديث هنا لكاترو:

«إنك يا سيدي الجنرال تقوم برحلة رسمية في بلد مسلم حيث لا تعطي التقاليد للنساء أكثر من دور بعيد. ومطلوب منك أكثر من غيرك ألاّ تتحدى مشاعر المواطنين، ولذا من الأفضل أن تستقل السيدات سيارة أخرى من سيارات الموكب».

قبل الجنرال غورو الاقتراح متردداً. وهكذا استقل سيارته المكشوفة ومعه فيها، إلى جانب السائق مترجمه عن العربية الكولونيل «بارنيت» وخلف السائق على كرسي صغير الجنرال كاترو، وفي المقعد الخلفي جلس حقي العظم حاكم دولة دمشق، وإلى يمينه جلس غورو.

وخلف سيارة غورو كانت هناك سيارة القائد العام للقوات العسكرية في دمشق ومساعد الأمين العام للمفوضية العليا، وفي نهاية الموكب كانت سيارة الآنسة غورو وقريبتها المدام لونغمار.

يقول كاترو:

«انطلق الموكب في سرعة تتقدمه سيارة الجنرال القوية. وكانت السماء مشعة. وفي الأفق بدا جبل الشيخ طاغياً، وكان رجال الدرك كل في مكانه.. وما أن تخطى الموكب الطريق السهلة وابتدأ يتخذ طريق الجبل حتى بدا أربعة من رجال الدرك بثياب مهلهلة وهم يحملون بنادق الموزر وقد هرعوا إلى المكان الذي يفترض أنهم يحتلونه.. وفكرت بمعاقبتهم فيما بعد على نوعية أطقمهم. لكن ما أن تخطى الموكب المنعطف الجبلي حتى فتح

الفرسان الأربعة النار يدعمهم شريك خامس كان مختبئاً وراء الصخور. وفي الطلقات الأولى أصيب الكولونيل بارنيت، الذي هبّ واقفاً، إصابة قاتلة وسقط على الطريق. وأصيب حقي بك العظم إصابة خفيفة(٥) أي غير مميتة، أما غورو فكانت حصته ثلاث رصاصات. وحين سمع الرصاص قال لي غورو بكل هدوء: إنهم يطلقون النار علينا من فوق فهل معنا رشاش؟ وكنت بردة فعل عفوية قد التقطت رشاشاً لكنني وجدته فارغاً. وكانت جيوبه في مكان ما من هذه السيارة التي لم آلفها كثيراً. وشعرت أن السرعة وحدها يمكن أن تنقذنا فصرخت في أذن السائق، أسرع يا بني أعطني الذخيرة، فدلّني إليها بإشارة منه، لكننا كنا قد ابتعدنا عن مرمى الاغتياليين ووصلنا إلى مركز درك حقيقيين، وهنا غيّرنا عجلة السيارة وتفقدناها فوجدنا فيها آثار (١٤) رصاصة فقال لي غورو: إنني مدين لك لأنك أنقذت حياة شقيقتي التي كان لا بد أن تجلس هنا. فأجبت سيدي الجنرال لقد أنقذت الآنسة غورو لكننا لا نعرف مصير بقية الموكب. وبارنيت قتل. وأنت نفسك نجوت بأعجوبة. إنني أتحمل المسؤولية لأنني مسؤول عن كل شيء على أراضي الانتداب ولذا أرجو أن تقبل استقالتي».

لكن غورو رفض استقالة كاترو، وأعفاه من المسؤولية، بل جدد ثقته به، وطالب الجميع باستخلاص الأمثولة من هذه الواقعة.. ولكن من كان وراء الحادث بنظر غورو وكاترو أيضاً؟ يقول كاترو:

ليس هناك شك في أن الذي دبّر «الاعتداء» هو أحمد مريود، هذا الوطني السوري المتطرف الذي لجأ إلى إربد. وأقام على الحدود نفسها. وقد عرف من عملائه موعد زيارة غورو للقنيطرة وقرر المحاولة. وكان يعتقد أن الاغتيال سوف يعطي نتائج ممتازة بالنسبة إلى أهل الاستقلال في المشرق وفي العالم. ومن أجل هذا العمل جنّد أحمد مريود خمسة من الذين حصلوا على

(٥) إصابة في خدّه وثانية في الورك وقد نزف بغزارة كما يقول الجنرال غورو (الحفيد عن غورو الجنرال السفّاح) في كتابه عام ١٩٩٣.

ثياب الدرك المستعملة وحلوا محل أحد مراكز الحراسة ثم أطلقوا النار»[٦].

بعد ذلك، ماذا حدث؟؟ وكيف كانت ردود الفعل عند كل الأطراف المعنية بالحدث؟ يذكر الجنرال كاترو في مذكراته، أن سيارة شقيقة غورو انقطعت عن الموكب وأعيدت إلى دمشق خوفاً على حياتها وحياة ابنة عمها، أما موكب غورو فتابع طريقه إلى القنيطرة بعد نصف ساعة من الحادث، ولم يعد إلاّ في المساء بعد إقامة الحواجز ونقاط التفتيش على الطرقات من القنيطرة حتى دمشق[٧]، أما الثوار «بعد أن استطاعت سيارة غورو الفرار نزلوا إلى جثة الكولونيل بارنيت الملقاة على الطريق ظناً أو أملاً منهم بأن تكون جثة غورو» أخذوا معهم قبعة بارنيت «كدليل على أنهم أدوا مهمتهم»[٨].

---

(٦) نعتقد أن شهادة شاهد العيان الجنرال كاترو كافية ووافية المعلومات وتغنينا عن ذكر عشرات التحليلات والمعلومات التي سردت أحداث ذلك اليوم التاريخي في حياة المقاومة العربية الباسلة، حيث كان ذلك اليوم قفزة نوعية في الجهاد ضد الانتداب الفرنسي ورفضه شعبياً، فشهادة كاترو جاءت من قبل الخصم.. لا من قبل محايد أو صديق، وهنا تكمن أهميتها.. مع تقديرنا للمعلومات التي جاءت في المصادر العربية. (راجع سليمان الموسى ومنيب الماضي، ص ١٦٨ - ١٧٢، وراجع كتابنا: **الأردن في التاريخ**، الجزء الثالث مخطوط وقيد الطباعة، وراجع: **مذكرات علي خلقي**، القسم الأول: **مخطوط ومذكرات محمد علي العجلوني**، وعشرات المراجع الأخرى.

(٧) ذكر الجنرال كاترو في مذكراته «يعود غورو ذلك المساء من القنيطرة في موكب أكثر حراسة ليلقى استقبالاً عفوياً في دمشق»؟؟! إن الحقيقة كانت غير ذلك والعكس هو الصحيح، فدمشق كانت يومها غاضبة بالمظاهرات بقيادة الدكتور شهبندر وتلقى الشعب العربي السوري الخبر بالزهو والارتياح للتنسيق البارع بين نار البنادق ونداء الحرية.

(٨) ذكرت المصادر، أن الزعيم الوطني أحمد مريود أرسل القبعة إلى دمشق حيث سلّمت سراً لابنة يوسف العظمة شهيد ميسلون بمثابة هدية ثأرية مفرحة، وهذه الرواية رواها المفكر العربي ساطع الحصري. كما أثبتها الأستاذ أكرم زعيتر في كتاباته عن تاريخ سوريا الوطني.

كان الزعيم أحمد مريود، يعرف تقريباً الساعة التي من الممكن أن يموت فيها غورو وحاشيته، وكان يترقب الساعة المشرّفة لكل الأحرار ذلك اليوم، ليعلن عن الحدث فور وقوعه، وكان وقتذاك في منزل محمود أبو راس الروسان قائد منطقة عجلون في مدينة إربد. وعندما دقت الساعة معلنة الساعة التاسعة، نظر الشيخ تركي باشا العبيدات إلى صديقه الأمير أحمد مريود مبتسماً، ففهم عليه، عندها قال أبو حسين:

«إنني أعلن لكم حدثاً هاماً في هذه اللحظة أعتقد أنه قد مات غورو على يدّ ثوارنا القادمين إلينا اليوم بإذن الله»[٩].

وفي اليوم نفسه سيّر الإفرنسيون حملة كبيرة بقيادة الكولونيل «روكر» فدمّرت قرى جباثا الخشب ـ اوفاتية والشوكتليه وطرنجة وغيرها حول جباثا الخشب زاعمة أن أهلها آووا رجال المقاومة الثوار، وقامت الحملة بإجراءات تعسفية أخرى، كما أذاعت السلطة الإفرنسية بلاغاً رسمياً أعلنت فيه: «أن العدوان جرى على يد عصابة قادمة من لواء عجلون».

وعاد الثوار الأبطال على صهوات جيادهم بعد إطلاق الرصاص على غورو عن طريق إربد ومنها ساروا إلى عمان[١٠] وكان الزعيم مريود ـ القائد الفعلي لكل الهجمات على قوات الانتداب

---

(٩) لم يكن الجنرال كاترو صادقاً عندما ذكر أن أحمد مريود كان في منزله في إربد يتحدث عن اغتيال غورو بحضور الضابط البريطاني سمرست الذي أصبح اسمه فيما بعد اللورد رغلان، والحقيقة أن حديثه كان أمام بعض وجهاء شمال إربد، وفي منزل قائد المنطقة محمود الروسان، كما أن منزله الأول كان في قرية كفرسوم، والثاني عمان لأن الأمير أحمد مريود كان قد عاد إلى وطن أجداده أمراء البلقاء وحكامها على مدى زمن طويل ولأنه في بلده الأصلي دوماً حيثما وجد بأي قطر من الوطن العربي.

(١٠) الماضي والحوس، المصدر نفسه، ص ١٦٩.

الفرنسي - باستقبالهم ورافقهم إلى عمان ومعه محمود أبوراس الروسان قائد منطقة عجلون.

في هذه الأثناء أرسل الإفرنسيون احتجاجاً شديد اللهجة إلى المندوب السامي في القدس، يتهمون فيه حكومة شرقي الأردن بتدبير حادث الاغتيال «ويطالبون باتخاذ إجراءات عادلة وفعالة».

وبعد أقل من شهر وردت إلى حكومة شرقي الأردن مذكرة من المعتمد البريطاني في عمان يقول فيها: «إن السلطة الإفرنسية في سوريا كتبت إلى المندوب السامي في فلسطين تطلب تسليم المتهمين بإطلاق الرصاص على الجنرال غورو ورفاقه»(١١) وفي ذيل المذكرة قائمة بأسماء الأشخاص الذين يتهمهم الإفرنسيون وهم: أحمد مريود، أحمد الخطيب، الملازم محمد الخطيب، صادق حمزة، أدهم خنجر(١٢) محمود حسن، شريف شاهين، محمد الظاهر، أبو دياب البرازي وخليل مريود.

وقد أجاب السيد مظهر رسلان الذي كان يتولى رئاسة الحكومة العربية بالأردن على هذه المذكرة بما يلي:

١ - إن الجرم سياسي ولا يحق لحكومة أن تطلب فاعليه من حكومة أخرى.

٢ - إن بين الأشخاص المطلوبين أفراداً ثبت وجودهم يوم الحادث في بلدة إربد.

---

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) من المؤكد أن أدهم خنجر لم يكن مع الثوار، ولم يشارك بالعملية من أساسها، علماً أن المذكور ألقي القبض عليه بعد سنة من الحادث وأعدم بهذه التهمة في بيروت.

٣ ـ إن أغلب الأشخاص الواردة أسماؤهم مجهولون لا يعرف مقرهم.

ومن جهة أخرى، قام الضابط البريطاني «بيك» مفتش الدرك العام في الأردن، بإجراءات عسكرية، فأرسل ما لديه من قوى عسكرية بين خيالة ومشاة لملاقاة الزعيم الوطني والوزير في الحكومة العربية أحمد مريود ورجاله لإلقاء القبض عليهم. وعلمت الحكومة بالأمر، فاهتمت به كثيراً إذ إن تسليمهم للإفرنسيين سيؤدي إلى نتائج خطيرة وهو إهانة لهيبة الحكومة وكرامة الشعب(١٣).

ورداً على إجراءات الإنكليز هذه حدث هياج شعبي في عمان تزعمه سعيد خير ومثقال الفايز وحديثة الخريشة وصايل الشهوان(١٤)، وحدث هياج شعبي في إربد تزعمه عبد الرحمن الرشيدات وتركي العبيدات وسليمان السودي، وغيرهم من زعماء ووجهاء إربد والكفارات والسرد، كما أن قوات درك البلقاء بقيادة محمد علي العجلوني نفرت للحيلولة دون تنفيذ أمر إلقاء القبض. «وكاد يحدث اشتباك بين الوطنيين والدرك من جهة وبين القوات التي تأتمر بأمر «بيك»، فاضطر الإنكليز إلى إصدار الأمر لقواته بالعودة إلى عمان بعد أن كانت تنتظر وصول الزعيم أحمد مريود والمجاهدين إلى موقع ياجوز على طريق جرش»(١٥).

وأخيراً جاء المناضل أحمد مريود والعجلوني وأبوراس ومن معهم من الشعب وهم يهزجون ويطلقون الرصاص ابتهاجاً(١٦).

---

(١٣) كان قائد القوة السيارة فؤاد سليم إلاّ أنه كان يعاني من آثار جراحه التي أصيب بها في الكورة، فلم يكن في الخدمة وقت زحف قوته لاعتقال المجاهدين.

(١٤) الماضي والحوس، المصدر نفسه ص ١٧١.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) المصدر نفسه.

وقد روى اللواء محمد علي العجلوني، أن الإنكليز أنذروا الأردن بأن فرقة فرنسية تحتشد في درعا للزحف على جبل عجلون إذا لم يسلّم الزعيم أحمد مريود وأن الإنكليز قد لا يتمكنون من صدّ الإفرنسيين.

ومعلومة أخرى تقول، إن بيك أمر الرئيس (النقيب) عمر لطفي قائد سرية الفرسان، بملاقاة الأمير مريود وقواته وإلقاء القبض عليهم، إلاّ أنه رفض الأمر وتجاهله.

واستمرت ذيول هذا الحادث بين أخذ وردّ حتى خريف عام ١٩٢٢، فقد كثرت المكاتبات بين حكومات سوريا وفلسطين والأردن، وتشدد الإنكليز في مطالبتهم تسليم المجاهدين، وهددوا «بأن الامتناع عن تسليم هؤلاء المعتدين على الجنرال غورو سيعتبر نقضاً لقرار الاتفاق بين الأمير عبد الله وبين المستر تشرشل وبخاصة فيما يتعلق بمحاولة إقناع فرنسا بمنح سوريا استقلالها وبعدم احتلال الإنكليز للأردن وأنه سيؤدي إلى عرقلة سفر الأمير عبد الله إلى لندن لإجراء المباحثات فيها»[١٧].

وأخيراً اقترح رئيس الحكومة الأردنية علي رضا الركابي[١٨] على حكومة فلسطين أن تنتدب مندوباً وتنتدب حكومة شرقي الأردن مندوباً، ويتناقش المندوبان في الموضوع ويكون قرارهما نافذاً بالنسبة إلى الحكومتين.

---

(١٧) الماضي والحوس، المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(١٨) تشكلت حكومة جديدة برئاسة علي الركابي يوم ١٠ آذار/ مارس ١٩٢٢ بعد أن قدم مظهر رسلان استقالته، وعلى الرغم من أن ذيول حادثة اغتيال غورو لم تنتهِ بعد إلاّ أن الزعيم أحمد مريود-دخل الوزارة الجديدة وبالمهمة السابقة نفسها نيابة العشائر واشترك معه في الوزارة السادة: الأمير شاكر بن زيد، مظهر رسلان، أحمد حلمي، إبراهيم هاشم، الشيخ سعيد الكرمي.

واجتمع المندوبان يومين متتاليين في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٢، واتفقا على مواد أثبتاها كتابة ووقّعا عليها، وكانت خلاصة تلك المواد:

١ - إن «الجرم» سياسي إذ لا عداوة شخصية بين الجنرال غورو والمتصدين له.

٢ - إن حكومة شرقي الأردن غير ملزمة قانونياً بتسليم المتهمين لأنه لا يوجد بينها وبين سلطة الانتداب الفرنسية اتفاق بتبادل تسليم «المجرمين» السياسيين، ولأن الاتفاقية بين سلطتي الانتداب في سوريا وفلسطين لا تشمل شرقي الأردن...

وهكذا انتهت الأزمة ظاهرياً ولكن آثارها بقيت تفعل فعلها.. ونستطيع التأكيد بأن هذا الحادث الكبير كان مقدمة لما تبعه، كان المنطلق ونقطة البداية لثورات وانتفاضات لاحقة لم تتوقف.. وظل الزعيم الوطني أحمد مريود القائد والمفكر للثورات والانتفاضات، كما سنرى ونقرأ في الفصول القادمة. ولكن هل حققت محاولة اغتيال غورو المكاسب للشعب العربي السوري؟؟

نعم، ويمكن اعتبارها من حيث النتائج مكاسب هامة. فلم يعد الصلف الفرنسي كما كان عليه قبل وقوع الحادث واضطر المفوض السامي «غورو» إلى إعادة النظر في تقسيم البلاد[١٩]

(١٩) بعد احتلاله مدينة دمشق والمدن السورية الأخرى، أقدم غورو على تقسيم سوريا إلى ست دول هي: دولة دمشق، دولة حلب، دولة اللاذقية، دولة جبل العرب، دولة لبنان. أي أنه حاول أن يجعل الشعب العربي السوري الواحد الموحد خمسة أو ستة شعوب، والوطن الواحد عدة أوطان أو أجزاء. لقد تمّ التقسيم إذاً جغرافياً وسياسياً واقتصادياً على أساس مذهبي، وقد نجحت الخطة فقط في لبنان وذلك لأسباب دولية.

وإعادة توحيدها في إطار اتحادي، أي دولة اتحادية مركزها دمشق واستدعى الوجيه الوطني صبحي بركات ليكون على رأسها[٢٠].

كما ترتب على محاولة الاغتيال نتائج دولية هامة، فقد نبهت العالم كله إلى مظالم الانتداب الفرنسي، وعلت الأصوات في «عصبة الأمم» بجنيف ضد السياسة الفرنسية السائدة في سوريا ولبنان، ولم يعد أمام الجنرال غورو إلاّ أن يتبع خطوات التراجع عن إجراءاته السابقة إرضاء لأهل البلاد في الداخل، ولتهدئة الضجة الدولية في الخارج. ونستطيع التأكيد أن غورو لم يعد في استطاعته أن يستمر طويلاً في منصبه بعد الحادث وانتهز فرصة خلافه (فقد اهتزّت مصداقيته السياسية والعسكرية) مع حكومته في باريس حول الموازنة المخصصة لنفقات شؤون الانتداب وتقدّم باستقالته من منصب المفوض السامي الذي كان يعتبر أهم منصب في فرنسا لما وراء البحار[٢١]. وكما نوّهنا سابقاً وخلافاً لرواية الجنرال كاترو فقد استقبلت دمشق جنرال الشرق الأكبر غورو بمظاهرات صاخبة سار على رأسها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر.

وكان على الجنرال غورو أن يرضى من الغنيمة بالإياب من القنيطرة سالماً وكان عليه أن ينتظر من يوم ٢٣ حزيران/ يونيو

(٢٠) صبحي بركات، شخصية عربية وطنية، وهو من لواء الإسكندرون، وكان يقيم وينشط في مدينة حلب.

(٢١) صور مضيئة من تاريخ حركة التحرر الوطني في سوريا، دراسة للأستاذ الباحث الزميل منذر الموصلي نشرتها جريدة الشرق الأوسط السعودية التي تصدر من لندن في العدد رقم ٥١١١، تاريخ ١٩٩٢/١١/٢٥.
راجع كتاب: مهمتان في الشرق الأوسط، للجنرال كاترو.

١٩٢١ يوم أن غرس ثوار ورفاق أحمد مريود رصاصات الرفض العربي للغزو والاستعمار الإفرنسي في ذراعه تلك الذراع الخشبية التي نزفت خجلاً بعد كل الغطرسة التي مارسها، إذن كان عليه أن ينتظر من يوم ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٢١ وحتى يوم ٣ تموز ١٩٢١ ليحتفل بنجاته وسلامة عودته من الموت، ولكن في بيروت وليس في دمشق وفي جناح الجيش والبحرية في ساحة المدفع تحديداً كما تبين الصورة المرفقة المأخوذة من كتاب الجنرال فيليب غورو (حفيد الجنرال غورو الجد الأكبر) الذي يتحدث عن غورو الأكبر في سوريا ولبنان بين أعوام ١٩١٩ - ١٩٢٣ في كتابه عام ١٩٩٣ .

وكان جلياً أن زهو الجنرال الأكبر غورو بالاستشراق ومباركته ترحيل الآثار، «مقرونة بالتوق الصليبي لاحتلال ديار العرب ديار السيد المسيح، كل ذلك كان يفصح عن العقلية العدوانية المهيمنة التي عززت دعائم الاستعمار الغربي وأباحت النهب والاستلاب الاقتصادي والحضاري للعرب «حلفاء» الأمس، تلك العقلية التي حسبها العرب مقصورة على العثمانيين وفجعوا بخطئهم في الحساب وما زالوا.

٦

نبذة عن الشهيد
أدهم خنجر ١٨٩٥ ـ ١٩٢٢

شاب مثقف وطني غيور ينحدر من أسرة كريمة في جبل عامل. نشأ في بلدة صغيرة قرب صيدا.

كان في الخامسة والعشرين من العمر عندما اندلعت ثورة جبل عامل وكان له دور شجاع متميز يحمل في آن واحد بندقية الدفاع ويراع المقاومة الوطنية.

وقد كان حريصاً على التنسيق الفعّال بين الثورات في جنوب سورية، لذا فقد لازم قائد الثورة المجاهد الكبير أحمد مريود في مرحلة انتقال انطلاق الثورة من شرقي الأردن. ونجح في تحقيق التكامل الفعال في ساحات الكفاح بجبل عامل وفي الجولان وجنوب سورية. وكانت فكرة توسيع رقعة التكامل والتنسيق مع رجالات ومجاهدي جبل العرب خلال حوارات ونقاشات مستفيضة مع قائد الثورة الزعيم أحمد مريود ورفاقه في القيادة، قد تبلورت على شكل تحرك باتجاه جبل العرب، تحمس الشاب المجاهد أدهم خنجر للقيام به ميمماً وجهه شطر بلدة المجاهد الكبير سلطان الأطرش، القريا. وكان في رفقته خلال هذه الرحلة المجاهد

شكيب وهاب الذي افترق عن المجاهد أدهم خنجر ليذهب إلى بلده عرى.

ويشاء سوء الطالع أن لا يجد أدهم خنجر سلطان باشا الأطرش في القريا، وتمّ القبض عليه في ضواحيها، ورغم إلحاح سلطان باشا الأطرش على الفرنسيين فقد نقلوا أدهم خنجر من السويداء إلى بيروت في الطائرة خوفاً من مجابهة الثوار لهم في البر وأعدموه فوراً. وتخفيفاً من همجية جريمتهم النكراء بقتله دون محاكمة ودفاع، ادعّوا أنه كان من بين الذين اخترقوا موكب الجنرال غورو وأطلقوا النار على سيارة غورو.

حقيقة الأمر، أن المجاهد البطل أدهم خنجر لم يكن مع المجاهدين الخمسة الذين اقتحموا موكب غورو وأطلقوا النار على سيارته. كما أثبتت شهادات الرجال الذين طلب إليهم قائد الثورة المجاهد أحمد مريود إبلاغ الخمسة المعنيين من الفرسان كل واحد باسمه الشخصي.

٧

إخراج الاستقلاليين من الأردن

كانت جمعية «الفتاة» من أهم الجمعيات، الوطنية. وقد تأسست عام ١٩٠٩، واستمرت تعمل بروحية نضالية في قيادة سوريا، إلا أنها خففت من طابع السرية على تنظيماتها، بسبب زوال الأسباب، لكنها أبقت قيادتها سرية تخوفاً من تطور الموقف السياسي العربي والأجنبي، الذي قد تضطر لمقاومته يوماً ما. وأسست في ٥ شباط/ فبراير ١٩١٩، حزباً سياسياً، أطلقت عليه اسم حزب «الاستقلال». ولذا كانت الهيئة الإدارية «للفتاة» تقرر، وحزب الاستقلال ينفذ علناً، بالاتفاق مع الحكومة والأمير فيصل بصفته أحد أعضاء الهيئة ورئيس الشرف فيها[١]. وضم حزب الاستقلال معظم الرجال في دمشق، كفيصل بن الحسين، وزيد ابن الحسين، وياسين الهاشمي، والشيخ كامل القصاب، وشكري القوتلي، وإبراهيم هنانو، وأحمد مريود ويوسف العظمة... وقدر عدد من خاطب لجنة كنغ - كرين في الاستفتاء في حزيران/ يونيو ١٩١٩ بـ٧٥ ألفاً، وكانت الهيئة

(١) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ١٠٢.

الإدارية للفتاة (القيادة العليا) تتألف من: أحمد مريود، سعيد حيدر، ياسين الهاشمي، شكري القوتلي، عزة دروزة، توفيق الناطور، أحمد قدري[٢]، وظل هذا الحزب مسؤولاً عن قيادة سوريا سياسياً طيلة العهد الوطني. وعمل هذا الحزب على نشر المبادىء القومية، والاتجاه بالجماهير نحو الاستقلال التام والوحدة العربية، وبعث النهضة الفكرية والاجتماعية[٣]. ولو عدنا إلى الهدف السياسي لجمعية الفتاة، الذي قامت به وعلى أساسه، «لوجدناه استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً، بجميع معانيه الحقوقية والسياسية وتأييد ذلك الاستقلال، وجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية»[٤] كما جاء في المادة الأولى من نظامها. ولم يختلف حزب الاستقلال عن ذلك، إذ كان يهدف إلى أن «تكون البلاد العربية المحررة، ذات وحدة سياسية مستقلة استقلالاً تاماً»[٥]. إلاّ أن هذا المفهوم القومي العربي، أخذ يتدنى نحو المفهوم الإقليمي. وكان هذا التحول في حقيقته، انعكاساً للظروف السياسية، التي كانت تفرض على العرب في أوروبا في مؤتمر الصلح[٦]، وبعد الاعتداء الإفرنسي على استقلال سوريا وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين، لجأ معظم زعماء حزب الاستقلال إلى الأردن، وبعد تأسيس الإمارة قرر الزعيم الوطني أحمد مريود ورفاقه إعادة تشكيل الهيئات القيادية في حزب الاستقلال لقيادة النضال الوطني ضد سلطات الانتداب الفرنسية،

---

(٢) عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة (صيدا، ١٩٥٠)، ج١، ص ٨٩ - ٩١، (راجع المصدر نفسه).

(٣) تقرير من كورنواليس، ١٦ أيار/مايو ١٩١٩.

(٤) من مجموعة أوراق محب الدين الخطيب (راجع علي سلطان، ص ١٠٥).

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٥، علي سلطان.

(٦) علي سلطان، المصدر نفسه، ص ١٠٥.

فأنشأ الحزب في الأردن لجنة مركزية مؤلفة من زعماء الحزب: أحمد مريود، رشيد طليع، عادل العظمة، أحمد حلمي، نبيه العظمة، إبراهيم هاشم، عوض القضماني، صبحي العمري، سعيد عمون، عادل أرسلان، سامي السراج، مسلم العطار، عثمان قاسم، وشارك في هذه اللجنة من الأردنيين أحمد أبوراس ومحمد علي العجلوني(٧).

بعد محاولة القضاء على حياة الجنرال غورو، ازدادت شكاوى الإفرنسيين والإنكليز معاً ضد حزب الاستقلال، وبخاصة ضد الزعيم الوطني أحمد مريود، وقد استغلت الإدارة البريطانية في الأردن، استياء بعض أبناء الأردن من سيطرة غير الأردنيين على الجهاز الحكومي، وأخذت تشيع أن أحمد مريود يسعى لاستعادة زعامة آل مريود على منطقة البلقاء التي كانت قائمة في القرن التاسع عشر، وكانت أولى خطوات الإنكليز أن سلّموا قيادة القوات العسكرية إلى الضابط البريطاني «بيك» وفصلوا الضباط الاستقلاليين من الخدمة العسكرية، وكان فؤاد سليم أول الضحايا. وأخذ الضابط بيك يهدد بدعوة حكومة فلسطين لإرسال قوة عسكرية بريطانية تتولى زمام الأمر في الأردن، إذا لم تتخذ الإجراءات الحازمة ضد رجال المقاومة الذين يقلقون السلطات الفرنسية في سوريا، من الحدود الأردنية. وهدد باتخاذ عقوبات موجعة، فلم يجد أقوى من قطع الإعانة المالية، وفعلاً قطعت

---

(٧) ذكرت المصادر الأردنية أنه انضم لحزب الاستقلال من أهل شرقي الأردن بالإضافة إلى اللواء محمد علي العجلوني وأحمد أبوراس، السادة: راشد الخزاعي، مثقال الفايز، سليمان السودي، تركي كايد العبيدات، سالم الهنداوي، سعيد خير، حديثة الخريشة، طاهر الجقة، وغيرهم من الزعماء والوجهاء في الأردن وعلى رأسهم الشريف شاكر بن زيد.

حكومة لندن، بناء على اقتراح من «بيك» هذه المعونة «بحجة عدم الثقة بالإدارة المالية والجهاز المالي»[٨].

كل هذه الإجراءات التي اتخذت من قبل السلطتين الإنكليزية والفرنسية[٩] لم تفلح في وقف النضال الوطني والكفاح المسلح، بل كان ردّ الفعل عند الزعيم الوطني أحمد مريود، المزيد من العمليات القتالية ضد المحتلين، والتخطيط لعملية جديدة، مسرحها هذه المرة في داخل مدينة دمشق، فعقد لهذا الغرض عدة اجتماعات كان آخرها الاجتماع الذي تمّ في منزل أحد المجاهدين في «عين راحوب» بالقرب من مدينة إربد يوم ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٢٤ حضره صادق حمزة، أحمد البرازي، أبو دياب البرازي، مصطفى الخليل، خليل بصلة، عبد الحميد النعيمي. وحضر الاجتماع من الأردنيين: توفيق سنو رئيس محكمة بداية إربد، وضيف الله الشبول من قرية الشجرة الأردنية[١٠]. وفي هذا الاجتماع تقرر زمان ومكان العملية الجديدة، وقد وقع الاختيار على المجاهد الخليلي (من درعا) لقيادة العملية، وقد حدثني ولده عبد المجيد مصطفى الخليلي عن هذه العملية فقال:

«في نهاية شهر حزيران/يونيو من عام ١٩٢٤، كثرت اللقاءات

---

(٨) الماضي والحوس، المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

(٩) استعملت فرنسا سلاح الإعلام، فأخذت الصحف الصادرة بأمرها في دمشق وخلال شهر حزيران/ يونيو بتوجيه الاتهام إلى الأردن حكومة وشعباً.

(١٠) ذكر المؤرخ سليمان الموسى ما يلي: «كان الأمير محمود الفاعور لاجئاً سياسياً وينزل في مخيم عند عين راحوب ويقال إن اجتماعاً عقد في منزله ترأسه أحمد مريود وحضره حوالي أربعين لاجئاً سياسياً معظمهم من رجال العصابات وذكر أن أدهم خنجر من بين الحاضرين. وأعتقد أن أدهم خنجر أعدم في بيروت كما ورد على لسان الماضي والحوس في كتابهما نفسه، **الأردن في القرن العشرين**، ص ١٧٨.

والاجتماعات لزعماء حزب الاستقلال في إربد، بقيادة الزعيم المجاهد أحمد مريود، وكان والدي لا يمل من الحديث عن هذا البطل الشعبي الجسور والقائد الجماهيري المحبوب وكانت هذه اللقاءات تتم في مضارب نصبت عند «عين راحوب» شرقي مدينة إربد، وأن أحمد مريود ورفاقه القياديين بعد الاجتماع في عين راحوب قرروا اعتماد عملية محددة الهدف والمستوى العسكري والسياسي تقارب قليلاً بعض ملامح عملية القنيطرة التاريخية الضخمة الجبارة وبكل المقاييس الدولية (محاولة اغتيال غورو)، وقد تشرف والدي بقيادة هذه العملية التي وقعت يوم ٤ آب/ أغسطس ١٩٢٤، وتمكن مع مجموعته من اجتياز مواقع الخطر، من دوريات، ونقاط تفتيش، وحواجز، وحتى من الجواسيس. وفي الطريق الممتدة من المزيريب إلى درعا وقعت معركة بين المجاهدين ودورية فرنسية تمكن الثوار من قتل جميع أفرادها وعددهم أكثر من سبعة أشخاص، وتابعت المجموعة طريقها إلى دمشق دون أن يعترضها أحد، وقد سلكت الطرق الآمنة، وقد اعتقدت السلطات الفرنسية أن مجموعة المجاهدين عادت إلى الأراضي الأردنية، ولم تتوقع أنها تابعت سيرها إلى دمشق لتنفيذ المهمة في حيّ «باب سريجة» حيث قتلت أربعة جنود وجرحت أكثر، وعادت المجموعة إلى قواعدها سالمة، ونالت الاهتمام المشوب بالتساؤلات نظراً لاعتقادهم (القيادة الوطنية) بتواطؤ الركابي مع الغرب ولشعورهم بتواطؤ عناصر في تلك العملية؛ هامة مع الركابي، وتناقلت الجماهير الشعبية في درعا وبقية المدن السورية أنباء الغارات الناجحة للثوار بالحذر والارتياح، مما حدا بالسلطات الفرنسية أن تنشر أنباء هذه الحوادث وتعلن عنها في الصحف، وتعترف بمقتل جنودها، وتعود من جديد لتوجيه الاتهامات ضد الأردن «بإيواء رجال العصابات وتشجيعها على القتل» كما قامت بإعلام حكومة فلسطين الانتدابية عن طريق السكرتير الفرنسي في القدس(١١)

---

(١١) الأردن في التاريخ، الجزء الثالث (لم يطبع بعد) محمود عبيدات.

وعلى أثر ذلك أصدر رضا الركابي رئيس الحكومة الأردنية تعليمات إلى قائدالجيش «بإجراء تحقيق دقيق في ما يختص بالحادث، وإعلان الأحكام العرفية في لواء عجلون»[١٢] والعمل على إلقاء القبض بالمشتبه بهم، وقد اتهمت قيادة حزب الاستقلال، الركابي بالتآمر على وجودها في الأردن «لأنه قام شخصياً وبالسرّ بتسهيل مهاجمة الفرنسيين واتهموه بأنه يقدم بذلك الذريعة للفرنسيين والإنكليز، وفسّروا أن الركابي يقصد من وراء ذلك أن تنشأ أزمة يستطيع بواسطتها إخراجهم من الأردن»[١٣].

هذه الأزمة التي اتفق على مضامينها مع كل من الإنكليز والفرنسيين كما كشفت الوثائق مؤخراً كان الأمير عبد الله وقتذاك في الحجاز لتأدية فريضة الحج، وعندما عاد إلى الأردن يوم ١٩٢٤/٨/١٩، قدمت إليه سلطة الانتداب البريطاني في فلسطين إنذاراً تضمن المطالب التالية:

١ ـ بسط المراقبة البريطانية على الأمور المالية بدون قيد أو شرط.

٢ ـ إخراج المتهمين بالتحريض في حوادث الحدود.

٣ ـ إلغاء نيابة العشائر[١٤].

٤ ـ تكون القوات المحلية خاضعة لتفتيش قائد القوات البريطانية على أن تستخدم طبق مشورة حكومة جلالته (الملك البريطاني).

٥ ـ قبول اتفاق تسليم «المجرمين» المعقود مع سوريا.

---

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) الماضي والحوس، المصدر نفسه، حاشية ص ٢٤١.

(١٤) ويذكر أن نيابة العشائر كانت السلطة الأهم في بلد تسوده العشائر وأن الزعيم أحمد مريود ظلّ على رأسها طيلة السنوات الأربع التي شكل فيها الوطنيون الاستقلاليون الحكومات في الأردن وتألفت من وزراء أردنيين وسوريين ولبنانيين وعراقيين.

٦ ـ أن يعدّ سمو الأمير محترماً وغير مسؤول عن إدارة الحكومة باعتبار أن الحكم يجب أن يكون دستورياً في كل حال.

لقد ظهرت بريطانيا على حقيقتها، وسحبت اعترافها بالأردن كدولة مستقلة وأصبح المعتمد البريطاني الحاكم الآمر والناهي في كل شيء من تشكيل الحكومة واختيار الوزراء حتى تشغيل حارس الحديقة:

فوافقت حكومة الأمير عبد الله، وأعلنت قبولها الإنذار يوم ٢١/ ١٩٢٤/٨ وأذاعت البلاغ التالي:

«بناء على تشويش الأفكار في البلاد المجاورة بسبب الحوادث المؤسفة التي وقعت في سوريا وتسكيناً لها. رأينا قبول رأي رسمي أبدي لنا بطلب نزوح بعض الذوات الذين يقال إن وجودهم في المنطقة يُفسر بخطة غير حبيّة تجاه الحكومة الحليفة في سوريا. ولما لم يكن للذوات المذكورين أدنى علاقة بتلك الحوادث اقتضى التنويه بأن نزوحهم غير مسبب عن ظهور مسؤوليتهم منها، بل لتطمين الأفكار الرسمية الخارجية بحسن النوايا المنطوية عليها أفئدتنا، ولرغبتنا في إثبات خطتنا القويمة السالمة من كل شائبة نحو المناطق المجاورة. وأن التحقيق الجاري سيجلو الحقائق على وجهها»[١٥]

وهكذا طلبت الحكومة الأردنية إلى زعماء الاستقلاليين مغادرة البلاد.

(١٥) الماضي والحوس، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

الفصل الخامس

العودة إلى سوريا

١٩٢٤ - ١٩٢٦

إنني أرى الشعب العربي السوري النبيل من خلالك، وأقدّر وأُجلُّ موقفك الصلب الذي يعبّر عن عظيم إخلاصك لمبادىء الثورة العربية الشاملة وجهادك العنيد المتواصل لتحقيق الأهداف القومية اهداف التحرير والوحدة.

لقد قلتُ مراراً أن أمير الجولان أحمد مريود يمثل بصموده وصبره وفدائه قدوة تحتذى في تاريخ المقاومة العربية ضد المستعمرين.

وإنني وأيم الحق كنت أفكر باستمهالك السفر ولكنني توقفتُ حين قلتَ لي إن من حق الثورة على أبنائها أن يزيدوا في نارها الآن وقد استكملت الاستعدادات في سوريا التي تقف في وجه الاستعمار الغربي وقلت لي لقد بارك رفاقك في خانقين بغداد ذلك وهم المناضلون الذين حرروا العراق من الاستعمار.

إذنْ على بركات الله انت تسير وتنتصر لأن دروبك دروب العز والنصر: ترافقك دعوات الاعتزاز والإكبار من جميع المناضلين الأحرار بالنصر المؤزّر.

فيصل بن الحسين

١

اجتماع العقبة

كانت السلطات الفرنسية مقتنعة تماماً بأن الزعيم الوطني أحمد مريود هو الذي خطط لاغتيال الجنرال غورو، وأن رجاله هم الذين نفذوا عملية محاولة الاغتيال. لذلك عمدت إلى تدمير منزله ومنازل أقاربه في قرية «جباثا الخشب» بعد أن نهب الجنود محتوياتها. وفرضت الغرامات عليها وعلى القرى المجاورة لها، كما اعتقلت إخوته وأقاربه ونكّلت بهم، ثم أجرت محاكمة غيابية وحكمت عليه بالإعدام للمرة الثانية، مع أخويه محمد ومحمود، وابن أخيه خليل، بالإضافة إلى عدد من أقاربه. وقد ازدادت شكاوى السلطات الفرنسية ضد الزعيم الوطني أحمد مريود الذي كان في الأردن مع مجموعات من المجاهدين الثوار قدر عددهم بـ٣١٠ خيالة يأتمرون بأمره، ويقومون بشن حرب استنزاف ضد السلطات الفرنسية المحتلة. في عام ١٩٢٣، برز عامل جديد، ألا وهو استياء البعض من أبناء شرقي الأردن، من سيطرة غير الأردنيين على الجهاز الحكومي واحتكاره. إن ذلك لم يكن أبداً نتيجة وجود الوطنيين الأحرار من السوريين، ولكن ذلك الاستياء كان نتيجة لزحف الكثيرين من الأشخاص

العاديين من غير أهل الفضل والجهاد، على الوظائف الحكومية حتى غدت وقفاً عليهم. وساهمت في خلق الموقف المتأزم ظروف كثيرة أخرى، من جملتها الروح القبلية والعشائرية التي كانت مسيطرة على تفكير غالبية أهل الأردن. وقد تولى قيادة الحركة الجديدة شيخ قبيلة العدوان[1] وبخاصة بعد أن أخذ بعض الناس ينشرون دعاية، بأن الأمير أحمد مريود يطمح إلى استعادة زعامة أحد أجداده الزعيم الأمير جودت، أمير عشيرة المهاودة الذي قتل ورفاقه في موقع الفحيص شمال مدينة عمان العاصمة. (وقد تحدثنا عن تلك الحوادث في الفصل الأول من هذا الكتاب).

ولم تجد الحكومة الأردنية صعوبة في القضاء على حركة العدوان، ولكن الاستقلاليين أخذوا يواجهون المزيد من الصعوبات والعقبات في أعمالهم ونشاطاتهم التي كانت موجهة غالباً ضد السلطات الفرنسية، من قبل المعتمد البريطاني وبقية ضباط الإنكليز، وعلى رأسهم «بيك» الذي أقدم على فصل الضباط الاستقلاليين، وفي مقدمتهم فؤاد سليم أول قائد للجيش الأردني. وكانت أولى خطوات الإنكليز أنهم جعلوا «بيك» قائداً لجميع القوات العسكرية الأردنية. وقد جاء في الكتاب الذي وضعه الميجر «جارفس» عن حياة الضابط «بيك» أن هذا الأخير هدد بدعوة حكومة فلسطين لإرسال قوة عسكرية بريطانية تتولى زمام الأمر في شرقي الأردن، إذا لم تتخذ الإجراءات الحازمة ضد أحمد مريود وبقية أعضاء حزب الاستقلال.

وقد بلغت الأزمة ذروتها في شهر آب/أغسطس ١٩٢٤، عندما

---

(١) العدوان قبيلة عربية تجمع رابطة الخؤولة بينهم وبين قبيلة المهاودة التي ينحدر منها الزعيم أحمد مريود.

قامت مجموعة من المجاهدين بمهاجمة المواقع الفرنسية في سوريا، بحيث تمكنت هذه القوة من دخول دمشق واشتبكت مع دورية فرنسية في حي «باب سريجة» وقتلت جميع أفرادها، وفي صباح اليوم التالي، قامت الصحف الصادرة بدمشق بنشر أنباء الحادث، وأصبح اسم الزعيم الوطني أحمد مريود، حديث الشارع الوطني[2] في سوريا والأردن، مما أقلق السلطات الفرنسية، وجعلها تسارع بتقديم الشكوى إلى حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، عن طريق السكرتير الفرنسي في القدس. وقد استجابت حكومة الانتداب البريطاني لشكوى حليفتها فرنسا، فسيّرت مفرزتين من جنودها، الأولى إلى عمان، والثانية إلى إربد لمطاردة الثوار، وإلقاء القبض عليهم، وقد أعلنت الأحكام العرفية في الشمال الأردني وقدمت سلطات الانتداب الإنذار التالي إلى الأمير عبد الله:

١ ـ إخراج المتهمين في حوادث الحدود، وفي مقدمتهم أحمد مريود.

٢ ـ إلغاء نيابة العشائر، وهي حقيبة وزارية يشغلها أحمد مريود منذ تأسيس الإمارة وعلى مدى أربع سنوات متعاقبة.

٣ ـ القبول باتفاق تسليم «المجرمين» المعقود مع سوريا.

---

(٢) لقد ثبت أن الإنكليز والإفرنسيين اتفقوا مع الركابي وأفراد مدسوسين ممن قاموا بعملية باب الجابية على تضخم قيمة هذه الغارة على المخفر والتي سهلوا لها السبل ليتخلص الإنكليز من حكم الوطنيين الاستقلاليين مجتمعين (أردنيين، سوريين، وفلسطينيين) فيسهل أمر الهيمنة على الأردن من جهة ولكي تتدبر فرنسا بشكل أفضل أمرها عسكرياً وأمنياً في الجنوب السوري الذي لم تهدأ ثورته (استنزافاً وتخريباً للبنية العسكرية الفرنسية انطلاقاً من الأردن) فانتهكت قوات الاستعمار الفرنسي حتى قلب دمشق العاصمة المقاومة أبداً والتي هي قلب الجنوب السوري جغرافياً وسياسياً ونضالياً وقلب العروبة.

هذا بالإضافة إلى بعض البنود التي تقيّد حركة الحكومة الأردنية وسلطتها فوق أراضيها وشعبها.

ولم يسع الأمير عبد الله، إلاّ القبول خشية أن يلحق شرقي الأردن إلحاقاً مباشراً بفلسطين الخاضعة لأحكام وعد بلفور، وللانتداب المباشر، وهكذا طلبت الحكومة الأردنية إلى زعماء حزب الاستقلال مغادرة البلاد إلى الجهات التي يريدونها. وكانت القائمة الأولى تضم القادة: أحمد مريود ـ نبيه العظمة ـ أحمد حلمي ـ عثمان قاسم ـ سامي السراج ـ محمود الهندي ـ عادل إرسلان ـ فؤاد سليم.

فسافروا إلى معان ومنها توجهوا إلى العقبة، فأقاموا فيها أقل من أسبوع في منزل المجاهد محمود الهندي، وكانت العقبة وقتذاك تابعة للحكومة الشريفية في الحجاز. وقد عقدوا عدة اجتماعات ناقشوا فيها الوضع العربي العام، والسبل الكفيلة لدفع حالة النهوض القومي من جديد في كافة أقطار الوطن العربي. وقد شارك في هذه الاجتماعات المناضل الأستاذ عبد العزيز الثعالبي من القطر التونسي الشقيق. وأستطيع القول إن تلك اللقاءات والاجتماعات كانت بمثابة «المؤتمر القومي»، نظراً لأهمية المواضيع التي طرحت للمناقشة وللقرارات التي اتخذت من أجل تعزيز قضايا الكفاح التحرري العربي. وقد تناولت اجتماعات رجالات حزب الاستقلال في العقبة، توضيح الظروف التي تمّ فيها الاحتلال الغربي، الإنكليزي ـ الفرنسي، لآسيا العربية المجزأة إلى دول مختلفة، على أثر الحرب العالمية الأولى، والثورة العربية الكبرى، وهزيمة الأمبراطورية العثمانية، واستخلص المجتمعون حقيقة أولية وهي أن سياسة الاستعمار الغربي تستهدف غرضين

اثنين لا يمكن الفصل بينهما: فمن جهة استعمار البلدان العربية اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، وكذلك ثقافياً وأيديولوجياً. ومن جهة ثانية، اعتبار هذه المنطقة من الشرق العربي كنقطة انطلاق لبسط النفوذ الغربي الاستعماري إلى كافة أنحاء آسيا وأفريقيا.

وقد أوضح الزعيم الوطني أحمد مريود لرفاقه ـ المبعدين من الأردن ـ أن على العرب وحدهم توجيه مصائرهم، على الرغم من ضعفهم في مجالات كثيرة، إلاّ أنهم يتمتعون بعناصر قوة، أقلها الوضع الجغرافي المميّز الذي يحتله الوطن العربي على ملتقى القارات الثلاث، وحدوده الشاسعة التي يمكن أن تتيح له إرساء سياسة اقتصادية شاملة. عدا عن أن مقومات كيان الأمة العربية، تجد جذوراً لها في وحدة التاريخ واللغة، ومطامح المستقبل، ووحدة العادات والتقاليد. وذلك على الرغم من التجزئة التي صنعها الاستعمار الغربي رغم أنف الجغرافيا التي توحّد.

وعلى ضوء هذا التحليل وضع المجتمعون نصب أعينهم هدفين أساسيين متكاملين:

الهدف الأول: سيادة العرب المطلقة على أراضيهم واستقلالهم الكامل.

الهدف الثاني: الوحدة العربية الشاملة.

وذلك من منطلق أن لا استقلال بدون وحدة، ولا وحدة بدون استقلال كامل.

وطالب الزعيم الوطني أحمد مريود. أن يكون هدف العمل السياسي في الحالات الراهنة. تحريك المشاعر القومية، واستقطاب الرأي العام العربي والعالمي، وبخاصة استمالة الدول والشعوب

الخاضعة للاستعمارين الفرنسي والإنكليزي وذلك من أجل ربط نضال الشعوب الفاقدة حريتها واستقلالها، كشبه القارة الهندية على سبيل المثال، والتركيز على الساحة المصرية، حيث يوجد «مكتب القاهرة» الذي تقوم بريطانيا من خلاله بتطبيق سياستها الاستعمارية في الساحة العربية، هذا بالإضافة إلى دور مصر وأهميتها في قيادة مشروع النهضة العربية، وفي دعم حركة التحرر العربي في بلاد الشام والعراق والمغرب العربي في مرحلة لاحقة[٣].

(٣) وقد كانت معارك الاتصالات والإعلام الواسع واللقاءات والنشاط السياسي المكثف هي معارك الحرب الباردة التي استبدلت الحسام باليراع ولكن إلى حين كما سنرى.

٢

الانتشار إلى المناطق

رأى أحمد مريود «أن مشاركة جميع العرب في النهضة القومية، ضرورة مصيرية لا يمكن الاستغناء عنها، وإذا لم تكن القدرات العربية موظفة جميعها، لا يمكن الوصول إلى الأهداف التي نناضل من أجلها، فالتكامل العربي، يعني النجاح العربي ولا غير ذلك».

وفي هذه الاجتماعات، التي دامت ثلاثة أيام في بلدة العقبة، حلل المجتمعون الأوضاع العامة في دول المغرب الغربي، التي تخضع للاستعمار الأوروبي (الفرنسي - الإيطالي). وتمّ التأكيد على وحدة النضال العربي، في المشرق والمغرب، وضرورة شرح الأسباب التي دعت عرب المشرق إلى التحالف مع فرنسا وبريطانيا ضد الحكم العثماني، وذلك من خلال الأهداف التي عملت لها الأحزاب القومية العربية والثورة العربية الكبرى، والتي من أهمها، بناء الدولة العربية الواحدة، واستقلال هذه الدولة عن أية دولة استعمارية مهما كانت، كما جاء في تعهد الحلفاء للشريف حسين بن علي، وليس كما فهمها بعض الأخوة في المغرب العربي، على

أنها ثورة ضد الخلافة الإسلامية، وضد الأمبراطورية الإسلامية التركية، إنها ثورة ضد الظلم والقهر والتتريك الذي لم يتعرضوا لمثله.

ومن المعروف أن بعض حركات التحرر المغاربية اتخذت في البداية موقفاً سلبياً، وأخذت على الشريف حسين، إنه تحالف مع بريطانيا وفرنسا في زمن يتعرض فيه الشعب المغاربي إلى أقصى ممارسات القمع والإرهاب وطمس الهوية العربية، على يد الاستعمار الإفرنسي، وقد بيّن الثعالبي مبررات الموقف المغاربي، عندما علّقت حركة التحرر المغاربي آمالها على معونة تركيا وألمانيا لها، ففي أوائل عام ١٩١٤ وضعت ألمانيا مذكرة سرية جاء فيها: «إنه يجب بكل الوسائل اللازمة مساندة نضال المسلمين في أفريقيا ضد السيطرة الفرنسية وإقامة علاقات معهم، ومساعدة نشاطات الجمعيات الإسلامية الوطنية» وأنشئت مثل هذه الاتصالات فعلاً أثناء الحرب عندما أوفد إلى أفريقيا العربية عدد من العملاء الألمانيين الذين وضعوا نصب أعينهم الحؤول دون استغلال الفرنسيين للجزائر وتونس وجعلهما كمصدر للخامات الاستراتيجية والطاقات البشرية.

وأعدّ قادة حزب «تونس الفتاة»، اعتماداً على مساندة الألمان وتركيا، انتفاضة ضد فرنسا في شمالي أفريقيا في السنوات الأولى للحرب العالمية، إلاّ أن التباعد بين القيادة والجماهير حال دون ذلك. وفي نهاية هذه الاجتماعات، تقرر مغادرة العقبة، والانتشار في بعض الأقطار العربية لنصرة الثورة في سوريا، ولنشر الأفكار القومية والتبشير بحركة عربية واحدة، تأخذ على عاتقها مسؤولية النضال القومي ضد القوى الاستعمارية الجديدة، وبعث حالة النهوض القومي على أساس المصالح العربية المشتركة، وأخذ الحذر

من قوى جديدة قد تحاول استغلال الوضع العربي المتردي، فمنهم من توجه إلى العراق، وإلى مصر، والبقية توجهوا مع الزعيم أحمد مريود إلى الجزيرة العربية. أما الأستاذ المناضل «عبد العزيز الثعالبي»، فقد ندبه أحمد مريود إلى الهند عن طريق مصر، حيث كانت إقامته. وقد اختيرت الهند دون غيرها، نظراً لتعاطف الشعب الهندي وحركاته الوطنية، مع قضايا الكفاح التحرري العربي، وكلف الثعالبي من قبل صديقه أحمد مريود بمهام سياسية وإعلامية، بالإضافة إلى مهام قومية كثيرة كان يضطلع بها على أكمل وجه، وأن يضع الشعوب الهندية بصورة الواقع العربي الذي مزّقته الانتدابات الاستعمارية الغربية، وأن يفيد من كل المنابر والأحزاب السياسية، لأنها متعاطفة مع القضايا العربية، وأن لا يفرق في تعامله ولقاءاته بين الأحزاب الإسلامية وبين غيرها من القوى الهندية، لأن هذه القوى غير الإسلامية كانت أيضاً متعاطفة مع القضايا القومية وبصورة جيدة.

وعن رحلته إلى الهند، ذكر الثعالبي، أنه شارك في اجتماع شعبي في العاصمة الهندية «نيودلهي» وألقى فيه كلمة شرح فيها أساليب القمع الإرهابي ضد العرب، من أولئك الذين خانوا عهودهم ومواثيقهم، وكشف سياسة الغرب القائمة على محاباة اليهود ومساعدتهم في نهب الأراضي العربية في فلسطين. ويذكر الثعالبي أن أحد الشباب الهنود ألقى كلمة حماسية ألهبت الجماهير الهندية، ركّز فيها على مساندة نضال الشعب العربي في آسيا وشمال أفريقيا، وبعد التعرف على هذا الشاب، يقول الثعالبي: «وجدت نفسي أمام الشاب والقائد التاريخي الذي حرر الشعوب الهندية من الاستعمار الإنكليزي، إنه «المهاتما غاندي»».

وفي مصر، كان للمناضلين سامي السراج وخير الدين الزركلي، الدور المميز في تنفيذ المهمات القومية السياسية والإعلامية، وذلك من خلال اللقاءات والاجتماعات وكتابة المقالات ونشر الأشعار القومية والوطنية التي أبدع الزركلي في كتابتها ونظمها ونشرها في الصحف والمجلات المصرية. وتكمن أهمية الساحة المصرية، في وجود «مكتب القاهرة» التابع للسلطات البريطانية، وقد عرف هذا المكتب «بالمكتب العربي»[1] وقد ركّز المناضل سامي السراج في لقاءاته مع رجال الحركة الوطنية المصرية وأحزابها الوطنية، على العلاقة الكفاحية النضالية بين مصر وبلاد الشام، وذكّر الشعب العربي المصري بالنضال المشترك ضد الغزو الصليبي وبالوحدة الاندماجية التي حققها الشعب العربي في كل من مصر وبلاد الشام على يد البطل صلاح الدين الأيوبي، بحيث تمكنت دولة الوحدة من تحقيق الانتصار التاريخي على الجيوش الصليبية في معركة «حطين». وأكّد على أن إعادة اللحمة الكفاحية بين شعب

---

(١) فتحت المخابرات البريطانية هيئة بريطانية عرفت «بالمكتب العربي» في القاهرة لمكافحة الحركة الوطنية. وكان يتألف هذا المكتب من رجال الاستخبارات البريطانية، ومعظمهم يتقنون التكلم باللغة العربية. نذكر منهم: «لورانس» الذي كان قبل الحرب العالمية برتبة «لفتنانت»، و«فيليب غريغز» مراسل جريدة «التايمس»، واللورد «لويد» أحد المقربين إلى تشرشل وشغل فيما بعد وظيفة المندوب السامي البريطاني في مصر، «وهوغارث» الخبير في الشؤون العربية، والماجور «نيو كومب» الذي قام في عشية الحرب بمسح طوبوغرافية لجنوبي فلسطين المسرح الأساسي للعمليات الحربية.
ولم يكتف «المكتب العربي» بملاحقة القوى العربية المصرية، بل قام أيضاً بأعمال تخريبية في مصر.
ومن المعروف أن رجال هذا المكتب هم الذين شرعوا في إجراء المفاوضات مع الشريف حسين، لذلك كانوا على علم ومعرفة أكثر من غيرهم بخيوط التآمر على المستقبل العربي، بل كانوا طليعة المتآمرين على الفكر والأهداف القومية والثورة العربية الكبرى، وكان لهم الدور الأكبر في إخفاء الحقائق والنوايا غير الحسنة عن قائد الثورة الشريف حسين بن علي..

مصر وبلاد الشام، هي أمانة في أعناق المناضلين والمكافحين العرب لتبقى راية الثورة العربية الدائمة مرفوعة حتى يتحقق الحلم العربي والإرادة العربية بالوحدة والاستقلال. وجدير بالذكر أن المناضلين الزركلي والسراج كانا من أقرب رفاق الزعيم مريود. وتناول الشاعر خير الدين الزركلي المستعمرين وأذنابهم بنبرة حادة خشيها الفرنسيون كثيراً، فحكموا عليه غيابياً بالإعدام وبحجز أملاكه، وقد تلقى الزركلي النبأ برباطة جأش وقال:

نذروا دمي حنقاً عليّ وفاتهم
أن الشقي بما لقيت سعيد
الله شاء لي الحياة وحاولوا
ما لم يشأ ولحكمه التأييد

وعندما انطلقت الثورة السورية عام ١٩٢٥، انطلقت ثورة الزركلي الشعرية بكل لهبها وروحيتها العربية، فأخذ ينظم القصائد ويرسلها إلى دمشق إما منشورة على صفحات الجرائد المصرية، وإما بوسائل النقل الأخرى، فأصبحت أبيات قصائده الوطنية على ألسنة الناس يتغنون بها في شوارع المدن السورية. وكانت ردود الفعل الفرنسية أقوى من ردود فعلها عام ١٩٢٠ فأذاعت حكماً ثانياً غيابياً عليه بالإعدام، وطالبت الحكومة المصرية بإسكاته أو طرده من مصر، غير أن الزركلي لم يكترث وظل يرسل قصائده الوطنية من القاهرة سراً شاحذاً همم العرب حتى لا يسكتوا عن الاستعمار ولا يتوانى أحدهم عن النضال يقول:

تأهبوا لقراع الطامعين بكم
ولا تغركم الآلاء والنعم

والشاعر الزركلي والمكلف من صاحب الثورة الدائمة[٢] المناضل أحمد مريود، كان عند مستوى المهمة، فأشعاره التحريضية ـ التي أعجب بها مريود حيث كانت تصله، كانت بالنسبة إلى الفرنسيين لا تقل أهمية عن غارات المجاهدين. وكان يصوّر هذا كله وهو بعيد عن وطنه ولكن عينيه ظلتا ترقبانه وتتابعان أحداثه من بعيد، لذلك نراه يشارك إخوانه آلامهم حين ضربت دمشق بالقنابل عام ١٩٢٥، فيقول في قصيدته «بين الدم والنار».

الأهل أهلي والديار دياري
وشعار وادي النيل بين شعاري
ما كان من ألم بجلّق نازل
وأرى الزناد فزنده بي واري

ويحس الزركلي أن دم الثوار الذي يراق في دمشق هو دمه فيقول:

إن الدم المهراق في جنباتها
لدمي وأن شفارها لشفاري
دمعي لما منيت به جار هنا
ودمي هناك على ثراها جاري

ويصور شاعرنا الزركلي النار المحدقة بدمشق وبطش المستعمر بأحيائها وقذفها بالقنابل وكأنه الشاهد الحي عليها فيقول:

الوابل المدرار من حمم اللظى
متواصل كالوابل المدرار
والظلم منطلق اليدين محكم
يا ليت كل الخطب خطب النار

(٢) كان الزركلي يعرف بالمفكر والثائر والمكلف والمبادر، في ما يخص المسألة السورية.

لقد بنى الزركلي ورفيقه المناضل سامي السراج علاقات حميمة مع الكتّاب والشعراء والمفكرين في مصر، من منطلق أهمية الكلمة التحريضية في تعزيز الشعور الوطني والقومي في نفوس الجماهير العربية التي تعيش الهم القومي بكل جوانبه. وقد أكد الزعيم الوطني أحمد مريود لرفاقه قبل سفرهم إلى مصر والعراق، على أهمية الدعم الأدبي والفكري من قبل الكتّاب والشعراء في كلا البلدين الشقيقين، وذلك من أجل تحقيق وحدة الهم القومي في أدبهم وأشعارهم، رغم إرهاب ومحاصرة ومكافحة المستعمر لهم. وكان النجاح على الساحة السياسية المصرية كاملاً.. وتزخر أوراق ديوان الشاعر الكبير أحمد شوقي بقصائد عديدة قالها في النضال الوطني في سوريا، حيث كان يندفع بشعوره القومي إلى مشاركة بعض الأقطار العربية مصائبها وآلامها من المستعمرين، ومشاركته القومية لسوريا تبدو أوضح ما تكون في قصيدته، نكبة دمشق التي ألقاها في حفل أقيم في القاهرة عام ١٩٢٦ لإعانة منكوبي سوريا حين قامت بالثورة ضد المستعمر الفرنسي[٣] والتي مطلعها:

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يُكفكف يا دمشقُ

«وما كان أحد يتصور أن أحمد شوقي الذي يعيش في برجه الغاجي»[٤] وهو الملقب بأمير الشعراء، ينطلق بمثل قوله:

وبي مما رمتك به الليالي
جراحات لها في القلب عمق

(٣) جريدة الثورة الدمشقية، الصادرة يوم ١٨ نيسان/أبريل ١٩٩٤، العدد ٩٣٩٩، مقالة للصحافية ملك خدام، بعنوان: كفاح سوريا ضد الانتداب..
(٤) المصدر نفسه.

وللــمــسـتـعـمـريـن وإن ألانـوا
قـلـوب كـالحجـارة لا تـرق

وفي مكان آخر يقول:

فـصـحـت ونـحـن مـخـتـلـفـون داراً
ولـكـن كـلـنـا فـي الـهـمّ شـرق
ويـجـمـعـنـا إذا اخـتـلـفـت بـلاد
بـيـان غـيـر مـخـتـلـف ونـطـق
ولـلأوطـان فـي دم كـل حُـر
يـد سـلـفـت وديـن مـسـتـحـق

وللحقيقة، لا بد من القول، أن نجاح خير الدين الزركلي، وسامي السراج، وفؤاد سليم، الذي كان يكتب المقالات السياسية، شكل قفزة نوعية في تنظيم العلاقات مع كتاب وشعراء مصر العربية، وجعل التضامن مع الشعب العربي السوري ظاهرة يومية ودائمة، سواء كان في الندوات واللقاءات السياسية، أو عبر الصحافة اليومية والأسبوعية. وهذا بالطبع يعود إلى اعتزاز الأدباء والشعراء بالانتماء القومي، وينبع من مشاعرهم بوحدة الهدف والمصير العربي المشترك. فالشعر العربي في الفترة الانتدابية، كان متأزراً ومجنداً برمته لخدمة قضايا العرب القومية، في كفاحهم المرير ضد المستعمر. وقد نجح الزعيم أحمد مريود في رهانه على دور الشعر والأدب النسياسي في معركة النضال القومي. فقد قال للشاعر الكبير خير الدين الزركلي قبل وداعه في العقبة:

«إن الكلمة العربية الصادقة، الخارجة من عمق المشاعر الوجدانية. سواء كانت بالحديث المباشر، أو عبر الصحافة، بالنثر أو بالشعر، هي من أقوى الأسلحة التي يخافها الأعداء، فهي أيضاً الرديفة

القوية للرصاصة القاتلة «وهي التي ستوقظ مؤازرة الصف السياسي المصري»».

وقد عبّر الشاعر إلياس فرحات عن الهمّ القومي المشترك عندما قال:

أنـــا وإن تـــكـــن الـــشـــام ديـــارنـــا
فـــقـــلـــوبـــنـــا لـــلـــعـــرب بـــالإجـــمـــال

أما الاعتزاز بشرف هذا الانتماء القومي، فقد جاء على لسان الشاعر القروي عندما قال:

أنا من واحد وسبعين مليوناً من العرب، كل واحد منهم أنا، فينبغي أن أحبهم سبعين مليون، ضعف حبي لنفسي»[٥].

(٥) المصدر نفسه.

٣

أحمد مريود في الجزيرة العربية

وتوجه الزعيم الوطني أحمد مريود على رأس مجموعة من المناضلين إلى الديار الحجازية للتباحث من جديد مع الشريف حسين في مجمل القضايا القومية، ومحاولة دفع حالة النهوض القومي بعد أن تكشفت النوايا العدوانية من قبل حلفاء الأمس الذين خانوا العهود والمواثيق، وكان في ذاكرته مجموعة من الأفكار يريد مناقشتها مع الحكومة الحجازية. وقد صادف وصولهم، احتدام الهجوم النجدي على الطائف ومكة، في العاشر من شهر المحرم سنة ١٣٤٣ هجري، حين اجتاز الجيش النجدي حدود الحجاز واحتل أول ما احتل قلعة «كلاخ» ثم احتل «الأخيضر». وكان هذا الجيش المؤلف من (١٦) لواء بقيادة خالد بن لؤي[١]، فانضم إليه بعض «الشرفاء»[٢] من بني الحارث ورجال من ثقيف، وأخذوا يحتلون القرى ويقاتلون

(١) خالد بن لؤي: هو من أشراف الحجاز، وابن عم الشريف حسين، تمكن الإنكليز من إغرائه لصالح ابن سعود.

(٢) الشرفاء: هم مشايخ الأشراف الذين تخلوا عن الشريف حسين إما بالترهيب أو بالترغيب.

القبائل الحجازية حتى وصلوا «الحوية» التي تبعد عن الطائف خمسة وعشرين كيلومتراً، في الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٢٤. وما كان أحد بمكة أو الطائف يعلم بأمر هذا الغزو المباغت، إلاّ حينما دخل الجيش النجدي «الحوية» فأصدر صبري باشا وزير حربية الشريف حسين أمره بالدفاع، فخرج من حامية الطائف أربعمائة جندي نظامي واتجهوا إلى الحوية لرد أربعمائة ألف من الجيش النجدي السعودي، إلاّ أن النتائج النهائية كانت لصالح الغزاة بعد أن تكبدوا الخسائر الفادحة، ولولا خيانة البدو ـ كما قال الشريف حسين ـ لما تحقق النصر للغزاة. وقد ذكر أحمد العطار في كتابه: «صقر الجزيرة ـ الجزء الثاني» ما يلي:

> «وقد وجد البدو ممن لهم ثارات عند الأهلين فرصة نادرة للانتقام فزحفوا إلى بيوتهم واقتحموها عليهم وقتلوهم شر قتلة، تشفياً منهم، وهتكوا أعراضهم، وبعد أن ذبحوهم وضعوا رقابهم في حنفيات الماء والصهاريج، فشربوا من دمهم وتوضأوا بالماء الملوث بالدماء البريئة وصلّوا.. ولم يكلفوا أنفسهم عناء استلام الأساور الذهبية من أيدي النساء الممدة بل قطعوا أيديهن وأرجلهن...».

تابع الجيش النجدي السعودي زحفه باتجاه مكة، بعد معركة كانت ضحاياها بالمئات في «الهدى». وكانت هذه المعركة بقيادة «سلطان بن بجاد» وكان الأمير علي بن الحسين قائد الجيش الحجازي الذي تراجع بجيشه إلى «الكر» ثم إلى مكة. يقول أحمد العطار:

> «سافر الأمير علي بعد معركة الهدى إلى جدة وانتقل إليها أقطاب الحكومة الهاشمية وبقي الحسين بمكة ثابت الجنان قوي الرجا في قهر القوات السعودية».

في تلك الظروف الصعبة والقاهرة التي كان يعيشها الشريف

حسين، وردّاً للجميل الذي سبق إليه الشريف حسين بن علي الذي كان قد وعد الزعيم أحمد مريود ورفاقه من سورية وشرق الاردن، ردّاً على برقية أرسلوها له في خريف ١٩٢١، بدعم عسكري فعالّ يشترك في تحرير سورية وأرسل حينها الأمير عبد الله طليعة أولية. كان الزعيم الوطني الشامي أحمد مريود بجانبه، يشدّ من أزره، ويزرع في قلبه روح الطمأنينة والتفاؤل، وأقسم أن يبقى بجانبه حتى النهاية رغم النزوح الجماعي إلى مصر والعراق والأردن، للزعامات العربية التي لجأت إلى الحجاز في وقت السلم والاستقرار. في هذا الموقف الأخلاقي للزعيم أحمد مريود، قال المؤرخ الأردني سليمان الموسى:

«وهكذا طلبت الحكومة (الأردنية) إلى زعماء الاستقلاليين مغادرة البلاد ومن جملتهم: أحمد مريود، عادل إرسلان، نبيه العظمة، أحمد حلمي، عثمان قاسم، فؤاد سليم، سامي السراج، محمود الهندي. وكانت الحكومة البريطانية قدمت نسخة من الإنذار إلى الملك حسين فأبرق إلى عمان يدعو هؤلاء الزعماء لكي يأتوا إلى الحجاز ويحلوا في ضيافته. وبالفعل فإنهم مضوا إلى العقبة ومن هناك إلى جدة فمكة المكرمة. ولكن لم تمض على وصولهم ثلاثة أسابيع إلاّ ووقع الهجوم السعودي على الطائف (أيلول/ سبتمبر ١٩٢٤)، فأسرع كثيرون يبارحون مكة إلى جدة، وكان أحمد مريود هو الوحيد من بين أولئك الضيوف الذي بقي مع الملك حسين في مكة، حتى قرر هو - الملك - أن يغادرها فغادرها معه. وفي هذا دليل واضح على الوفاء والشهامة»[٣].

كان أحمد مريود وفياً لمبادئه القومية السامية التي ناضل لتحقيقها

---

(٣) سليمان الموسى، صور من البطولة، ص ١١٦. راجع الكتاب المذكور ستجد نبذة عن السيرة النضالية للمترجم، ص ١٠٧ - ١٢٤.

في الشام والأردن والجزيرة العربية، فكيف تمّ ذلك يقول أحمد العطار في كتابه آنف الذكر:

«وبينما الحسين مستغرق في أمانيه وأحلامه يفكر في الوسيلة التي يدفع بها طغيان القوات السعودية، اجتمع في جدة أقطاب حكومته وهم: الشيخ محمد الطويل، والسيد محمد طاهر الدباغ، والسيد الطيب الساسي، والشيخ عبد الرؤوف الصبان، والشيخ سليمان قابل، والشيخ محمد نصيف وغيرهم. وأخذوا يفكرون فيما بينهم في الوسيلة التي يخلّصون بها البلاد من الحرب!

وبعد أن تداولوا الفكرة وتكلم كل منهم بما عنّ له، قرروا أن يتنازل الملك حسين عن عرشه ويتخلى عنه لابنه علي، لأن ابن سعود يبرر غزوه للحجاز بمعاملة الحسين العدائية له وللنجديين ومنعه إياهم من الحج فهو لا يقبل الصلح معه، ولعله إذا خلا الميدان منه رضي ابن سعود بالصلح»[٤].

ويتابع العطار حديثه بقوله:

«واتفق أولئك المجتمعون مع الأمير علي على ما قرروا وبعثوا إلى الحسين بعد صلاة ظهر اليوم من ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ (٣ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٢٤) البرقية التالية:

صاحب الجلالة الملك المعظم بمكة:

بما أن الشعب الحجازي بأجمعه الواقع الآن في الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع، وعجز الحكومة عن صون الأرواح والأموال، وبما أن الحرمين الشريفين خاصة وعموم البلاد مستهدفة لكارثة قريبة ساحقة، وبما أن الحجاز بلد مقدس يعني أمره جميع المسلمين. لذلك قررت الأمة نهائياً طلب تنازل

---

٤) ناصر السعيد، تاريخ آل سعود، الجزء الأول، ص ٢٠٠.

الشريف حسين وتنصيب ابنه الشريف علي ملكاً على الحجاز فقط مقيداً بدستور ومجلسين وطنيين.. الخ»[٥].

وقد ردّ الشريف حسين على البرقية بالنص التالي:

«إلى الهيئة الموقرة:

مع المنونية والشكر، وهذا أساس رغبتنا التي أصرح بها منذ النهضة وإلى تاريخه، وقد صرحت قبله بيضع دقائق أني مستعد لذلك بكل ارتياح إذا عينتم غير علي وإني منتظر هذا بكل سرعة وارتياح»[٦].

من نص هذه البرقية نفهم أن الشريف حسين رفض التنازل عن العرش لصالح ابنه علي، فعندما كلمه على الهاتف محمد طاهر الدباغ بصفة سكرتير الحزب الوطني الذي تشكل فجأة وقال له:

«مولاي إن لك عندنا لمقاماً كريماً، غير أن المركز الحرج الذي وصلت إليه البلاد يدعوني إلى أن أبلغكم أن «الأمة» قد قررت طلب تنازلكم لسمو الأمير علي، والأمة»..

هنا قاطعه الشريف حسين ولم يجعله يكمل حديثه، فرد عليه بعصبية:

«أنا وابني واحد، وإذا كنت قد صرت عندكم بطّال فلا بأس، ولكن لا أفهم ما القصد من هذا، لا يهمني أمر المُلك في أي شخص كان ولكني لا أتنازل لولدي علي أبداً لأني إن كنت أنا بطّال فولدي علي بطّال».

أخفق أعضاء وقيادة الحزب الوطني في حديثهم مع الشريف الملك حسين، وأخذوا يبحثون من جديد في الطريقة التي يستطيعون بها

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠١.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

إقناعه حتى يتنازل عن العرش، فكتبوا إليه برقية أغفلوا فيها اسم من يخلفه بل طلبوا إليه التنازل ليتمكنوا من تشكيل حكومة مؤقتة، وحمّلوه مسؤولية الحرب وسفك الدماء، وقالوا له: «وإذا تأخرتم عن إجابة هذا الطلب فدماء المسلمين ملقاة على عاتقكم».

فلم يجد الشريف الملك حسين بدأً من التنازل، بعد أن تأكد أن الحكومة البريطانية لن تتراجع عن قرارها بتنازله عن العرش كمقدمة لإسقاط الحكم الشريفي عن الحجاز لصالح الحلفاء الجدد من آل سعود، وكتب البرقية التالية:

> «لا بأس قد قبلنا التنازل بكل ارتياح، إذ ليس لنا رغبة إلاّ في سكينة البلاد وراحتها وسيادتها فالآن عينوا لنا مأمورين من هنا يستلمون البلاد بكل سرعة ونحن نتوجه في الحال».

واختتم الشريف برقيته بقوله:

> «وعلاوة على هذا إذا قبل منكم الابن علي على الأمر عينوه رأساً».

انتهت حكومة الشريف حسين بتنازله وإبحاره إلى العقبة، وتولى ابنه علي عرش الحجاز، ورفض الإنكليز أن ينزل في الأردن عند ابنه عبد الله، فغادر العقبة إلى منفاه في قبرص، ونزح المجاهد أحمد مريود إلى العراق بناء على دعوة رفاقه في حزب الاستقلال من أمثال مولود مخلص وجميل المدفعي وسعيد ثابت فأكرمت وفادته وكان موضع احترام الحركة الوطنية العراقية، واتخذ من خانقين دار إقامة له. ولا بد أن ننوه هنا أن قسماً كبيراً من هؤلاء الرجال القياديين ساهموا في قيادة الحكم القومي بالأردن إلى جانب رفاقهم الأردنيين والسوريين والفلسطينيين واللبنانيين.

ذكرنا في مقدمة هذا الفصل، أن زعماء حزب الاستقلال الذين

أبعدتهم الحكومة الأردنية بقرار من المندوب السامي البريطاني إلى العقبة، قرروا الانتشار في الأقطار العربية المجاورة، فذهب إلى العراق المجاهد عثمان قاسم والملازم المجاهد محمود الهندي، والقائد صبحي العمري، والقائد سعيد عمون(٧). وقد كان لهؤلاء الرجال الدور المميز في تعبئة الشعب العراقي وقواه الوطنية ضد الانتدابات البريطانية والفرنسية. وبينوا في لقاءاتهم مع القوى القومية العراقية أن النضال القومي ضد المستعمرين هو السبيل الأمثل في مواجهة المخططات الاستعمارية المعادية للعرب ومستقبلهم السياسي. وعندما قدم أحمد مريود إلى العراق تحمل مسؤولية قيادة هذا الفريق الوطني، وعزز بأفكاره القومية التركيز على الهم القومي، وبين أن الساحات العربية هي ساحة واحدة لكل المناضلين العرب، فالذي يناضل من الساحة العراقية هو تماماً كالذي يناضل على الساحة السورية أو الفلسطينية، طالما أن الفكر الاستعماري لا تتجزأ أهدافه في كل الوطن العربي.

وهذه الأفكار القومية، شرح تفاصيلها للملك فيصل في أول لقاء بينهما، وقال له:

«إن إسقاط الحكم في الحجاز، ونفي الشريف حسين إلى قبرص، وفرض الانتداب على سوريا، وطرد المجاهدين من الأردن، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، هي نكبات وويلات في الواقع العربي، ولا يمكن تجاوزها أو السكوت عليها، ولا يكون الحل إلاّ بالثورة من جديد.. وأنتم يا صاحب الجلالة، ونحن في حزب الاستقلال المؤهلون الآن لرفع رايتها من جديد».

---

(٧) بقرار من بيك طرد صبحي العمري وسعيد عمون من الجيش الأردني بتهمة الانتماء لحزب الاستقلال وتلقي الأوامر من أحمد مريود، وذكر العمري أنه لم يسبق له أن انتسب لحزب الاستقلال (راجع سليمان الموسى، ص ١٩٠).

وقد استعد العراق لتقديم كافة المساعدات الممكنة للمجاهدين في سوريا، كما وعد بتسهيل النشاطات السياسية والإعلامية للفريق السوري المتواجد في العراق..

وبدأ الزعيم الوطني أحمد مريود، نشاطاته السياسية والإعلامية وكان ينطلق من وحي إيمانه بمبادىء وأهداف الأمة العربية. واتخذ من «خانقين» في العراق، مكاناً لنشاطاته، والتفت حوله مجموعة من المجاهدين والمفكرين العرب، آمنت بضرورة العنف الثوري، يأتي في مقدمتهم: عثمان قاسم، محمود الهندي من سوريا. وسعيد عمون من لبنان، ومولود مخلص[8] وسعيد ثابت، وثابت عبد النور، وجميل المدفعي من العراق، بالإضافة إلى القائد صبحي العمري الذي يتمتع بأكثر من جنسية عربية[9]. وكانت اتصالاته دائمة ومتواصلة مع السوريين في مصر، أمثال، سامي السراج، وخير الدين الزركلي، وفؤاد سليم، ونبيه العظمة، وغيرهم من المناضلين.

وعندما اندلعت الثورة السورية سنة ١٩٢٥، طلب أحمد مريود من الملك فيصل التحرك باتجاه الرأي العام العالمي. ووضع الدول

---

(٨) مولود مخلص: وهو ابن الحاج شعبان مخلص التكريتي، ولد في مدينة الموصل عام ١٨٥٠ أتمّ دراسته العسكرية في استانبول عام ١٩١٠ وانضم إلى الجمعيات العربية السرية، واشترك في الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ وكان من ضباطها الأبطال في القتال.
وفي العهد الفيصلي عيّن قائداً للفرقة الثانية، ثم عيّن حاكماً عسكرياً للواء دير الزور، كي يشرف على تقديم المساعدات للثوار العراقيين. وبعد انتهاء الحكم العربي عاد إلى العراق. وبعد استلام الملك فيصل مقاليد الحكم في العراق عين متصرفاً للواء كربلاء، ثم عيّن في الديوان الملكي، وانتخب بعدها في مجلس النواب العراقي، ثم أصبح رئيساً لهذا المجلس. انتقل في آخر أيامه إلى لبنان وأقام في زحلة وتوفي فيها عام ١٩٥١.

(٩) كان صبحي العمري يتمتع بالجنسية الأردنية ثم العراقية وأخيراً السورية. توفي عام ١٩٧٣.

الكبرى في صورة الأحداث التي جرت وتجري في دمشق، للوقوف على حقيقة الإرهاب الفرنسي بحق الشعب العربي السوري، فقام الملك فيصل بإيفاد صبحي العمري إلى دمشق «وفطن الفرنسيون له فاعتقلوه أسبوعين ثم أعادوه إلى العراق. وقدم العمري تقريره للملك فيصل موضحاً فيه الحالة المأسوية التي يعيشها الشعب العربي السوري في ظل الإرهاب الفرنسي[١٠].

وقد اطلع الزعيم أحمد مريود على تقرير العمري، فرأى أن الثورة يجب أن تستمر، وعلى كل المخلصين العرب رفدها بالمجاهدين، ودعمها بالسلاح والأموال. ومن هنا بدأت فكرة العودة إلى سوريا تراود المناضل مريود الذي كان قد بدأ الثورة سنة ١٩١٩، وكان مسرحها الجولان والعرقوب ومرجعيون والجنوب اللبناني بدءاً بالنبطية.

وفي الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٢٥، عقد الزعيم الوطني أحمد مريود اجتماعاً في منزله، شارك فيه: عثمان قاسم، محمود الهندي، سعيد عمون، صبحي العمري، وحضره من العراقيين ياسين الهاشمي[١١] ومولود مخلص، جميل

---

(١٠) سليمان الموسى، المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(١١) ياسين الهاشمي: ولد في بغداد سنة ١٨٨٢، تخرج ضابطاً من الآستانة ثم من برلين عام ١٩٠٥، حارب في البلقان، دخل جمعية العهد والفتاة. ظل في صفوف العثمانيين حتى سقوط دمشق، حيث كان مجروحاً، واختبأ فيها حتى دخول فيصل حيث عيّنه رئيساً للشؤون العسكرية. واعتقله الإنكليز في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٩. وأطلق سراحه بعد حوالى ستة أشهر. تولى وزارات كثيرة في العراق. وألّف فيه حزب الشعب، كما عيّن رئيساً للوزارة فيه. وظل في العراق حتى عام ١٩٣٦، إلى أن قامت «ثورة» بكر صدقي، فرحل إلى بيروت وتوفي فيها، ودفن في دمشق سنة ١٩٣٧.
تتفق معظم المصادر الموثوقة أن ياسين الهاشمي لم يحضر هذا الاجتماع ولم يدعَ له.

المدفعي. وتقرر في هذا الاجتماع توجيه رسائل إلى المناضلين الضباط العرب المقيمين في مصر والأردن والحجاز، وجميعهم من السوريين، وترتيب أوضاعهم من أجل الرحيل إلى سوريا لقيادة العمليات الجهادية ورفد الثورة برجال ذوي خبرة عسكرية قتالية، كما تقرر محادثة الضباط العراقيين الذين سبق لهم الخدمة في الجيش السوري للغرض نفسه، كما تقرر طلب الاجتماع مع الملك فيصل، لإثارة المسألة السورية عالمياً. وعلى ضوء ذلك، وجه الزعيم عدة رسائل شملت: شوكت العائدي، حسين المدفعي، عبد الوهاب عمر باشا، شكيب وهاب، عمر شاكر[١٢]، سعيد العاص[١٣]، وهؤلاء الأحرار كانوا من طليعة الضباط الذين قاتلوا في صفوف جيش الشريف حسين بن علي ضد الجيش النجدي السعودي، ونزحوا إلى الأردن وفلسطين بعد انتهاء المعارك في الحجاز. كما وجّه رسالة مماثلة وللغرض نفسه إلى القائد العسكري فؤاد سليم الذي كان يقيم في القاهرة. وقد استجاب لنداء الوطن، جميع من خاطبهم الزعيم أحمد مريود.. فالزعيم المجاهد سعيد العاص. الذي تطوع للقتال في صفوف الجيش الحجازي سنة ١٩٢٤، آثر العودة إلى عمان في صيف ١٩٢٥، حيث كان يتولى قيادة العقبة ومعان، وكانتا تابعيتين للحجاز، ومن عمان إلى

(١٢) مقالة للأستاذ جميل شاكر الخانجي، جريدة الصحفي، بتاريخ ٢٨ تموز/ يوليو ١٩٧٤.

(١٣) سعيد العاص: ولد سعيد العاص في مدينة حماه سنة ١٨٨٩. تخرج ضابطاً من الآستانة سنة ١٩٠٧، وعيّن قائداً للعمليات الحربية في دمشق سنة ١٩١٣. التحق بالحكومة العربية سنة ١٩١٨، نزح إلى الأردن ١٩٢١، وفي عام ١٩٢٤ تطوع للقتال في صفوف الجيش الحجازي، التحق بالثورة السورية عام ١٩٢٥، استشهد في ٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦ في معركة الخضرا/ فلسطين. له عدة مؤلفات من أهمها: صفحة من الأيام الحمراء - وهي سلسلة من خمسة أجزاء، وكان الرابع بعنوان: استشهاد البطل أحمد مريود - ١٩٣١.

جبل العرب حيث وضع نفسه بتصرف الثورة، وصادف وصوله جبل العرب، وصول القائد فؤاد سليم من القاهرة. وقد حاول الإنكليز منعه من السفر بأن رفضوا منحه جواز سفر يسهل مروره من مصر إلى سوريا. «ولكن المستعمرين ينسون العزائم الجبارة في نفوس المجاهدين، وربما جازت أساليبهم هذه مع طراز من الرجال غير فؤاد. وهكذا نراه يخترق صحراء سيناء القاحلة على متن هجين ويسافر إلى فلسطين متخفياً حتى يبلغ نهر الأردن فيجتازه في مغامرة قاسية يلاقي فيها مشقات هائلة، ويصل إلى عمان خلسة حيث يصطحب شقيقه الأصغر نصري إلى جبل الدروز»[١٤] وكان لهذين المناضلين الدور المميز في إقناع المجاهد سلطان الأطرش بضرورة توسيع نطاق الثورة في أنحاء سوريا، كما كان لهما النصيب الأكبر في مقارعة الجيش الفرنسي خلال عام ١٩٢٥ وحتى عام ١٩٢٧. ففي منتصف كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٥ عين سعيد العاص قائداً لحملة حمص وحماه، فسار إلى الشمال، وقام مع مجاهدي النبك وحمص بتخريب جسر الحارون. ومن هنا اتخذ لقب «قائد المنطقة الشمالية في حروب سوريا المقدسة» وكان يوقع به رسائله ومنشوراته، ثم عاد إلى الغوطة واشترك في معارك الميدان وجوبر، كما اشترك في الهجوم على دوما، وخاض معارك المليحة، وبابيلا وحمورية وغيرها من قرى غوطة دمشق، ثم انتقل إلى الضنية وعكار وأكروم. وبقي يتنقل من موقع إلى موقع يبحث عن الموت في معارك الثورة السورية، إلا أن القدر جعله من شهداء فلسطين تعبيراً عن قومية المعركة الدائمة مع المستعمرين. أما المجاهد فؤاد سليم فقد تولى تنظيم الحركات في منطقة إقليم البلان ووادي التيم في

(١٤) سليمان الموسى، المصدر نفسه، ص ١٠١.

سفح جبل الشيخ، فخاض معارك مجدل شمس، وحاصبيا، وراشيا، واستشهد المجاهد يوم ١٣ نيسان/ أبريل ١٩٢٦ في مجدل شمس، دون أن يتمكن المجاهد حمد صعب من إنقاذه، لأن القنبلة التي قذفت إلى جسده، تفجرت تماماً بالقرب منه، فأصابت معظم شظاياها جسده الطهور[(١٥)]. ولم يمهله الموت مشاركة رفيق نضاله أحمد مريود، لأن واقعة استشهاده جاءت قبل أيام قليلة من قدوم أحمد مريود إلى سوريا[(١٦)].

وكانت الثورة السورية التي انطلقت عام ١٩٢٠ تعاني من انتكاسة كبيرة، بعد أن شن الجيش الفرنسي هجوماً عاماً على قوات المجاهدين مستعيناً بأنواع الأسلحة الثقيلة الفتاكة، فتمكن من إضعاف الثورة في جبل العرب، واضطر معظم المجاهدين للنزوح إلى الأردن. ويمكن القول أن هذه الانتكاسة، كانت العامل الأهم في استعجال قدوم المجاهد أحمد مريود إلى أرض الوطن. وكان ينطلق من حقيقة وطنية بقيت تراوده منذ خروجه من الأردن عام ١٩٢٤. وهي أن الثورة لن تنجح، ولن تكتسب صفة الثورة المستمرة، إلاّ إذا كان قادتها ورموزها في المواقع الأمامية. كان هو دوماً في المقدمة وفي طليعة الحشد. ومن خلال هذا الفهم لطبيعة الواقع الذي يعيشه الثوار، والحالة التي يعيشها الشعب العربي السوري بعامة، طلب الزعيم الوطني والمجاهد الكبير أحمد مريود، من الملك فيصل تسهيل مهمة العودة إلى سوريا، وذلك في

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(١٦) دفن الشهيد المجاهد فؤاد سليم في قرية «سحيتا» على سفح رابية تدعى «تل الأسود» وقد شيّد ضريحه المجاهد الكبير صبحي الخضرا رفيقه في العقيدة والكفاح ضد الاستعمار وزوج أخت الشهيد: قيل إن فؤاد سليم طلب من رفيقه في المعركة حمد صعب شربة ماء قبل أن يفارق الحياة، وآخر عبارة قالها كانت: «ومبلغ نفس عذرها مثل منجح»، (انظر: سليمان الموسى، المصدر نفسه، ص ١٠٤).

اجتماع حضره رئيس الأركان العراقي اللواء نوري السعيد، والقائد صبحي العمري من كبار ضباط الحرس الملكي، وعثمان قاسم من قادة حزب الاستقلال، ومحمود الهندي الضابط السابق في الجيش العربي وقد تمّت مناقشة المواضيع التالية:

١ ـ الدور البريطاني المشبوه ومدى تأثيره في السياسة الإرهابية التي تمارسها سلطات الانتداب الفرنسية بحق الشعب العربي السوري وقواه الوطنية.

٢ ـ فتح الحدود العراقية ـ الأردنية، والعراقية ـ السورية، أمام المجاهدين ومدّهم بالسلاح والعتاد، وتقديم الحماية الأمنية لهم عند الحاجة.

٣ ـ مخاطبة الحكومة المصرية، و«مكتب القاهرة» من أجل تسهيل سفر من يرغب من السوريين إلى بلدهم، وذلك بمنحهم وثائق سفر مرور إلى فلسطين أو الأردن[١٧]...

٤ ـ إيفاد عدد من الضباط العراقيين إلى سوريا لتقصي الحقائق، والوقوف عن كثب، لمعرفة وتوثيق الأعمال الإرهابية والتدميرية التي تقوم بها سلطات الانتداب الفرنسي بحق المدن والقرى السورية، ويفضل الضباط الذين سبق لهم الخدمة في الجيش العربي[١٨].

٥ ـ الاتصال برجال وزعامات الحركة الوطنية العراقية لتحريك الرأي العام العراقي ضد الممارسات الإرهابية الفرنسية بحق

(١٧) رفضت أجهزة «مكتب القاهرة» منح فؤاد سليم وثيقة سفر مرور، وغادر القاهرة إلى فلسطين ومنها إلى سوريا بطريقة سرية.

(١٨) أوفد الملك فيصل القائد صبحي العمري، وتمّ اعتقاله من قبل الفرنسيين وأخيراً أبعد إلى العراق، ثم عاد مرة ثانية وبقي في سوريا ستة أشهر.

رجال وزعامات الحركة الوطنية السورية، ودعوة الشعب العراقي للتضامن مع الشعب العربي السوري ونصرته، وذلك من خلال التظاهرات، وعقد الندوات الشعبية في المدن العراقية، وبخاصة في بغداد..

وفي هذا اللقاء أوضح الملك فيصل، طبيعة العلاقات القائمة بين بريطانيا وفرنسا، وذلك من خلال معاناته السابقة معهما في مؤتمرات الصلح، وأكّد على عدم الفرق في سياسة الطرفين «رغم أن بريطانيا أشعرتنا بغير ذلك، وادعت أنها فشلت في منح سوريا الاستقلال التام كما كنا نطالب به» وتحدث الملك فيصل عن طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين الحركة الوطنية العراقية، ووصفها «بالممتازة ليلاً والفاترة نهارا»؟! وفهم من كلامه، أن الحركة الوطنية العراقية كانت تقدر موقف وظروف الملك فيصل في ظل الوجود البريطاني، فكان يجتمع برموزها في الليل ويضعهم في صورة الأحداث، ويرسم معهم الصورة المستقبلية للعراق والوطن العربي، وفي النهار تنقلب الحركة الوطنية إلى معارضة، وتطالب بالإصلاحات السياسية والاقتصادية، وذلك بالاتفاق مع الملك فيصل شخصياً. وقد لخص فيصل هذه العلاقات بقوله: «إنها علاقات منظمة تحكمها الأهداف والمشاعر القومية، وأسرارها بدة عن أعين الآخرين».

دث المجاهد أحمد مريود في هذا اللقاء مطولاً، بدأه عن المرحلة ضالية التي سبقت الثورة العربية الكبرى، حيث كان الشاهد الأساسي على نضجها وعمقها القومي الملك فيصل شخصياً، إلى أن قدر له أن يكون القائد لتلك المرحلة النضالية، وذكّر الزعيم مريود الملك فيصل بخطاباته الحماسية والتي كانت تدعو الشعب العربي إلى ممارسة العنف الثوري من أجل الاستقلال ووحدة البلاد

المحررة من الاستعمار التركي وبخاصة البلاد الشامية صاحبة الفضل في تحقيق الانتصار، ودعا الزعيم مريود في حديثه أن يبقى الملك فيصل عند حسن ظن الشعب العربي فيه، وأن يمارس دوره العربي كملك يستطيع أن يتحرك من مواقع القوة والشرعية، وبيّن مريود في حديثه أهمية النضال القومي المشترك خدمة للقضايا الوطنية، كما أن النضال الوطني في المحصلة يصبّ في المسار القومي، وهذا يعني أن انتصار الثورة في سوريا، وانتهاء الانتداب عنها، سيعجل في انتهاء الانتدابات على بقية الدول العربية وبخاصة العراق والأردن ومصر، وعندها ستفقد الصهيونية أيضاً حلمها القائم على قاعدة وعد بلفور، بتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين. كان حديث الزعيم أحمد مريود كمواطن عربي، وأحد الرموز الجهادية في الوطن العربي، ينطلق من فهمه لحقوق الشعب العربي في الوحدة والاستقلال، وكان الملك فيصل ينطلق في رده على تفهمه الجيد للسياسة الاستعمارية وذلك من خلال تجاربه في السلم أثناء المفاوضات في باريس ولندن، وفي الحرب التي أدت إلى خروجه من دمشق بعد معركة ميسلون، هذا بالإضافة إلى الأحداث التي جرت في الحجاز، والتي أدت إلى نفي والده وخروجه من الحجاز إلى قبرص، وليس إلى الأردن أو العراق أو فلسطين، كما كان يرغب..

وعند مناقشة موضوع إيفاد بعض الضباط من الجيش العراقي إلى سوريا لتقصي الحقائق، ونقل صورة حيّة عمّا يجري في المناطق السورية، اعترض رئيس أركان الجيش العراقي نوري السعيد[١٩]،

(١٩) نوري السعيد كان أحد ثلاثة خربوا الجهد السياسي والحربي للحكم العربي في سورية كما سبق ذكره في هذا الكتاب.

واعتبر ذلك مشاركة عراقية رسمية في أحداث الثورة القائمة ضد سلطة صديقه تربطها بالعراق الواقع تحت سلطة انتدابية بريطانية معاهدات تنظم هذه العلاقة بين الطرفين. وزعم نوري السعيد، أن الظروف التي يعيشها العراق تفرض عليه الالتزام بتلك المعاهدات والتي من أهم بنودها عدم التدخل في الشؤون الداخلية، كما أن نظام الخدمة العسكرية يمنع انتقال الضباط والجنود خارج حدود العراق إلاّ في أوقات الحرب المعلنة. وقبل أن يكمل نوري السعيد حديثه، عاجله القائد صبحي العمري بتقديم استقالته من الجيش العراقي، وخاطبه بلهجة تجاوزت حدود الربط والضبط العسكريين وقال:

«أنا من مواليد دمشق، ومن حقها عليّ الدفاع عنها وعن أبنائها، التحقت بالجيش العراقي ومن قبله في الجيش الأردني، ليس بدافع العيش، بل بدافع الانتماء القومي، وهذا الدافع يدفعني أن أقدم استقالتي من الجيش العراقي لأنتقل إلى صفوف المجاهدين في سوريا، وإذا لزم الأمر، فأنا أتنازل عن جنسيتي العراقية، إذا كانت هذه الجنسية تعوق التحاقي بالثورة».

وهنا تدخل الملك فيصل، الذي كان يحب العمري كثيراً ويعرف جيداً دوره العسكري في معارك الثورة العربية الكبرى وبخاصة في غزة والطفيلة وتصديه البطولي في معارك الكرك ضد الجيش التركي، وانتصاره البطولي على قوات أمير اللواء التركي حامد فخري في معركة الطفيلة. واقترح ـ الملك ـ أن يسافر العمري إلى سوريا بموجب إجازة طويلة مدتها ثلاثة أشهر. وله حرية العمل في سوريا، طالما أنه في إجازة، وليس في هذا الأمر مخالفة لنظام الخدمة العسكرية، فوافق العمري، وأصدر نوري السعيد أمر الإجازة دون رغبة منه، ليس خوفاً على صبحي العمري من الموت

بل رغبة منه في عدم مقاتلة الجيش الفرنسي كصاحب فضل عليه[٢٠]. وفي بداية شهر نيسان/ أبريل ١٩٢٦، تجدد اللقاء بين الملك فيصل والمجاهد أحمد مريود قائد الثورة وكان الغرض الأساسي من هذا اللقاء، هو لإبلاغ الملك قرار العودة والسفر إلى سوريا لتجديد الثورة ورفع مسارها الجهادي في كل المناطق السورية، على قاعدة التلاحم النضالي، ووحدة الكفاح بين الثورات المناطقية وقيادتها الوطنية..

وبيّن المجاهد مريود، ضرورة العمل والإعداد والعودة إلى سوريا، واقتنع بها الملك فيصل وقال له:

«إنني لمقدر موقفك الوطني هذا، الذي يعبر عن عمق إخلاصك للمبادىء التي من أجلها ناضلنا جميعاً.. أشاطرك وأشاطر الشعب السوري الذي يقدم كل يوم عشرات الضحايا، كره الاستعمار الفرنسي الذي تجاوز حدود العقل والمنطق..».

وذكر الملك فيصل، أن الدوائر الاستعمارية في فرنسا، تعمل على تشويه الثورة العربية من خلال نفي الهوية القومية عنها، فأطلقت عليها ثورة الشريف حسين، وصورتها بأنها من خلق الاستعمار

(٢٠) جاء في كتاب: صور من البطولة، لمؤلفه سليمان الموسى، أن صبحي العمري، غادر العراق إلى الأردن «وجهز نفسه ثم انتقل إلى وادي الشلالة حيث ألّف عصابة تضم حوالى أربعين ثائراً، وسار على رأسهم إلى جبل الدروز والغوطة. وقد اشترك في معركة كناكر على طريق قطنا، وكذلك في معركة داعل وهي المعركة التي استشهد فيها حسين المدفعي أحد الضباط في الثورة العربية الكبرى (وهو فلسطيني من قرية مادما قرب نابلس). وظل العمري يقاتل في صفوف الثورة السورية مدة خمسة أشهر عاد بعدها للالتحاق بالجيش العراقي». ومن أقوال العمري المشهورة: «لقد تركت الجيش التركي، لا عن فكرة أو حماس طارئين، بل نتيجة لأفكار وحوادث وأمور ظلت تتجمع وتتفاعل في نفسي طيلة سنتين. لقد رأيت بعيني حالة البؤس والشقاء الذي كان يعانيه أبناء قومي.. جئت ناقماً متحمساً لاشترك في إنقاذ أبناء أمتي من الظلم والذل واستعمار الأتراك».
(أنظر سليمان الموسى، من ص ١٨٣ إلى ١٩٥. وانظر مذكرات العمري)..

البريطاني. وقد تركت تلك الدعاية الشريرة أثرها عند عرب شمالي أفريقيا[٢١].

وقد ردّ عليه المجاهد أحمد مريود بقوله:

«إن الثورة العربية هي بنظرنا نحن في حزب الاستقلال، ثورة كل العرب، ولم تكن ثورة رجل أو فئة، أو ولاية عربية، كانت ثورة الشعب العريق، صاحب الإسهامات البارزة في الحضارة العالمية. لذلك من حق الثورة علينا نحن العرب جميعاً، أن نجدد وقودها، وأن نشعل نارها من جديد. فقد استحقت صفة «الكبرى» لأنها الثورة الوحيدة الأكبر في تاريخ العرب الحديث. لقد قامت باسم عرب آسيا وأفريقيا، وباسم القومية العربية. وحارب في جيوشها رجال من كافة الأقطار العربية، وبخاصة من الحجاز، وسوريا، والعراق، وفلسطين، والأردن، ولبنان، وتعاطفت معها مصر العربية بالرجال والفكر وكذلك تونس والمغرب الأقصى».

وهنا عرف الملك فيصل مقصد الزعيم الوطني أحمد مريود، فقال له:

«إن ظروف ما قبل الثورة تختلف عن ظروفنا الحالية، نحن الآن لا نملك حرية القرار حتى في أسهل القضايا في بلادنا. فالاستعمار الغربي يخاف من الفكر القومي والأهداف الوحدوية، فبريطانيا مثلاً نراها حيادية في مسألة الثورة السورية، فهي لا تبالي إذا هزمت فرنسا، وهو الموقف نفسه وقفته فرنسا من الحرب الحجازية.. إنهم لا يخافون إلاّ من وحدة العرب لأن فيها القوة الشاملة على الاستعمار الشامل».

---

٢١) سليمان الموسى، المصدر نفسه، ص ٣٨.
أطلق الكاتب الفرنسي «ونستون» على الثورة العربية الكبرى، اسم ثورة الشريف حسين في الحجاز، وألّف عنها كتابه المعروف «المغامرة غير المشروعة» وقد مجّد فيه الجيش الفرنسي، عندما قام باحتلال دمشق عام ١٩٢٠.

وقد ردّ الزعيم المجاهد أحمد مريود على الملك فيصل بقوله:

أرى أن المسألة نسبية يا صاحب الجلالة. فالتفاهم القائم بين فرنسا وبريطانيا، هو استراتيجي، فإن وجد ما يشبه الخلاف، فهو الخلاف على تقسيم الغنائم بعد الحرب، فكل طرف يريد غنيمة أكبر من أراضينا، وهذا الاختلاف لا يخضع لحسابات الخصومة الدائمة، والدليل على ذلك، أن الإنكليز في فلسطين والأردن كان لهم الدور الكبير في انتكاسة الثورة السورية. وعندما اشتكت فرنسا لبريطانيا من أعمالنا الجهادية ونحن في الأردن، سيّرت حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين دوريات عسكرية لإلقاء القبض على الثوار، وكنت أنا أول المطلوبين، ولولا تدخل الشعب الأردني الذي قام بالمظاهرات، وتمرد الضباط العرب على أوامر الجنرال «بيك» كما فعل القائد محمد علي العجلوني وغيره من الضباط الأردنيين، لقامت سلطات الانتداب البريطاني بتسليمنا إلى سلطات الانتداب في دمشق، ولكنها اكتفت كما تعرف بإخراجنا من الأردن، وحرمتنا من أعظم قاعدة متقدمة كنا ننطلق منها بعملياتنا الجهادية.. وأعتقد لو شعرت بريطانيا بهزيمة فرنسا على يد الثوار، فإنها لن تقف على الحياد، لأن نجاح الثورة في سوريا، يعني نجاح ثورة مقبلة على الإنكليز في فلسطين أو الأردن».

وكان الزعيم الوطني أحمد مريود ينطلق من حقيقة ثابتة وهي أن الثورة العربية تشكل الإرث التاريخي للأجيال العربية، وهي ثورة عربية خالصة ترفض أية مساعدة غربية، لأن مساعدتهم كانت غير صادقة، وغير قابلة بأهداف وحدة العرب.

وقال الملك:

«لقد حكم عليك بالإعدام أكثر من مرتين. ودمّر منزلك، وصودرت أموالك ماذا بقي من تضحيات، وأعلمك أن بريطانيا لن تكون راضية عن وجودك في سوريا لأسباب أنت تعرفها

جيداً وهي قرارك محاربة الاستعمار الغربي الإفرنسي والبريطاني في سوريا والأردن وفلسطين والعراق وبلاد الكنانة ووادي النيل».

وقال الزعيم أحمد مريود في كلمة الوداع:

«الوداع يا أحرار العراق لا تراجع عن قرار عودتي إلى سوريا، إنه قراري الصريح الذي ينبع من المبادىء التي آمنت بها وجمعنا عليها حزب الاستقلال كلنا دون فارق.. كان سفري سابقاً بقرار المستعمر الغربي وإلى منفى جديد، أما الآن فالقرار من وحي إرادة الشعب وتلبية لرغبة جماهير المجاهدين في سوريا. وأذكّر المناضلين بالعبارة التي أصبحت تاريخية وقالها الملك في دار البكري يوم تنفيذ الإعدام بالمجاهدين، «طاب الموت يا عرب». فها أنا أعيدها لكل العرب «طاب الموت يا عرب..».

وهكذا انتهى اللقاء ولم يتكرر.

وفي اليوم التالي عقد الزعيم أحمد مريود أوسع اللقاءات مع زعماء الحركة الوطنية العربية، وشخصيات وطنية من المغرب العربي، وفلسطين والأردن والحجاز ولبنان(٢٢)، وأبلغهم قرار عودته إلى سوريا لتجديد زخم وحيوية الثورة السورية، وقال لهم:

«إن لكل شيء نهاية. وآن الأوان لنهاية إقامتي وبعض الإخوة الذين جاءوا معي من الأردن سنة ١٩٢٤، في العراق الغالي الذي وفرّ لنا كل مقومات العمل والاتصال مع بلدنا وثوارنا.. إن رحلتنا عبر البادية الأردنية ستكون بلا شك رحلة صعبة

(٢٢) إن الزعيم أحمد مريود، كان يعقد اجتماعاً دورياً في الأسبوع الأول من كل شهر في منزله، يحضره رجال السياسة والفكر والأدب من أبناء الوطن العربي وبخاصة من الشخصيات الوطنية العراقية. وكان المجاهد محمود الهندي يشرف على تنظيم هذه الاجتماعات وذلك من أجل الحرص على النضال القومي، وضرورة تطويره إلى أرقى مستويات التنظيم، للوقوف بصلابة أمام الفكر الاستعماري الذي يستهدف استغلال الوطن العربي ونهب ثرواته من خلال التجزئة، حتى في ظل الانتدابات.

وقاسية ونحن في أول الصيف، ولكنها لن تكون أصعب من رحلة المجاهدين التي لا يعرف نهايتها لكثرة طرقها ومحطاتها، وكثرة قطاع الطرق فيها، لا سيما الغربية الفرنسية الكاسرة هذه المرة وقد تكون الإنكليزية غداً. إن الواجب القومي المفروض على كل من يستنشق الهواء من سمائنا العربية، يدعو كل المخلصين الشرفاء أن يكونوا في مواقع الكفاح والجهاد، فالذين جاءوا من وراء البحار، بهدف الاستعمار وإذلال الشعوب، فالأجدر بنا ونحن نقاتل بهدف الحرية واستقلال بلادنا، أن نسبقهم إلى ساحات الكفاح من أجل الحرية، لأن الحرية لا تمنح للضعفاء، بل الأقوياء بالعقيدة والحق، هم الذين يحصلون على حريتهم بالتضحية والفداء..

إن قرار عودتي ورفاقي إلى ساحات القتال، ينبع من قناعات أن شعبنا بحاجة إلى كل طاقة وقدرة تساعد صمودهم بوجه الإرهاب الفرنسي، وعلينا أن نكون في المقدمة، فالجهاد مسؤولية قومية تشرفنا، ونحن لها بإذن الله»[٢٣].

وفي اليوم التالي بدأت رحلة نضالية جديدة، فعبر الحدود الأردنية من منطقة «الرويشد» وقصد مواقع «بني صخر» حيث كان في استقباله الشيخ الجليل حديثة الخريشة ووجهاء قومه، وعقد معهم عدة اجتماعات، فأكرموا وفادته، واستعدوا أن يكونوا السند الوفي للمجاهدين والثوار بقيادة الزعيم أحمد مريود. ومن تلك المواقع تحرك أحمد مريود ورفاقه إلى جبل العرب، ومعهم مجاهدون من الخرشان انضموا إلى قائد الثورة، وحال وصوله جبل العرب بدأ مشاوراته مع المجاهد سلطان باشا، الأطرش، وكبار الثوار في الجبل الأشم.

(٢٣) المعلومات الواردة في هذا الفصل من مذكرات وأوراق تركي الكايد، سعيد العاص، صبحي العمري، وكتاب سليمان الموسى، صور من البطولة، وبخاصة دراساته عن فؤاد سليم ومولود مخلص، وأحمد مريود.

الفصل السادس

التعبئة
الشعبية للثورة

لما أُعلن عن عزم عصبة الأمم على إرسال لجنة الاستفتاء إلى سوريا كان الشعب مجمعاً على طلب الاستقلال التام ورفض كل مساعدة أو حماية أو انتداب. ولكن مجموعة من القيادين غيّرت موقفها ورأيها باستثناء أحمد مريود الذي بقي عند موقفه «الاستقلال بلا شروط» وكانت الحجة التي استند إليها أولئك الذين تغيّرت مواقفهم بطلب المساعدة الأميركية أو البريطانية هي كسب صداقة هذين البلدين وتوقع عونهما على ردّ المطامع الفرنسية.

وقد عقد في منزل آل البكري اجتماعان الأول جماهيري حاشد والثاني خاص شارك فيه رجالات حزب الاستقلال والهيئة الاستشارية ومن بين المشاركين كان: أحمد مريود، أسعد داغر، محمد العظم، عبد الرحمن اليوسف، عزة دروزة، عبد الرحمن الشهبندر، شكري القوتلي، عوني عبد الهادي، خير الدين الزركلي، بهجـت الشهابي، فوزي الغزي، فخري البارودي، جميل مردم، سعدالله الجابري وغيرهم.

بعد مناقشات طويلة قال الأمير فيصل بوجوب قبول الإنكليز والأميركان. إلاّ أن أحمد مريود ظل مصرّاً على أنه لا يجوز أن تسمع لجنة الاستفتاء، غير طلب الاستقلال التام والناجز وأكد على ضرورة بناء القوة الذاتية ورفض كل المساعدات المشروطة «رفضنا الوصاية والانتداب وأنه لا حياة لشعبنا إلاّ ببناء الدولة المستقلة بالرأي وبالقرار». وهنا وقف أسعد داغر مؤيداً ومخاطباً الأمير فيصل بأنه لا يجوز لنا اعتماد أقوال رجال السياسة الغربيين الذين أنكروا المعاهدات والمواثيق وخاصة تلك التي ارتبطوا بها مع الشريف حسين بن علي. ومن الملاحظ أن أحمد مريود كان خلال ذلك الاجتماع التاريخي الحاسم بحالة ذهنية ونفسية عظيمة الشفافية والوضوح، إذ رأى بنظره الثاقب ما لم يره غيره. ولم يقنعه موقف الأمير فيصل وعاد فكرر رأيه بألا حياة لشعبنا إلاّ ببناء الدولة المستقلة، عربية القرار والرأي ووضع برنامج صريح لا نحيد عنه يقينا من براثن المطامع المحيقة بنا وتكاد تطبق علينا.

أسعد داغر

مذكراتي على هامش القضية العربية

١

من العراق إلى الأردن

كان ثورة الزعيم الوطني أحمد مريود تصارع الاستعمار الغربي تارة باليراع، وبالبندقية تارة أخرى، ومنذ بدأت ثورته الدائمة (دوام سني عمره) ضد الفرنسيين عام ١٩١٩، وعبأت الجولان والعرقوب وجبل عامل، والجنوب اللبناني، ونازلت العدو الفرنسي لتمنع دخون الغزاة الأفرنسيين عن طريق مرجعيون، وقد استطاعت ذلك ومنعت دخولهم عبر معارك كثيرة ومشهودة ليس أقلها معارك مرجعيون والنبطية والمطلّة وغيرها الكثير. ثم نازلت العدو الفرنسي الغازي في البقاع وكسبت واعتقلت الأسرى وقدمتهم إلى ضابط الارتباط في الجيش العربي الرسمي عربون تعاون وتلاحم مع الجيش العربي الشعبي «المجاهدين»[1].

(١) شرعت الحكومة العربية بتشجيع الحركات الشعبية الوطنية والتي كان يطلق عليها بعبارة «العصابات» الوطنية المجاهدة، وصدر عن قائد فرقة حلب القول الآتي: «ولما كنا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً على الفرنسيين، يجب علينا أن نملأ البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجاً».

(راجع قدري قلعجي، جبل الفداء، ص ٣٨٦).

وقد ذكر البعيني في كتابه: «دروز سوريا ولبنان» أن الحركات الجهادية عملت بالتعاون مع الجيش النظامي، وعملت أحياناً باستقلالية عن الحكومة. وكانت معظم=

كما شاركت ثورة الزعيم مريود في معركة ميسلون المجد والفخار والاستشهاد، وانتقلت إلى الأردن بعد ميسلون وسقوط الحكم العربي في دمشق، وجاء اختيار الأردن لأنه الأكثر قرباً إلى الجولان، وتمركزت قيادة الثورة ـ كما ذكرنا في الفصل الرابع ـ في قرية كفرسوم[٢] «المنطلق الأقرب جغرافياً والأكثر حماساً ووفاءً، حيث صديقه الأغر المناضل القائد رفيقه بالسلاح والعقيدة تركي باشا الكايد العبيدات. واستمرت أربع سنوات في قيادة العمل النضالي والثوري ضد الاستعمار الغربي في الأردن وعبر حدوده مع سوريا، وذلك من خلال حرب مغاوير جريئة متلاحقة

العمليات الجهادية تنطلق من سفحي جبل الشيخ ومرجعيون، وشارك أهالي الإقليم ووادي التيم وبلدة إبل السقي بالعمليات الجهادية، وكانوا يقدمون المأوى والطعام لأفراد التنظيمات الجهادية.

وفي ثورة الزعيم الوطني أحمد مريود الأولى التي أعلنها عام ١٩١٩، شارك مجموعة من الضباط العرب، وكانوا يشرفون على تدريب العناصر الجديدة المنضمة للثورة، كما اختار قائد الثورة مجلساً استشارياً. اختارهم من الضباط الكبار أمثال، القائد محمد علي العجلوني، والقائد علي خلقي، والقائد تيسير ظبيان وغيرهم من كبار ضباط الجيش العربي. وأكد علي خلقي في مذكراته: «إن وزارة الحربية هي التي فرزت الضباط وأرسلتهم للثورة التي انطلقت من القنيطرة، وقالت (وزارة الحربية) أن هؤلاء الضباط هم الذين تركوا الخدمة العسكرية».

(٢) عندما جاء الزعيم أحمد مريود قرية كفرسوم عام ١٩٢٠، وأعلنت حالة التآخي بين أهالي القرية وجموع المجاهدين الذين رافقوا مريود (على طريقة التآخي بين المهاجرين والأنصار بعد هجرة الرسول العربي الكريم من مكة إلى المدينة المنورة) فعتبت عليه عشيرة المهيدات التي تقيم في قرية كفر أسد في الأردن، لأن أحمد مريود اختار كفرسوم مكان إقامته المؤقتة، وقال زعيم عشيرة المهيدات «نحن أهلك ونسبك وعشيرتك فلماذا لم تختر بلدتنا». فرد عليه الزعيم مريود بقوله: «إن العلاقة الكفاحية بيننا وبين عشيرة العبيدات عمّدها الشيخ الزعيم الشهيد كايد بالدم، كما أن كفرسوم هي الأقرب جغرافياً للجولان ورغم اعتزازي الأكيد بانتمائنا إلى دوحة واحدة يا أهلنا المهيدات الكرام فإنني.. أؤكد لكم أننا كنا سنأتي كفرسوم حتى لو كانت لقبيلة العدوان التي تربطهم بنا علاقة خؤولة نذكرها بكامل الارتياح رغم ما عُرف من علاقاتنا بهم في الزمن البعيد من خصومات، عفنا الله عنها وانتهت».

كيلا يهدأ للاستعمار الفرنسي في سوريا قرار»[٣]. وفي سنة ١٩٢٤، وبعد أن تغلبت قوى الاستعمار الإنكليزية الآتية من فلسطين، انتقلت الثورة لتنشط وتقاوم بالفكر والقلم في كل من مصر والجزيرة العربية والعراق، إلى أن عادت الثورة الدائمة، ثورة الزعيم الوطني أحمد مريود متنكبة بندقية العرب، كل عرب المشرق (بعد ذلك الجهاد الفكري والسياسي والإعلامي في الأقطار سالفة الذكر)، عادت إلى سوريا مؤسسة للثورة الشاملة في كافة جنبات هذا القطر المناضل العنيد، وبدأت الرحلة الطويلة من خانقين العراق، إلى رويشد الأردن، البلد العزيز عليه، أرضاً وشعباً، وقيادات شعبية، فلاحية وبدوية، كانت سنده وقوته، كما كان سيفها المسلول ضد القوى الاستعمارية الغربية، خلال أربع سنوات بدأت عام ١٩٢٠ وانتهت بقرار خروجه من الأردن عام ١٩٢٤.

وعلى بركة الله، غادر الزعيم الوطني أحمد مريود أرض العراق، ودخل الأراضي الأردنية عن طريق «الرويشد» الحدودية. وكان باستقباله زعماء ووجهاء العشائر البدوية، وبخاصة زعماء: الخرشان والدغمي، والقاضي، وقد فاز الشيخ حديثة الخريشة، زعيم عشائر «بني صخر» باستضافته لمدة يومين، عقد خلالها الضيف الكبير، عدة اجتماعات ولقاءات مع مشايخ العشائر من وسط وشمال الأردن، الذين توافدوا إلى مضارب وسكن «الخرشان» للسلام على صديقهم، وللاطمئنان على مسيرته النضالية، ولتقديم كل وسائل الدعم لمتابعة مسيرته الكفاحية وقبل سفره بليلة واحدة، جاءه إلى مكان إقامته، مشايخ العبيدات، والزعبي، والمهيدات، وطلبوا منه الإقامة في كفرسوم أو الرمثا لمدة

(٣) تركي باشا الكايد النجل الأكبر للزعيم الوطني كايد العبيدات وخليفته في النضال.

قصيرة، ريثما يستكمل استعداداته للثورة، وخوفاً على سلامته من السلطات الفرنسية التي تراقب بحذر تحركاته ونشاطاته، والتي من الممكن أن تنال منه عند دخوله الأراضي السورية، إلاّ أن الزعيم العائد من أجل أن تبقى الثورة مستمرة، ومن أجل انتشارها في كل المناطق السورية، اعتذر لأصدقائه المشايخ وشكرهم. وكان الشيخ تركي كايد العبيدات، زعيم منطقة الكفارات، قد عرض عليه أن تكون كفرسوم وقرى المنطقة التابعة لزعامته تحت تصرفه كما كانت في السنوات الأولى لثورته، وقاعدة متقدمة لتجمع ثواره وانطلاقهم باتجاه الأراضي السورية. ومثل هذا العرض، تقدم به زعيم عشيرة المهيدات، وكذلك زعيم عشيرة الزعبي في الرمثا. وفي نهاية اللقاءات والاجتماعات، تعهدت جميع تلك العشائر بتقديم الدعم المادي والمعنوي للمجاهدين ولقائدهم الزعيم أحمد مريود، وإن نصرتهم على العدو الفرنسي أمانة تاريخية في أعناقهم، وذكر عن الشيخ حديثة الخريشة أنه وضع أمواله بتصرف الثورة وقائدها، إلاّ أن الزعيم مريود اكتفى بمستلزمات السفر، وبعدد قليل من الخيول والجمال، وثلاثة من الفرسان الشجعان، من بينهم أحد أخوة الشيخ حديثة الخريشة. وتؤكد المصادر أن هؤلاء الفرسان اشتركوا في معركة جباثا الخشب، وقد ورد أسم بشير اليماني (في أحداث المعركة) على لسان أكثر المؤرخين الذين كتبوا عن معركة جباثا الخشب وقائدها.

وكان من أكثر اللقاءات حماسة وتأثيراً في المشاعر الوطنية والقومية، ذاك اللقاء الذي تمّ ما بين الزعيم أحمد مريود وجموع لواطنين السوريين الذين نزحوا من إقليم الجولان إلى جبل العرب، من الجبل إلى الأردن بعد اشتداد المعارك بين الثوار والفرنسيين، واستقر بهم المقام في واحة الأزرق من الجنوب الأردني، فوجدوا

في قائد وزعيم منطقتهم الأمل في عودتهم إلى ديارهم، وليأخذوا دورهم ومواقعهم من جديد في ثورتهم الدائمة، ثورة الزعيم أحمد مريود. وقد رحّب مريود بعودتهم إلى أرض الوطن، بل طلب منهم العودة، وتحمل مسؤولية حمايتهم، ومما يذكر أن هؤلاء قد تعرضوا للقتل والنهب من قبل عرب اللجاة وفئات أخرى من إقليمهم ناصبتهم العداء، خلال غياب الزعيم أحمد مريود عن أرض الوطن.

وفي أوائل شهر نيسان/ أبريل غادر مريود البادية لتبدأ المرحلة الثانية من رحلته إلى جبل العرب.

٢

من الأردن
إلى جبل العرب

غادر الزعيم الوطني أحمد مريود البادية الأردنية في ٢٩ نيسان/ أبريل ١٩٢٦ باتجاه جبل العرب، ووصل قرية «جدل» إحدى قرى اللجاة، وكان في استقباله عند مشارف القرية المجاهد الكبير سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، والأمير عادل إرسلان، وغيرهم من وجهاء وزعماء جبل العرب.. وقد تركزت المباحثات في قرية «جدل» على وضع الخطط اللازمة لدفع مسارات الثورة لتحقيق أهدافها، وفرض حالات القلق المستمرة في صفوف القوات الفرنسية المعادية، كما جرت مناقشة الأسباب التي أدت إلى تراجع العمل الجهادي في بعض الأقاليم والمناطق. وتم الاتفاق على توحيد فعاليات الثورة، وإحياء العمل الجهادي في إقليم الجولان بعد عودة الزعيم الشعبي.

وفي مساء اليوم نفسه، انتقل أحمد مريود والرموز القيادية في جبل العرب إلى قرية «القريا» قرية الزعيم سلطان باشا الأطرش لاستكمال المباحثات والمناقشات الخاصة بتفعيل الثورة وانتشار فعلها الجهادي في كل المناطق السورية، باسم الثورة السورية،

والتخلص من رد الفعل المناطقي غير المركزي، وغير المؤثر في عمليات المداهمة والإرهاب الفرنسي. وقد انضم المجاهد عز الدين الجزائري إلى اجتماعات القريا، وكان لحضوره الدور المميز في توحيد وجهات النظر، وبخاصة في ما يتعلق بفتح جبهة إقليم الجولان والحرمون، وإعلان الثورة من «جباثا الخشب» بعد تشكيل الجيش الجهادي من مقاتلي الغوطة دمشق بالإضافة إلى مجاهدي الجولان والحرمون..

وفي هذا الاجتماع تمّت مناقشة أسباب الخلافات في كل من جبل العرب والغوطتين، وعكار أيضاً، وجرى تقييم المرحلة الكفاحية للثورة من عام ١٩١٩ إلى انحسارها في بعض المناطق، وضعف أدائها في مناطق أخرى، كما نوقش الدور الإنكليزي في التآمر على الثورة، وخلق حالة التيئيس عند زعامات بعض المناطق.

من خلال كل ذلك نفهم أن فعاليات الثورة كانت متوقفة قبل قدوم الزعيم مريود إلى البلاد، وأنه أمام هذه الحالة سيبدأ من حيث بدأت الثورة. وكان القائد أحمد مريود يعلم أنه أمام مسؤولية كبيرة، فحشد جهود كل المخلصين الشرفاء، للتخلص من حالات اليأس والتردد، ودفع مسيرة الكفاح الوطني والقومي إلى أعلى درجات النهوض والانتشار والاستمرارية. ولكي نقف عند أهمية قدوم الزعيم الوطني أحمد مريود إلى البلاد، وأهمية وجوده على رأس العمل الكفاحي، سنتحدث عن مرحلة ما قبل قدومه، بخاصة عن حالات المناطق التي نوقشت أوضاعها في لقاءات قريتي جدل والقريا، في جبل العرب..

كان الفرنسيون في أثناء الثورة أحوج من أي وقت مضى إلى استعمال سلاح التفرقة لتحجيمها، وتشويه وجهها الوطني، وإثارة

المتاعب الداخلية لها، وتحييد بعض الفئات عن مناصرتها، وتأليب بعضها الآخر عليها. فمنذ أيامها الأولى بدأوا بنشر البيانات التحريضية ضدها، مصوّرين وجود استياء عند مسلمي جبل العرب والمقاطعات المجاورة، وعند المسيحيين، من الدروز[1].

وتسربت إشاعات فيما كانت حملة «ميشو» متجهة إلى الجبل عن نية الفرنسيين إسكان الأرمن مكان الدروز[2]. وبعد يومين من هزيمة الفرنسيين في المزرعة، وخوفاً من امتداد الثورة إلى حوران، طلب وكيل المندوب السامي في دمشق زعماء حوران ووعد باستقلال منطقتهم، وإعفائها من الضريبة عن عام ١٩٢٥، والسماح لسكانها بحمل السلاح وإعطائهم ألفي بندقية شرط أن يستعملوا السلاح ضد الدروز. لكن شيخ مشايخ حوران، إسماعيل الحريري، رفض استعمال السلاح المقدم ضد الدروز[3].

وفي وادي العجم وإقليم البلان والقنيطرة وزعت السلطة الفرنسية السلاح على المسيحيين والشراكسة، وخلقت اضطرابات قبل أن تصل الثورة إلى هناك.

لذا كان على الثوار وأنصارهم أن يواجهوا أساليب الفرنسيين بمشروع وطني، وأن يقوموا بحملة إعلامية واسعة لدحض إتهاماتهم واتهامات أعوانهم، وألاّ يلجأوا إلى أي فعل أو ردة فعل تحدث ثغرة ينفذ منها العدو، وأن يكونوا على مستوى أهداف ثورتهم القائمة على مبدأ وقاعدة تحقيق الاستقلال الوطني،

---

(١) حسن أمين البعيني، دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ - ١٩٤٠، ص ١٩٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٦.
(٣) حنا أبي راشد، حوران الدامية، ص ٣٥٠، ٤٢٧، وانظر حسين البعيني، ص ١٩٥.

فسلطان باشا الأطرش قال في أحد مناشيره «لقد أوقدنا نار هذه الثورة الاستقلالية بعد أن رزحت البلاد تحت كابوس الاستعمار أعواماً خمسة ثقالاً. ولسنا تاركين من أيدينا سلاحاً، ولا باغين من الفرنسيين سلماً ولا اصطلاحاً، حتى نبلغ بحدّ الحسام تمام المراد وهو تخليص كامل البلاد السورية العزيزة من احتلال المحتلين»(٤).

بدأ انتشار الثورة خارج جبل العرب، نظرياً عندما اتصل سلطان باشا الأطرش بمشايخ حوران ثم بزعماء دمشق من أجل المشاركة فيها، وعملياً عندما التحق العديد من المجاهدين بجبل الدروز. ثم تلا ذلك زحف الثوار نحو دمشق بناء على الاتفاق بين قادتهم وزعمائهم، إلاّ أن وقف زحفهم في (العادلية)، واضطرارهم إلى مواجهة حملة (غاملان) حصرت العمليات العسكرية مؤقتاً في الجبل. وبعد ذلك بدأت رياح الثورة تعصف في سائر المناطق. فبين مطلع تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٥ ومطلع تشرين الثاني من العام نفسه، عمّت الثورة معظم المناطق السورية، واجتازت الحدود اللبنانية، فبلغت في هذين الشهرين أوج انتشارها وقوتها ومدّها العسكري. وفي هذه المرحلة اتخذ الثوار موقف الهجوم، وكادوا يسيطرون على دمشق وحماه، وطهروا الإقليم والغوطة ووادي التيم من القوات الفرنسية، وشنوا الهجمات على خطوط المواصلات الرئيسية، فاضطر الفرنسيون إلى التقهقر والتجمع في المراكز المنيعة، وإلى إقامة التحصينات العسكرية حول دمشق لمنع تسلل الثوار إليها(٥).

كن لماذا حدث التراجع؟

(٤) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، الجزء الثالث، ص ٣١٢ ـ ٣١٥.
(٥) حسن أمين البعيني، المصدر نفسه، ص ١٨٠.

تداخلت مرحلة تراجع الثورة مع مرحلة انتصارها وتوسعها. فبعد تراجعها عن حماه ودمشق، انتصرت في الإقليم، وامتدت إلى لبنان الجنوبي والبقاع، وبعد تراجعها في جميع المناطق الثائرة، امتدت إلى الهرمل والضنية وبعلبك. وفي هذه المرحلة برزت عدة محطات مهمة شكلت نقاط تحول في مسار الثورة، نذكر منها[٦]:

أولاً: التراجع عن حماه، كانت حماه من المناطق التي حققت عدة انتصارات على الجيش الفرنسي بقيادة المجاهد فوزي القاوقجي، ولكن هذه الانتصارات ذهبت وتلاشت لعدم «وفاء أغواتها بوعدهم لفوزي القاوقجي، ووقوفهم ضد الثورة»[٧]. والتراجع عنها لا يعني عدم احتلال مدينة كبيرة تتحكم بخطوط المواصلات السورية بين الشمال والجنوب فحسب، بل يعني أيضاً إضعاف الاتجاه الثوري في كامل منطقة حماه وفي حلب وسواهما.

ثانياً: التراجع عن دمشق. كانت دمشق هدف الثوار الأول لما لها من أهمية سياسية واستراتيجية كونها العاصمة ومركز الثقل وعقدة المواصلات بين جميع الاتجاهات «وقد أخافوا الفرنسيين بمهاجمتهما وسيطرتهم على بعض أحيائها بمؤازرة قواها الثائرة لمدة ثلاثة أيام، فاستعمل الفرنسيون أسلوب القصف التدميري العشوائي لهذه الأحياء»[٨]. وقد وصف رئيس القسم السياسي في المفوضية الفرنسية، الكابتن

(٦) المصدر نفسه، ص ١٨١ ـ ١٨٤.
(٧) خيرية قاسمية، مذكرات فوزي القاوقجي، الجزء الأول، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٨) حسن أمين البعيني، المصدر نفسه، ص ١٨١.

يورجوا القصف العشوائي هذا «بالعمل المبرر»[٩] لأنه أضر بهم من الناحية المعنوية والسياسية، لما لاقاه من استنكار عربي ودولي، ولكنه أفادهم من الناحية العسكرية إذ اضطر وجهاء دمشق من أجل وقفه أن يتعهدوا بدفع غرامة قيمتها عشرون ألف ليرة ذهبية، وتسليم ثلاثة آلاف بندقية، وبوقف أعمال الثوار[١٠].

ونتيجة لهذا الموقف، تمَّ عزل الثورة سياسياً داخل المدينة وإبعادها عنها ومنع محاولة تجديدها، فكان ذلك تحصيناً سياسياً للفرنسيين إضافة إلى تحصيناتهم العسكرية التي أنشأوها حول دمشق لمنع تسلل الثوار العاملين في الغوطة.

إن تراجع الثوار عن دمشق، وقبل ذلك عن حماه، وبقاء سائر المدن السورية ساكنة، جعل الثورة محصورة في الأرياف، وأضعفها في مواجهة الفرنسيين الذين تخلصوا بذلك من حرب الشوارع ومن قطع مواصلاتهم الرئيسية.

ثالثاً: التراجع عن الإقليم والغوطة. كان لا بد للفرنسيين من أن ينهوا الثورة في الإقليم والغوطة لينصرفوا بكل إمكاناتهم العسكرية إلى مهاجمة جبل الدروز، وليؤمنوا مؤخرة قواتهم الزاحفة إليه. ونجحوا في تشتيت مجموعات الثوار العاملة في الغوطة وإضعاف المتكأ الشعبي الذي تستند إليه، إذ بات أهل الغوطة يمتنعون عن استقبال المجموعات الصغيرة غير الفاعلة التي تضر باستقرار الأهالي، ولكنهم أبدوا استعدادهم لاستقبال القوة الكبيرة التي تؤمن الحماية لهم

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) المصدر نفسه.

من الفرنسيين، وقد صارح نسيب البكري المجاهد سلطان الأطرش بذلك، بالرسالة التي بعثها إليه يوم ٢٣ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٢٦ وقال له: «إن أهل الغوطة لا يمكن أن يستقبلوا أية حملة جديدة من جبل الدروز بدون عراقيل، إلاّ إذا كانت قوية وباستطاعتها حمايتهم»(١١).

استعمل الفرنسيون في الإقليم كما استعملوا في وادي التيم أسلوب «الأرض المحروقة»، وهذا أدى إلى تدمير القرى ونزوح السكان. وقد أدركت قيادة الثورة أهمية الإقليم، لكونه خط الدفاع الأول عن جبل العرب، فكلف الأمير عادل إرسلان بقيادة حملة هدفها إعادة السيطرة عليه وإعادة النازحين منه، لكن هذه الحملة لم تمكث طويلاً هناك، بل عادت إلى الجبل، وقد اتهم الأمير عادل بالتقصير، وكانت هذه الحادثة من أسباب الخلاف الذي استمر طويلاً بين إرسلان والمجاهد سلطان الأطرش، وقد زعم الأمير عادل أنه عاد للاشتراك في الدفاع عن السويداء ضد الهجوم الفرنسي الذي قاده «أندريا».

رابعاً: التراجع عن لبنان الجنوبي والبقاع وتوقف مدّ الثورة القوي عند قلعة راشيا. فقبل إن يكمل الثوار احتلالها وصلت نجدة فرنسية زاحفة من الشمال فيما كانت نجدة أخرى تتجه إليها من مرجعيون، فاضطروا إلى الانسحاب ليتّقوا التطويق. وبانسحابهم تعدّل مسار الثورة لا في لبنان فحسب، بل في سوريا أيضاً، لأن الانسحاب شكل بداية العد العكسي في

(١١) من أوراق نسيب البكري المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية في دمشق تحت رقم ١٢٠/٢٩٥.

هذا المسار، وكان تراجعاً عن خطة قطع طريق بيروت ـ دمشق وحصار الفرنسيين في الداخل وقطع الإمدادات عنهم، وأضعف الاتجاه الثوري في المناطق اللبنانية(١٢).

استهدف الفرنسيون من هجومهم المضاد إعادة احتلال راشيا وحاصبيا والإقليم في وقت واحد. فبعد احتلالهم راشيا توجهوا إلى حاصبيا فأوقفهم الثوار بضعة أيام عند أبوابها قبل أن يتمكنوا من احتلالها. ومقابر الفرنسيين في تلك الجهات تدل على خسائرهم الكبيرة في المعارك التي دارت فيها(١٣).

والسبب المهم الذي حمل الثوار، وخصوصاً ثوار الإقليم على الانسحاب من حاصبيا هو تحاشيهم تطويق الفرنسيين لهم، وتعجيلهم في العودة إلى المجدل للدفاع عنها(١٤).

ترك الثوار مجموعات تعمل في وادي التيم والبقاع الغربي، فظلّت تشغل الفرنسيين حتى بداية شهر نيسان/ أبريل ١٩٢٦، وأنزلت بهم الهزائم في عدة مواقع أهمها: البيرة، والرفيد، وموقعة الفالوج التي أعادت بصورة مصغرة ما حصل في الكفر والمزرعة(١٥). لكن عملها توقف بعد أن ألزمت السلطة الفرنسية مخاتير الدروز وشيوخهم بدفع

(١٢) حسن أمين البعيني، المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(١٣) اكتشفت في عام ١٩٨٧ مقبرة جماعية في عين تنورة تضم رفات (٧) جنود فرنسيين وثائر عربي. أنظر جريدة النهار البيروتية عدد ١٥ حزيران/ يونيو ١٩٨٧ (حسن البعيني، ص ١٨٢).

(١٤) محمد سعيد العاص، صفحة من الأيام الحمراء، ص ٢٧٠، وانظر مذكرات فضل الله الأطرش.

(١٥) مذكرات سلطان الأطرش، الجزء الثاني، ص ١٧.

الغرامات وتحمل مسؤولية ما يحدث في خراج قراهم[١٦]. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن عبء القتال في العديد من المعارك التي دارت في جهات وادي التيم ألقي معظمه وأحياناً كله على ثوار هذه المنطقة[١٧].

خامساً: سقوط السويداء للمرة الثانية، لم يتمكن الثوار من قطع خط سكة الحديد بين دمشق ودرعا، المار بمحاذاة اللجاة، لافتقارهم إلى أدوات التخريب الكافية، ولأن حلفاء فرنسا عطلوا عملهم الذي اعتبروه من أعظم الخدمات للثورة. وبعد أن استطاع الفرنسيون تأمين حماية هذا الخط، وأمنوا مؤخرة قواتهم بالسيطرة على الإقليم والغوطة، وأكملوا حشد جنودهم في أزرع وبصرى، وأحكموا تطويق جبل العرب من الشمال والغرب، انطلقت حملة «أندريا» المؤلفة من عشرة آلاف جندي نحو السويداء فاحتلتها بعد معركة عنيفة استمات الثوار فيها للدفاع عن مدينتهم وشبهها «أندريا» بفردان[١٨]. ومن الناحية العسكرية، والنفسية، والمعنوية، كان احتلال السويداء نكسة مؤلمة وضربة موجعة للثوار والثورة، وبالتالي لم يعد بإمكان الثوار أن يجابهوا الفرنسيين في معارك كبيرة، وبنتيجة التراجع في قوى الثورة تكمن أهمية اللقاء بين سلطان الأطرش وأحمد مريود، لأنه بهذا

---

(١٦) ذوقان قرقوط، تطور الحركة الوطنية في سوريا، ص ٢٧٩ - ٢٨٠. انظر نص التعهد في الكتاب.

(١٧) حسن البعيني، ص ١٨٣ وحصل على معلومات موثقة من قبل المجاهدين أنفسهم ومنهم علي مهنا، وقاسم الهبري، وقاسم القضماني، النائب سليم الداود وغيرهم.

(١٨) الوثائق الفرنسية، وانظر مذكرات أندريا، ص ١١٢ و١٢٥ و١٢٦.

اللقاء تجددت مقومات الصمود، وتجدد الفعل الثوري بعد أن ظهر على السطح اعتقاد أن الاستمرار في الثورة نوع من الانتحار.

خلال إقامته في الجبل، اجتمع الزعيم الوطني أحمد مريود بأهالي الجولان الذين نزحوا إلى الجبل بعد المعارك الحاسمة التي خاضها الثوار ضد القوات الفرنسية، واستمع منهم إلى المعاناة التي لاقاها أهل قلعة جندل ومجدل شمس، وقال أحدهم: بلغ عدد شهداء مجدل شمس أكثر من تسعين شهيداً، وتحولت هذه القرية إلى مقبرة جماعية للنساء والأطفال والشيوخ الذين لم يتمكنوا من مغادرتها عندما احتلها الفرنسيون في نيسان/ أبريل. وعرض أهل الجولان رغبتهم بالعودة إلى ديارهم، وإلى القتال في صفوف الثورة من جديد تحت راية الثورة العربية المتجددة بالزعيم أحمد مريود، بحيث وجدوا الحماية المؤمنة في ظل قيادته التاريخية. وقد رحب مريود بروحهم الوطنية، واستعدادهم للرحيل كمقاتلين في صفوف الثورة، كما استعد الأمير عادل إرسلان أن يكون بتصرف الزعيم أحمد مريود، وأن ينتقل معه إلى الغوطة ودمشق ومنها إلى الإقليم، وقَبِل مريود عرض إرسلان رغم كل الملاحظات التي أبداها كل من سلطان باشا الأطرش والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، بحق الأمير والله أعلم.

ومن المعروف أن المجاهدين حافظوا على وحدتهم خلال عام ١٩٢٥، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا لأسباب تعود إلى كيفية توزيع الإعانات المرسلة إليهم وتشكيل لجانها. وزاد من خلافاتهم، عندما ظهرت ملامح انقسام حزب الشعب والاستقلال حول المفاوضات مع الفرنسيين التي تبنى فكرتها «دي جوفنيل» لإنهاء القتال وحل القضية السورية، فكان حزب الاستقلال يرفض المفاوضات بينما

حزب الشعب لم يعترض[19]، وفيما بعد تراشق الأمير عادل والدكتور الشهبندر بالاتهامات وخذلان الثورة، فالأمير اتهم الشهبندر بالهرب من جبل العرب خلال حصول المعارك فيه، والشهبندر اتهم الأمير بسرقة المساعدات التي كانت ترسل للمجاهدين. ولكن الجميع اتفقوا على الأهمية البالغة لمبادرة أحمد مريود بالثورة بدءاً من الجولان بقصد أن تعم سوريا بعد إنهاء عمليات التنسيق الجارية.

---

(١٩) النزاع الذي شغل المجاهدين أكثر من غيره، وساهم في انقسامهم، هو النزاع بين سلطان الأطرش وعادل إرسلان، الذي يعود إلى عدة أسباب هي: تنافسهما على الزعامة وعلى كيفية توزيع الأموال المرسلة إلى المجاهدين، والنزاع بين حزب الشعب والاستقلال وكان فؤاد الأطرش يوجه التهم إلى عادل وليس إلى حزب الاستقلال، فقال مرة: «إن بعض الثوار من الدروز والذين انضموا للأمير عادل كانوا جواسيس لفرنسا وقد لعبوا دوراً فعالاً في تعميق الخلاف».
(انظر البعيني، ص ٢٢١، وانظر فؤاد الأطرش، ص ١١ الدروز مؤامرات وتاريخ وحقائق، ص ٣٠٢).

٣

من الجبل إلى دمشق

كانت السلطات الفرنسية تحرص كل الحرص على أن لا تمتد الثورة إلى أحياء دمشق، فلجأوا إلى تحصينها عسكرياً، ببناء المنشآت والثكنات العسكرية عند جميع مداخلها وحولها لمنع تسلل الثوار العاملين من الغوطة إليها. ورغم كل هذه الاحترازات، تمكنت مجموعات المجاهدين من اجتياز هذه الحواجز، وخاضت معارك متفرقة ضد الدوريات الفرنسية التي كانت تمارس الإرهاب والتهديد على صغار التجار في الأسواق الشعبية.. وقد أثبت الزعيم أحمد مريود للفرنسيين عندما أرسل دورية راجلة من المجاهدين إلى حي ساروجة في دمشق، وقتلت دورية خيالة فرنسية تعودت يومياً على ابتزاز الأهالي، إن الثوار هم في كل مكان، وفي كل حي من أحياء دمشق. وكانت دمشق ـ كما ذكرنا ـ أهم الساحات النضالية للمجاهدين، كونها العاصمة، ومركز البعثات الدبلوماسية الدولية، والمركز الإعلامي الرسمي والشعبي، ووكالات الأنباء العالمية. فعندما كانت تطلق رصاصة من أحياء دمشق، كان العالم الخارجي يتحدث عنها في اليوم التالي، وهذا بالطبع يضر بالفرنسيين من الناحية السياسية

والنفسية أيضاً. لذلك كان المجاهدون يؤكدون على كثافة تواجدهم وبخاصة في الأحياء الشعبية العريقة (سوق ساروجه ـ الميدان باب سريجة ـ ركن الدين ـ الشاغور) وغيرها من الأحياء التي سجلت صفحات بيضاء في تاريخ الثورة السورية، وبالمقابل كانت السلطات الفرنسية تعمل جاهدة على إفراغ دمشق من المجاهدين ومن السلاح أيضاً، فلجأت إلى أسلوب القصف العشوائي، فدمرت معظم الأحياء الشعبية وفرضت على الأهالي حالات التجويع، وقطع المياه، بالإضافة إلى فرض الغرامات غير المحتملة. أمام هذه العقوبات غير الإنسانية، وجد البعض، وبخاصة فريق من المسؤولين والموظفين والأغنياء المتعاونين مع السلطات الفرنسية المبررات والحجج لرفض الثورة ومعارضتها، فكرياً وسياسياً، وتنظيمياً، وأولاً وأخيراً عسكرياً. فلما اتجه زيد الأطرش على رأس حملة كبيرة في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٥ إلى دمشق قابله وفد وطلب إليه عدم دخولها حتى لا تتعرض ثانية للقصف[1] لهذه الأسباب الآتية:

- الاستعداد الفرنسي الدائم لقصف دمشق بالصواريخ والطائرات.
- معارضة بعض القوى الدمشقية للثورة.
- تمكن السلطات الفرنسية من استقطاب ضعاف النفوس.
- نقص الأسلحة والذخيرة، وبخاصة بعد مصادرة فرنسا ثلاثة آلاف بندقية من الأهالي، ودفع غرامة قدرت بعشرين ألف ليرة ذهبية.

(١) جريدة الصفا، عدد ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥، وانظر البعيني، المصدر نفسه، ص ١٨١ حواشي..

استبعد الزعيم الوطني أحمد مريود دمشق من أن تكون عاصمة لثورته في مراحلها الأولى، ولكنه قرر أن يكون للزعامات الوطنية الدمشقية الدور الأبرز في فعاليات الثورة، لأن هذه الشخصيات الجهادية في دمشق هي موضع كامل الثقة. فعندما وصل دمشق في نهاية شهر نيسان/ أبريل ١٩٢٦، قرر عقد لقاءات واجتماعات مع تلك الرموز الوطنية، المتأكد من إخلاصها للجهاد واستقلال البلاد، والقانع من أنها ستكون السبّاقة في مسيرة الزحف المقدس إلى جباثا الخشب التي كانت مركز الثورة للجولان والحرمون.. وكان أول لقاء له في دمشق مع الزعيم المجاهد علي آغا زلفو، حيث عقد في منزله عدة لقاءات واجتماعات شاركت فيها شخصيات دمشقية كبيرة تحملت العبء الأكبر من الجهاد والمعاناة ودفع الغرامات، بالإضافة إلى رفضها المطلق لاجتهادات القوى والشخصيات الاستسلامية والتي قبلت بالأمر الواقع الفرنسي. ونذكر من العائلات المجاهدة على سبيل المثال لا الحصر عائلات: العسلي، والأشمر، وزلفو، والجزائري، والقوتلي وآل خير، والبارافي والبكري والحفار وغيرها من العائلات التي تركت بصماتها على تاريخ الثورة السورية. ويلزمنا الحق، والأمانة التاريخية، أن نذكر الزعيم المجاهد علي آغا زلفو، الذي كان يساعد الثوار، ويقدم لهم الحماية والأمن في منزله، ويرشدهم إلى المواقع المهمة في عملهم الجهادي وذلك عن طريق بعض الضباط والجنود المغاربة الذين كانوا في خدمة الجيش الفرنسي، ويقومون بإعلامه عن أوقات وأمكنة الحملات والمداهمات الفرنسية ضد الثوار، وفي مقدمة هؤلاء الضباط، الضابط المغربي عطاف باشي.

كان الزعيم أحمد مريود ينطلق من حرصه على تقوية روح الثورة المتجددة، فشملت اتصالاته معظم القوى والشخصيات الوطنية بغض النظر عن ميولهم السياسية وانتساباتهم الحزبية، فعن طريق

المرحوم شكري القوتلي اتصل بأطراف الكتلة الوطنية، وعن طريق الدكتور عبد الرحمن الشهبندر رئيس حزب الشعب اتصل بشخصيات هذا الحزب، وعن طريق الآغا والجزائري اتصل بالشخصيات الوطنية المستقلة. وكانت جميع هذه الأطراف ترى فيه الشخص المؤهل لقيادة العمل الكفاحي، واستعدت لمرافقته إلى الجولان من جديد، أما أعضاء وأصدقاء حزب الاستقلال، فكانوا طليعة الزحف المقدس وقدوة الرجال. وسنطلع بعد قليل على أهمية دور القوى الدمشقية في الثورة، وذلك من خلال عدد الأشخاص الذين شاركوا فيها، ومن خلال عدد الشهداء الذين كانوا وقودها، وفي المقدمة، عائلة العسلي التي قدمت إلى جانب عائلة مريود أكثر الشهداء.

وكانت اتصالات ولقاءات واجتماعات الزعيم أحمد مريود بالدماشقة تتم في سرية تامة. وبالتنسيق مع عز الدين الجزائري وعلي آغا والحاج أديب خير الدين. وكانوا يعملون على أن تبقى هذه اللقاءات بعيدة عن أعين السلطات الفرنسية وأذنابها، وقد تمت جميعها بنجاح، كما تمّ انتقال الثوار من دمشق إلى الغوطة بالنجاح نفسه[٢].

---

(٢) يروي المجاهدون حوادث كثيرة تؤكد مساعدة المجندين والضباط العرب في الجيش الفرنسي لهم. منها إطلاق الرصاص في الفضاء خلال الاشتباك معهم، وترك الذخائر لهم في أرض المعارك ليستفيدوا منها. كما يذكرون العديد من أسماء هؤلاء الذين انضموا إليهم. وقد ذكر منير الريّس في كتابه: «الكتاب الذهبي للثورات الوطنية» في ص ٣٧٤ وصفحة ٥٧٥ أن انضمام بعض المجندين العرب في الجيش الفرنسي إلى الثورة السورية، والمساعدات التي قدموها للثوار، جسدت آمال الشعب العربي وطموحه في التحرر. وقد ذكرت التقارير الفرنسية أن الثورة غدت شأناً سورياً وعربياً وكان من أشهر العرب القائد العطاف المغربي (أنظر كتاب الدكتور حسن البعيني، المصدر نفسه، ص ٩٤).

٤

من دمشق إلى الغوطة

كانت السلطات العسكرية الفرنسية أمام خيارين في مسألة حربها ضد الثوار:

الخيار الأول: إنهاك الثورة في مركز قيادتها جبل العرب، وذلك من أجل خلق حالة اليأس في الساحات الثائرة، وبخاصة الغوطة لتحجيم العمل الجهادي.

والخيار الثاني: إنهاك الثورة في الغوطة لتأمين مؤخرة القوات الزاحفة إلى الجبل علماً بأن الثورة في الغوطة كانت الأطول عمراً وفعلاً ثورياً. فقد اتجه الأمير عز الدين الجزائري على سبيل المثال بعد معركة جباثا الخشب آيار/ مايو ١٩٢٦ إلى الغوطة ليسهم في الثورة فيها وقد أبلى بلاءً حسناً. وقد أجمعت القيادات العسكرية الفرنسية على إنهاء الثورة في الغوطة إذا استطاعت ذلك ثم التفرغ لإنهاء الثورة في الجبل، وتكون الضربة القاضية لكل مرتكزات الثورة.. وفعلاً جهزت فرنسا أكبر حملة عسكرية، وبدأت بمهاجمة مواقع الثوار في كل قرى الغوطة، وتمكنت هذه القوات من تشتيت مجموعات الثوار العاملة في جوبر والمليحة وزيدين

وعقربا، بعد معارك تكبدت فيها القوات الفرنسية عشرات القتلى، وظهرت بطولات فردية خارقة، أدت بالقوات الفرنسية إلى تدمير المنازل وإحراق المزارع والمحاصيل في بساتين الغوطة.

فبعد إضعاف الثورة في الغوطة تفرغت القوات الفرنسية لإنهاك الثورة في الجبل، فيمكن اعتبار ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٢٦ التاريخ المأسوي لإضعاف الثورة مؤقتاً والتي انطلقت عام ١٩٢٥.

وقد تعرضت هذه الثورة إلى مجموعة من العوامل التي أدت إلى إضعافها، وشكلت نقاط ضعف في مسيرتها، نذكر منها:

أولاً: تشعب الخلافات بين القيادات التقليدية منذ بدء التفكير بإعلان ثورة جبل العرب، واستمرت هذه الخلافات حتى نهاية الثورة. ويذكر أحد قادة الدروز أن هذه الخلافات كانت على زعامة بني معروف في سوريا ولبنان.

ثانياً: لجوء السلطات الفرنسية إلى أسلوب شراء السلاح بواسطة العملاء الذين نجحوا عند منْ ألجأتهم الحاجة إلى بيع سلاحهم، وبهذا الأسلوب، تمكنت السلطات الفرنسية من شراء مئات البنادق في الجبل والغوطتين، وتشير المعلومات أن العملاء كانوا يدعون أنهم يشترون السلاح لصالح المجاهدين[1].

ثالثاً: نجحت السلطات الفرنسية في تشكيل مجموعات مناوئة للثورة في معظم المناطق «واعتمد الفرنسيون على الكوكبات الدرزية التي أنشأوها بعد نجاح الكوكبات الشركسية

(١) سيف الدين قنطار، وثائق وبيانات ومناشير الثورة عام ١٩٢٥، انظر: البعيني، ص ١٨٥.

والأرمنية لمعرفة أفرادها بأهل البلاد وجغرافيتها»[2].

رابعاً: واعتمدوا، لإجبار المقاتلين على الاستسلام، تغريم القرى ونسف البيوت كما فعلوا في قرى الغوطتين وأحياء دمشق.

خامساً: منذ بداية العمل الجهادي الذي انطلق من الأردن، بتنظيم وتدبير القائد المجاهد أحمد مريود، أعلن البريطانيون موقفهم المعادي للثورة ورجالها، وزادوا على ذلك، عندما قام قائد الجيش الأردني الضابط البريطاني المعروف «بيك» بمنع شيوخ الأردن من مساعدة الثوار، معلناً وقوف بريطانيا على الحياد. وفي مطلع أيلول/ سبتمبر ١٩٢٥ اعتقلوا أحد زعماء البدو بتهمة تزويد الثوار بالأسلحة. وفي العشرين منه أذاعوا في عمان بلاغاً منعوا بموجبه عبور الحدود الأردنية ليلاً، وقيّدوه نهاراً بتدابير عديدة لمنع إيصال السلاح المشترى من السوق السوداء إلى الثوار[3] وبعد تسليم «دي جوفنيل» مهماته خلفاً لـ «سراي»، وقبل أن يأتي إلى سوريا، باشر البحث مع البريطانيين في لندن بمسألة الحدود بين منطقتي الانتداب الفرنسي والبريطاني، وقضية الموصل وأنابيب النفط الممدودة منها إلى البحر الأبيض المتوسط. وتوصل إلى الاتفاق مع المعتمد البريطاني في فلسطين، اللورد بلومر، على إنشاء خط حيفا ـ طرابلس الحديد. تمّ عقد اتفاقاً سرياً مع البريطانيين في القدس يقضي بالتعاون المشترك ضد الثورة تلاه اتفاق درعا[4] الذي أبرز التعاون

(٢) حسن البعيني، المصدر نفسه، ص ٨٤.
(٣) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، الجزء الثالث، ص ٨٢.
(٤) البعيني، المصدر نفسه، ص ١٨٥.

بصورة عملية وفعالة بين جنودهم في ملاحقة الثوار والتضييق عليهم «فصاروا بين فكي الكماشة».

كان على البريطانيين أن يتوجوا تعاونهم المشترك مع الفرنسيين بطرد الثوار من المعقل الأخير الذي تجمعوا فيه في واحة الأزرق، الأردن، لأن الثورة لا يمكن أن تنتهي ما داموا موجودين فيه «فوجود أربعة آلاف نسمة في الأزرق هو برهان ناطق على أن حسابات «دي جوفنيل» لم تكن مضبوطة».

أمام هذه الحقائق التي تؤكد صحة الأسباب المؤلمة في انتكاسة الثورة. كيف كانت معالجات الزعيم الوطني أحمد مريود، وهو يستعد للانتقال إلى الغوطة، أكبر معقل للثوار والثورة، والتي من أرضها سيبدأ الزحف المقدس إلى الجولان والحرمون؟؟

كيف سيفاتح ثوارها بموضوع تجديد الثورة، وإعلانها من جباثا الخشب، كيف سيكون مستوى الاستعداد النفسي عند أهل الغوطة في الانضمام إلى صفوف الثورة؟ دخل الزعيم أحمد مريود قرى الغوطة، وفي ذاكرته الإجابة عن كل تساؤلات الثوار والمجاهدين، وعندما استقبل بحرارة من قبل الأهالي والرموز الوطنية، تلاشى كل ما كان يخطر على باله، فتعزز في ذاكرته فقط أن هؤلاء القوم كانوا بحاجة إلى برنامج وخطة وقائد. فلم يجد صعوبة في الإقناع، بل كان الجميع بمستوى تصميمه على تجديد الثورة وانطلاقتها، وهم خير أهل لأن يكونوا طليعة الحشد والزحف المقدس إلى عاصمة الثورة، قال المجاهد سعيد العاص:

«وقد أخذ على عاتقه إثارة جبل الشيخ والقنيطرة.. ولما كان رحمه الله في الغوطة ذهب إلى برزة واجتمع بأبي محيي الدين شعبان. واجتمع حول أحمد مريود رجاله العاملون أمثال: سعيد

الأظن، وخليل بصله، وأبو دياب الكردي وغيرهم من المجاهدين رفاق ثورته الأولى عام ١٩١٩».

وفي قرية «المحمدية» اجتمع بكبار القوم في منزل المجاهد سعيد عدي، الذي أولم له، وعاهدوه على المضي قدماً قبل تناولهم الطعام، وقال سعيد عدي: «باسم هذه النعمة (الطعام) سنلقن العدو الفرنسي دروس الثأر والانتقام، ونحن لها بإذن الله يا أبا حسين».

وتجلت المعاني الوطنية في أحلى صورها الماجدة، والفدائية العقائدية الباسلة، في بلدة دوما، حيث عقد اجتماعاً دام من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر، في منزل مجاهد من عائلة الطباع، شارك فيه أكثر من عشرين شخصاً مثلوا الغوطة ودوما المجاهدة، وبقيت زوجة الطباع من العشاء حتى الفجر تحمل بندقيتها، وتقوم بدور الحراسة، تجنباً للمخاطر التي كانت تتوقعها من عيون فرنسا الساهرة لنقل معلومات وأخبار المجاهدين لفرنسا، وكانت هذه المرأة الفاضلة المجاهدة من عائلة البارودي وفي اليوم التالي احتلت فرنسا المنزل ولم تتركه حتى عام ١٩٤٦.

كما عقد الزعيم الوطني أحمد مريود عدة اجتماعات ولقاءات في قرى وبلدات الغوطتين، وفي كل اجتماع ولقاء، كان موضع الاحترام والتقدير والقبول بقيادته، فوضع أهالي: المليحة، وجوبر، وكفر بطنا، وزيدين، وحرستا، وغيرها من القرى والبلدات أنفسهم بتصرف الثورة وقائدها، واستعدوا أن يكونوا طليعة الحشد والزحف إلى الجولان والحرمون، وحتى إلى لبنان الجنوبي والبقاع، وإلى كل بقعة يقرر قائد الثورة الانتقال إليها قياساً على ثورته سنة ١٩١٩. وفي كل هذه اللقاءات والاجتماعات، كان الزعيم الوطني أحمد مريود، يركز بأحاديثه على عروبة الثورة، وأنها من حيث المبدأ والهدف، يجب أن تكتسب صفة المشروع القومي، =

تبدأ بسيادة الشعب العربي السوري، ووحدة سوريا وتحريرها. لتصل إلى الهدف القومي بتحرير الأقطار العربية الأخرى من الانتدابات الغربية الأجنبية. ودعا الزعيم أحمد مريود، الثوار إلى أخذ العبر من التجارب الماضية، والاستفادة من أخطاء الفترة السابقة، قال المؤرخ الدكتور حسن البعيني:

«بيد أن السوريين أضاعوا فرصة ذهبية ولم يقطفوا ثمرة انتصارهم بالإجهاز على ما تبقى من القوات الفرنسية في فترة ضعفها وتحطم معنوياتها، وقبل أن تستقدم الإمدادات من فرنسا لنجدتها..».

أكد الزعيم الوطني، أن العمل الجهادي يستمد أسبابه الرئيسية من رفض الانتداب الفرنسي، ورغبة الشعب العربي السوري في التحرر والاستقلال والوحدة. وإنه انبثق من إرادة أهل البلاد، وأوضح أن العمل الجهادي بحاجة إلى روح الارتقاء بالمسؤولية القومية، فالثورة رغم أنها انطلقت عام ١٩١٩ إلاّ أنها بقيت في الدائرة السورية الداخلية، علماً أن المشاركين فيها كانوا من معظم الأقطار العربية، وبخاصة من لبنان وفلسطين والأردن والعراق. وقال الزعيم الوطني أحمد مريود، أن تجديد فعل الثورة عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٢٤ من الأراضي الأردنية، كان ينطلق من الحرص على تثبيت العزائم والصبر والصمود، وقد تمكن الثوار من إثبات أن جهادهم كان بمستوى إيمانهم بالقضية الوطنية وبأهداف برنامجها القومي.. وأكّد الزعيم العروبي، أن تجديد الشباب لمفاهيم الثورة سيجعلها أكثر استقطاباً وانتشاراً من سنواتها الأولى، فهي ثورة كل العرب في سوريا، وثورة كل الشعب العربي، في الجولان والحرمون، وهي ليست ثورة الجولان في قرى الحرمون، أو

ثورة الدمشقيين، أو ثورة الدروز في المجدل. إنها ثورة الوطنيين جميعاً، متحدين ضد عدو واحد، هو الاستعمار الغربي، كما أنها ليست ثورة حزب الاستقلال، ولا ثورة حزب الشعب، ولا ثورة الكتل الأخرى. إنها ثورة كل هؤلاء الرجال الذين يمثلون الشعب بكل شرائحه وفئاته ومذاهبه السياسية والدينية والاجتماعية(٥).

وأوضح الزعيم الوطني، أن الثورة التي انطلقت عام ١٩٢٥ بزعامة القائد الوطني سلطان باشا الأطرش، كانت تتويجاً لشعار الثورة الدائمة، فهي بفعلها وشعاراتها وأهدافها ثورة عربية كما سمت نفسها في بياناتها «وتتطلب الأمانة الكفاحية أن تحافظ على تلك الأهداف، وأن ترفع تلك الشعارات وأن تقول للفرنسيين أن للفارس كبوة، لكن ثورتنا لم ولن تتوقف حتى الاستقلال والحرية».

وقبل أن يعلن الزعيم الوطني عن بدء الزحف إلى الجولان والحرمون، بعد استكمال الحشد، حذّر من الفشل لمجموعة الأسباب التي سبق ذكرها، ولكنه أكد أن الشهادة في سبيل الوطن تظلّ أبداً وقود النصر. وبدأ الزحف المقدس من الغوطة إلى الجولان والحرمون، وإلى عاصمة الثورة الدائمة المتجددة، جباثا الخشب، على نيّة الجهاد المقدس والفداء حتى الشهادة(٦) التي

---

(٥) إن الثورة السورية هي ثورة كل الوطنيين من إقطاعيين وسواهم بقيادة قادة معظمهم من الإقطاعيين والزعماء التقليديين.

(٦) ذكر الدكتور حسن البعيني في كتابه: دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ ـ ١٩٤٣، ص ٢٠٨ «إن فشل ثورة عام ١٩٢٥» يعود إلى عدم التنسيق المسبق الواضح بين الزعماء السوريين، وعدم مقدرة الثوار على التنظيم والتنسيق الكافيين بين وحداتهم ومناطقهم وضبط تجاوزات بعض الملتحقين بهم، ووقوف فريق من الأقليات.. ضدهم، واعتماد الفرنسيين على متطوعين منهم، وافتقارهم إلى وسائل الإعلام الكافية وإلى السلاح الثقيل والمتفجرات الضرورية=

ستظل أبداً وقود النصر المؤزر لكفاح الشرفاء حتى زوال الاستعمار والهيمنة.

= لتخريب خطوط المواصلات، واقتصار مساعدات الدول العربية لها على التأييد والتبرعات المحدودة، وتوافق سياسة البريطانيين والفرنسيين الذي أدّى إلى إنهاء الثورة في شرق الأردن بالتدابير البريطانية..

٥

الحشد والزحف
إلى الجولان

لقد تمكن الزعيم الوطني أحمد مريود، وقبل أن تستريح أعصابه من رحلة طويلة وشاقة، بدأت من خانقين، وقطع خلالها الصحراء والبادية وقرى اللجاة، وجبل العرب، وقرى الغوطتين، وأحياء دمشق، وانتهت في مسقط رأسه، وعاصمة ثورته جباثا الخشب، تمكن من استقطاب زعامات المناطق التي زارها وأن يذكي في مشارعهم الوطنية روح التحدي والتعصب لشرف الانتماء القومي، وذلك من أجل استقلال البلاد بقوة الثورة وفدائية المجاهدين، يبدأ بفتح جبهة الإقليم، لتعم وتنتشر الثورة في كل المناطق السورية، ولتصبح الثورة ثورة عامة تشمل القطر، ثورة لها عواصمها في جبل الشيخ وجبل العرب، وجبال الساحل، وفي الجبل الغربي «أكروم» وفي الجبل الشرقي «رنكوس». وفي كل منطقة يتواجد فوق أرضها جنود الانتداب والاحتلال الفرنسي..

من الغوطة بدأ الزحف المقدس، وبإشارة من قائد الثورة توجه الثوار باتجاه المناطق والمواقع المحددة لهم، ألف مجاهد يمثلون قرى حضر،

ومجدل شمس وغيرها من قرى الجولان، الذين أنهوا اغترابهم عن قراهم بعد قدوم زعيم إقليمهم الثائر[1]. وتكبر وتعظم مسيرة الزحف بالمجاهدين من أحياء دمشق، الميدان، وقبر عاتكة، وركن الدين، والحبوبي، والمهاجرين، وغيرها من الأحياء التي لم تبخل بمناضيلها منذ الثورة العربية الكبرى، ومعركة ميسلون، وإعلان الجهاد ضد الانتداب والاحتلال الفرنسي.

لوحة تذكارية، ستبقى صورها محفورة في جدار الزمن، ومكتوبة في صفحات التاريخ العربي المعاصر. وستبقى أيضاً في ذاكرة الإنسان العربي وإلى الأبد..

لقد اكتسبت الثورة شرعية تمثيل الشعب العربي السوري، وذلك من خلال مبادئها وأهدافها ومنطلقاتها. ومن خلال كثافة الثوار المنتسبين إلى صفوفها، ونوعية المجاهدين في الميزان السياسي والاجتماعي، الذين كانوا في طليعة زحف يزيد عن ألفين. ونذكر من هؤلاء بعض الكبار في قومهم وعائلاتهم ومناطقهم وقراهم على سبيل المثال لا الحصر، لأن الذاكرة قد نسيت كباراً ومهمين آخرين.

الأمير محمود الفاعور

---

(١) رافق حوادث ثورة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ نزوحات درزية من مناطق القتال أهمها نزوح معظم دروز وادي التيم إلى فلسطين والإقليم بعد تراجع الثورة عن وادي التيم، وتزوحهم بعد احتلال الفرنسيين الإقليم إلى جبل العرب (الدروز) حيث تعرضوا في طريقهم لتعديات عملاء السلطة الفرنسية، ونزوح مجاهدي الجبل والإقليم ووادي التيم ولبنان الصغير إلى شرق الأردن مع عائلاتهم بعد إعادة احتلال الفرنسيين الجبل، وعقب انتهاء الثورة. (أنظر البعيني، المصدر نفسه، ص ٢١٢، ويذكر أن سلطان الأطرش، ومحمد العزام، وفضل الله هنيدي، وحسن الأطرش، طالبوا بنجدة أهل الإقليم وصدّ اعتداء السلوط عنهم).

الامير عز الدين الجزائري

الأمير عادل إرسلان

الشيخ عبد الله الطحان

الحاج كامل العاصي

الشيخ إبراهيم قيس

الشيخ زعل السلوّم

المجاهد خليل بصلة

المجاهد أبو عبدو سكر

المجاهد سعيد الأظن

المجاهد أحمد بارافي

المجاهد عبد القادر بارافي

المجاهد أبو محيي الدين العسلي

المجاهد حكمت العسلي

المجاهد أديب العسلي

المجاهد فائق العسلي

المجاهد صبري العسلي[٢]

المجاهد أبو سليمان القطناوي

المجاهد أبو ذياب الكردي

المجاهد أبو محيي الدين شعبان

المجاهد سعيد عدي

---

(٢) أصبح صبري العسلي بعد الاستقلال نائباً، ووزيراً، ورئيساً للوزراء، ونائباً للرئيس جمال عبد الناصر في زمن الوحدة المصرية ـ السورية.

المجاهد أحمد غازي

المجاهد محمد الشالاتي

المجاهد نجم الدرزي

المجاهد رمضان الأفكح

المجاهد ابن علو جمعة

المجاهد مصطفى الكشكة الديراني

المجاهد شكيب وهاب

المجاهد أبو فهد عزيزية

المجاهد شفيق عمر باشا (أبو علي)

المجاهد عبد اللطيف المغربي

المجاهد طلعة الدرزي

المجاهد أبو سليمان الكلاس

المجاهد هائل الدرزي

المجاهد بشير العبد

المجاهد عمر الزغلول

المجاهد خليل الديراني

المجاهد أحمد حسيبي

المجاهد أبو عجاج العبد

المجاهد أبو صالح الكلاس

المجاهد عبد الحليم الجردي

المجاهد سليم عبد الصمد

المجاهد أحمد عبد الوالي

المجاهد يماني بني صخر[٣]

المجاهد خليل مريود.

المجاهد حسين مريود[٤]

المجاهد يس مريود .

المجاهد محمود مريود[٥]

وغيرهم من المجاهدين الأبطال الذين لبوا نداء الوطن، وصرخة الزعيم المجاهد أحمد مريود، وسنحرص على ذكر أسماء الذين لم يرد ذكرهم في هذا السجل، في مواقع الأحداث.

احتشدت جموع الثوار في أماكن متقاربة بالقرب من قرية «المليحة» في الغوطة. ومنها انطلقت الجموع، حسب خطة عسكرية تحدد فيها مواقع الانتشار ومواقع التجمع، وذلك كي لا تكون الجموع معرضة للخطر والمداهمة دفعة واحدة من قبل الدوريات الفرنسية المنتشرة في قرى الغوطة. وهذه الخطة سهلت انتقال المجاهدين إلى مواقع متقدمة دون تعرضهم للخطر. ولكن المفاجأة كانت عند مخرج قرية «المليحة» عندما تعرض الثوار إلى رمايات بالرشاشات والأسلحة الخفيفة من قبل قوات فرنسية جاءت إلى المنطقة بناء على معلومات نقلها إليها «الجواسيس» الذين قبلوا على أنفسهم التعاون مع العدو الذي يحتل أرض الوطن، ويقتل ثوارة الأشراف[٦]، عندها أصدر قائد الثورة تعليماته

(٣) وهو أحد الرجال الذين رافقوا أحمد مريود من الأردن.

(٤) حسين مريود، ابن أحمد مريود، وكان أصغر المجاهدين سناً وعمره ١٦ عاماً.

(٥) محمود مريود شقيق قائد الثورة أحمد مريود وقد أبلى بلاءاً حسناً متميزاً جداً بالبسالة الخارقة واستشهد في يوم الثورة العظيم يوم ١٩٢٦/٥/٣١.

(٦) سليمان الموسى، صور من البطولة، ص ١٢٧.

إلى المجاهدين بضرورة الخروج فوراً من الغوطة والانتقال إلى جنوب دمشق، والتوجه إلى قرية «الخيارة»، كي لا تفرض السلطات العسكرية الفرنسية عليهم معركة لم يحددوا هم مكانها وزمانها، وترك مجموعة بقيادة المجاهد عز الدين الجزائري تنازل القوة الفرنسية، ريثما تتمكن بقية الجموع من الوصول إلى مواقعها الجديدة.

وتمكنت قوات المجاهدين من الوصول إلى الخيارة بسلام وبدون خسائر، ثم توجهت إلى قرية «داريا» مركز التجمع. وبعد استراحة قصيرة وصلت طلائع القوات التي كانت تنازل القوات الفرنسية وبسلام أيضاً. ومن قرية داريا توجهت حشود الثوار إلى الجولان والحرمون، وعند مشارف قرية «بيت سابر» وقعت معركة بين الثوار والقوات الفرنسية، وتمكن الثوار من قتل جميع المهاجمين بسهولة[7]. وتابعت الجموع زحفها باتجاه قرية «بيت تيما» القريبة من بيت سابر، وعند مشارفها صادفتهم دورية فرنسية محمولة، فقرر قائد الثورة منازلتها والقضاء عليها ليعزز في نفوس الأهالي حالة النهوض الوطني ودفعهم للانضمام إلى صفوف المجاهدين برغبة وبمصداقية. وبدأت المعركة بين الطرفين استعملت فيها القوات الفرنسية سلاح المدفعية والرشاشات، وصنوف أنواع الأسلحة. وقد صمد الثوار أمام الرمايات الكثيفة، وتمكنوا من اختراق قوات الجيش الفرنسي بنجاح، وبعد فترة قصيرة، جاءت نجدات فرنسية كثيرة، وتجددت المعارك في السلاح الأبيض بين الطرفين، فتمكن الثوار من قتل ٣٥ جندياً. وعلى أثر ذلك انسحبت القوات الفرنسية من أرض المعركة إلى قرية «سعسع»

(٧) المصدر نفسه.

وعن هذه المعركة يقول المجاهد أحمد بارافي:

«أراد المجاهد الكبير أحمد مريود أن يحارب بجانبنا، ولكني حاولت منعه فرفض، وقلت له إن قواتنا كافية لتحقيق النصر ونحن بحاجة دائمة لقيادتك لنا في هذه الثورة بكل معاركها. إلاّ أنه بقي على موقفه، وظل يقاتل حتى انسحبت القوات المعادية من أرض المعركة».

ومن «بيت تيما» توجه الزعيم الوطني بقوات المجاهدين إلى قرية «عرنة» واستراحوا فيها ليلة واحدة. ويبدو أن قوات الانتداب الفرنسي كانت تراقب تحركات الثوار، فتجمعت عند مشارف «عرنة» بعد أن تأكدت من أن قوات المجاهدين دخلت القرية، وكانت هذه القوات الفرنسية التي تقدر بـ(٥٠٠) جندي وضابط، تحيط بمشارف القرية من كل الجهات. وعندما علم الزعيم الوطني أحمد مريود بتطويق القرية، أمر المجاهد أبو سليمان الكلاس بفتح ثغرة يتمكن منها اختراق قوات الجيش الفرنسي والنفاذ بالقوات خارج حدود القرية، وبعد اشتباك دام طويلاً ـ كما قال المجاهد سعيد العاص ـ تمكن الثوار من فك الحصار والخروج من القرية بسلام. ومن «عرنة» توجه الزعيم الوطني وقواته الثورية المجاهدة إلى بيت جن عن طريق عين الشعرا ـ دربل. وقد أكّد المجاهد سعيد العاص في مذكراته، أن الزعيم أحمد مريود أقام في عين الشعرا ليلة واحدة، وفي دربل خمسة أيام «وكان الهدف الذي يرمي إليه الزعيم الوطني من هذه الجولة إعادة النشاط وإثارة النفوس». وذكر أحد سكان قرية «حينه» أن المجاهد أحمد مريود زار قريتهم ليوم واحد ودعاهم للانضمام إلى قوات الثورة.

وفي «بيت جن» عقد مريود عدة اجتماعات ولقاءات، دامت أربعة أيام، مع زعماء وأهل القرية، وشارك في هذه اللقاءات الرجال

الذين رافقوه من الغوطة ودمشق. وقد أسعده استعداد أهل بيت جن للانضمام إلى صفوف الثوار، واستعدادهم للقتال دفاعاً عن الوطن وفي ظل قيادة زعيمهم قائد الثورة المناضل. كما شارك في هذه الاجتماعات واللقاءات وجهاء قرية دربل، الذين أسعدهم إعلان الثورة في منطقتهم.

إن بعض المخاوف التي كانت عند فئة من الأهالي قد زالت تماماً، بعد النجاحات التي حققها الثوار، وبعد وضوح الرؤيا، التي كشف صورها الزعيم أحمد مريود، وهذا ما أكده من جديد سعيد العاص في مذكراته فقال:

«ولكن النشاط الذي أبداه المجاهدون جعل سكان هذه القرية موالين للثورة تماماً، فأعلنوا انضمامهم إليها، وقدموا خمسين مجاهداً مدججين بالسلاح الكامل.. وهذه حسنة من حسنات جهاد المجاهد أحمد مريود».

ومن بيت جن، قرر الزعيم الوطني أحمد مريود، الانتقال إلى مركز ثورته جباثا الخشب، وذلك من أجل الاستعجال بالعمليات الجهادية، ومن أجل الاتصال بزعماء ووجهاء المنطقة الجنوبية، ودفع مسيرة الاستقطاب إلى أعلى مستوياتها، وقد رحب الجميع بفكرة الانتقال إلى آخر محطة في رحلتهم النضالية، وبخاصة أنهم سيصلون إليها بدون خسائر، رغم خوضهم أربع معارك مع قوات الجيش الفرنسي. واستبدلت فكرة الانتقال الجماعي إلى جباثا الخشب، بخطة جديدة، وضعها الأمير عادل إرسلان، وتقضي هذه الخطة بتوزيع المجاهدين إلى ثلاثة مراكز.

ـ مركز جباثا الخشب حيث القيادة العليا.

ـ مركز الشوكتلية حيث حشود قوات الغوطة ودمشق.

ـ مركز بيت جن. حيث حشود قرى الجولان من قطنا إلى جباثا.

ـ مركز حضر، ويشرف عليه الأمير عادل إرسلان شخصياً: حيث حشود بني معروف الذين عادوا أثناء عودة قائد الثورة أحمد مريود.

وترتبط هذه المراكز مباشرة بقائد الثورة الزعيم أحمد مريود من مركز قيادته في جباثا الخشب، وقد أوضح الأمير عادل إرسلان أن الغاية من ذلك، تستهدف توسيع العمليات الجهادية، وانتشار المجاهدين في أكثر من موقع، وقد اقتنع قائد الثورة بفكرة وخطة الأمير عادل إرسلان، من مواقع الثقة برفيق نضاله، ولم يخطر في باله غير ذلك، وفعلاً توجه أحمد مريود وعز الدين بن الجزائري إلى جباثا الخشب وبرفقتهما مجموعة من المجاهدين معظمهم من قياديي الغوطة ودمشق، ولم يتجاوز عددهم الثلاثين مجاهداً، أما القوة التي ذهبت إلى حضر بقيادة الأمير عادل فكانت حوالى الـ(٧٠٠) مقاتل، وبقية المجاهدين تحركت باتجاه بيت جن وقراها، وهذه الخطة هي التي سهلت على القوات الفرنسية الاستفراد بقوة جباثا الخشب الصغيرة، كما سنرى عند حديثنا عن معركة جباثا الخشب، واستشهاد قائد الثورة يوم ٣١ أيار/ مايو ١٩٢٦.

ذهب الزعيم أحمد مريود إلى جباثا الخشب والتقى بعد غياب طويل بأرضه، وأهله، وناسه، وأسرته «ولكنه كان لقاء رفقاء السلاح أكثر منه لقاء الأهل والأحبة»[٨].

(٨) سليمان الموسى، صور من البطولة، ص ١١٧.

الفصل السابع

مسارات ثورة جباثا الخشب

إن بلداً مثل سوريا يتبوأ فيه الرجل الوطني المقام الأول لمجرد كونه وطنياً وبصرف النظر عن منزلته وعشيرته التي ولد فيها: إن بلداً كهذا لهو البلد الذي تصلح تربته لبناء صروح المجد، ونمو مبادىء الحرية وتوطيد دعائم الاستقلال، ولأن يكون مصدر كل حضارة وارتقاء. فقد كانت دمشق وسوريا كلها في قبضة الوطنيين أمثال أحمد مريود وعزة دروزة وإبراهيم هنانو والشيخ صالح العلي وشكري القوتلي وغيرهم من الرجال الذين استمدوا نفوذهم من صدق وطنيتهم فنصروا قضية الحرية والاستقلال.

إن الأبطال شهداء الأمة العربية، أحمد مريود، فؤاد سليم، شوكت عائدي، رشيد طليع، وفرسان آل العسلي، والأمير الجزائري، وقنباز، والأشمر، والخرّاط، هؤلاء الأبطال ورفاقهم الشهداء تنحني الأمة بأبنائها وأحفادها أمامهم إجلالاً. ومن أرواحهم الطاهرة التي ترفرف في أجواء الوطن تستلهم صدق العزيمة والفداء.

هؤلاء الشهداء الأبطال ورفاقهم الذين حفظتهم العناية الإلهية، رفعوا اسم سوريا وسيرة كفاحها عالياً في العالم كله وفي أوروبا وفرنسا خاصة، حيث أخفى دهاقنة الاستعمار العسكري متحالفين مع الغرفة التجارية في مدينة ليون رمز الاستعمار الاقتصادي، أخفوا حقيقة أن السوريين يقاتلون بكل ما لديهم من وسائل لإنهاء الاحتلال الإفرنسي ولتحقيق الاستقلال. وتبيّن للعالم كله أن جيش الغزو الإفرنسي بأطماعه الاستعمارية والاقتصادية لم يكن يقوم بعمل إنساني يهدف إلى تمدين أو تعليم أو تهذيب الشعب السوري وأن عصبة الأمم السلطة العالمية المنتدبة شجبت وأدانت هذه السياسة الاستعمارية ورفضت تجزئة سورية كما كان غورو ينوي ويخطط لذلك.

أسعد داغر

١

الدعوة للجهاد وتفعيل الثورة

بعد اليوم الأول من وصوله إلى جباثا الخشب، بدأ قائد الثورة اتصالاته بجماهير وقيادات سورية يدعوهم إلى رفد الثورة بالمجاهدين، وتنظيم أنفسهم استعداداً للمواجهات المحتملة قريباً مع قوات الجيش الفرنسي، فأبلغهم برسائل مكتوبة، أن الواجب القومي والوطني يوجب إشعال الثورة الشاملة أولاً في الجولان ومن جديد، حتى لا يشعر المحتل الفرنسي بأنه نجح في إخماد الثورة، وإنه خلق حالة جديدة من السكينة والصمت. وكان هدفه إحياء الثورة وقد تجاوب مع دعوته كل أبناء المنطقة ووضعوا أنفسهم بتصرف الثورة وقائدها، وبدأت جموع المجاهدين تتوافد على مراكز الثوار في بيت جن، وجباثا الخشب، وكان من بين المتطوعين أحد أبناء مدينة حماه، الذي قال لقائد الثورة «أرجو أن تقبلني كمجاهد في صفوف ثورتك المنتصرة بإذن الله». وقد رحب به الزعيم أحمد مريود وقال له: «أرجو أن تكون بركة الانتصار، أهلاً بك بين إخوتك الثوار».

شملت اتصالاته الزعامات الشركسية وطالبها بالانضمام إلى الثورة إسوة بأبناء المنطقة، وذلك من منطلق أن الوطن للجميع،

والدفاع عنه فرض عليه، وليس فرض كفاية. وقد بدأت الزعامات الشركسية استعدادها لعقد لقاء مع مريود خارج قرية جباثا الخشب، واشترطت أن يأتي وحده إلى الاجتماع، وقد قبل مريود باللقاء ولكن زعيم الشراكس في المنصورة أخلّ بشروط اللقاء وجاء معه حشد من رجاله وهكذا لم يتم اللقاء.

يقول المجاهد سعيد العاص في مذكراته، أن المجاهد أحمد مريود تمكن من إقناع الزعامات الشركسية بسحب المتطوعين الشراكسة من صفوف القوات الفرنسية «ووعدوا خيراً بأنهم سيبذلون قصارى جهدهم لسحبهم من الجيش الفرنسي وضمهم للقوى الوطنية».

لقد نجح الزعيم الوطني أحمد مريود في وضع جباثا الخشب في دائرة الضوء، وخلقت رسائله وخطاباته إلى زعماء ووجهاء المناطق في سوريا والأردن وفلسطين قفزة نوعية في دفع حالة النهوض الوطني والقومي إلى مراتب الرقي الجهادي. فنشطت حركة المجاهدين ـ بعد انتكاسة الثورة ـ في جبل العرب، والنبك، ورنكوس، والضنية، وعكار، وأكروم، وبعلبك. وكانت هذه المناطق تتجه بأبصارها إلى جباثا الخشب، وترى أن معارك الجولان المقبلة ستكون الفعل الأكبر في مسارات الثورة وتحدد بشكل أساس مصيرها واستمراريتها، وكان المجاهد الكبير أحمد مريود، وهو في جباثا الخشب، يخطط وينظم للثورة ليل نهار، وبدون تعب، لا يمل ولا يكل من متابعة الموضوعات الخاصة بالثورة وبالمجاهدين.

والشيء الذي كان مفخرة لجيل الشباب من آل مريود، أنه لم يعفهم من حمل السلاح رغم صغر سنهم، وألحقهم كالكبار في

صفوف المجاهدين، أمثال ابنه البكر المجاهد حسين أحمد مريود، وشقيقه المجاهد محمود والمجاهد ياسين، وكانوا طلاباً بروضة المعارف في القدس ولم يتجاوزوا بعد سن السادسة عشرة. وقد أمرهم بعدم متابعة دراستهم، وفضل الجهاد لتحرير الوطن.

وقد ذكر المؤرخ سليمان الموسى ذلك، في كتابه «صور من البطولة» فقال:

> «وكان أخوه محمود وولده حسين يتلقيان العلم في القدس، وقد جاءا في إجازة، ولم يكن حسين قد تجاوز سن السادسة عشرة، إلاّ أن أباه أمره أن يلتحق بالثورة بدلاً من العودة إلى المدرسة فصدع للأمر واشترك في القتال»[1].

كانت طموحاته الكبيرة، وهمه الوطني أن يرى علم سوريا يرفرف من على المؤسسات الحكومية وأن يرى جنود الاحتلال وقد غادروا أرض الوطن، وكانت فرنسا تقرأ طموح هذا «المتطرف» كما قال الجنرال كاترو ووصفه في كتابه «مهمتان في الشرق الأوسط». فكانت تراقبه وترصد تحركاته، بعد أن أصبح اسمه حديث الشارع السياسي والاجتماعي في طول الوطن العربي وعرضه. وكيلا تكون جباثا الخشب ميسلون الجولان، وأحمد مريود، يوسف العظمة، قررت السلطات الفرنسية أن تحدّ من تحركاته ونشاطاته قبل استكمال استعداده العسكري، وبدء عملياته ضد مواقع وتجمعات قواتها في الجولان، وتأخذ ثورته في النهاية واقع الانتشار والشمولية في كل أنحاء سوريا.

(١) سليمان الموسى، المصدر نفسه، ص ١١٧.

٢

فرنسا
وأساليب الحيلة والخداع

منذ وصول الزعيم الوطني أحمد مريود أرض الوطن، بدأت القيادات السياسية والعسكرية الإفرنسية بإحباط مشروعه الثوري، والحد من تحركاته ونشاطاته السياسية والشعبية، وكانت أمام خيارات صعبة للوصول إلى أهدافها، فهل تشن حملة عسكرية على مركز قيادته في جباثا الخشب وتكتفي بإلقاء القبض عليه تنفيذاً لقرارين أصدرهما المندوب السامي ضده، الأول عام ١٩٢٠ والثاني عام ١٩٢٤، ويقضيان الحكم عليه بالإعدام؟ أم تكلّف مجموعة من الكوكبات التي شكلتها للتجسس على المجاهدين، بمهمة اغتياله وتعتبر المسألة خاصة بأهالي المنطقة؟ أم تنتظر حتى يستكمل تشكيل قواته ومهاجمتها قبل البدء بتنفيذ عملياتها القتالية؟ فهل تنجح لو مارست معه أسلوب الاستقطاب والترغيب كما مارستها مع غيره من القيادات ونجحت في استقطابها؟ أم تمارس معه أساليب الحيلة والخداع؟ وكانت أخبار ونشاطات وتحركات الزعيم أحمد مريود، تنقل مباشرة إلى المندوب السامي عن طريق المستشار الفرنسي في القنيطرة، وكان المندوب السامي يقوم بدوره بنقل هذه المعلومات

إلى قيادته المركزية في بيروت ثم باريس، ويبدو أن جميع القيادات الفرنسية، توصلت إلى قناعات أن أحمد مريود قدم إلى سوريا ليجدد الثورة، وبأساليب جديدة، وباستراتيجية تقوم على مبدأ وقاعدة الثورة الشاملة والدائمة، كونه يتمتع بأهلية قيادية قوية ومحبوبة من قبل المناطق السورية واللبنانية معاً، لذلك لن تفلح معه أساليب الاستقطاب والترهيب والترغيب، فلا بد من تجميد ثورته والقضاء على كل طموحاته، بطرح فكرة المفاوضات المطوّلة عليه، واستدراجه للتفاوض بحجة منح الاستقلال بالطرق السلمية، والابتعاد عن فكرة الحرب والغارات الانتقامية. ومن هنا جاءت فكرة المستشار الفرنسي الذي طلب عقد لقاء خاص مع مريود في مركز المستشارية في القنيطرة، إلاّ أن الزعيم أحمد مريود العارف بأساليب المستعمرين رفض هذا اللقاء جملة وتفصيلاً، وعلّق على رغبة المستشار الفرنسي بقوله: «إن هذا المأمور لا يملك صلاحية الإفراج عن سجين، ولا يستطيع فعل أكثر من تحريك دورية من الدرك»[1].

وفي هذا الموضوع قال المجاهد سعيد العاص:

«ولما اطلع المستشار الفرنسي في القنيطرة على حركات أحمد مريود السياسية. أراد أن يضع حداً لتوسع ثورته وإخماد جذوتها، فدعاه لاجتماع خاص، ولكن أحمد مريود لم ينخدع بدسائس المستشار»[2]، وهناك معلومة يتداولها كبار السن في القنيطرة، أن المجاهد أحمد مريود رفض اللقاء مع المستشار الفرنسي، ومنع الأهالي من تداول هذا الموضوع حرصاً على

(١) **مذكرات سعيد العاص**، ص ١٢٨.
(٢) المصدر نفسه.

معنويات المجاهدين والثوار والأهالي معاً، وتؤكد المعلومة أن أحمد مريود ردّ على المستشار الفرنسي بقوله: «إن أحمد مريود ليس من صنف الرجال الذين يقومون بعقد لقاءات سريّة وخاصة.. فلا تفاوض ولا لقاء إلاّ بعد أن تعلن فرنسا قرارها بمنح الاستقلال والجلاء عن أرض الوطن».

وبعد فترة قصيرة، لجأت الحكومة الفرنسية إلى حيلة للنيل من الثورة المتجددة وقائدها، فصرحت «بتصريح كاذب بأنها تريد منح سوريا الاستقلال وأنها مستعدة للتفاوض مع زعماء البلاد لهذا الغرض[٣]». ولكن، هل كانت فرنسا جادة بنواياها ومستعدة للجلوس حول طاولة المفاوضات مع زعماء البلاد، والحركة الوطنية؟؟ بالطبع لا، وما تصريحها الكاذب إلاّ خدعة من خدعها، وحيلة أرادت من ورائها تخدير حركة المقاومة، وسحب البساط من تحت قادتها، وفي المقدمة الزعيم الوطني أحمد مريود. وقد جاء في كتاب «الفتى العربي» النص التالي، الذي يؤكد التخوف الفرنسي من حركة الزعيم مريود، ونواياه الثورية:

«وحين أعيا هذا الثائر (أحمد مريود) الدولة الفرنسية، لجأت إلى الخداع والحيلة، فصرحت بأنها تريد إعطاء الوطن استقلاله، والارتباط معه بمعاهدة تضمن حقوقه.

بيد أن المحتلين كانوا ينطوون على الشر، ويبيتون الغدر، ويعدون جيوشهم لمعركة فاصلة. وقد ابتغوا من وراء ذلك التصريح الكاذب، الذي لوّحوا فيه بالاستقلال، أن يخدروا حركة المقاومة العنيفة، التي عجزوا عن إخمادها بقوة الحديد والنار، وأن يخفوا سوء نيتهم كي يباغتوا الثوار ويجعلوهم تحت الأمر الواقع»[٤].

(٣) الفتى العربي، مجموعة من المؤلفين (حقي المحتسب، ابتهاج الخالدي، مطيع نيل) ص ١٢٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

وقبل معركة جباثا الخشب التاريخية بأيام قليلة، قام المستشار الإفرنسي في القنيطرة، وبتكليف من المندوب السامي الإفرنسي المقيم في بيروت، بالاتصال مع زعماء الجولان، وأبلغهم رغبة فرنسا بالتفاهم مع الزعيم الوطني أحمد مريود، وقال لهم:

«إذا كان هدف أحمد مريود تحرير بلده بالطرق السلمية وبالمفاوضات المباشرة، فنحن على استعداد للتفاهم معه لذلك نطلب منكم تلبية رغبة المندوب السامي بالسفر إلى بيروت والتوسط بينه وبين أحمد مريود.. وبهذه الطريقة فقط يمكن منح الاستقلال والاعتراف بحكومة وطنية سورية دستورية».

وقد نقل زعماء الجولان رغبة المندوب السامي ومستشاره إلى الزعيم أحمد مريود واقترحوا عليه تشكيل الوفد المفاوض برئاسته. إلاّ أنه رفض الفكرة من أساسها وقال لهم:

«إن في الأمر خديعة، فلا المستشار ولا المندوب السامي، ولا كل الجنرالات الفرنسية في سوريا ولبنان، يريدون منح سوريا الاستقلال، إنها والله خديعة وحيلة قذرة».

وقد استمر المستشار الفرنسي في جهوده واستطاع أن يرسل إلى بيروت كلاً من الأمير محمد الفاعور والوجيه أسعد أفندي العاصي وولده الوجيد شاكر العاصي وتبين أن الهدف الفرنسي، هو عقد مفاوضات فقط ومن جانب واحد. ولم يكن هدف اللقاء الاعتراف بحرية البلاد ومنح الاستقلال، وهذا يعني عقد لقاءات متكررة، يتم خلالها عقد هدنة وكان كل ذلك من أجل الحدّ من حماس الجماهير للثورة والمماطلة والإفادة من الوقت لإكمال خطة مهاجمة جباثا الخشب ولمنع مباشرة الغارات والهجمات على مواقع وثكنات الجيش الفرنسي. وقد ثبت فيما بعد، أن السلطات

الفرنسية العسكرية والسياسية الفرنسية، كانت تخطط للقيام بمعركة خاطفة في ظل المفاوضات المزعومة. وهذا ما حصل فعلاً يوم ٣١ أيار/ مايو ١٩٢٦، كما سنرى في أحداث معركة جباثا الخشب.

٣

أحداث ما قبل المعركة الكبرى

بدأ الزعيم الوطني أحمد مريود استعداداته للمعركة ضد القوات الفرنسية في الجولان، بالاتصال بالمجاهدين في كل أطراف سوريا من مركز قيادته في جباثا الخشب، وبذل المحاولات الحثيثة لسحب المتطوعين من الجيش الفرنسي، وذلك من منطلق الحرص على عدم قتل أي مواطن سوري بمن فيهم الشراكسة المتطوعين مع فرنسا. ونتدلل على نوايا الغدر[1] بشهادة المؤرخ الأردني سليمان الموسى بقوله:

«كان الفرنسيون يحشدون قوات كبيرة للزحف على معقل الثوار في جباثا الخشب. واتصل آل باغ بأحمد مريود عشية الهجوم يحذرونه بأن العدو ينوي الزحف عليه قريباً، وأن عليه أن يتخذ التدابير الكافية»[2].

وبشهادة المؤرخ سليمان الموسى هذه تبدأ مرحلة جديدة من نضال الزعيم الوطني أحمد مريود ضد الاستعمار الإفرنسي.

---

(١) سليمان الموسى، المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.

يبدو أن القيادة العسكرية الفرنسية قد نُمّي إليها عن طريق جواسيسها، أن الزعيم أحمد مريود قد علم بتحشداتها.

فلجأت إلى الحرب النفسية، ودسّت أحد جواسيسها ليبث دعاية أن القوات الفرنسية ستهاجم جباثا الخشب غداً، وأنها أكملت استعداداتها الليلة الماضية، وزعم هذا الجاسوس أنه شاهد عشرات الدبابات وحاملات الجنود خارج القنيطرة، وعند الطريق المؤدية إلى جباثا الخشب. وفي اليوم التالي سرّبت القيادة العسكرية الفرنسية عن طريق جاسوس آخر، أن القوات الفرنسية انحرفت عن الطريق العام، وانتشرت على جانبي الطريق، وأنها أجّلت مهاجمة جباثا الخشب ليوم آخر. وتلاه آخر، ادعى أن المعلومات لديه تفيد، بأن الحملة الفرنسية ستهاجم جباثا الخشب وبقية مواقع الثوار بعد أسبوع[٣]..

وكانت السلطات العسكرية الفرنسية تبغي من وراء ذلك إدخال الشك في نفوس المجاهدين وقائد الثورة بالنوايا الفرنسية، وأنها لم تحدد بعد مهاجمة المجاهدين، وربما أنها لا تنوي ذلك على المدى القريب.. ولكن الزعيم الوطني أحمد مريود، أخذ كل هذه الاحتمالات موضع الجد والممكن، فأرسل المجاهد أحمد بارافي على رأس مجموعة من المجاهدين لقطع الطريق بين دمشق والقنيطرة، ومراقبة الطريق بين القنيطرة وجباثا الخشب، كما أوفد المجاهدين أحمد غازي وسعيد الأخن إلى بيت جن لمساعدة المجاهد أبو عبدو سكر في تنظيم المجاهدين وجعلهم في حالة التأهب القصوى، بالإضافة إلى جمع المعلومات عن تحركات

(٣) معلومات متداولة عند الأهالي سربتها القيادة الفرنسية عن طريق عملائها.

الجيش الفرنسي وإرسالها مباشرة إلى مركز القيادة في جباثا الخشب..

وصل المجاهد أحمد بارافي ومجموعته إلى المكان المحدد لهم لقطع الطريق بين دمشق والقنيطرة وذلك لمنع مواصلات القوات الفرنسية، عن طريق العثمانية ودير ماكر، وكانت المجموعة تتألف من عشرين مجاهداً، «من بينهم أربعة من خيرة المجاهدين الأكراد»[٤]. وكانت المهمة التي كلفوا بها، تقضي بتكديس الأحجار الكبيرة، والصخور الصلبة في عرض الطريق لتمنع مرور ناقلات الجنود، ولتعرقل تحركها باتجاه مواقع الثوار.

ترك البارافي المجموعة تنفذ مهمتها، وذهب إلى قرية «الشوكتلية» القريبة من المكان لشراء بعض الحاجيات التي طلبها أعضاء المجموعة، وقبل أن يصل القرية سمع أصوات طلقات نارية تنطلق بغزارة «فاعتقد أن الذين تركهم أصابوا مغنماً»[٥] فعاد مسرعاً لمعرفة مصدر الرصاص، فلمح سيارة عسكرية ظهرت فجأة ثم توارت عن الأنظار، فتأكد من أن الرصاص انطلق من ركاب هذه السيارة التي تقوم بمهمة استطلاع في المنطقة. وبعد لحظات يقول البارافي:

«ظهرت السيارة من جديد، فأخذ من فيها يرمي القنابل المتفجرة فكادت إحداها تقضي عليّ بعد أن تفجرت بالقرب مني إلاّ أن قدرة الله أنقذتني من موت محتم، حيث رميت نفسي عن صهوة جوادي في الوقت المناسب، وطلبت من رفاقي أحمد الحسيبي وأبو عجاج العبد اللحاق بي للتمركز في المناطق الوعرة

(٤) سعيد العاص، المصدر نفسه، ص ١٢٩.
(٥) مذكرات سعيد العاص، المصدر نفسه، ص ١٢٩ - ١٣٠.

التي يصعب على السيارة الوصول إليها. وفي منطقة محصنة بالقلاع الصخرية الكبيرة، أخذت موقع المحارب خلف صخرة كبيرة وبجانبي الحسيبي وأبو عجاج، وبعد لحظات رأيت ثلاثة جنود يترلون من السيارة، فسددت بندقيتي باتجاههم فقتلتهم الثلاثة، فتوارت السيارة عن الأنظار»[٦].

وبعد ذلك انحدر البارافي ومن معه إلى الطريق العام، فوجد الطريق سالكة والأحجار الموضوعة لا تعيق حركة السيارات العسكرية العالية عن الأرض، فأوعز إلى مجموعته بقطع الأسلاك التلفونية وتحطيم أعمدتها. وبعد لحظات قليلة ظهرت قافلة من السيارات العسكرية المحملة بالجنود، قدرها البارافي بـ ١٥ سيارة، ثم ظهرت عن بعد ثلاث دبابات تسير ببطء، وقدر البارافي ـ كما ذكر للمجاهد سعيد العاص ـ أن الحملة الفرنسية تقدر بـ(٥٠٠٠) جندي وضابط.

أمام هذه القوة الكبيرة من القوات الفرنسية المحمية بالدبابات والسيارات المصفحة، وبالأسلحة الثقيلة والخفيفة، ماذا عمل البارافي ومجموعته، وكيف يمكن التصرف في مثل هذه الحالة غير البحث عن مخرج للهرب والنجاة، أو المقاومة حتى الانتحار والشهادة؟

قال سعيد العاص في مذكراته، نقلاً عن البارافي[٧]:

«انتقل البارافي مع مجموعته إلى الجبال، وتمترسوا في الهضاب

---

(٦) من أوراق أحمد بارافي، انظر سعيد العاص، والدكتور محيي الدين السفرجلاني، تاريخ الثورة السورية، ٥٨٤ ـ ٥٨٧.

(٧) جاءت هذه المعلومات في حديث سعيد العاص عن المجاهد شهيد العرب أحمد مريود ضمن سلسلته.

العالية، وناشد إخوانه الثوار أن يصمدوا حتى وصول النجدات من بيت جن، وأخذت المجموعة تقاتل من مواقعها التي يصعب الوصول إليها إلاّ بالطائرات أو بالانتقال على البغال، أو مشياً على الأقدام، كما يصعب النيل من الثوار مهما كانت رمايات الجيش الفرنسي كثيفة وطويلة المدى، استمرت المعركة حتى غروب الشمس، وأسفرت عن ١٥ قتيلاً و٣٠ جريحاً في الجانب الفرنسي، وانسحبت المجموعة إلى قرية «حرفا» وبدون خسائر، أما القوات الفرنسية فقد عادت تحمل قتلاها وجرحاها إلى القنيطرة».

أوفد البارافي المجاهد أحمد الحسيبي إلى جباثا الخشب، وحمّله رسالة إلى قائد الثورة أحمد مريود، أوضح له فيها تفصيلات الحوادث التي وقعت بين مجموعته والقوات الفرنسية، وفي المساء انتقل مع مجموعته إلى بيت جن، وعاتب أبو عبدو سكر، وخليل مريود، وأحمد غازي، لعدم إرسال نجدة من قوات بيت جن لمشاركته في المعركة.

وكان من نتيجة الرسالة التي أرسلها البارافي إلى قائد الثورة[8] أنه قام بتحرير أربع رسائل:

الرسالة الأولى: وجهها إلى المجاهد أحمد بارافي، أثنى عليه وثمّن جهاده في تصديه للقوات الفرنسية، ونجاحه بتأمين الانسحاب وإنقاذ مجموعته، وطلب إليه من جديد قطع طريق دمشق - القنيطرة عند قرية الشوكتلية.

الرسالة الثانية: وكانت موجهة إلى خليل مريود، يطلب منه

(٨) يصف سعيد العاص الرسالة «بالتقرير الحربي».

الذهاب مع المجاهد أحمد بارافي إلى الشوكتلية والبقاء معه حتى انتهاء المهمة بنجاح «وعندما اطلع خليل على كتاب عمه أذعن لأمره وامتثل لإشارته»[٩].

الرسالة الثالثة: وكانت موجهة إلى أبي عبدو سكر، وتضمنت تعليمات جديدة تتعلق بالتحشدات الفرنسية التي من الممكن أن تتوجه إلى بيت جن قبل جباثا الخشب، وطلب إليه أن يكون بالجاهزية القتالية التامة.

الرسالة الرابعة: وكانت موجهة إلى الأمير عادل إرسلان في حضر، وطلب منه أن يبقى على اتصال دائم معه، وأن يتفقد القوات الموجودة في مجدل شمس. كان الزعيم الوطني أحمد مريود «أصيل الرأي، بعيد النظر، يحسب للأمور حسابها، فما كان ليترك الحوادث تمر من غير أن يكون متأهباً لها، وما كان ليدع الأيام تعمل على مباغتته بما لم يكن متوقعه لذلك اليوم الذي كان فيه الجيش الفرنسي زاحفاً في المساء نحو قرية جباثا الخشب. كان الشهيد البطل يبعث بمجاهد دمشقي يدعى «أبو صالح الكلاس» أخلص له الود، وشاطره الأسى والفرح، موفداً معه أيضاً مجاهداً يمانياً[١٠] لاستكشاف وسبر غور تلك النواحي

(٩) سليمان الموسى، ص ١١٧، والعاص، ص ١٢٩.

(١٠) من المؤسف حقاً أن جميع الكتّاب الذين أرّخوا معركة جباثا الخشب، ذكروا (العبد) وليس الدكتور محيي الدين السفرجلاني وحده الذي وصف المجاهد الأردن بشير «بالعبد اليماني». إن هذا الرجل ومعه ثلاثة من الفرسان أحدهم الشيخ المقرب لشيخ مشايخ بني صخر حديثة الخريشة، بالإضافة إلى أحد أخوة الشيخ حديثة الخشرية، والمجاهد بشير اليماني بني صخر كان من خيرة الفرسان ولم يكن عبداً خادماً أو قطروزاً، بل كان من خيرة الفرسان، وأثبت ذلك في معركة جباثا الخشب.

ليلا»[11] ولمراقبة القوات الفرنسية التي بدأت تحشداتها لمهاجمة مركز الثورة، جباثا الخشب، بقصد النيل من قائدها أحمد مريود..

---

(11) السفرجلاني، المصدر نفسه، ص ٥٨٦.
ذكر السفرجلاني في كتابه، المصدر نفسه، أن السيارة الفرنسية التي تصدى لها المجاهد أحمد بارافي بالقرب من قرية الشوكتلية، كانت تقل مجموعة من الكوكبات الشركسية التي أشرف على تشكيلها المتعاون مع الجيش الفرنسي «عثمان... بك».
قال الدكتور محيى الدين السفرجلاني، أن هذا الحادث الذي تمكن البارافي فيه من قتل ثلاثة من عناصر السيارة، كان من أسباب تسريع عملية القوات الفرنسية في القنيطرة، ومن ثم مهاجمة جباثا الخشب يوم ٣١ أيار/ مايو ١٩٢٦. وهكذا تغلب فريق عثمان بك المتعاون مع العدو الافرنسي على مساعي آل باغ الهادفة لسحب الكوكبة الشركسية من الحملة الفرنسية الكبيرة التي هاجمت قيادة الثورة في جباثا الخشب.
(أنظر: تاريخ الثورة السورية، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٧).

٤

وقائع المعركة الكبرى في جباثا الخشب

قال أحمد الخبي لقائد الثورة الزعيم الوطني أحمد مريود أن القوات الإفرنسية حشدت جحافلها في القنيطرة، استعداداً للزحف على مواقع الثوار، ومركز قيادتهم في جباثا الخشب، وأنها فرضت منع التجول في الأماكن القريبة من أماكن تحشداتها، كما منعت الدخول والخروج من وإلى القنيطرة وزرعت الأسلاك الشائكة في مواقع كثيرة وبخاصة عند مداخل ومخارج المدينة. «ففي مساء يوم ٢٦ أيار/ مايو أوفد الوطني الغيور عاصم محمود باغ أحمد الخبيّ من القنيطرة إلى المجاهد القائد أحمد مريود، بعد أن أخرجه من تحت الأسلاك الشائكة التي نصبها الجيش الفرنسي لمنع الأهالي من الخروج إلى القرى المجاورة، ليعلمه بالهجوم على جباثا الخشب. وقد أمر قائد الثورة بحجز أحمد الخبي، حتى يتيقن من المعلومات التي نقلها، وهذا الحذر جاء بسبب الشائعات السابقة التي انتشرت بين الأهالي وبين صفوف الثوار، عن طريق الجواسيس الذين أرسلتهم مخابرات القيادة الفرنسية. لتضليل قيادة الثوار، والشك بالساعة المحددة للهجوم. وعلى الفور أرسل مريود بعض المجاهدين

للاستطلاع[1] فتجولوا في المنطقة، وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من جباثا الخشب، شاهدوا طليعة القوات الفرنسية بالقرب من قرية خان أرنبه، فعادت دورية الاستطلاع وأخبرت مريود بالتحشدات الفرنسية، عندها أمر مريود الرجال الثوار من أقاربه بالتوجه إلى المرتفعات الجنوبية، وتوجه هو إلى الجهة المقابلة باتجاه خان أرنبه، وحرّك مجموعة أخرى باتجاه مرتفع «كرم السيد»، وأبقى الأمير عز الدين الجزائري مع مجموعة من الدماشقة في مدرسة القرية. وعند منتصف الليل (٣٠ أيار/ مايو ١٩٢٦) حدّثه شعور خفي بالخطر الداهم فأيقظ أقاربه وخرج بهم قائلاً: هيا يا إخوان، وظل أرقاً حتى بدأت خيوط الفجر. ولم يصارح أقاربه بما هجس في نفسه، رغم أنهم كانوا في حالة استنفار دائمة، وقد عرفوا حقيقة الأمر، والنوايا العدوانية الفرنسية تجاه قائدهم وثورتهم. وأخيراً، نهض مريود وتوضأ ثم صلّى صلاة الصبح.. وأثناء الصلاة بلغت مسامعه طلقات متفرقة بعيدة، فأسرع وأيقظ رجاله الثوار، وأرسل أبو صالح الكلاس مستكشفاً، فلم يلبث هذا أن عاد يخبره بجلية الأمر»[2]. وأن القوات الفرنسية اقتربت من «عين البيضا»، فأصدر قائد الثورة تعليماته لقادة المجاهدين بالانتشار نحو المرتفعات الجنوبية والتصدي لقوات المشاة طليعة القوات الفرنسية، فوقعت معركة بين الطرفين، وتمكنت قوات الثوار من

---

(١) كانت قوة المجاهدين من الضيوف القياديين والموجودة في معركة جباثا الخشب تقل عن أربعين مجاهداً هم أهله واخوانه وأبناؤه وضيوفه الكرام من دمشق والغوطة وذلك نظراً لقرب قوات الثورة التي كانت مرابطة على طريق الشام عند الشوكتلية وفي سفح جبل الشيخ عند بيت جن وحضر ومجدل شمس والتي يربو عددها على عدة آلاف.

(٢) سليمان الموسى، المصدر نفسه، ص ١١٧ ـ ١١٨.

دحر قوات المشاة الفرنسية، وانسحابها إلى الخلف، وقد شهدت مواقع كرم السيد والعوجه أروع ملحمة قتالية، وشاهد أهالي قرية «أوفانه» قوات المشاة الفرنسية وهي تهرب من أمام المجاهدين، للاحتماء بالقوات الفرنسية المحمولة. ويصف سعيد العاص المعركة مع المشاة بقوله:

«فتنكب المجاهد الكبير أحمد مريود بندقيته وأخذ معه عشرة أمشاط من العتاد، وأسرع وإخوته وأقاربه لمقابلة الجند، وعلى أثر ذلك هرع من في البيوت لنجدة الثوار، وبادر المجاهد الكبير بمصادفة العدو ولم يكن عدد رجاله يزيد عن الـ(٤٥)[٣] ومن بينهم الأمير عز الدين الجزائري، لأن قوات المجاهدين كانت محتشدة في حضر وبيت جن والمجدل ودارت المعركة ضارية، وهو يحض رجاله على الاستبسال، وكان أول من اشتبك معهم القائد البطل مريود قوة المشاة فدحرها وأوقع فيها الخسائر الكبيرة»[٤]. وبعد دقائق معدودة من المعركة مع المشاة، حلّقت في سماء جباثا الخشب سبع طائرات فرنسية، وظهرت القوات المحمولة على عشرات السيارات المصفحة والدبابات والمجنزرات، بالإضافة إلى قوات الخيالة، فأخذت هذه القوات تهاجم من جميع الجهات، وتسللت الدبابات، وأخذت تقصف مواقع الثوار في التلال الجنوبية، والحرش، وموقع المدرسة، حيث يقاتل المجاهد عز الدين الجزائري والثوار الدماشقة من آل العسلي. وقد تمكن الأمير عز الدين الجزائري من قتل ١٣ جندياً فرنسياً وحده، كما تمكن المجاهد عبد اللطيف المغربي من حصد ثمانية رجال من رشاشته التي نصبها على سطح أحد المنازل[٥]، وبقي

(٣) كانت قوة المجاهدين في جباثا الخشب لا تتجاوز الثلاثين مجاهداً باستثناء أهل القرية العُزّل ولا حشد في القرية وذلك نظراً لقرب قوات الثورة في الشوكتلية وفي بيت جن وحضر ومجدل شمس والتي تربو على عدّة آلاف من المجاهدين.

(٤) سعيد العاص، المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٥) ذكرت معظم المصادر أن المنزل يعود إلى الزعيم قائد الثورة أحمد مريود.

يقاتل بشجاعة الأبطال حتى كسب الشهادة[٦]. واشتد هجوم العدو بعد تقدم دباباته، وسرعة فرسانه، وتمكنهم من القيام بحركة التفافية واسعة النطاق.. عندها أدرك القائد خطر مهاجمة الفرسان، فقرر نقل المعركة إلى الحرش كتدبير للحد من مهاجمة الفرسان، والابتعاد عن قصف الطائرات، وطلب من بشير اليماني تزويده بالذخيرة، ثم الانتقال إلى سطح المنزل لتشغيل الرشاش الذي توقف عن الرماية بعد استشهاد المجاهد عبد اللطيف المغربي «وصاح قائد الثورة، ينتخي بأقاربه.. محمود، ومحمد، وحسن، وياسين، وابنه حسين، وكل المجاهدين.. اليوم يومكم يا إخوان.. أهجموا وقاتلوا الاستعمار، الشهادة أو النصر، طاب الموت يا آل مريود، ويا مجاهدي العرب حمي وطيس القتال». واستبسلت تلك العصبة المجاهدة، وفجأة اتقدت عينا المجاهد قائد الثورة البطل، إذ افتقد ابنه حسين[٧] وظل يسأل عنه، حتى رآه على هضبة عالية وقريبة منه يطلق النار على جنود العدو، ففاض قلبه غبطة ونهض ينقضّ على المهاجمين بشجاعة الأبطال، وجسّد العمل القيادي في أروع الصور الكفاحية ونكران الذات، وشهد بأم عينيه ياسين وفاض قلبه غبطة لأن الدماشقة الكرام قادة الفتح التحرري حاربوا مع أهله. كما شهد استشهاد المقاتل البطل (الأخ الثاني بعد ياسين) محمود مريود، الذي كان بفدائيته يبحث عن الموت من أجل الانتصار للوطن واستقلاله[٨].

---

(٦) وصفت معظم المصادر، عبد اللطيف المغربي، بالجندي، وهذا يعني أن المغربي هو من منتسبي الجيش الفرنسي، إنضم للثورة من منطلق الانتماء القومي.

(٧) استمر المجاهد حسين ابن قائد الثورة أحمد مريود في معركة الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، وذاق عذابات النفي والتشريد والسجن، وعاد إلى سوريا بعد الاستقلال، وانتخب نائباً عن منطقته لعدة دورات. وأحسن خدمة مواطنيه، ورأسهم في إعمار الوطن وتحقيق نهضته، توفي عام ١٩٨٦.

(٨) كان الشهيد محمود مريود شقيق قائد الثورة الصغير من أمهر الرماة، كان فارساً مشهود له بالفروسية وحبِّ الفداء، كان سمحاً جواداً مقداماً وكانت رصاصاته لا تخطيء الهدف فقتلت جند العدوان العسكري الإفرنسي المهاجم، وقاتل حتى۔

فضمد جراح الحزن، وتغلب على الفجيعة، حتى جاء دور حزن الآخرين عليه، بعد أن اخترق رصاص الغدر والحقد خاصرته وكتفه وذقنه، فسقط الذي عاهد الله والوطن وما أُخلف بوعده، ليطهر تراب الجولان وجباثا الخشب والوطن العربي بدمه الطاهر الطهور، وترك ثواره الأبطال والفجيعة تنخر أعصابهم ونفوسهم وتدمي قلوبهم، وتذرف الدموع من عيونهم، حيارى، يبحثون عن جسده في مواقع الجهاد، فكانت المأساة أكبر، والفجيعة أعظم، عندما عرفوا أن القوات الفرنسية أخذت الجسد الطهور ورحلت إلى دمشق»..

ويحدثنا الدكتور محيى الدين السفرجلاني عن معركة جباثا الخشب، ويصفها على الشكل التالي:

«ذهب إلى مشارف القرية ليلتقي بالجيش الفرنسي، فأسرع إلى اللحاق به أخوه محمود، وأبناء عمه حسن ومحمد، ودارت بين هؤلاء الأشاوش معركة دامية ثبت لها هؤلاء الأبطال ثباتاً كان له منتهى التأثير في ذلك الجيش اللجب، وصمدوا صمود الأبطال والجبال الرواسي، حتى استشهد محمود وحتى تمكن القائد البطل من اتخاذ متراسٍ وأخذ يطلق النار من خلف. وكان أخوه الصغير ياسين وهو لا يتجاوز الخامسة عشر ربيعاً قد توارى خلف استحكام مع بشير اليماني وقريب خالد، أما ولده حسين فقد كان في جهة قريبة من أبيه، وبقربه الكلاس، وخليل الديراني ومصطفى الديراني، ورمضان بغدادي، وعلي جمعة، وقد قاتل هذان الأخيران قتالاً مجيداً، وناضلا نضالاً عنيفاً حتى سقطا في حومة الوغى»[٩].

وكان الزعيم المجاهد أحمد مريود، يستحث الثوار، ويقوي من

= نفذت ذخيرته. محمود مريود البطل العربي جعل من زهو وكبرياء عرس معركة جباثا الخشب، حدثاً مأثوراً خالداً. محمود مريود عريس السماء لم يكن قد مرّ على عرسه إلاّ أشهر قليلة، فأصبح عريس الأرض.

(٩) السفرجلاني، المصدر نفسه، ص ٥٨٨.

عزائمهم فحمل وإياهم على الأعداء «وما كادوا يستميتون استماتة الشجعان، وينقضوا على الأعداء انقضاض الصواعق، حتى أصابت ياسين مريود رصاصة في فخذه، فعاد إلى أخيه قائلاً: إنه أصيب، فما كان من المجاهد الكبير أحمد مريود، إلا أن ابتسم ابتسامة المستخف بالموت».

«ولم يبرح ساحة القتال بل أخذ يمعن في الأعداء قتلاً وفتكاً، وقد علا الجو في تلك الواقعة سحابة من عجاج حتى ما كان الرفيق يرى رفيقه، وظلوا على ذلك زمناً كان فيه بقية المجاهدين قد دوهموا من جيش [المتطوعة] والجنود في القرية»[١٠].

وعن استشهاد البطل العربي قائد ثورة الجولان والحرمون وصاحب شعار الثورة الدائمة، قال السفرجلاني:

«كانت كلماته الثورية .. اهجموا يا أسود.. إلى الاستشهاد أو النصر، آخر كلمات وجهها إلى المجاهدين، فسقط البطل، وساد سكون المجاهد بعد العاصفة التي أثارها، وبعد النار التي أشعلها.. أن الحبيب الفقيد قد خرّ في هذه المعركة شهيداً بعد أن أفنى العشرات من أعدائه» ولم تتوقف المعركة «وكان هناك كل من المجاهدين البواسل: حكمت، وصبري، وفائق، وأديب، وأحمد العسلي الكرام، وقد أصيب البطل حكمت العسلي برصاصة في صدره، وفائق العسلي بأخرى، خرّ على أثرها صريعاً، واستطاع الباقون أن ينجوا بأنفسهم بعد قتال عنيف».

إن الواجب الوطني والقومي، والأمانة التاريخية، وحق الشهداء والجرحى والأبطال علينا، أن نذكر بالفخر آل العسلي الكرام، أبطال معركة جباثا والحرش في جباثا الخشب، وهذا المجاهد أديب العسلي الذي روّع جند المشاة والفرسان عندما حاولوا الدخول إلى الحرش، فامطرهم برصاص بندقيته، فقتل منهم أكثر من أربعة

(١٠) المصدر نفسه.

زجال، وجرح ثلاثة، كان بمقدوره القضاء عليهم، ولكن نخوته العربية أبت أن ينال من جرحى غير قادرين على القتال، علماً أن المجاهد أحمد العسلي كان ينوي قتلهم.

أما المجاهد حكمت العسلي، وبرغم جرحه الكبير في صدره، فقد رفض الانسحاب من المعركة، ولولا إصرار الكلاس على انسحابه لكان مصيره كمصير الشهيد البطل فائق العسلي الذي بقي يقاتل حتى آخر رصاصة في بندقيته، وآخر رمق في حياته.. أما المجاهد صبري العسلي، فكان نصيبه الأسر، حيث بقي في حوزة الجيش الفرنسي حتى نهاية المعركة. وأثناء معركة آل العسلي في الحرش، وانتقال المجاهد الشاب حسين أحمد مريود، إلى غرب القرية، وانتشار بقية المجاهدين في البلدة والحرش، خوفاً من تأثير الطائرات[11] وصلت قوة المجاهدين: شكيب وهاب، عبد الحليم الجردي، سليم عبد الصمد، وأخذوا يهزجون الأهازيج الوطنية والحماسية «لعيونك يا حسين.. لعيونك يا ابن البطل..».

وبعد انسحاب القوات الفرنسية باتجاه خان أرنبه، ومعهم جسد الشهيد البطل أحمد مريود، وصل المجاهدان خليل مريود وعيس مريود، ومعهما مجموعة من القوات التي كانت مرابطة في بيت جن، ويعود سبب تأخير هذه المجموعة إلى مرورها على حضر، حيث تتواجد قوات الأمير عادل إرسلان، وقد حاول عيسى وخليل مريود إقناع الأمير إرسلان بالزحف إلى جباثا الخشب إلاّ أنه رفض بحجة «فات الأوان» وكان هذا الموقف من الأمير عادل إرسلان[12]

(11) معلومات متداولة بين الأهالي في الجولان.
(12) خلافاً لمواقف الأمير عادل إرسلان من الثورة كانت مواقف الأمير شكيب إرسلان وبني معروف مواقف تقدير واحترام وتأييد ولم تنقطع المراسلات بين أحمد مريود =

موضع استغراب واستنكار من أهالي حضر ومجد شمس، فتحركت القوة الصغيرة التي جاءت مع عيسى مريود إلى جباثا الخشب، والتقت عند مشارف القرية ببقية قوات بيت جن والتي كانت بقيادة المجاهدين أبو عبدو سكر وأحمد بارافي، وبعد ساعة من انسحاب القوات الفرنسية حضر إلى جباثا الخشب الأمير عادل إرسلان، وعرض عليه اللحاق بالقوات الفرنسية إلاّ أنه رفض مرة ثانية، وأخيراً قام عيسى مصطفى مريود وشكيب وهاب وغيرهما من المجاهدين بتفقد القرية ومواساة الأهالي بفقيد قائد الثورة الزعيم الوطني أحمد مريود، وبقية الشهداء والشهيدات[١٣] الذين سقوا بدمائهم الزكية أرض الوطن، وترابه المقدس.

وهناك رواية تقول: «إن قوات بيت جن التي كانت تقارب الـ ٧٠ مجاهداً شنت هجوماً مشتركاً مع قوات شكيب وهاب على القوات الفرنسية التي كانت بحالة انسحاب من الحرش». وقرر كبار الثوار وفي مقدمتهم: أحمد بارافي، شكيب وهاب، أبو عبدو سكر، أبو صالح الكلاس[١٤] عبد الحليم الجردي، حسين قيس، والشيخ أحمد عبد الباقي الصعيدي، مطاردة القوات الفرنسية بقصد تخليص جثمان الشهيد أحمد مريود، إلاّ أن الآراء توحدت بعد ذلك بالعودة إلى الغوطة على أن ينظموا أنفسهم ويعززوا قواهم، ثم يستأنفوا الجهاد في ظل الشعار التاريخي الذي رفعه

= وشكيب إرسلان الذي كان يدافع عن عدالة القضية العربية وعن حق السوريين بالحرية والاستقلال (وهو في جنيف مقر عصبة الأمم المنتدبة) في وجه جيوش الاستعمار الفرنسية المقنعة بحجة الانتداب الدولي.

(١٣) ذكرت بعض المصادر أن أربع نساء استشهدن خلال وجودهن في الحرش، بعد مهاجمة القوات الفرنسية وسط القرية، وقصفها بالطائرات.

(١٤) أسرت فرس المجاهد أبو صالح الكلاس، ونقلها الجيش الفرنسي من ضمن المنهوبات.

الزعيم الوطني الشهيد أحمد مريود، شعار الثورة الشاملة الدائمة حتى التحرير والاستقلال[١٥].

(١٥) أكد المجاهد سعيد العاص في مذكراته أن قوات المجاهدين لاحقت القوات الفرنسية حتى قرية حضر، فقتلوا من الفرنسيين أكثر من ٣٠ عسكرياً وأعادوا المنهوبات إلى جباثا الخشب.

٥

وقفة مع التاريخ

المناضل العربي الكبير أحمد مريود -نذر عمره (١٨٨٦ - ١٩٢٦) وكل ما يملك في الدفاع عن حق أمته العربية الماجدة حقها بالحرية والوحدة ذلك الحق المقدس الذي باركته السماء. حارب الاستعمار بكلمة الحق في دنيا العرب وخاصة في مصر وسوريا (فلسطين والأردن) وحارب الاستعمار بالعمل السياسي المنظّم بدءاً بالجمعيات السرية ثم الأحزاب العلنية، وحارب الاستعمار بالبندقية للرد على جبروت غطرسته وعدوانيته. بشّر في صفوف الشعب بحق أمتنا باسترداد حريتها واستقلالها ووحدتها، واستطاعت قناعة نضالية مشتركة بين القائد وثوار الشعب أن تخلق جيشاً شعبياً كبيراً (تمتد حشوده من بلدات قطنا والجولان حتى آخر قرى العرقوب وبلداته) واعياً قانعاً بنبل الغاية السامية التي يقاتل من أجلها. والتف حول هذا الجيش الشعبي اللّجب حلفاء أحرار كثيرون فنصروا مجتمعين قضية الأمة والوطن.

وظل قائد الثورة أحمد مريود يقاتل الاستعمار بالحسام واليراع في آن معاً وحقق انتصارات سياسية معنوية كثيرة ومثيلات لها في

ساح النزال ضد الاستعمار. كان من بين هذه الانتصارات السياسية إشراك القوى السياسية والاجتماعية في الوطن العربي مغرباً ومشرقاً بالدفاع عن حرية سوريا. فوقفت دول آسيا والمهاجر الأميركية مع قضية الحرية حتى وصلت أصداؤها قوية مدوّية أوروبا وفرنسا نفسها بإسهام رفاق له قياديين كان من أبرزهم الأمير شكيب إرسلان والأستاذ أسعد داغر؛ فأسقط بكل ذلك أكذوبة أن انتداب فرنسا على سوريا جاء لتمدينها وتثقيفها وتهذيبها!!!

ومن انتصارات ثورته المرموقة في ساح الصراع ضد جيوش الاستعمار أن استطاع ردّ الغزو الإفرنسي لسوريا عن طريق مرجعيون ـ القنيطرة ـ فدمشق.

وفي مرحلة برزخية مؤسفة فترت وتائر العمل النضالي ضد العدو الغازي لسوريا، وكادت أن تطول، عندها جمع حوله خيرة المناضلين عاقداً العزم على أن يجدد جذوة الثورة لينتصر على الاستعمار، وذاك لعمري هدف سامٍ نبيل ترخص لتحقيقه المهج والأرواح. وكان من أبرز الحشود طلائع الفتح مجاهدو دمشق والغوطتين وجبل الشيخ والجولان: هذا من جهة.

ومن جهة أخرى عبر ملابسات غامضة وعلامات استفهام تدين مصداقية بعض القيادات التي كان عليها أن تشارك في معركة جباثا الخشب (وفي زمن لا يتعدى دقائق نصف ساعة) فتخاذلت وغابت عن الأنظار. فمن أجل أن تعود جذوة الثورة متوقدة حارة لتشمل كل سوريا.. قرر قائد الثورة المجاهد أحمد مريود أن ساعة الفداء قد حانت ولا بد أن يعمّد هذه الثورة الشاملة بدمائه الزكية الطاهرة.

ومن هذا المنطلق الأساس (أن تستمر الثورة) قرر أن يسمح لبعض

أهم القيادات من حوله في المعركة أن تنسحب لتعود فتشعل الثورة في دمشق في حماه في الساحل في الشمال.. في كل سوريا. ويؤكد الجميع أن انسحاب قائد الثورة كان ممكناً ميسوراً على امتداد ساعات المعركة، ولكن قراره كان حاسماً أن ينير باستشهاده دروب الثورة الشاملة التي شابتها ظلمة بددها بفدائه.. واستمرت الثورة كما أراد لها حتى الثلاثينات وبداية قبول المستعمر أن يفاوض الجانب السوري.

٦

انتهاكات الجيش الفرنسي

إن حدثاً ما، لا يمكن أن يكون تاريخياً، ما لم يصبح حلقة في نسق التطور التاريخي ـ ولكي يكون كذلك، فلا بد أن تتشكل ظاهرته وتتبلور بتراكم كمي ومدى زمني لنسيج العلاقة بين متضادات الحدث. ونتيجة لذلك تتثبت ظاهرته وتتكون وحدتها بتبادل طرفي التأثير فيما بينهما...

إن الظواهر التاريخية تتطلب: نشوءاً ملحوظاً، وتثبيتاً يتمثل بتشكيل وحدتها الجدلية، وظروفاً ملائمة تمنحها خاصية التطور التاريخي. إذا كانت هذه الخصائص التي تجعل من الحدث تاريخياً، فإن ثورة جباثا الخشب ومعركتها، قد احتوتها جميعها بقوة ظهورها وبفعالية وحدة صراعها وبملائمة الظروف لتطورها، بيد أن الاعتراف بكون ثورة جباثا الخشب ومعركتها حدثاً تاريخياً، يطرح استفهاماً حول طبيعة التاريخ الذي تعكسه وتعبّر عنه، فهل أنها ثورة لتعزيز الثورة السورية الكبرى، وتجديد شبابها، بعد أن أصابها جرح الانتكاسة في أكثر من موقع، وبخاصة في جبل العرب والغوطة؟؟ أم أن قائد الثورة المجاهد أحمد مريود أراد استثمارها لمصلحة الزعامة الذاتية، بعد أن شعر بالحيز القيادي،

وترحيب الشعب السوري بعودته إلى أرض الوطن؟؟ إن الإجابة عن هذا الاستفهام الهام جداً، تتطلب تأملاً حياً بطبيعة الظروف التي أحاطت بالثورة، ومن ثم التأمل بطابع الثورة ونفسية قائدها. الإدارة الفرنسية، سواء أكانت المركزية في باريس أم الانتدابية في دمشق، قرأت التوجه السياسي للثورة، كما قرأت ـ أو بالأحرى أعادت قراءة ـ نفسية القائد أحمد مريود. فوجدت أن هذه الثورة تنطلق من مبادىء الرفض المطلق للوجود الفرنسي في سوريا ولبنان أيضاً، وهي أكبر حالة نهوض وطني تحريضي اكتسبت بسرعة شمولية الرأي العام السوري والعربي معاً. فهذه الإنجازات في مسار الثورة لا بد من وجود القائد الكبير لتحقيقها، فلم تستغرب الإدارة الفرنسية عندما عرفت أن أحمد مريود هو قائد الثورة، بل كانت تتوقع ذلك منذ أعلمها سفيرها بعودة مريود المناضل العنيد والثائر الدائم والمجاهد الذي نذر نفسه لتحرير العرب وتحقيق وحدتهم تجاوزاً الحدود وخاصة تلك التي وضعها سايكس وبيكو لتقطيع أوصال وحدة المشرق العربي، الأمر الذي تهيبه العثمانيون.. سلاطين بني عثمان ولم يقبلوا على تنفيذه. وعندما قرأت نفسيته الجديدة ـ القديمة، وجدت نفسها أمام رجل يؤكد إحساسه بكرامته، وينطلق بأن كرامة الإنسان من كرامة شعبه ووطنه[1].

---

(١) وتذكرت فرنسا ردّ أحمد مريود القوي الشجاع على غطرسة وصلييبة غورو جنرال فرنسا الأول حين أهان صلاح الدين، كيف كان عنيفاً سريعاً اخترق موكب الجنرال غورو المدجج بالحماية بالدرك الخيّالة مرصوفين الواحد بجانب الآخر من دمشق إلى القنيطرة؛ اخترق الموكب ووصل إلى غورو بكوكبة مؤلفة من خمسة فرسان (وكانوا الأقرب إلى نفسه وأهله ومثّلوا بأشخاصهم وتوزعهم الجغرافي كل أطراف ثورته من مشارف قطنا وحتى آخر قرى وبلدات العرقوب) غرسوا في ذراع الجنرال غورو الخشبية رصاصات الرفض العربي لمبادىء وممارسات الاستعمار الغربي من جهة؛ ومن جهة أخرى كيف أن هذه الحادثة الحدث التاريخي كانت منعطفاً عظيم الأهمية ساهم في تحجيم هيبة التوسع الاستعماري وفضح همجيته وعنصريته الأمر ـ

كما وجدته يضحي بحياته من أجل مثله، فهو المحكوم بالإعدام أكثر من مرتين ويعود ثانية من مواقع التحدي، ليس لفرنسا والقاضي الذي حكم عليه بالإعدام فحسب، بل من موقع التحدي للموت نفسه... من هنا كان قرار الإدارة الفرنسية بتصفيته جسدياً، وممارسة أعتى أساليب القهر والإذلال، والإرهاب في عمق قاعدته الكفاحية «جباثا الخشب» وضد أهالي وشعب هذه القاعدة. لأن في ذلك ـ كما ترى فرنسا ـ القمع الأبدي للثورة من جذورها التي أينعت بعد عودة المجاهد مريود.. إذن. أين موقع المجاهد أحمد مريود من الاستفهام الثاني؟

إن الذي في نيته توظيف الإنجازات الثورية لمصلحته الذاتية، لا يمكن أن يكون في مقدمة المجاهدين، يعرض نفسه للموت قبل غيره، وقبل أن يستشهد أحمد مريود تعرض للموت أكثر من مرة، فعندما حاول المجاهد أحمد بارافي أن يمنعه من القتال في معركتي بيت سابر وبيت تيما خلال زحف المجاهدين من الغوطة إلى الجولان صرخ به وقال: «هل تحرمني يا أحمد من شرف الجهاد». فردّ عليه البارافي: «لا والله، فأنت شيخ المجاهدين، قائدنا وقدوتنا، ولكنه الحرص عليك، فمن بعدك يقودنا ويخطط لنا، والمعركة الكبرى لم تبدأ بعد يا أبو حسين». لم يكترث لكلام البارافي العاطفي فصرخ.. هيا يا أحمد.. الأعمار بيد الله..

= الذي رحبت به شعوب آسيا وأفريقيا التي اجتاحها الاستعمار الفرنسي ذاته.
حادثة اختراق موكب غورو جنرال فرنسا الأول في الشرق بالشكل والأسلوب الشجاع الذي تمت به وإسهامها في تسريع إنهاء أسطورة غورو رجل الاستشراق ورسول الاستعمار الغربي الورع المتحضر، أفادت كثيراً قضايا الحرية في بلدان العالم القديم آسيا وأفريقيا لأن الممارسات الفرنسية كانت بالقهر الجماعي وسلب الحريات والنهب الحضاري لتلك الأمم العريقة بحضاراتها وبإنسانيتها وشفافيتها الخلقية.

هذه العصامية في القول والفعل، وضعتْ سلطات الانتداب أمام خيار واحد فقط.. هو قتل المجاهد أحمد مريود، وإصدار مثل هذا القرار لا بد من أن يرافقه تعليمات قاسية من القيادة الفرنسية إلى جهات التنفيذ العسكرية، تعبئها بالحقد والكراهية، وتسمح لها أيضاً بممارسة كل المحرمات التي حرمتها المواثيق الدولية خلال الحرب، أو الاحتلال، أو الأسر. فعندما دخلت هذه القوات، كانت حريصة على ممارستها، بل كانت تبحث في كل مكان من قرية جباثا الخشب لتمارسها ضد الإنسان، والحيوان، والمنزل، والزرع وحتى في تراب «جباثا الخشب»، ومن أهم هذه الانتهاكات:

أولاً: التشفي بجثث الشهداء وانتهاك حرمات الموت المقدسة منذ أن خلق الله الإنسان. ومن المؤكد أن السلطات الفرنسية كان قرارها قتل قائد الثورة أحمد مريود، ولم يكن قرارها أسره أو اعتقاله على ذمة التحقيق والمحاكمة، وذلك من منطلق تصفية حسابات قديمة أولها الثأر للجنرال غورو، وآخرها تجديد روحية الثورة، وبعث حالة نهوضها الثوري في كل المناطق السورية، بدليل أن أحمد مريود «كان القائد الثائر الوحيد الذي بعد انتهاء الثورة بدأ يستقطب ساحة العمل الوطني كلها وأصبحت جباثا الخشب أمل الشعب ومركز التجمع الثوري»[٢].

وعلى الرغم أن المجاهد لم يستسلم، إلاّ أن السلطات الفرنسية كانت لا تريده حياً «لأن مجرد أسره وتقديمه للمحاكمة وإعدامه

(٢) جريدة الشرق الأوسط السعودية التي تصدر من لندن، في دراسة للأستاذ منذر الموصلي بعنوان «صفحات وضاءة من تاريخ سوريا الوطني والسياسي،» العدد ٥١١٠ الصادر يوم الثلاثاء ١٩٩٢/١١/٢٤.

سيجعل البلاد تلتهب فكان لا بد من تصفيته»[٣]. ومن حسن حظ السلطات الفرنسية أنها قتلت مع المجاهد الشهيد مريود صفوة إخوانه ومريديه من عائلته في جباثا الخشب وخيرة قيادي الكفاح الوطني من رجالات دمشق رفاقه في العقيدة والجهاد. ولم تكتف زمرة الإرهاب الفرنسي بالقتل، بل عمدت إلى نقل جثمان الشهداء، وفي مقدمتهم شيخ الجهاد والشهداء أحمد مريود إلى خان أرنبه ومن ثم إلى دمشق، حيث عرضت جثثهم في ساحة المرجة (ساحة الشهداء) على سبيل التشفي «لأنهم لم ينسوا أن يغفروا لأحمد مريود مداهمته للجنرال غورو وتحديه البطولي لفرنسا كلها»[٤] ويروى عن المجاهد الدمشقي الشهير الشيخ محمد الأشمر وكان من أخلص أصدقاء الشهيد مريود، إذ كان وإياه أول من رفعا العلم العربي في الميدان أثناء دخول الجيش العربي الفيصلي إلى دمشق، يروى عنه بأنه قال:

> «إن السلطات الفرنسية لم تقم للموت حرمة، وتركت الجثث تحت أشعة الشمس، فخشي سكان دمشق أن يصيبها التعفن ولم تكن السلطات قد سمحت بسحبها. فهرع أهالي العاصمة العربية وجمعوا الزهور التي تشتهر بها دمشق ونثروها على جثث الشهداء وزينوها بالورد».

ويضيف المصدر شاهد العيان: بأنه عندما «تقرر نقل الجثث إلى المدافن رفض أهل دمشق وقادة الأحياء الشعبية السماح لآل مريود بنقل جثمان الشهيد إلى جباثا الخشب، ذلك لأنه شهيد الشعب كله، وأصروا على دفنه في احتفال ديني وطني شعبي مهيب في

---

(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

مقبرة «قبر عاتكة» أحد الأحياء الدمشقية العريقة، وأقيم له ولرفاقه مأتم شعبي كبير»[٥].

إن السلطات الفرنسية عندما مارست أسلوب التشفي هذا بالأجساد الطاهرة المطهرة، وعرضت جثمان الشهيد مريود في الشمس المحرقة لكي يكون عبرة لكل المجاهدين، كانت تعتقد أنها توصلت إلى إخافة وتأديب الشعب بأحمد مريود ورفاقه، ولكن النتيجة ـ كما رأينا ـ كانت عكسية تماماً. فجموع الشعب، تمنى كل واحد منها أن يكون أحمد مريود، لأن قيمة الشهيد المناضل في ديننا، وتقاليدنا، وأعرافنا، لا تموت بل هو الحي الباقي في ذاكرة الزمن والتاريخ والإنسان. فبعد سبعين عاماً لم تستطع فرنسا أن تمحو هذا العار من تاريخها، حتى أصدقاء فرنسا عندما كتبوا تاريخها الانتدابي على سوريا ولبنان، لم يستطيعوا إخفاء هذه الحادثة النكراء المخالفة بطبيعتها لتعاليم السيد المسيح وكل أنبياء الأرض ـ وتقاليد الشرف والفروسية التي يجب أن تتحلى بها الحروب.

ثانياً: قتل الشيوخ والنساء والأطفال:

عندما طوقت قرية «جباثا الخشب» من جميع اتجاهاتها، وأخذت الطائرات تحوم وتقصف أماكن تجمع الثوار، وأخذت الدبابات تجول في شوارع القرية، وجنود الخيالة تعبث بأحياء البلدة، خرجت النساء من القرية للاحتماء في الحرش، إلاّ أن جنود المشاة والخيالة عادوا إلى الحرش بعد أن عرفوا أن معارك ضارية تدور في محيطه وفي داخله، وبعد أن عرفوا أيضاً أن المجاهدين مصطفى

(٥) المصدر نفسه.

الكشكة وأبو صالح الكلاس تمكنا من اختراق حواجزهم وذهبا للقتال في الحرش للمرة الثانية «فذعرت النسوة، عندما شاهدن الجند أصبح مسيطراً على الحرش، وهرعن للاحتماء بالبلدة». وذكر المجاهد سعيد العاص أن ست نساء قتلن برصاص خيالة القوات الفرنسية، ويصف العاص حالة النساء والأطفال ويقول:

«شاهدوا الحريم كأنها ظباء نافرة فرت وهي هائمة على وجوهها، فيا له من منظر مؤلم».

ويذكر سعيد العاص في مذكراته، أن النجدات من بيت جن وحضر التي التقت عند مشارف الحرش تألم رجالها من منظر النساء وهنّ بحالة الذهول والتشرد، وبخاصة أن معظمهن يصطحبن أطفالهن «وقد دبت النخوة برؤوس الأبطال فاشتبكوا مع الجند، وقد أعلمتهم النسوة بأن عدد القتلى من الثوار تجاوز الأربعين مجاهداً»(٦).

ثالثاً: الفتك بالمجاهدين الجرحى:

من خلال سير أحداث المعارك التي جرت في القرية (جباثا الخشب) والحرش، والمدرسة، ومحيط منزل المجاهد أحمد مريود، يتبين لنا أن التعليمات المعطاة للقوات الفرنسية المهاجمة تقضي بقتل أكبر عدد ممكن من المجاهدين، وعدم اللجوء إلى أسر أو اعتقال أحد، فهم ليسوا بحاجة إلى محاكمات بل إلى إعدامات، حتى بحق الجرحى الذين لم يتمكنوا من الإسعاف والنجاة، وقد أكّد المجاهد سعيد العاص في مذكراته أن القوات الفرنسية المهاجمة كانت تقتل الجرحى، وتقضي على حياتهم!! ولولا قدرة

(٦) سعيد العاص، المصدر نفسه، ص ٩.

الله وسرعة أبناء العسلي بالتحرك لإنقاذ وإسعاف المجاهد حكمت العسلي لكان من بين الجرحى الذين قتلوا على يدِ فرسان الغزاة وهم ينزفون في أرض المعركة.

قال سعيد العاص:

«على أثر شدة مهاجمة الفرسان اضطر الأمير عز الدين الجزائري لمغادرة المكتب والتمكن بالحرش حينما شاهد قوى أحمد مريود هرعت للتمكن فيه. فانتهز العدو الفرصة، وشدد وطأة هجومه، فوقع بيده بعض الجرحى فأجهز عليهم، وهذه تعد جناية كبرى للمبادىء الإنسانية».

٧

ردود الفعل على استشهاد أحمد مريود

بعد سقوط المجاهد أحمد مريود، وكسبه الشهادة، تراجعت قواته وقوات الأمير عز الدين الجزائري، والتي كانت، قبل وصول النجدات من بيت جن وحضر، لا تتجاوز الخمسين رجلاً، والتجأت إلى موقع الحرش القريب من القرية، وقد عملت القوات الفرنسية كل جهدها، وضحت بأكثر من (٩) قتلى من جنودها حتى وصلت إلى مكان استشهاده ونقلته إلى حاملة جنود فرنسية، فرّت به إلى مواقع بعيدة عن القتال في «خان أرنبه» لتقله إلى دمشق.. فلم تصدق قيادة العمليات الفرنسية نفسها بأنها نالت من المجاهد الكبير الذي لو قدّر له أن يبقى لغير موازين كثيرة في مجرى الأحداث. ويبدو أن المعارك التي جاءت بعد استشهاد أحمد مريود قد فرضت فرضاً على الجانب الفرنسي لأنها أرادت أن توقف عمليات المعركة حيث تنتهي مهماتها القتالية بعد استشهاد الغريم الأول، والخصم القوي، وكانت ردود الفعل الفرنسية لا توصف، فأخذ القادة يهنئون أنفسهم من منطلق أن بموت مريود ستموت الثورة نهائياً. وعندما علم المستشار الفرنسي في القنيطرة بخبر استشهاد أحمد

مريود، سارع بإخبار المندوب الفرنسي في دمشق، وقد عبّر هذا الأخير عن سروره، فقام بإبلاغ حكومته في باريس وطلب منها السماح له «بتأديب» أهل الشام بعرض جثمان أحمد مريود ورفاقه الشهداء في مكان عام، ليكون عبرة لمن يعتبر من أهل سوريا؟! فنال الموافقة، وسجلت فرنسا على نفسها وصمة عار في بلد انتدابها.

لقد نزل خبر استشهاد المجاهد أحمد مريود كالصاعقة على رؤوس المجاهدين ولم يصدقوا الخبر، كما أنهم لم يستوعبوه، إلا بعد أن أكّد الخبر المجاهد عز الدين الجزائري، وولده حسين الذي كان يقاتل عند تلة تبتعد عنه قليلاً وشاهد استشهاد والده..

لقد عبّر كل واحد عن حزنه بطريقته الخاصة، فبعض المجاهدين، رفضوا الانسحاب من المنطقة، وقرروا الاستمرار بالثورة انتقاماً لروح المجاهد الذي قادهم بكل الوفاء والإخلاص، وضرب المثل الأعلى في ممارسة العمل القيادي حتى الموت، بل مات قبل أي واحد من ثواره، لأنه كان رمحهم الأول وكبش الفداء المتقدم القدوة الأكيدة لثورة تشمل سوريا كلها، لذا قرر أن يعمّد بدايتها بدمائه الزكية[1].

ففي دمشق، كانت ردود الفعل في مستوى الحدث، لقد خرجت دمشق عن بكرة أبيها تزغرد للشهيد أمير الجولان الذي تعملق

(١) ويعلم الثوار أنه رغب إلى لأمير عز الدين الجزائري الانسحاب لتنظيم الثورة في كل جنوب سوريا بداية بالغوطة وطلب إلى آخرين من كبار قادة الجهاد الانسحاب كذلك. ولم يلبِّ نداءاتهم بضرورة انسحابه لأنه قرر موقناً أن انبعاث الثورة يجب أن يبدأ باستشهاده ونخبة غالية ثمينة من قياديّ الجهاد في دمشق وريفها وفي الغوطة وأرجاء جنوب سوريا كلها. وهكذا كان واستمرت الثورة في كل أنحاء سوريا حتى ما بعد نهاية سنة ١٩٢٧.

بالشام وأهلها وبه تعملقت رمزاً خالداً للفداء العربي كانت دمشق حزينة، تذكرت شوارعها وحواريها جنود هولاكو، فما أقرب زمن القهر لبعضه وما أشبه اليوم الفرنسي بالأمس التتري، ودمشق دائماً الضحية، وأبطال سوريا دائماً هم كبش الفداء العربي. ولكن قيم الفداء الأصلية المغروسة جعلت دمشق تمسح دمعها وتزغرد. «بسمة الحزن الدمشقية» طلّت من نوافذ بيوتها العريقة ورسمت من دموع نسائها وأطفالها وشيوخها، جثمان البطل الراقد في ذاكرة التاريخ. وعجزت مياه بردى عن إزالة الدم الأحمر عن الجسد، ليبقى الدم يذكرنا بالثأر والانتقام والحرية. كانت دمشق، كل دمشق من ميدانها إلى أكرادها، عند جثمان الشهيد ترطّب جسده بماء الورد، وتكلل عنقه بالورد والياسمين، وتقرأ على روحه الطاهرة فاتحة النصر. وفازت دمشق من دون غيرها باحتضان المجاهد، وتزينت مقابر «حي عاتكة» بضيفها الجديد، وقبلت عشائر الجولان بالأمر الواقع راضية مزهوة، واستجابت عائلة مريود لرغبة أهل الشام، ليبقى المجاهد الشهيد علامة حمراء ناصعة في صفحات التاريخ الدمشقي العريق.. والتاريخ العربي المعاصر.

وفي الجولان وحوران، كان الحزن عاماً، لا أحد يجرؤ على تعزية أحد، فالمصاب واحد، والفقيد اكتسب شرعية الشمولية، وانتفت عنه خصوصية الانتماء العائلي والمناطقي، كما قال أهل الشام «لن نسمح لآل مريود بنقل جثمان الشهيد إلى جباثا الخشب لأنه شهيد الشعب كله».

وفي فلسطين.. لبست المدن الفلسطينية أثواب الحداد، وأعلنت الهيئات الشعبية والدينية استنكارها لمقتل المناضل أحمد مريود، ووصفته الصحف الصادرة في القدس بالرجل الذي يبحث عن

الموت من أجل استقلال بلاده، وقد رثاه الكتّاب والشعراء، وقالوا فيه الوصف الذي يستحقه، وخير وصف قاله شاعر فلسطين عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى»:

سليمى تعالي اندبي أحمدا   فها قد طوته أيادي الردى
أيجرؤ هذا المنون الخيف   على أحمد أن يمد يدا
قضيت تدافع عن جلق   وأنت تريد لها السؤددا

والأردن، حيث إخوته وأبناؤه رفاق العقيدة والجهاد على دروب الحرية والنصر، لم تكن أقل من غيرها، بل كانت أكثر حزناً وألماً، فله فوق أرضها ذكريات النضال، من شمالها حرّك العمليات الفدائية المتكررة ضد قوات الغزو الفرنسي، ومن قرى حدودها بعث بمناضليه لتأديب فرنسا باغتيال غورو.. ومن عاصمتها عمان كان القاضي والحكم العشائري والوزير إلى جانب رفاقه في العقيدة والجهاد رجالات حرب الاستقلال[٢]. وتجلى الحزن بأعظم صوره الإنسانية في قرية «كفرسوم» التي بكته حتى جفّ الدمع، ونادت عليه حتى بُحّ الصوت، ونحبته النساء كما نحبن من قبله رفيق عمره ونضاله في العهد العثماني الشهيد البطل كايد المفلح العبيدات أول شهيد من أجل عروبة فلسطين عام ١٩٢٠. لقد كان يوم ٣١ أيار/ مايو ١٩٢٦ يوم الشهيد أحمد مريود في كفرسوم وفي القرى المجاورة، فقد أصدر الشيخ تركي باشا العبيدات زعيم منطقة الكفارات (شمال الأردن) تعليمات بإعلان الحداد، ورفع الأعلام السوداء في كل بيوت قرى (كفرسوم - حرثا - يبلا - حبراص - الرفيد - عقربا) حداداً على وفاة الراحل

(٢) من أردنيين وعرب طيلة سنوات الحكم القومي العربي فيها والذي دام أربع سنوات حتى نهاية سنة ١٩٢٤.

العظيم أحمد مريود، كما توحدت المضافات في قرية كفرسوم لمدة عشرة أيام، فأصبح اللقاء اليومي في مضافة الشيخ تركي باشا العبيدات، يتلقى هو وأقاربه التعازي بالشهيد مريود، كما كانت خطبة يوم الجمعة التي جاءت بعد استشهاده في مسجد القرية عن مريود، وعدّد الخطيب الشيخ «العمري» مناقب الشهيد النضالية ووصفه «بابن كفرسوم وابن العروبة البار» وذكّر الحضور بأن أحمد مريود وثلاثمائة من رجاله رجال القومية العربية قضوا في كفرسوم سنوات طوال رفاقاً في العقيدة والجهاد وضيوفاً أعزاء.. وجاء في أوراق المرحوم تركي باشا العبيدات، أنه في العاشر من حزيران/ يونيو ١٩٢٦ ذهب إلى عمان لمقابلة الأمير عبد الله، وكان الحديث بينهما عن حياة المجاهد أحمد مريود، وعن الطريقة الشجاعة النادرة التي استشهد فيها، وقال الأمير عبد الله:

«أعرف يا باشا أنك بحالة حزن على صاحبك الكريم، وكنت أعرف عمق العلاقة بينكما، وقد أبلغني راشد باشا الخزاعي بأنكم أعلنتم الحداد في قراكم.. [هذه مخالفة] ولكن البطل القومي يستحق التكريم بارك الله فيكم الوفاء».

وذكر تركي باشا العبيدات، بأنه شكر الأمير علي حسن مواساته بالمجاهد البطل أحمد مريود، وخاطب الأمير عبد الله بقوله:

«يسعدني يا صاحب السمو أن تكون مواساتك لنا بأبي حسين حسَنة وأجراً وثواباً».

٨

نتائج ودلالات
معركة جباثا الخشب

مما تقدم، نرى أن فكرة اتخاذ جباثا الخشب عاصمة ثورة الإقليم، ثورة الجولان، ثورة سوريا وثورة العرب كما كان يحلو للزعيم الوطني أحمد مريود ورفاقه أن يسموها، وقد تطورت بفعل التخطيط والأحداث من ثورة سورية إلى ثورة وطنية لها بعدها القومي، ارتبطت نضالياً ومصيرياً بالثورات، على شمول ساحة القطر السوري بكل محافظاته لتعم كل المناطق السورية والمناطق اللبنانية معاً، وهي استمرارية لسلوك نضالي وعقائدي بدأه الزعيم مريود سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ بثورة عارمة أشعلها أيضاً من جباثا الخشب[١] وحتى مشارف النبطية في الجنوب اللبناني وعبر الأردن طيلة أربع سنوات من ١٩٢٠ - ١٩٢٤ فتركت بصمات للزعيم المجاهد في القنيطرة ومرجعيون وصور والحولة، أراد من جديد العودة إليها ومن جباثا الخشب

(١) ومن مثلث قرى زعورا وعين فيت وبانياس مقر القيادة الميدانية واللوجستية والتموينية والتي تعرض أهل هذا المثلث المجاهد الصامد من جراء ذلك إلى كل أذى ونقمة الاستعمار الإفرنسي، إنطلقت هذه الثورة العارمة وصدّتْ غزو الاستعمار الفرنسي وتصدت له في الجنوب حتى معارك صور المظفرة.

أيضاً، وهي تذكير حتى درجة التأكيد بأحداث خربة غزالة والزوية، وبكل العمليات الجهادية التي قام بها وأشرف على تنفيذها، ومن أهمها محاولة اغتيال الجنرال غورو، عند مشارف القنيطرة، وبالتالي يمكن اعتبارها رسالة موجهة إلى سلطة الانتداب الفرنسي، والانتداب البريطاني في فلسطين والأردن، التي أوقفت أعماله الجهادية بإبعاده عن الأردن القاعدة الأساسية والمتقدمة للمجاهدين سنة ١٩٢٤. من هنا تحكم على أن عقيدة الشهيد أحمد مريود كانت عقيدة وطنية قومية تنبع من الدور النضالي الذي قام به على مدى السنوات الأخيرة من الحكم العثماني، والذي تنامى عام ١٩١٢ وتعاظم عام ١٩١٥، عندما كان يشرف على نشاط ثوري وعلى تأمين الحماية والأمن للمناضلين المطاردين من قبل جمال باشا السفاح. لقد تصرّف من منطلق مسؤوليته كشخصية وطنية، ومن منطلق عقائديته كمناضل يعتز بشرف الانتماء القومي. فهو لم يقبل مطلقاً مؤامرة سايكس - بيكو ولم يرضَ المبرر لوعد بلفور، ولم يرد أن يسمع أن لوائح حقوق الشعوب والإنسان مزقتها حوافر خيالة أحفاد الثورة الفرنسية، وبالتالي لم يقتنع أن يبقى بعيداً عن الكفاح لنصر القضية القومية، مجاهداً في إطار العمل الميداني الحربي ومعارك العمل السياسي، وهي عمق سند حرب التحرير التي رفع لواءها مبكراً من سني شبابه الأولى مناضلاً ضد الهيمنة العثمانية لتحقيق استقلال القرار العربي. فرأى أن الحلول العملية والناجحة، تكمن في القوة، فهي اللغة التي لا يفهم سواها أعداء الوطن والأمة.. فقرر تجديد ثوب الثورة في الإطارين الوطني والقومي، وتحت شعار الثورة الدائمة الشاملة.

من هنا نجد أهمية ثورة الجولان الثانية ونتيجتها: معركة جباثا الخشب، وفعلها وحدثها استشهاد قائد الثورة وبطل الأمة في

تاريخنا العربي المعاصر بعامة والتاريخ العربي السوري بخاصة، كونها أول ثورة جددت شباب وفعالية الثورة السورية الكبرى، التي كادت أن تتوقف بعد انتكاسة ثورة الجبل الجنوبي ورحيل قائدها المناضل سلطان باشا الأطرش إلى الأردن، وانتكاسة ثورة أكروم وعكار وطرابلس، ورحيل قائدها المناضل الشهيد سعيد العاص إلى دمشق والغوطة ثم إلى الأردن..

فالدلائل والنتائج والدروس التي أفرزتها معركة «جباثا الخشب»، كفعل ونتيجة، هي أكثر من أن تعد، ولكن الإتيان على ذكر أبرزها وأكثرها تعبيراً عما حدث، من خلال رصد الوقائع وتقييمها تقييماً علمياً، يشكل مقدمة لا بد منها على طريق تثمين الوعي الوطني والقومي عند الجيل العربي الذي مضى، والذي كان له الفضل الكبير في دفع حالة النهوض الوطني لترقى بمستواها فيما بعد.. ومن بين النتائج والدلالات نذكر ما يلي:

أولاً: إن معارك جباثا الخشب وبيت ساير وبيت تيما وغيرها الكثير قبل المعركة النهائية في جباثا الخشب، جاءت نتيجة حتمية لفعل الثورة السورية ومساراتها على جبهات القتال المختلفة. وشكلت قفزة نوعية في تعزيز حالة النهوض الوطني، بعد حالات اليأس التي أصابت مواقع الثوار وبخاصة في الغوطة، والجبل، والشمال، وقد عبّر عن حالات اليأس هذه المجاهد سعيد العاص بقوله:

«سئمت البقاء في الغوطة وكثرة التجول فيها، وضاقت بي الأرض ذرعاً من عدم انتظام الأمور بسبب كثرة الرؤساء وتباين الآراء وعدم الاستمرار على خطط الأعمال الحربية»(٢).

---

(٢) صور من البطولة، سليمان الموسى، ص ١٤٦.

وفي الشمال (الضنية وعكار) تعرضت الثورة لانشقاقات بين الأهالي في أوائل شهر نيسان/ أبريل عام ١٩٢٦، بعد أن كانوا من خيرة المجاهدين، وقال العاص فيهم:

«إن أبناء الضنية من خيرة الشجعان وهم من الذين أقدموا على التضحية الكبرى باسم الحرية والاستقلال»

لكن وبكل أسف استطاع الفرنسيون أن يوقعوا بين الأهلين ويزرعوا بذور الشقاق، حتى توصلت الحالة إلى التآمر على حياة بعض قادة الثورة في مقدمتهم سعيد العاص(٣).

أما في ثورة جبل العرب فكانت الانتكاسة أكثر وأكبر عمقاً، بعد أن شن الفرنسيون هجوماً عاماً على قوات الثورة مستعينين بأنواع الأسلحة الفتاكة، فتمكنوا من احتلال جبل العرب، واضطر المجاهد سلطان باشا الأطرش، قائد ثورة الجبل والقائد العام للثورة السورية، ومعه (٥٠٠) مقاتل للنزوح إلى الأردن(٤) فيما بعد. من

(٣) المصدر نفسه.

(٤) لجأ سلطان باشا الأطرش ومعه عدد كبير من أعيان جبل العرب ورجال الثورة، فأقاموا أولاً في الأزرق ومنها انتقلوا إلى العمري، ثم إلى مواقع «حديثة» في وادي السرحان، وأخيراً نزلوا في الكرك، وظلوا فيها مع عائلاتهم حتى عام ١٩٣٧، عندما حصلت سوريا على الاستقلال الذاتي وعاد إليها المجاهدون.. ولم يزد عدد الرجال منهم عن خمسمئة. وعين الأمير عبد الله بن الحسين زيد الأطرش شقيق سلطان الأطرش مرافقاً فخرياً لسموه.

- وكانت الحكومة الأردنية قد أعلنت الأحكام العرفية في منطقة الأزرق بتاريخ ٣ نيسان/ أبريل ١٩٢٧ وصدرت الأوامر بأن تستخدم المنطقة ملجأ للنساء والأولاد ولغير المحاربين. ورغم أن الأهلين كانوا يعطفون على الثورة والقائمين بها، إلا أن الإنكليز كانوا يصرون على تعاطفهم مع الشركاء بالمؤامرة، ولذلك استبدلوا القوة العسكرية الأردنية التي كانت تقيم في الأزرق بقوة بريطانية لكي ينفذ المبدأ الانحيازي تنفيذاً كاملاً. وكانت سلطات الانتداب البريطاني تدعي أنها تقف على=

هنا يأتي تقييم ثورة الجولان ومعاركها من قبل كتّاب وزعامات تلك المرحلة، بأنها كانت السيف القاطع لحالات اليأس والتعثر، وأعادت للإنسان العربي وللمجاهدين بخاصة روحية الثورة وتجديد انطلاقتها ومن منظور ومنطلق قومي لا يعترف بالقطرية ولا يرى فيها سوى ميدان مناسب لتحقيق الأهداف القومية.

ثانياً: على الرغم من أن المعركة بين قوات المجاهدين وقوات الاحتلال الفرنسي، ومن معها من قوات مرتزقة، كانت غير متكافئة، لا بالرجال ولا بالمعدات العسكرية وصنوف الأسلحة، إلاّ أنها حققت انجازاً قتالياً رائعاً، وكانت النتيجة النهائية اندحار قوات الغزو الاحتلالي خارج حدود جباثا الخشب، وبخسائر قدرت بأكثر من سبعين قتيلاً مقابل (٤١) شهيداً من قوات المجاهدين، وفي مقدمتهم شيخ الجهاد والشهداء أحمد مريود.. ولو نفذت تعليمات وأوامر قائد الثورة بالدقة الكاملة لما كانت خسائر المجاهدين بهذا العدد ولكانت خسائر الجانب الفرنسي أكثر من ضعفي العدد، الذي خسره. فالخطة التي كانت تقضي بقطع

= الحياد من الصراع القائم وقتذاك بين الشعب العربي السوري الممثل بثورته المسلحة وقوات الانتداب الفرنسي.
ومن المعروف أن هذه الهجرة لسلطان باشا الأطرش إلى الأردن، هي الهجرة الثانية، إذ كانت الأولى يوم ١٧ تموز/ يوليو ١٩٢٢، على أثر مهاجمة قوة فرنسية من قبل رجال الأطرش وقتل جميع أفرادها، انتقاماً لإعدام أدهم خنجر الذي كان يستجير بسلطان الأطرش في منزله، وتمّ اعتقاله خلال فترة غياب الأطرش عن منزله، والأدهم كان أحد الرجال المتهمين بالاشتراك في محاولة اغتيال الجنرال غورو. وتبيّن ان هذا المجاهد الشاب لم يشترك فيها. كان شجاعاً وصاحب استراتيجية ناجحة نسقت بين ثورات الجولان وجبل عامل واتجه في حينه الى جبل العرب لإكمال الربط والتنسيق بين تلك الثورات الثلاث.

الطريق بين دمشق والقنيطرة عند قرية «الشوكتلية» لم تنفذ تماماً، بل أن سيارة غير مجنزرة تمكنت من اجتياز الحواجز بسهولة، كما أن قوات استطلاع المجاهدين المكلفة بمراقبة التحشدات الفرنسية ومدى اقترابها من مشارف وحدود القرية، كانت في تلك الليلة في غير مواقعها، بل زيادة على ذلك أنها كانت متغيبة تماماً، فعندما ذهب أبو صالح الكلاس لتفقد الحراسات، فوجىء بقدوم القوات الفرنسية باتجاه القرية دون أن تصل معلومات عنها من قبل تلك الحراسات إلى قائد الثورة الذي ينتظر إشارة من قبلهم ليكون في كامل جاهزيته القتالية، استعداداً لمنازلتهم من مواقع القوة والحذر، وتنفيذ الخطة المدبرة لتلك المنازلة المتوقعة والتي ينتظرها القائد أحمد مريود وأركان قيادته.. والمخالفة الكبرى التي استغلتها القوات الفرنسية المهاجمة، •أخذت تعبث قتلاً ونهباً في القرية، وعجّلت أيضاً استشهاد المقاتل أحمد مريود، هي تأخير قدوم النجدات من المواقع الأخرى، وبخاصة القوات التي كانت متواجدة في مجدل شمس وحضر بقيادة الأمير عادل، رغم أن المسافة كانت قصيرة جداً بين حضر وجباثا الخشب إذا قيست بالمسافة بين جباثا الخشب وبيت جن، ومع كل هذا وصلت طلائع القوات التي كانت في بيت جن قبل قوات حضر، وبعضها التقت معها في الطريق. وقد أكّد هذه المعلومات المجاهد الشهيد سعيد العاص في مذكراته عندما قال:

«فزحفت هذه القوى (القوة التي كانت في بيت جن) بسرعة البرق وقادها يونس عبد مريود وعيسى مصطفى مريود وخليل

مريود وأحمد بارافي، ثم اتحدت هذه القوة مع قوة أبو عبدو سكر، واستمروا على زحفهم، وتمكنوا من الاشتباك لفترة قصيرة مع الجند الفرنسي.. رغم أن قوة حضر كان بإمكانها الوصول قبل وصول نجدة بيت جن لأن المسافة أقصر..

ويتداول أهالي منطقة حضر معلومات مفادها أن المجاهدين عندما زحفوا من بيت جن لنجدة القوات التي تحارب في جباثا الخشب، فوجئوا بقوات الأمير إرسلان ويقدر عددها بألف مقاتل(٥) بأنها ما زالت مقيمة في حضر، ولم تسرع لنجدة المجاهدين في جباثا الجشب، وكان هذا الموقف ـ كما ذكرنا ـ موضع استغراب.

وتذكر المعلومات أيضاً أن المجاهدين خليل مريود وعيسى مصطفى مريود دخلا في نقاش حاد مع عادل إرسلان، وطلبا منه تحريك قوات حضر، قبل فوات الأوان، ووقوع ساعة الندم، وعندها لا ينفع العض على الأصابع. وذكر سعيد العاص، أن الأمير عادل، حاول إقناع المجاهدين بعدم الزحف على جباثا الخشب لتوفير الخسائر بالأرواح، وأكد لهم بأن المعارك انتهت والقوات الفرنسية انسحبت إلى مواقعها في القنيطرة.

وفي سياق الحديث عن تقصير الأمير عادل إرسلان، عن حسن نية أو خطأ في التقدير، ننقل بأمانة ما كتبه أدهم الجندي في كتابه «تاريخ الثورة السورية» وتحت عنوان «انسحاب الأمير عادل إرسلان من الإقليم».

«كانت قوات الأمير عادل إرسلان في الإقليم تقدر بـ(٦٨٠) مقاتلاً فارساً، وكان معه المجاهد شكيب وهاب.. وقد اجتمع في مزرعة عين البرج العائدة إلى خليل أبي حمد، مع ضابط فرنسي

---

(٥) ذكر أدهم الجندي أن قوات الأمير عادل إرسلان كانت تقدر بـ٦٨٠ مقاتلاً وليس ألف مقاتل. وهناك معلومة تقول إن قوات حضر كانت تقدر بـ٧٥٠.

بواسطة كنج أبو صالح بعد جليه من عرنة بسيارة خاصة، وقد بقيت أسرار هذا الاجتماع وما دار به مجهولة عن المجاهدين، وقد مانع شكيب وهاب فكرة الانسحاب إلى الجبل»[٦].

ويتابع أدهم الجندي حديثه عن مدى مشاركة الأمير عادل إرسلان بالمعارك بقوله:

«إن الأمير عادل لم يقم بأية مصادمة مع الفرنسيين، أثناء وجوده مع قواته في الإقليم، سوى وقعة «الفالوج» التي قام بها محمود كيوان خفية عن الأمير، ومعركة ثانية قام بها شكيب وهاب سراً دون علم الأمير. ولو أن الأمير... قام بحركات ثورية حاسمة عند الشدائد في الإقليم لما سقطت الغوطة، ولما كانت كارثة آل مريود على الصورة المعروفة»[٧].

---

(٦) أدهم الجندي، تاريخ الثورة السورية، ص ٤٣٨ (أنظر: مذكرات سعيد العاص).

(٧) أطلق عليها «كارثة آل مريود» نتيجة للخسائر البشرية والمادية التي منيت بها هذه العائلة المناضلة المكافحة في معركة جباثا الخشب، ويكفي أن نسميها بكارثة لأن الوطن والثورة وعائلة مريود خسروا القائد المجاهد أحد مريود رأس العائلة وزعيمها، هذا بالإضافة إلى استشهاد وجرح أكثر من خمسة مجاهدين، وخراب بيوتهم بعد أن دمرها ونهبها الجيش الفرنسي، ونزوح معظم أفراد عائلته وأسرته إلى فلسطين والأردن.

من هذا المنطلق اتهم الأمير عادل بالتقصير. لأن روحيته الثورية لم تكن بمستوى القائد الذي يجب أن يمارس العنف الثوري بعد معارك جباثا الخشب، تكريماً وثأراً للمجاهد مريود ورفاقه، بل كما يقول أدهم الجندي عندما اجتمع الشيخ ديب القديمي بالأمير «وطلب منه النزول إلى الغوطة لمؤازرة إخوانه المجاهدين، فأبى بحجة فقدان الإعاشة». والجدير بالذكر أن الإعانات كانت ترد إلى الأمير عادل عن طريق فلسطين بواسطة لجنة القدس، «ولو أن قادة الثورة نالوا قسطاً وافراً من المال.. لأصبح وجه الثورة المكفهر باسماً». ولهذا الغرض، ولعدة أغراض أخرى، حاول الأمير عز الدين الجزائري أن يلتقي به إلا أنه لم يفلح، وجرب الجزائري مرة ثانية عندما حاول ومعه المجاهد سعيد العاص اللقاء به في الحرش إلا أنه لم يجتمع بهما..

(لمزيد من المعلومات راجع كتاب: تاريخ الثورة السورية، للمؤرخ العربي السوري أدهم الجندي.

وكتاب سعيد العاص الذي يتحدث فيه عن استشهاد المجاهد أحمد مريود).

ثالثاً: كانت معركة جباثا الخشب بين تشكيلات المجاهدين وقوات الانتداب الفرنسي، ترجمة حقيقية لمفهوم الوحدة الوطنية، والعلاقات النضالية بين المجاهدين في كل من قرى الجولان وجبل الشيخ من جهة وقرى الغوطتين والدماشقة من جهة ثانية، وقد تعمدت هذه العلاقات بالدم الزكي الطهور، الذي سال من أجساد شريفة ومخلصة للوطن وقضيته المقدسة. وقد حدثني أحد كبار السن في قرية جباثا الخشب فقال:

«إن دور الدماشقة في ثورة أحمد مريود، وفي معركتها الكبرى جباثا الخشب لم يقل عن دور أبناء المنطقة، وأبطال الغوطة، واستطيع القول بجرأة وشجاعة أن معركة جباثا الخشب كانت معركة الدماشقة.. كانوا بمنتهى الإخلاص والتضحية لمبادىء الثورة والوطن، كما كانوا قدوة للمجاهدين في البذل والعطاء، وخير عطاء هو العطاء بالدم والروح، فهكذا كانوا أبطال دمشق (بعربها وأكرادها) وكذلك كانوا أبطال الغوطتين. وهذا الجميل لهم يحفظ في ذاكرة الناس عندنا، وعندما يكون حديثنا عن ذكريات الماضي، تذكر دائماً هؤلاء الأبطال، وقد استبسل مجاهدو آل العسلي الكرام الذين عرفت بطولاتهم ساحات الجهاد كلها أيما استبسال، كل في موقعه من ساح المعركة في جباثا الخشب، واستشهد منهم من استشهد، ونجا بأعجوبة المجاهد صبري العسلي، ولكثرة ما قدمت أسرة العسلي من شبابها شهداء فداء للوطن كانت تعرف بأسرة الشهداء»..

وقد كان ثوار دمشق والغوطتين وعلى رأسهم الامير عز الدين الجزائري صفوة القيادات الشابة، وبفقدهم خسرت الثورة السورية في كامل القطر ذلك الفكر والعنفوان الثوري المتميّز والذي يرقى بالجهاد الى مراتب النصر الحاسم.

رابعاً: لقد دلّت ثورة الزعيم الوطني الشهيد أحمد مريود، ومعاركها المتعددة، على أن المجاهدين كانوا على جانب كبير من الوعي السياسي، وقد ترجموا ذلك بالعمل الوطني والكفاح المسلح. فهؤلاء الذين يمثلون الرعيل الجهادي الأول، انطلقوا بكامل الإحساس القومي والوطني، وأرادوا بحركاتهم التحريضة التي تحولت إلى حركات ثورية بالسلاح، أن يؤكدوا للقوى الاستعمارية أن الإنسان العربي خلق بالفطرة على الحرية وأنه من أجلها، الموت أهون عليه من ذل العيش القاتل.

وفي معركة جباثا الخشب برزت وتعززت مكانة المجاهد أحمد مريود، كزعيم غير قابل للكسر أو الانكسار، وكان بكبريائه «الجبل الذي لا يهده ريح» فاستحق كل التسميات(٨).

ونستنتج ..

إن ثورة الزعيم أحمد مريود في الجولان، استمدت أسبابها الرئيسية من رفض الانتداب الفرنسي، ورغبة الشعب العربي السوري في التحرر والاستقلال والوحدة، وانبثقت من إرادة هذا الشعب المكافح الذي كتب بدماء المجاهدين أروع ملحمة في النضال القومي التحرري.

وهي ثورة وطنية جمعت الوطنيين من مختلف المناطق والفئات،

---

(٨) يطلق اسم الشهيد أحمد مريود على أحد شوارع دمشق الرئيسية، وعلى أحد الشوارع في عمان، كما حملت كبرى ثانويات القنيطرة اسمه ومدارس في دمشق وغيرها أيضاً.

وأرادها الشهيد مريود أن تكون بداية لثورة عربية، كما ظهر من توجهه برفع شعار الثورة الدائمة الشاملة.

أربعين ربيعاً كان عمره الزمني، وتألقت عبره ثورته العارمة، تلك الثورة الدائمة التي تعاقبت وتلاحقت فصولها منذ معاركة الأولى ضد الهيمنة العثمانية، ثم ضد الاستعمار الغربي البريطاني ـ الإفرنسي بيسالة نادرة، وكانت ساحاتها سوريا والأردن وشملت مصر والعراق والجزيرة العربية، وكانت أسلحتها البندقية والقلم. وقد عمَّ الحزن والاسى لاستشهاده جميع هذه البلدان. وكتبت صحافتها اليومية والأسبوعية الكثير معبّرة من فداحة الخسارة بفقد هذا الثائر العربي الفذّ قائد الثورة. وكانت لصحف القاهرة ومجلاتها، وهي الحاضرة العربية الكبرى، الدور الأهم في إبراز أهمية هذا الحدث الجلل ومدلولاته ونتائجه عربياً وعلى مساهمة الشعوب المكافحة ضد كل استعمار الغرب وزبانيته.

وكان استشهاد قائد الثورة أحمد مريود في معركة جباثا الخشب، المعركة ـ الثورة التي أرادها أن تكون باكورة الثورة المتجددة الشاملة، بعد أن حقق لها الحشد القتالي وأيقظ جذوة النضال في نفوس أبناء الوطن كله بعد أن تكاملت في ثورته هذه وعبرها كل الثورات السورية في الساحل والجبل، ومن شرق البلاد ومن غربها.

وقد كان لهذه الثورة المستمرة العمق القومي والإقليمي الآسيوي والدولي الفعال والنشط الذي تكاملت واتسعت آفاقه تضامناً وتعاوناً مع حقوق الشعب العربي المكافح، إلى أن تكلل جهاده بالاستقلال التام الناجز. لقد كان المجاهد أحمد مريود قائد الثورة كمثل رفيقه في الجهاد وأخيه في العقيدة الذي سبقه إلى الشهادة

(١٩٢٠) كايد مفلح عبيدات، من قافلة أولئك الأبطال، الذين جاهدوا وآثروا الموت في سبيل حرية أمتهم وحياة شعبهم، فكتبت لهم الشهادة وكان لأمتهم النصر الأغر.. وصدقت الأديبة العربية السورية ألفت عمر باشا الأدلبي، عندما قالت:

«كانت فداحة خسارة الثورة السورية، في شهداء معركة جباثا الخشب، بأنهم من خيرة الشهداء الشباب والمجاهدين الكبار المخضرمين، وأصحاب الخبرات الثورية والتنظيمية».

قصيدة الشاعر أبو سلمى

قصيدة الشاعر الكبير أبو سلمى الكرمي ابن الشيخ المناضل سعيد الكرمي من أعيان فلسطين عضو قيادة حزب الاستقلال يرثي فيها أحمد مريود شهيد الأمة العربية.

«فإما حياة لنا حرة»

سليمى تعالي أندبي أحمدا	فها قد طوته أيادي الردى
أيجرؤ هذا المنون الخيف	على أحمد أن يمد اليدا
عجبت لدهري يروح ويغدو	ويا ليت ما راح وما اغتدى
أأحمد تبكيك هذي الجموع	فقد كنت في قومنا الأوحدا
قضيت تدافع عن جلق	وأنت تروم لها السؤددا
رأيت بنيها تسام العذاب	وتطلب من بينهم منجدا
يساقون للقتل من غير ذنب	بطعن الحراب وضرب المدى
فكنت بذلك فخر الأماجد	أبطال قحطان طول المدا
لئن كنت غُيّبتَ طي الثرى	ووسدت بعد الهنا جلمدا
فروحك خالدة في السماء	كأني بها قد غدت فرقدا
تنير لقومي طريق الحياة	كأنك بدر الدجا قد بدا
تهيب بنا لامتشاق الحسام	وخوض المعامع كي نسعدا
فنم بهدوء وروّح فؤادك	إن المعارك لن تخمدا
فإما حياة لنا حرة	وإلاّ ... فهيا لكي نلحدا

الشاعر أبو سلمى

عبد الكريم الكرمي



١ ـ المجاهد أحمد مريود
عن غلاف مجلة «الناقد» ١٩٣٠



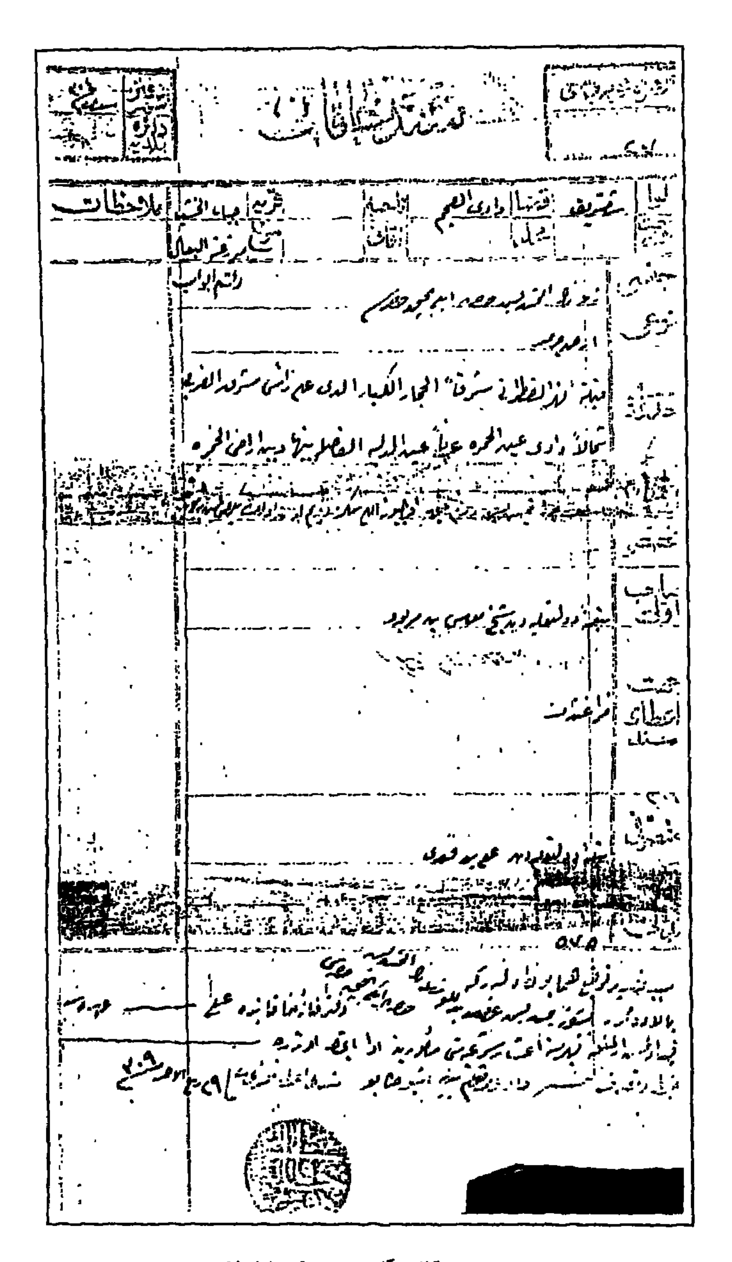
٢ ـ عمّان سنة ١٩٢١ الأسماء من اليمين الى اليسار:

الصف الأول الجالسون على الأرض «مجموعة من المرافقين وشباب الثورة»

الصف الثاني: عز العرب ـ فؤاد سليم ـ أحمد مريود ـ رشيد طليع ـ جميل المدفعي ـ ابراهيم هاشم ـ عادل ارسلان ـ تحسين الفقير ـ نبيه العظمة.

الصف الثالث الواقفون منهم: محمود الهندي ـ صبحي العمري ـ حسيب ذبيان ـ عبد الكريم العائدي ـ محمد الشريفي ـ محمد علي العجلوني ـ سامي السراج.

٣ ـ رسالة من آل مريود الى الشيخ كايد عبيدات



٤ ـ سند تملك آل مريود في الجولان

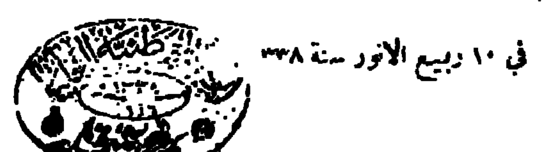
اللجنة الوطنية العليا

بدمشق

حضرة الوجيه المحترم

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فبما ان العدو قد داهم البلاد واصبح منا على قاب قوسين او ادنى فان اللجنة الوطنية تدعوكم للاجتماع معها في جلسة تعقدها الليلة بعد العشاء في القنوات عند سيدي عمار في دار السيد شكري الطباع للبحث في امور تتعلق بها حياة الوطن . فباسم الوطن نرجوكم ان تجيبوا دعوتها حالا والسلام عليكم

في ١٠ ربيع الانور سنة ١٣٣٨



٥ ـ صورة دعوة لأحد اجتماعات اللجنة الوطنية بدمشق
(من أوراق محب الدين الخطيب)

نظام

اللجنة الوطنية العليا

المادة الأولى :

تتألف اللجنة الوطنية العليا من سبعة وعشرين عضواً انتخبهم مساء الأربعاء خامس تشرين الثاني سنة ١٩١٩ ثمانية وأربعون ذاتاً يمثل كل واحد منهم حياً من أحياء العاصمة السورية الثمانية والأربعين ، وكل واحد من هؤلاء انتخبه مساء السبت أول تشرين الثاني سنة ١٩١٩ أربعة منتخبين من حيه . وهذه الأربعات منتخبة انتخاباً قانونياً من أحيائها في اجتماعات علنية عامة اشترك فيها جميع سكان الأحياء المذكورة بصورة علنية

المادة الثانية :

غاية الأمة من انتخاب هذه اللجنة الوطنية العليا بالصورة المتقدمة هي :

١ – اتخاذ كل الوسائل لحفظ وحدة البلاد السورية ، والذود عن استقلالها التام ، ومقاومة كل مبدأ يرمي إلى تأسيس قومية غريبة تهدد كيان البلاد السياسي والوحدة السورية

٢ – تعبئة كل قوى البلاد المادية والمعنوية ، وتنظيم تلك القوى ، وحسن الاستفادة منها في سبيل الغاية المشار إليها

٣ – إنماء روح القومية العربية

٤ – توثيق روابط التضامن والتساند فيما بين الأفراد والجماعات والطوائف

٦ ـ صورة صفحة من نظام اللجنة العليا
(من أوراق محب الدين الخطيب)

٧ ـ صورة مسودة احتجاج فيصل إلى غورو
لتدخل الفرنسيين بالمسائل الدينية في لبنان

أستاذي المجاهد العلامة الشيخ كامل القصاب

أنت أوقفت نفسك لخدمة هذه الأمة وسعادتها ولهذا
وأنت فلا تستغرب مني إذا كاشفتك أن تضمد جرح فؤادي الحزين
الذي سببه حلول عيد الفطر ونحن بعيدون عن سوريا والإفرنج [illegible]
بها وقد تعالجه ببلسم جميل كلمة من عندك فيها للشبان الأوفياء روح
الأمل والعمل لهم. أنت خطيب [illegible] ومحور حركة الشبان فأدر بها
فديتك دورة تسر الصديق وتقطع العدو وتلاشي بدوراتها هذه
الدورة الأيدي العاملة المتفقة الخالصة فأنت لها من العزم
الروحي والله مقيلك. لا شيء نعرقله ذلك في روحك أنشط
الأمة الأبي متمرداً على ساعدك عاملاً بهمتك التي
لم تعرف الكلل. أنت النقمة لسوريا كخاطبها إذا [illegible]
ضعاف [illegible] قائلاً أبشري يا سوريا الحبيبة فإننا منقذوك
قبل حلول الموسم القادم

أستاذي إنني يهديك أنت ومولانا وحسنا فائق تحياته
وفائق الاحترام فتقبلوه مني فإني صديقكم المخلص

١ شوال ١٣٣٩

أحمد مريود

٨ ـ رسالة من أحمد مريود إلى الشيخ كامل القصاب
يوم الأربعاء ١ شوال ١٣٣٩ الموافق ٨ حزيران ١٩٢١

الوثائق

١ ـ المجاهد أحمد مريود عن غلاف مجلة «الناقد» ١٩٣٠.

٢ ـ مجموعة من شباب الثورة في عمان ١٩٢١.

٣ ـ رسالة من آل مريود الى الشيخ كايد عبيدات تعلمه بوفاة أحمد مريود.

٤ ـ سند تملك يؤكد ملكية آل مريود في الجولان قبل تنازلهم عن المزارع الست.

٥ ـ صورة دعوة لإحدى اجتماعات اللجنة الوطنية بدمشق.

٦ ـ صورة صفحة من نظام اللجنة الوطنية العليا.

٧ ـ صورة مسودة احتجاج فيصل إلى غورو لتدخل الفرنسيين بالمسائل الدينية في لبنان بعد معارك مرجعيون خلال ثورة مريود ١٩١٩.

٨ ـ رسالة من أحمد مريود إلى الشيخ كامل القصّاب يوم الأربعاء ١ شوال ١٣٣٩ هـ الموافق ٨ حزيران ١٩٢١.

المصادر والمراجع

أولاً ـ المراجع العربية

انطونيوس، جورج يقظة العرب

برو، توفيق علي. العرب والترك في العهد الدستوري العثماني.

حتي، فيليب. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين

الحصري، ساطع. البلاد العربية والدولة العثمانية.

موسى، سليمان. صور من البطولة

عبيدات، محمود. سيرة الشهيد كايد مفلح العبيدات.

طلاس، مصطفى. الثورة العربية الكبرى.

سلطان، د. علي. تاريخ سوريا ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ حكم فيصل

دروزة، محمد عزة. حول الحركة العربية الحديثة ـ الجزء الأول.

موسى، سليمان والماضي، (منيب). الأردن في القرن العشرين

رافق، عبد الكريم. العرب والعثمانيون

زيدان، جورجي. بناء النهضة العربية

غرايبة، عبد الكريم. سوريا في القرن التاسع عشر

السفرجلاني، محيي الدين. تاريخ الثورة السورية

عبيدات، محمود. **الأردن في التاريخ - ج١**

موسى، سليمان. **الحركة العربية ١٩٠٨ - ١٩٢٤**

هندي، إحسان. **كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨ - ١٩٤٨**

سعيد، أمين. **الثورة العربية الكبرى، النضال بين العرب والفرنسيين والإنكليز**

العزيزي، روكس. **معلمة التراث الأردني**

العاص، محمد سعيد. **صفحة من الأيام الحمراء**

قاسمية، خيرية. **مذكرات فوزي القاوقجي**

بيك، فردريك. **تاريخ شرق الأردن وقبائلها**

شارم، جبرائيل. **رحلة إلى بلاد الشام**

الزركلي، خير الدين. **الأعلام**

الأعشى، صبحي. **مسالك الأبصار ج١**

خير، د. صفوح. **إقليم الجولان**

لوتسكي. **تاريخ الأقطار العربية الحديثة**

أنجلس، فردريك. **القضية التركية**

الجندي، أدهم. **شهداء الحرب العالمية الأولى**

ابن الحسين، الملك عبد الله. **الأعمال الكاملة**

موسى، سليمان. **المراسلات التاريخية ج ١**

السفرجلاني، محيي الدين. **فاجعة ميسلون والبطل يوسف العظمة**

موريس، جيمس. **الملوك الهاشميون**

ابن الحسين، الملك عبد الله. **الأمالي السياسية**

سعيد، ناصر. **تاريخ آل سعود ج ١**

البعيني، د. حسن. **دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي**

أبو راشد، حنا. **حوران الدامية**

قرقوط، ذوقان. تطور الحركة الوطنية في سوريا
قنطار، سيف الدين. وثائق وبيانات الثورة السورية
سعيد، أمين. الثورة العربية الكبرى ج ٣

ثانياً ـ المذكرات

الحكيم، حسن. مذكراتي
الحصري، ساطع. يوم ميسلون
داغر، أسعد. مذكراتي على هامش القضية العربية
الشرابري، علي خلقي. مذكراتي ٤ أجزاء، مخطوط
الغصين، فايز. مذكراتي عن الثورة العربية
القاوقجي، فوزي. مذكرات ج ١ إعداد خيرية قاسمية
قدري أحمد. مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى
كرد علي، محمد. خطط الشام ج ٣

ثالثاً: الأوراق

أوراق تركي الكايد
أوراق جولانية عن آل مريود
أوراق علي خلقي
أوراق نسيب البكري

وهناك عشرات المراجع من مجلات وجرائد ووثائق ومقابلات شخصية ومقالات صحفية، ودراسات فكرية، وجميعها مثبتة في حواشي الكتاب..

فهرس الاعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

غ

ن

هـ

و

ي

فهرس الاماكن

ت

ج

ح

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

محمود عبيدات

أحمد مريود

١٨٨٦-١٩٢٦

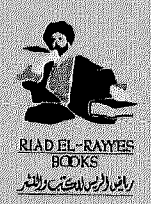
مطلع هذا القرن بدأت يقظة العرب.
وقامت ثورات وانتفاضات ضد الاستعمار
في شتى الأقطار العربية.

بداية أخذ الأمر شكل التململ من نير الاستبداد
العثماني في الصحافة والسياسة والأدب،
ثم تفاقم بثورات مسلحة ضد الاستعمارين
الفرنسي والإنكليزي.

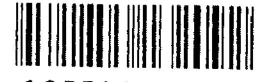
يروي هذا الكتاب صفحات مشرقة من ثورة
الزعيم العربي أحمد مريود، ويلقي الضوء على
شخصيته وسيرته النضالية بشهادات الملك فيصل
والمؤرخين وبعض المعمرين ممن عاصروه.

في هذه السيرة المشتعلة تتبدى مدينة دمشق
كعاصمة أبدية للكرامة العربية، ونعاين مجاهدي
الجولان، وتمر محاولة اغتيال الجنرال غورو وقصة
إعدام أدهم خنجر، وتتناهى أنباء معركة ميسلون
وأخبار الشريف حسين، وتكر أسماء مثل
تركي باشا العبيدات ونوري السعيد ورضا
الركابي وعادل أرسلان وغيرهم.

كل ذلك في أسلوب مشوق مضطرم،
تشعر معه أن حادثة استشهاد أحمد مريود
قد جرت البارحة.



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر



1855132095